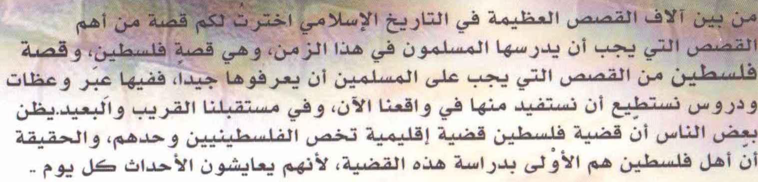

القدس
قناة القدس الفضائية
AL Quds sattelite Chanel
خطّ الزمن
قصّة فلسطين
منذ ظهور الإنسان إلى زماننا
فلسطين
الدكتور
راغب السرجاني
الفرسان
للنشر والتوزيع
BOXOK



الدكتور
راغب السرجاني

من بين آلاف القصص العظيمة في التاريخ الإسلامي اخترتُ لكم قصة من أهم القصص التي يجب أن يدرسها المسلمون في هذا الزمن، وهي قصةِ فلسطينِ، وقصة فلسطين من القصص التي يجب على المسلمين أن يعرفوها جيدا، ففيها عبَر وعظات ودروس نستطِيع أن نستفيد منها في واقعنا الآن، وفي مستقبلنا القريب والَبعيد.يظن بعِض الناس أنّ قضية فلسطين قضية إقليمية تخص الفلسطينيين وحدهم، والحقيقة أنّ أهل فلسطين هم الأوْلى بدراسة هذه القضية، لأنهم يعايشون الأحداث كل يوم ..

ولكن يا إخواني وأخواتي هذه قضية إسلامية عامة، قضية تهم كِل المسلمين، فقضية فلسطين هي في المقام الأول قضية عقيدة، وقضية العقيدة تعني أن المسلم لا يستطيع أن يعيِش بدونها، ففلسطين قضيِة كل مسلم واع لدينه، ولما قاله ربنا في كتابه، ولما نصّ عليه حبيبنا ﷺ في سنته المطهرة، ولمًا فعله الصالحون والمجاهدون والعلماِء من أبناء هذه الأمة في كل مراحل التاريخ الإسلامي. يثبت لنا عبر دلائل كثيرة أنّ هذه الأرض مقدسة، فهِي أوّل قبلة للمسلمين، وهي ثالث الحرمين، وفيها المسجد الأقصى الذي لا تشدّ الرحال إلا إليه وإلى المسجد الحرام فيِ مكة المكرمة وإلى مسجد الحبيب ﷺ في المدينة المنورة، وهي أرض مباركة بنصّ القرآن الكريم في أكثر من موضع. ومن أسباب اختيارنا لقصة فلسطين، أننا بَقصَة فلسطين ندرس التاريخ الإسلامي كله، فكل مراحل الأمة الإسلامية مرت بهذه الأرض، منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكل الدول التي حكمت بالإسلام، كما سنمر على كل مراحل التاريخ الإنساني وليس الإسلامي فحسب، سنعرف تاريخ الفرس من تاريخ فلسطين، وتاريخ الرومان والإغريق والآشوريين والبابليين والفراعنة، بل إننا سنمر على تاريخ العالم الحديث، كتاريخ إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا من خلال قصة فلسطين ...

فكل دول العالم كان لها تقاطع في مرحلة من مراحلِها مع تاريخِ هذه الدولة العظيمة المباركة. كما أننا ندرس قضية فلسطين لأن التشويه فيِها أكبر من أي قِضية أخرى، فالصهاينة يملِكون طاِقة إعلامية جبارة، وبسبب هذه الطاقة الإعلامية شوّه تاريخ فلسطين تشويها كبيرا، عند المسلمِين وغير المسلمين، ومن أجل كل ذلَك سنقدم هذا الكتاب، والأهداف كبيرة جدا من وراء **قصة فلسطين**.





مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

عمان - العبدلي - هاتف 5607386 6 962+
فاكس 5653470 6 962+ خلوي 95208684 7 962+
Email:alfursan111@yahoo.com

ISBN 9789957606206
9 789957 606206

خطّ الزمن

قصّة فلسطين

منذ ظهور الإنسان إلى زماننا

فلسطين

د. راغب السرجاني

الفرسان
للنشر والتوزيع



القدس
قناة القدس الفضائية
AL Quds sattelite Chanel

الكتـــــــاب: قصّة فلسطين منذ ظهور الإنسان إلى زماننا (خط الزّمن)

المؤلـــــف: د. راغب السرجاني

إنتـــــاج: قناة القدس الفضائية

التصميم والإخراج: أنسام للتصميم - عمّان +962 79 575 22 40

المراجعة والتدقيق: إيـــــاد القيسي

الإشراف العـــام: م. حسن صالـــح

إنتـــاج:
قناة القدس الفضائية





الطبعة الأولى 2015م - 1436هـ

رقم الإيـــداع 280/01/2015

ردمك ISBN 9789957606206

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

الأردن - عمـــان - العبدلــــي
هاتف: ٩٦٢ ٦ ٥٦٠ ٧٣٨٦ +
فاكس: ٩٦٢ ٦ ٥٦٦ ٣٤٧٠ +
صندوق بريد ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

Jordan - Amman-Abdaly
Tel. +962 6 560 73 87
Fax.+962 6 565 53 70
P.O.Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail:alfursan111@yahoo.com



الفهرس

المقدمة

جاءت فكرة خط الزمن لنتكلم عن أجزاء في غاية الأهمية من تاريخ الأمة الإسلامية، وتاريخ الأمة الإسلامية تاريخ كبير وعظيم جداً، ومليء بالكنوز والثروات التي لا تنتهي عجائبها، ومن وسط التاريخ الإسلامي، ومن آلاف القصص العظيمة في التاريخ الإسلامي اخترتُ لكم قصة من أهم القصص التي يجب أن يدرسها المسلمون في هذه الآونة، وهي قصة فلسطين، وقصة فلسطين أحسب أنها من القصص التي يجب على المسلمين أن يعرفوها جيداً، فكل جزئية من جزئيات القصة فيها عِبَر وعظات ودروس نستطيع أن نستفيد منها في واقعنا الآن، وفي مستقبلنا القريب والبعيد.

بدايةً.. قد يتساءل أحدنا: لماذا ندرس التاريخ أصلاً؟! وأنا أقول: إنّ هذا أمر مباشر من ربنا سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ فهو أمر مباشر من الله أن نقصّ القصة، وأن نحكي الحكاية، ونروي الرواية، ثم إنّ التاريخ يتكرر، فالأحداث التي حدثت من قبل سنة أو اثنتين أو عشرة، أو من عشرة آلاف سنة تتكرر الآن، لأنّ الله سبحانه وتعالى له سنّة في الأرض لا تتبدل ولا تتغير، يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

ويقع المسلمون في الخطأ مرة واثنتين وعشرة لأنهم لا يقرؤون التاريخ. فمثلاً نحن كأطباء لكي نستطيع أن نعالج المريض يجب أن نعرف تاريخه، ماذا حدث له في السنة الماضية؟ وماذا حدث له قبل عشر سنين؟ أين عاش؟ وأين انتقل؟ وما الأعراض التي يشتكي منها الآن ومن قبل؟ كل ذلك لنتمكن في النهاية من وصف العلاج السليم.

وفلسطين لديها الآن الكثير من المشاكل، والفضائيات الآن تنقل كل الأحداث، والحل يا إخواني وأخواتي لما يحدث في فلسطين، موجود في كتاب الله عز وجل وفي سنّة حبيبنا ﷺ، وبقراءة التاريخ، تاريخ فلسطين، وتاريخ كل الأمم المعاصرة والأمم السابقة، ولعل في كل لحظة من لحظات هذا التاريخ قد نجد فائدة، وقد أضع يدي على وسائل حل لهذه المشكلة التي يعاني منها المسلمون الآن في فلسطين وفي غير فلسطين.

يظن بعض الناس أنّ قضية فلسطين هي قضية إقليمية، ويعتقدون أنّ كلامي هذا موجَّه لأهل فلسطين، وبالطبع أهل فلسطين من الأَوْلى أن يدرسوا هذه القضية لأنهم يعايشون الأحداث كل يوم، ولكن يا إخواني وأخواتي هذه قضية عامة، قضية تهم كل المسلمين. اذكر في إحدى المرات كنتُ في محاضرة في مدينة الإسكندرية، وفي هذه المحاضرة كنتُ أتحدث عن قضية فلسطين ودور المسلمين نحو قضية فلسطين، فأرسلت لي إحدى الأخوات رسالة بلهجة شديدة تقول فيها: لماذا نتحدث عن فلسطين ونحن لدينا من المشاكل في مصر الكثير والتي نحتاج أن نتكلم عنها؟ فقلتُ لها: «**أليست قضية فلسطين هي قضية المسلمين في مصر وفي غير مصر**» ، وحصل نوع من الجدل الطويل. فالكثير من المسلمين لا يعتبرون قضية فلسطين قضية المسلمين، بل يعتبرونها قضية الفلسطينيين فقط، وهذه مشكلة تحتاج منا إلى مراجعة، ففلسطين قضية كل مسلم واعٍ لدينه، ولما قاله ربنا في كتابه الكريم، ولما نصّ عليه حبيبنا ﷺ في سنّته المطهرة، ولما فعله الصالحون والمجاهدون والعلماء من أبناء هذه الأمةِ في كلّ مراحل التاريخ الإسلامي.



لماذا ندرس قضية فلسطين؟

قضية فلسطين في المقام الأول هي قضية عقيدة؛ وقضية العقيدة تعني أنّ المسلم لا يستطيع أن يعيش بدونها، لماذا يقول اليهود أنّ أرض فلسطين لهم؟! لأنها قضية عقيدة، لماذا يتمسك اليهود بأرض فلسطين ولا يرضون عنها بديلاً؟! لأنهم يقولون: **هكذا نصّت توراتنا**، مع أنّ التوراة محرّفة وفيها العديد من المشاكل، إلا أنهم يتمسكون بحقّهم كما يزعمون، ففلسطين قضية عقيدة، ونحن نقول كذلك أنها قضية عقيدة بالنسبة لنا، فهي قضية عقيدة مقابل عقيدة، عقيدة إسلامية صحيحة ختم الله عزّ وجل بها الأديان، وعقيدة محرَّفة، وكلّنا يعلم مسلماً وغير مسلم أنّ التوراة حُرِّفت بعد موسى عليه السلام، وأنّ الإنجيل حُرِّف بعد عيسى عليه السلام، والكتب التي أُلِّفت في هذا المجال أكثر من أن تُحصى، ومع ذلك نحن نقول: **إنّ فلسطين هي قضية عقيدة إسلامية** بالأدلة وبالبراهين وبالحجج، ولا نقول هذا كلاماً اعتباطياً أو عشوائياً، بل عندنا ما يثبت أنّ هذه العقيدة هي العقيدة السليمة الصحيحة.

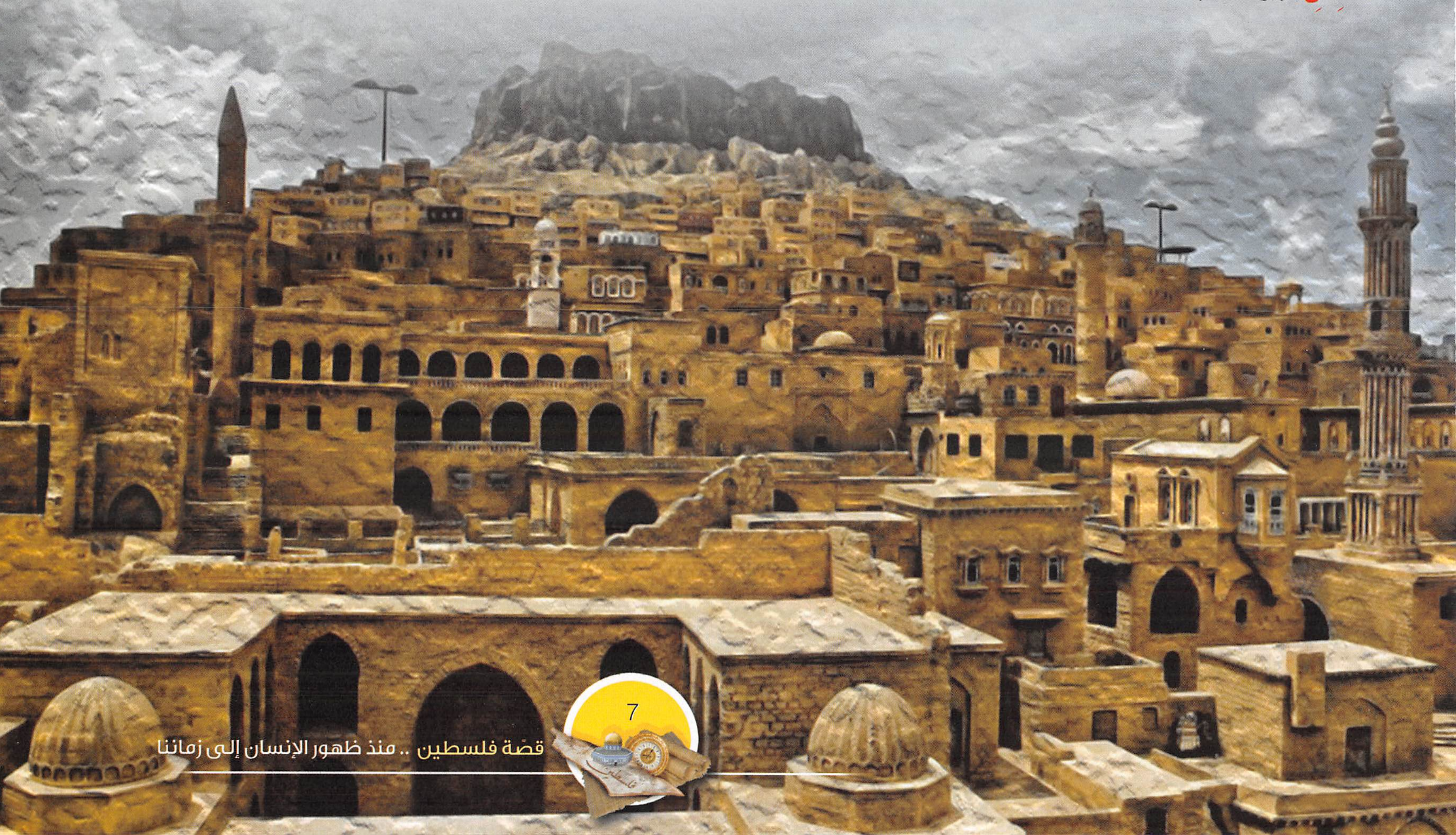
في عقيدتنا أنّ أيّ أرض حُكمت بالإسلام ولو لفترة من الفترات، تصبح أرضاً إسلامية، وفلسطين حُكمت بالإسلام منذ سنة 16هـ، أي منذ بداية عهد الإسلام، فهي منذ أكثر من 1400 سنة إسلامية، وستظل في شريعتنا وعقيدتنا إسلامية إلى يوم الدين، سواء حُكمت في فترة من فتراتها بالإنجليز، أو بالفرنسيين، أوحُكمت باليهود، أو حُكمت بأي دولة من دول العالم، وأنها إن سُلبت من المسلمين في يوم من الأيام، فإنّه لا بدّ بل ويجب على المسلمين أن يعيدوها إلى حوزة الإسلام. هذه هي عقيدتنا وهذه شريعتنا، ولا تبديل لكلمات الله عز وجل.

الفقه الإسلامي يقول إنّه إذا سُبيت امرأة واحدة من دولة من دول الإسلام، فُرِضَ على أهل هذه الدولة أن يحرروها، فإن لم تستطع الدولة أن تحررها وَجَبَ على الأقطار المحيطة بهذه الدولة أن يحرروها، فإن فشلوا في ذلك وَجَبَ على الأقرب فالأقرب حتى يأتي بذلك على أهل الإسلام جميعاً. هذا إن سُبيت امرأة واحدة، وهذا موجود في كتب الفقه واجتمع عليه علماء الأمة جميعاً، ولا يوجد مذهب خالف في هذه القضية في تاريخ الإسلام، فما بالك بشعب كامل تُنتهك حرمته، وتُدمَّر دياره، وتُسحب منه ثرواته وأملاكه، ليس لعام أو عامين بل لسنوات طوال؟! هذه قضية يجب أن تشغل كل المسلمين، فهذا جزء من الدين سيضيع إن فرَّط المسلمون في أرض كأرض فلسطين، أو أي أرض محتلة، إن كانت فلسطين أو العراق أو الشيشان أو كشمير، أو أي جزء من أراضي المسلمين، بل وفوق كل هذا فإنّ قضية فلسطين هي قضية خاصة، ففلسطين ليست أي أرض إسلامية احتُلت وَجَبَ على المسلمين أن يحرروها، بل الوجوب في هذه الأرض آكد وأوجب، لأنّ الله سبحانه وضع في هذه الأرض مقومات كثيرة جعلت هذه الأرض مقدسة عند كل المسلمين، ولا ينكر ذلك صغير أو كبير، رجل أو امرأة، قريب أو بعيد، عربي أو غير عربي، **كل أطياف المسلمين يؤمنون بأنّ هذه الأرض أرض مقدسة.**

فلسطين

سنثبت معاً عبر تفاصيل كثيرة أنّ هذه الأرض مقدسة، فهي أوّل قبلة للمسلمين، وهي ثالث الحرمين، وفيها المسجد الأقصى الذي لا تُشدّ الرحال إلا إليه وإلى المسجد الحرام في مكة المكرمة وإلى مسجد الحبيب ﷺ في المدينة المنورة، وهي أرض مباركة بِنَصِّ القرآن الكريم في أكثر من موضع، وسنمر على آيات كثيرة في قصتنا تثبت لنا أنّ هذه الأرض هي أرض مباركة بالقرآن وبالسنّة، ومباركة بالصحابة الذين عاشوا فيها، ومباركة بالجهاد في سبيل الله عز وجل، ومباركة بالغزوات الكثيرة والمعارك الهائلة التي تمت على أرض هذا البلد الطاهر المبارك فلسطين.

كما جعل الله البركة في أهلها إلى يوم القيامة، قال الرسول ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ، لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ**» (رواه أحمد)





أي في القدس وما حول القدس، وهي أرض فلسطين، وهذا كلام حبيبنا ﷺ. وإسرائيل) هي الدولة الأولى التي عملت توثيقاً للعلاقات مع جمهوريات العالم الإسلامي المتحررة من الاتحاد السوفييتي كأوزباكستان وكازخستان وأذربيجان، وبلاد كثيرة كانت تحت سيطرة الاتحاد السوفييتي، وبعد أن خرجت من الاتحاد السوفييتي كانت إسرائيل أول من أقام تحالفات مع هذه الدول لضرب العالم الإسلامي في أعماقه. نضيف إلى ما سبق الاحتلال اليهودي لفلسطين، وهو أخطر من احتلال أميركا للعراق أو لأفغانستان، ومن احتلال روسيا للشيشان، ونحن لا نصغّر من أنواع الاحتلال الأخرى، ولكن سياسة الاحتلال في فلسطين تختلف عن بقية العالم الإسلامي، ووجه الاختلاف أنّ سياسة الاحتلال اليهودية هي سياسة استيطان، أي سياسة احتلال شعوب وليست سياسة احتلال جيوش، فلا يذهبون إلى البلد بجيش ليأخذوا الثروات ثم يعودون كما تفعل أي دولة في احتلالها، لا.. بل إنهم يذهبون بأولادهم ونسائهم وتجارتهم وأعمالهم ويستوطنون في البلد، ليس هذا فقط، بل إنهم يُخرجون أهل البلد الأصليين منها، ولهذا يرفض اليهود كلّ الرفض حقّ العودة للفلسطينيين؛ لأنّ معنى عودة الفلسطينيين إلى أرض فلسطين، أن يختلّ ميزان التركيبة السكانية فيغلب عدد الفلسطينيين على عدد اليهود، وهذا ضدّ السياسة اليهودية، وعندما تكررت هذه السياسة في العالم حصلت تقلبات كبرى جداً ما كنا لنتخيلها. لماذا تعيش أميركا الآن باستقرار مع أنّ هذه الأرض كانت قبل ذلك مملوكة للهنود الحمر؟ رغم أنّ الهنود الحمر عاشوا فيها قبل ذلك لمئات السنين، هذا يحدث بسبب سياسة الاستيطان، فعندما احتل الأميركيون هذه الأرض قتلوا سكانها الأصليين، ومع مرور الوقت أحلّوا مكانهم البشر الذين جاؤوا بهم من أوروبا، وبمرور الوقت أصبحت تلك البلاد أمريكية، وأصبحت البلاد الأندلسية إسبانية أو برتغالية ثم انتهت القضية، وهذا ما نخشاه أن يحدث في أرض فلسطين، ولهذا نحن الآن ندرس قضية فلسطين حتى نفهم جميعاً هذه القضية.

ومن أسباب اختيارنا لقضية فلسطين، أننا **بقضية فلسطين ندرس التاريخ الإسلامي كله**، وكما قلنا من قبل بدأت قضية فلسطين منذ عام 16هـ، عندما دخل المسلمون إلى هذه الأرض العظيمة وفتحوها بالإسلام، وكل مراحل الأمة الإسلامية مرت بهذه الأرض، منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكل الدول التي حكمت بالإسلام، فللدولة الأموية تاريخ في أرض فلسطين، وللدولة العباسية تاريخ في أرض فلسطين، وكذلك للدولة الزنكية والأيوبية تاريخ في أرض فلسطين، وكذلك للسلاجقة والمماليك والدولة العثمانية، فنحن حين ندرس قضية فلسطين فكأننا مررنا على كل التاريخ الإسلامي، والأغرب من هذا أننا سنمر على كل مراحل التاريخ الإنساني وليس الإسلامي فحسب، سنعرف تاريخ الفرس من تاريخ فلسطين، وكذلك تاريخ الرومان والإغريق والآشوريين والبابليين والفراعنة، بل إننا سنمر على تاريخ العالم الحديث، كتاريخ إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا من خلال قصة فلسطين، فكل دول العالم كان لها تقاطع في مرحلة من مراحلها مع تاريخ هذه الدولة العظيمة المباركة؛ أرض فلسطين «المباركة» كما سمّاها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. ولهذا وضع الله في هذه الأرض كل هذه المعاني الجميلة الراقية السامية عند المسلمين، كَمَسرى الرسول ﷺ، وقبلة المسلمين، وثالث الحرمين، والصلاة في مسجدها الأقصى بخمسمائة صلاة، لماذا كل هذا؟ لأنّ الله يعلم أنّ أهل الأرض جميعاً سيطمعون في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، رغم أنها 26 ألف كيلومتر مربع، إلا أنها غالية جداً عند أهل الأرض جميعاً، ولذلك زرع الله عز وجل حبّ هذه البلاد في قلوب المؤمنين، حتى يدافعوا عنها ضد أي معتد من أي بلد كان.

كما أننا **ندرس قضية فلسطين لأنّ التشويه فيها أكبر من أي قضية أخرى**، فاليهود يملكون طاقة إعلامية جبارة، وبسبب هذه الطاقة الإعلامية شُوِّه تاريخ فلسطين تشويهاً كبيراً، عند المسلمين وعند غير المسلمين، ولنعلم أنّ اليهود يملكون طاقة إعلامية على كل المستويات كوكالات الأنباء على سبيل المثال، وأنا هنا أسألكم عن أشهر وكالة أنباء عالمية؟ الجميع سيقول: رويترز (Reuters) وهي يهودية، أسوشيتد برس (ssociated Press) وهي يهودية، هافاست الفرنسية (Havas)) وهي يهودية، وكذلك أشهر الجرائد الأمريكية مثل مجلة التايمز (The Times) ونيوزويك (Newsweek) وواشنطن بوست (Washington Post) ومجلة ستار الفنية (-Star magazine) المساهم الأكبر فيها يهودي، حتى مجلة فرايتي ((Variety الفنية هي مجلة يهودية، وقد كانت أيام الانتخابات تستطلع آراء الممثلين والممثلات وأهل الفن جميعاً فيمن يقود البلاد، وتؤثر على الرأي العام الأمريكي، وإن كانت مجلة فنية، لكن لها تأثير مباشر على السياسة الأمريكية.

أشهر مجلة إنجليزية وهي (مجلة التايمز) يملك معظمها روبرت موردخ وهو يهودي، وأشهر شبكات التلفزيون: NBC, CNN ABC, CBS، فلليهود مساهمة كبيرة جداً في هذه القنوات، وبعضها مملوك ملكية تامة لليهود، وشركات دور النشر في أمريكا 50% منها مملوكة لليهود، والشركات المنتجة للأفلام مثل: متروغولدن ماير(Metro Goldwyn Mayer) يهودية، وفوكس ((FOX) يهودية، وارنر براذرز (Warner Bros) يهودية، والأفلام التي تنتجها تؤثر على عقليات وأفكار العالم كله في الشرق والغرب، من المسلمين وغير المسلمين، وتستطيع أن تحرِّف ما تشاء في تاريخ اليهود والمسلمين وفي تاريخ البشرية، حتى ديزني (Disney) التي تنتج برامج وأفلام للأطفال، وكنت قد زرت أحد المعارض التي تعمل على نوع من تعريف العالم على قصة العلم، من أول من نشر العلم؟ وفي أي دولة بدأت سلسلة العلم؟

فعندما جاء على فترة الإسلام، وهي فترة لا يمكن أن تُنكر، والجميع يعرف أنّه منذ القرن الثالث أو الرابع الهجري المصادف للعاشر الميلادي حتى القرن السادس عشر الميلادي لم يحمل راية العلم فيها إلا المسلمين فقط، وديزني لم تستطع إخفاء هذه الحقيقة، وقالت إنّ المسلمين هم الذين حملوا هذه الراية، ولكنّها مع المسلمين أضافت كلمة أخرى فقالت: المسلمون واليهود، ووضعوا بعض الصور لليهود وكأنهم يسيرون وهم يحملون شُعلة العلم في هذه القرون الست.

أين كان اليهود في هذه القرون الست؟! من الممكن أن تسمع عن يهودي طبيب أو فيزيائي أو جغرافي واحد، وستجد في مقابله الآلاف من المسلمين. وهكذا وُضِعَ اليهود إلى جوار المسلمين في حمل شعلة العلم في ستة قرون من التشويه، والأطفال يرون ذلك، وكذلك الكبار من المسلمين وغير المسلمين، يشوَّه التاريخ عياناً بياناً والعالم أجمع يرى ويسمع دون حراك، ولذلك نحن نقدم هذا الموضوع لنشرح فيه قصة فلسطين، لنورد كل هذه الأمور التي شُوِّهت في تاريخ قضية فلسطين وغيرها من القضايا، ولنتعرف على سبيل المثال ما يقوله اليهود من أنّ لهم الأسبقية في أرض فلسطين؟!،



ولنعرف ما يقولونه عن نصوص التوراة التي تعطي لهم فلسطين، ونصوص التوراة منها ما هو محرَّف ومنها ما هو صحيح، وهذه النصوص التي يذكرونها عليها رَدٌّ وتم التعليق عليها، **ولكن أين الآلة الإعلامية التي تشرح هذا للناس؟!** وقصة الهيكل التي يتكلمون عنها في ربوع الدنيا كلها وعبر وسائل إعلامهم، هل هي قصة حقيقية أم غير حقيقية؟! أين المسلمون ليردوا على هذه التشويهات؟! حتى التشويه في القضايا المعاصرة؛ فبعض المسلمين يقولون أنّ الفلسطينيين باعوا أرضهم، هل هذا صحيح؟ أم أنها إشاعات أطلقها اليهود هنا وهناك؟ وقصة المذابح والعنصرية التي تعرض لها اليهود أين الحقيقة فيها؟! وتشويه كل من حمل شعلة الدفاع عن قضية فلسطين، مثل روجيه جارودي Roger Garaudy وهو مفكّر وفيلسوف فرنسيّ مسلم، مشهور بعداءه الشديد للصهيونية، وعمدة لندن، أو أي شخص ظهر في كلامه أنّه يدافع عن المسلمين في قضية فلسطين، هذا يحتاج إلى ردّ واضح وقاطع من المسلمين، ومن أجل كل ذلك سنقدم هذا الكتاب، والأهداف كبيرة جداً من وراء قصة فلسطين.



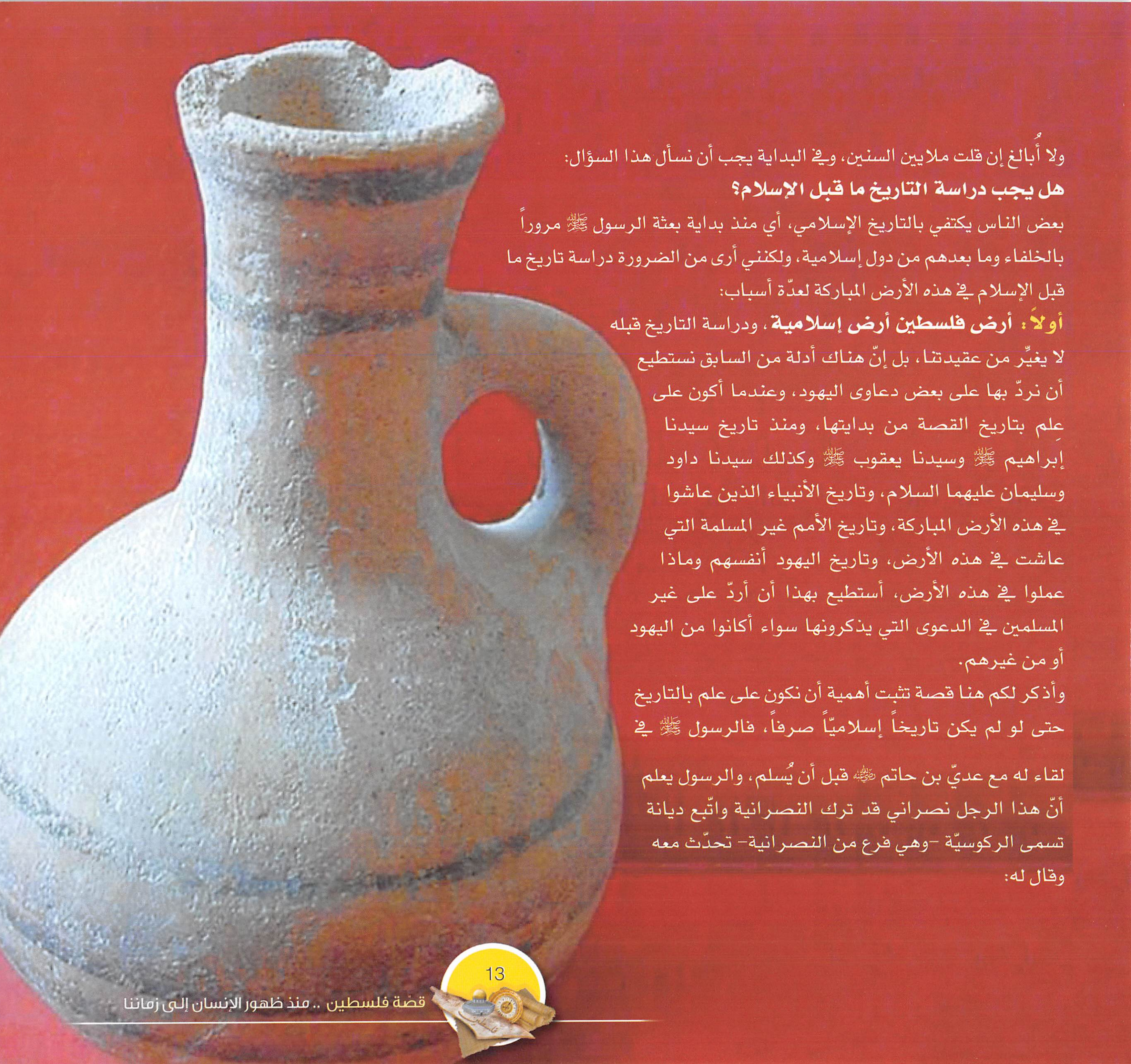
فلسطين في العهد البرونزي القديم

قلنا سابقاً **إنّ دراسة قصة فلسطين دراسة حتمية لكلّ مسلم غيور على دينه**، وقلنا إنهّا أرض مباركة، فقد بارك الله عز وجل فيها لعدد من الأسباب؛ تعرّضنا لبعضها وسنتعرض أخرى كثيرة بإذن الله، وقلنا إنها قضية أمن قومي ليس لفلسطين فقط بل لكل البلاد التي تحيط بها ولكل العالم الإسلامي، وذكرنا ذلك من تاريخ نشأت دولة اليهود في فلسطين، وأنّه لا بدّ للمسلمين أن يفقهوا قيمة هذه الأرض، وعليهم أن يحرّروها وهذا واجب على كلّ مسلم يهتم بأمر دينه وعقيدته، وهذا لا يعني أنّنا سننسى باقي قضايا الأمة الإسلامية، وأنا أطمئن الناس جميعاً أنّ دراسة قضية فلسطين ليست بديلاً عن دراسة قضية العراق والشيشان وكشمير وأذربيجان وسبتة ومليلة وتركستان ومناطق أخرى كثيرة احتُلت من بلاد المسلمين قد لا يعرف المسلمون الآن أسماءها، فهذه القضايا جميعها مهمة، لكنّ قضية فلسطين لها مكانتها الخاصة ذكرناها آنفاً، ولو درستم الأرقام والإحصاءات منذ عام 2000م إلى 2008م، لوجدتم أكثر من 5500 شهيد ارتقوا على أرض فلسطين، والرسول ﷺ يهتم لإزهاق روح مسلمة واحدة، فيُخرج جيشاً كاملاً لملاقاة الروم في معركة مؤتة، وحين قتل أحد المسلمين في أرض الشام، أخرج له رسول الله ﷺ جيشاً كاملاً، وهيَّج الأمة بكاملها، فما بالكم بآلاف الشهداء ارتقوا خلال ثماني سنوات فقط، وعشرات آلاف الجرحى في ذات الفترة، بالإضافة لأكثر من 50 ألف دار هُدِّمت في هذه الفترة. هذه الأرقام لا بدّ أن تُفزع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

منهجنا في هذا الجزء يعتمد على أكثر من محور، فهو يعتمد أولاً على التوثيق، حيث لن نروي قصة أو رواية إلا إذا تأكدنا من مصادرها، سواء في التاريخ القديم أو الحديث، وسنعتمد الموضوعية في طرحنا، فإن كان للمسلمين حقّ في قضية من القضايا فسنثبت ذلك الحقّ، وإن كان لليهود حقّ في فترة من فترات تاريخ فلسطين فسنثبت الحقّ أيضاً، وإن قال مُنصف كلمة في هذا الشأن، فسنثبت هذه الكلمة حتى وإن كان هذا المنصف غير مسلم، ولا نعتمد التجريح في أحد، فلا سباب عندنا ولا لعان، **«لَيسَ المُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلا اللَّعَانِ وَلا الْفَاحِشِ وَلا الْبَذِيءِ»**

(رواه الترمذي)

سنتكلم بأدلة وبراهين حتى نصل لما نريده بإذن الله. وسنعتمد الاختصار دون التفصيل لأنّنا نتحدث عن تاريخ أمة لفترة طويلة جدّاً، لمدة 14 قرناً وأكثر، تاريخ إيماني طويل في هذه الأرض المباركة، وقبل ذلك تاريخ إنساني طويل أيضاً، فكان لا بدّ لنا من الاختصار.



ولا أُبالغ إن قلت ملايين السنين، وفي البداية يجب أن نسأل هذا السؤال:

هل يجب دراسة التاريخ ما قبل الإسلام؟

بعض الناس يكتفي بالتاريخ الإسلامي، أي منذ بداية بعثة الرسول ﷺ مروراً بالخلفاء وما بعدهم من دول إسلامية، ولكنني أرى من الضرورة دراسة تاريخ ما قبل الإسلام في هذه الأرض المباركة لعدّة أسباب:

أولاً: أرض فلسطين أرض إسلامية، ودراسة التاريخ قبله لا يغيِّر من عقيدتنا، بل إنّ هناك أدلة من السابق نستطيع أن نردّ بها على بعض دعاوى اليهود، وعندما أكون على عِلم بتاريخ القصة من بدايتها، ومنذ تاريخ سيدنا إبراهيم ﷺ وسيدنا يعقوب ﷺ وكذلك سيدنا داود وسليمان عليهما السلام، وتاريخ الأنبياء الذين عاشوا في هذه الأرض المباركة، وتاريخ الأمم غير المسلمة التي عاشت في هذه الأرض، وتاريخ اليهود أنفسهم وماذا عملوا في هذه الأرض، أستطيع بهذا أن أردّ على غير المسلمين في الدعوى التي يذكرونها سواء أكانوا من اليهود أو من غيرهم.

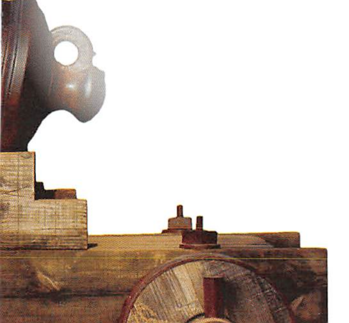
وأذكر لكم هنا قصة تثبت أهمية أن نكون على علم بالتاريخ حتى لو لم يكن تاريخاً إسلاميّاً صرفاً، فالرسول ﷺ في لقاء له مع عديّ بن حاتم رضي الله عنه قبل أن يُسلم، والرسول يعلم أنّ هذا الرجل نصراني قد ترك النصرانية واتّبع ديانة تسمى الركوسيّة -وهي فرع من النصرانية- تحدّث معه وقال له:

«أَلَسْتَ رَكُوسِيًّا؟ قال: بَلَى، قَالَ ﷺ: **أَوَلَسْتَ تَرْأَسُ قَوْمَكَ؟ فقال: بَلَى، قَالَ ﷺ: أَوَلَسْتَ تَأْخُذُ الْمِرْبَاعَ؟ -أي إذا ظفرت القبيلة بغنائم من أعدائها فإنّ قائد القبيلة يأخذ رُبع هذه الغنائم- قال: بَلَى، قَالَ ﷺ: ذَاكَ لاَ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ، قَالَ: فَتَوَاضَعَتْ مِنِّي نَفْسِي- أي أنّه علم أنّ هذا الرجل (الرسول ﷺ) يعرف تاريخه-، فسكن وبدأ يستمع لكلام الرسول ﷺ**(رواه أحمد).

وأنت حين تخاطب اليهودي أو غير اليهودي بالحجة والدليل والبرهان، وهو يزوّر في التاريخ القديم وتقول له إنّ هذا التاريخ مزوَّر، فإنّه سيتواضع لك لأنّه سيعلم أنّك تعرف كلّ صغيرة وكبيرة في تاريخه.

ولن ننسى أنّ تاريخ فلسطين هو تاريخ أنبياء، وسأقول شيئاً قد يستغربه الكثيرون، فنحن يا أخوتي أحق بأنبياء بني إسرائيل منهم، نحن أحق بأنبيائهم منهم، وهذا ليس كلامي بل هو كلام الحبيب ﷺ: **«عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَإِذَا أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ يُعَظِّمُونَ عَاشُورَاءَ وَيَصُومُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْنُ أَحَقُّ بِصَوْمِهِ، فَأَمَرَ بِصَوْمِهِ»** (رواه البخاري) ، نحن المسلمون أحقّ بنبي اليهود من اليهود، لأنهم أرهقوه كثيراً في حياته وبعد مماته، بكلمات كثيرة، وبتحريفات كثيرة، وبشذوذ كبير بكلّ الأخلاق الفاضلة، خرجوا عن كلّ ذلك ولم يتبعوا نبيّاً من أنبيائهم، بل وقتلوا أنبياءهم، ونحن نعظّم ونبجّل ونقدّر كلّ أنبياء الله عز وجل بما فيهم أنبياء اليهود والنصارى، وكلّ من بعثه الله من الأنبياء نعزّه ونقدره ونبجّله، وقال الرسول ﷺ الكلمة نفسها في حقّ عيسى ﷺ فقال: **«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»** (متفق عليه)، فالمسلمون أَوْلى بعيسى عليه السلام ابن مريم من النصارى.

هذه حقائق في تاريخنا وفي صميم ديننا، وأحدنا يخجل حين يسمع ما يقوله اليهود عن أنبيائهم، على سبيل المثال ما يقولونه عن يعقوب عليه السلام، وهل تعلمون من هو يعقوب؟ هو إسرائيل، فبني إسرائيل هم بني يعقوب عليه السلام، **ومع ذلك ماذا يقولون عنه؟**



يقولون: **إنّه سرق البركة من أخيه الأكبر وهو عيسو**، وتقول التوراة المحرَّفة: **إنّ إسحاق عليه السلام عندما أراد أن يبارك عيسو الأخ الأكبر ليعقوب فجاء يعقوب وتحايل على إسحاق عليه السلام، وقد كان ضريراً لا يرى، فأقنعه أنّه عيسو فحلّت بركة إسحاق على يعقوب بطريق الخداع والغش**، هذا ما يذكرونه في كتبهم، خدع إسحاق عليه السلام، وضحك على يعقوب عليه السلام، وضحك على كلّ من قرأ هذا الكلام، أليس هذا كلّه استهزاء بخالق الخلق ربّ العالمين؟!! فكيف يسكت ربّنا على مثل هذا النوع من الخداع والغش، ولهذا نحن أحقّ بأنبيائهم منهم، ويقولون إنّ يعقوب عليه السلام اصطرع مع الربّ!! تخيل أنّ هذا الكلام في التوراة، والكارثة أنّهم يقولون إنّه انتصر على الربّ، (فصرعه يعقوب)!، يعقوب عليه السلام صرع الربّ في رواية اليهود كما في التوراة!! انظروا إلى هذا التحريف وهذا الكلام، وعندما صرع الربّ، ولكي يتخلص الربّ من هذه الصرعة التي فعلها يعقوب ماذا فعل؟! قال: **أعطيك البركة، فأعطاه البركة مضطرّاً له ولنسله، نسل بني يعقوب، فهل هذا كلام يُعقل؟!**، ثم نقول نحن لا ندرس هذا التاريخ!! نحن ندرس تاريخ هذه الأرض لنثبت طهر أنبياء اليهود مما أُلصق بهم من كلمات، وهذا الكلام موجود في روايات اليهود، في توراتهم، في عهدهم القديم، وعهدهم الجديد.

القصة طويلة جدّاً، لذا سنبدأ من أول ظهور للإنسان في أرض فلسطين، وتخيّلوا أنّ أقدم حفريات وُجدت في هذه الدنيا في أرض فلسطين وتعود إلى مليون ونصف المليون سنة، فهي أرض فيها تاريخ طويل جدّاً، وهي من العصور التي تسمى بالعصور الحجرية، وسميت تلك العصور بهذا الاسم لأنّ المعادن لم تكن قد اكتُشفت بعد، والمعدات كلّها تُصنع من الحجارة، وكلّ تفاصيل العصور الحجرية موجودة في أرض فلسطين.

تُقسم العصور الحجرية إلى أربع فترات؛ الأولى هي فترة جمع القوت والصيد، ولم يكن فيها أيّ نوع من أنواع الاستقرار، فكان الإنسان يمشي من مكان إلى مكان حتى يجد قوته، فهي فترة انتقالية يجمع الصيد ثم يستقر أحياناً، ثم ينتقل إلى مكان آخر وهكذا، ثم مرحلة القرى الزراعية، وقد ظهرت القرى الزراعية في أرض فلسطين، ثم بعد ذلك مرحلة القرى الزراعية الحرَفية، ثم المرحلة الرابعة التي تسمى في بعض الكتب بالمرحلة النّحاسية، لأنّ النحاس اكتُشف خلالها، واستُعمل في الكثير من الآلات، كلّ هذه المراحل وُجدت في أرض فلسطين. وهذا يجعلنا نتساءل: لماذا في أرض فلسطين كلّ هذه التجمعات على مدار السنوات الطويلة؟

هذا جانب من جوانب البركة الموجودة في هذه الأرض، والتي أشار إليها ربنا في كتابه الكريم:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

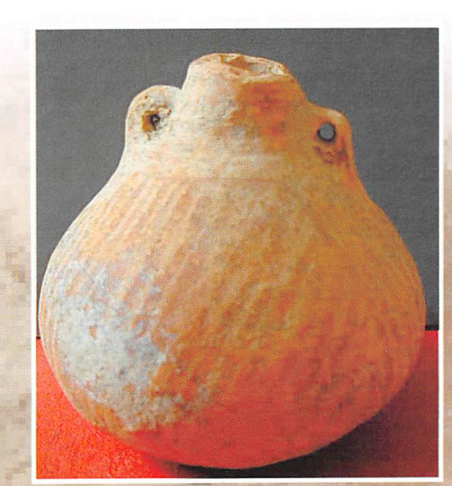




وفي هذه الأرض خصوبة وأمطار على مدار السنة، وفيها درجة حرارة معتدلة على مدار السنة، فهناك مناطق في فلسطين تتراوح درجة الحرارة بين 19 كأدنى درجة ولا تزيد عن 27 درجة كأعلى درجة صيفاً وشتاءً، وهي في مكان تتوسط هذا العالم، فهي قريبة من آسيا وإفريقيا وأوروبا، وخيرات هذا المكان وبركاته لا تنقطع أبداً، ولذلك سكن الإنسان في هذه الأرض منذ ملايين السنين.

ونذكر بعض الملاحظات على العصور الحجرية فنقول: في فلسطين ظهرت أوّل مدينة في هذه الدنيا، وأوّل مكان اجتمع فيه الناس ليؤسّسوا فيه مدينة كان في فلسطين، نحو 8 آلاف سنة ق.م.، في مدينة معروفة لنا جميعاً وهي مدينة أريحا، فأريحا هي أقدم مدينة عرفتها البشرية جمعاء، وسكان فلسطين في العصور الحجرية غير معروفي الأصل، استمرت هذه الفترة منذ عصور سحيقة وحتى ثلاثة آلاف سنة ق.م.، وفي آخر هذه الفترة حصل تطور هائل في هذه الأرض وهو اكتشاف الكتابة، فأول من تعلم الكتابة كان من 3200 سنة ق.م.، ودخل الناس في مرحلة ما بعد التاريخ، فما قبل التاريخ هي عصور ما قبل الكتابة، ولذلك فكلّ توقعاتنا فيها عن طريق الحفريات، ولكن قبل 3200 سنة ق.م.، أي منذ أكثر من 5000 سنة من الآن تقريباً، بدأ الإنسان يكتب، وبدأنا نعرف تفصيلات كثيرة جدّاً عن الإنسان على الأرض.

بعد الـ 3200 سنة دخلنا فيما يُعرف بالعصور البرونزية، وهي العصور التي اكتشف فيها الإنسان القصدير، واختلط القصدير بالنحاس فنتج البرونز، وهذا أدى إلى اختراع الآلات أكثر فأكثر، وكلّ مراحل العصور البرونزية ممثلة في فلسطين، والعصور البرونزية تُقسم إلى ثلاثة مراحل: العصور البرونزية القديمة، والمتوسطة، والحديثة، فالقديمة من 3200 سنة ق.م. إلى 2000 سنة ق.م.، أي أنّ مدتها نحو 1200 سنة تقريباً، وما يهمّنا في هذه المرحلة أنّنا عرفنا نوعيّة البشر الذين سكنوا فلسطين في هذه الفترة، وهذه النّوعية تردّ على ادعاءات يهودية كثيرة جدّاً، فاليهود ينشرون في وسائل إعلامهم في الشرق والغرب في القديم والحديث أنّهم أوّل من سكن أرض فلسطين، وأنّهم أوّل من عاش في أرض فلسطين، ويربطون عند الكثير من الناس أحقيتهم بهذه الأرض على أنّهم أسبق الناس إلى السكنى فيها، ونحن نقول فلنَعُد إلى الحفريات، وإلى ما كُتب قبل ذلك في سجلات الفراعنة والبابليين، وبعض السجلات التي وُجدت في بعض الكهوف والمعابد داخل فلسطين، لنرى من كان يسكن فلسطين في العصر البرونزي القديم، ونقول إنّ أول شعب سكن أرض فلسطين هو الشعب الكنعاني، والشعوب الكنعانية هي شعوب عربية هاجرت من جزيرة العرب إلى داخل أرض فلسطين، والكثير من الناس لا يعرفون هذه الحقيقة، أنّ العرب هم أول من سكن هذه الأرض بعد أن هاجروا من الجزيرة العربية، وكان هؤلاء العرب وثنيين ولم يكونوا أهل ديانة، ونحن لا ننتمي إليهم، ولكنّنا نردّ على دعاوى اليهود بأنّهم أول من سكن أرض فلسطين، ونحن لا نعتزّ بالكنعانيين لأنّهم كانوا لا يعبدون الله عز وجل، ولكنّنا نثبت أنّهم أول من سكن أرض فلسطين، ليعلم اليهود أنّ ما يذكرونه من روايات ليست إلا أباطيل.





بل إنّ اليهود أنفسهم في توراتهم المحرَّفة والمزوَّرة يعترفون أنّ الكنعانيين عاشوا في أرض فلسطين قبل اليهود، فهناك تناقض كبير في كلام اليهود، وهم يدعون في توراتهم أنّ الله عز وجل يقول بأنّه وهب هذه الأرض (أرض كنعان) لليهود، فيذكرها بهذا الاسم (أرض كنعان)، فهم يعلمون أنّ هذه الأرض كان يسكنها الكنعانيون قبل اليهود، والكنعانيون أسّسوا أكثر من 200 مدينة في فلسطين، منها على سبيل المثال: نابلس وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا وبئر السبع وبيت لحم، وكانت بداية دخول الكنعانيين إلى أرض فلسطين قبل 2600 سنة ق.م.، أي قبل أول دخول لليهود إلى فلسطين بـ 1400 سنة.

وهناك شعوب أخرى سكنت أرض فلسطين وهي الشعوب الفينيقية، والفينيقيون هم فرع من الكنعانيين العرب، عاشوا في شمال فلسطين بالقرب من سوريا، وأسّسوا حضارة معروفة في التاريخ هي حضارة الفينيقيين، ومن الشعوب التي سكنت أرض فلسطين شعب العموريين، والذي يُطلَق عليهم في بعض الروايات الآموريين، وهي شعوب ذات جذور عربية، منهم خرج الهكسوس الذي احتلوا فيما بعد مصر وفلسطين وأجزاء من الشام، وهناك شعب أخير وهم اليبوسيون، وهم أيضاً لهم جذور عربية، وهاجروا من الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين، وأشهر أعمالهم تأسيس مدينة القدس، وأطلقوا عليها اسم (أور سالم) التي تحولت فيما بعد إلى (أورشليم) كما يسميها اليهود، ويبقى شعب أخير لم يدخل إلى هذه البلاد في هذه الفترة، ولكنّه دخلها بعد ذلك بمئات السنين؛ وهو شعب البلست، وهو شعب قادم من جزيرة كريت في البحر المتوسط، حاول هؤلاء غزو مصر فردّهم رمسيس الثالث، واتفقوا في النهاية على أن يسكنوا أرض فلسطين، وشعب بلست هذا هو الذي أعطى لفلسطين اسمها Palestine، وهؤلاء أيضاً ليسوا من اليهود.



هذا هو العصر البرونزي القديم الذي لا يدع مجالاً للشك أنّ العرب هم أول من سكن أرض فلسطين، ونحن لا نقول ذلك لأنّنا عرب ولنقول أنّ فلسطين لنا، بل نقول ذلك لنردّ على اليهود في دعواهم أنّهم أول من سكن هذه الأرض، وحقيقة الأمر كما ذكرنا من قبل أنّ أحقيّة المسلمين في هذه الأرض ليس لأنّ العرب هم أول من سكنوها، فقد كانوا وثنيين، ولكن لأنّ الإسلام حكم هذه البلاد منذ العام السادس عشر للهجرة النبوية المباركة، ومنذ ذلك الزمن وأرض فلسطين أرض إسلامية.

فيا ترى ما الذي سيحدث لأرض فلسطين في العصر البرونزي المتوسط؟

ويا ترى ما هي قصة إبراهيم عليه السلام في هذه الأرض؟

وكيف دخل إلى أرض فلسطين؟

وما هي قصة أبناء إبراهيم عليه السلام في أرض فلسطين؟

ومتى دخل اليهود إلى هذه الأرض؟

فلسطين في العهد البرونزي المتوسط



تكلمنا عن العصور الحجرية وخرجنا منها ببعض الأمور المهمة، أولها أنّ أول مدينة أُنشئت في العالم هي مدينة أريحا الفلسطينية قبل 8 آلاف سنة ق.م.، أي منذ نحو عشرة آلاف سنة منذ الآن، وأنّ أول إنسان دخل فلسطين من مليون ونصف سنة، وعرفنا أنّ الشعوب التي سكنت أرض فلسطين في العصور الحجرية غير معروفة الأصل، وبعد ذلك دخلنا على العصور البرونزية، وقسّمنا العصور البرونزية إلى ثلاثة مراحل: العصور البرونزية القديمة والمتوسطة والحديثة، وتكلمنا عن العصور البرونزية القديمة، ولعلّ أهم ما يميزها هي الشعوب التي سكنت أرض فلسطين في عصر الكتابة أو عصر التاريخ، وتكلمنا عن شعب فلسطين الذي أعطى اسمها وهو شعب «بلست».

جاء بعد ذلك العصر البرونزي المتوسط الذي يبدأ من سنة 2000 ق.م. إلى سنة 1550 ق.م.، أي فترة 450 سنة من تاريخ فلسطين، وهذا العصر في غاية الأهمية، وأَعتَبِرُهُ من أهم العصور في تاريخ فلسطين على الإطلاق، لأنّ هذا أول عصر شهد التوحيد لله عز وجل في أرض فلسطين بعد أن كانت وثنية، فالكنعانيون والفينيقيون كانوا وثنيين، ولكنّ بداية التوحيد، ومعرفة رب العالمين سبحانه وتعالى، وكيف يُعبَدُ، وكيف تكون الشريعة على منهاج سليم، كان في العصر البرونزي المتوسط عندما دخل إبراهيم عليه السلام إلى أرض فلسطين مهاجراً من منشأه الأصلي في أرض العراق.

إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، بُعث في العراق في مدينة أور التي عاش فيها لفترة ودعا إلى الله عز وجل، وما حدث بينه وبين النمرود من صراع وألقي في النار، ثم نجّاه الله عز وجل كما القصة المعروفة، ثم أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة كما قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

والأرض التي بارك الله فيها هي أرض فلسطين، فهاجَرَ إبراهيم عليه السلام من أور في العراق إلى فلسطين، إلى مدينة أو قرية تسمى (شكين) بالقرب من نابلس التي أسسها الكنعانيون قبل ذلك بعشرات أو مئات السنين.

عاش سيدنا إبراهيم عليه السلام في شكين أو في نابلس، ولكنّه تجول في بعض المدن، حيث ذهب إلى القدس وبيت لحم وغيرها من المدن، وكان يحكم أرض فلسطين في ذلك الوقت الهكسوس، والهكسوس من أصول الآموريين، وقد حكموا أرض فلسطين لفترة طويلة من الزمن تصل إلى 200 سنة، وبالتحديد 207 سنة، من سنة 1774 ق.م. إلى سنة 1567 ق.م.، وانتشروا من فلسطين إلى بلاد الشام ثم احتلوا بعد ذلك مصر، في هذه الفترة عاش إبراهيم عليه السلام في فلسطين.

وما يميز شعب الهكسوس وهو الأمر الذي نفع الدعوة الإيمانية العقائدية في أرض فلسطين وفي أرض مصر، هو أنّ شعب الهكسوس كان لديه نوع من الحرية الدينية، ولم يكن هناك قهر لعبادة إله معين، فقد كانوا شعوباً وثنية، ولهذا لم يكن لديهم إصرار على عبادة إله معين، فأعطوا الفرصة لإبراهيم عليه السلام أن يدعو إلى الله عز وجل دون اضطهاد أو تضييق أو ظلم أو بطش كما كان يحدث قبل ذلك في أرض العراق، فعاش سيدنا إبراهيم عيشة هنيَّة دون مشاكل في أرض فلسطين.

نعلم جميعاً ما حدث لسيدنا إبراهيم من تأخر في الإنجاب، ثم حصلت الهجرة إلى أرض مصر وما حدث معه من مشاكل مع حكام مصر في ذلك الوقت، حيث لم يكن الهكسوس قد دخلوا أرض مصر، فسيدنا إبراهيم دخل أرض فلسطين سنة 1900 ق.م. أي قبل دخول الهكسوس إلى مصر بمائة سنة، ولكنه عليه السلام عَمَّرَ طويلاً؛ ففي أصحِّ الروايات أنّه عاش تقريباً 175 سنة، فهاجر إلى مصر في أواخر حياته، وعاد بالسيدة هاجر وهي أميرة من الأميرات المصريات.

تزوج هاجر عليها السلام وأنجبا إسماعيل عليه السلام في أرض فلسطين، ثم هاجر إبراهيم عليه السلام بهاجر أم إسماعيل إلى الأرض الفضاء في الجزيرة العربية، حيث حدَّد له ربّه مكاناً معيناً ليذهب إليه وهو مكة المكرمة، وحدثت القصة المعروفة في أرض مكة المكرمة، والشاهد من القصة أنّ إسماعيل عليه السلام وُلد في أرض فلسطين، أي أنّ نبينا عليه السلام له جذور من أرض فلسطين، وهذا شرف كبير جداً لهذه الأرض العظيمة المباركة، أرض فلسطين.



وُلد كذلك في أرض فلسطين ابنٌ آخر لسيدنا إبراهيم من السيدة سارة وهو إسحاق عليه السلام، وذلك بعد ولادة سيدنا إسماعيل بـ 13 سنة، ووُلد لسيدنا إسحاق سيدنا يعقوب عليه السلام، وكان ذلك في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، والدليل على ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل عندما بشّر الله سبحانه وتعالى السيدة سارة عليها السلام وبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليه السلام فالتبشير بسيدنا إسحاق ويعقوب كان في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة، ووُلد سيدنا يعقوب تقريباً سنة ١٧٥٠ ق.م. في أرض فلسطين، وقصته مهمة جدّاً ومؤثرة في قصة فلسطين.

وقبل الدخول في قصة سيدنا يعقوب لنا وقفة مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ونقول: إنّ اليهود والنصارى والمسلمين يتنازعون في سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكل فريق يتمنى أن ينتسب لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ونحن المسلمون أَوْلى بإبراهيم عليه السلام، وكذلك يقول اليهود والنصارى، وربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في سورة آل عمران حَسَمَ هذه القضية حين قال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ ﴾ أي: كيف تدعون أنّه كان يهودياً واليهودية لم تكن إلا بعد نزول التوراة على موسى عليه السلام، وهو بعد إبراهيم عليه السلام بمئات السنوات، وكيف تقولون إنّه كان نصرانياً وما أنزل الإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام إلا بعد أكثر من 1700 سنة من وفاة إبراهيم عليه السلام، أفلا تعقلون!

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾ ثم يقطع قائلاً سبحانه وتعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ ﴾

ثم يقول: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ ﴾ يعني ذلك أنّ اتباع إبراهيم عليه السلام ليس بالكلمات ولا بالنسل ولا بالنسب، إنما باتباع ما جاء به من ديانة حنيفية مسلمة، واعتقاد سليم بالله عز وجل، واعتقاد بالبعث، واعتقاد بأنبياء الله عز وجل وكتبه، هذا الذي ينبغي أن يتبع إبراهيم عليه السلام، أو أن يدّعي أنه ينتسب إليـه عليه السلام.

لماذا يتمسك اليهود بسيدنا إبراهيم عليه السلام مع أنّ يعقوب عليه السلام -وهو إسرائيل- هو أبو اليهود، والذي جاء بعد إبراهيم عليه السلام ؟
إنّ الذي أعطي أرض فلسطين، وأعطي إسرائيل الكبرى هو إبراهيم عليه السلام ونسله كما في التوراة المحرفة، يقول اليهود في توراتهم المحرَّفة: (**لنسلك** -والخطاب لإبراهيم عليه السلام- **أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير في الفرات**) أي أنّ الله عز وجل -كما يقولون- يعطي الأرض ما بين نهر الفرات ونهر النيل إلى نسل هذا الرجل العظيم إبراهيم عليه السلام، ونحن نرد على هذه الرواية ونقول:

أولاً: التوراة محرَّفة.
ثانياً: إن كانت هذه الآية صحيحة، فنسل إبراهيم هو إسحاق، ومن بعده يعقوب وإسماعيل، ومن بعده نبينا ﷺ وأمته من نسل إسماعيل عليه السلام.
ثالثاً: -وهذه معلومة في غاية الأهمية- اليهود الذين يعيشون في زماننا الآن معظمهم ليس من نسل يعقوب ولا من نسل سيدنا إبراهيم عليه السلام إنما هم من يهود الخزر؛ ويهود الخزر دخلوا في اليهودية في القرن التاسع والعاشر الميلادي، أي بعد قرون متتالية من يعقوب عليه السلام، فهم ليسوا من الأصول الإبراهيمية أو اليعقوبية، فإن صحّت هذه الآية فلا يجوز لهؤلاء أن يأخذوا هذه الأرض فقد أعطيت للنسل.
وأخيراً نقول: أعطى الله عز وجل الإمامة في نسل إبراهيم للصالحين ولم يعطها للظالمين، قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يصف قول إبراهيم:
﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾
فمن ظلم وبدّل وغيّر لا يكون له حق في هذه الأرض؛ لأنّ هذه الإمامة أعطاها الله عز وجل للصالحين فقط.
تكلمنا عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وكيف أنجب إسماعيل، ثم بعد ذلك إسحاق، ومن بعد ذلك يعقوب لإسحاق، وذكرنا أنّ أَوْلى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه، وهم المسلمون والأنبياء والصالحون، وخاتم الأنبياء وهو نبينا محمد ﷺ أَوْلى الناس بإبراهيم.

لنتعرف على جزئية مهمة في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي أنّ الله عز وجل أمره بالهجرة إلى أرض الحجاز مرة ومرات، وأولها كانت مع السيدة هاجر وابنها إسماعيل، وتركهم كما نعلم في أرض مكة، وهناك نشأ وتربى وترعرع إسماعيل، وعاد إبراهيم عليه السلام بعد أن تركهم ليعيش في أرض فلسطين، ثم بعد ذلك بفترة أمره ربنا سبحانه وتعالى أن يذهب مرة أخرى ليرفع قواعد البيت الحرام كما هو معروف، يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ فذهب سيدنا إبراهيم عليه السلام ورفع قواعد البيت الحرام وأنشئت الكعبة.

وهنا سؤال لا بدّ أن نسأله لأنّه مرتبط بقضية الكعبة، وهو تأسيس المسجد الأقصى في القدس في فلسطين، من الذي أسَّسَ المسجد الأقصى؟ ومتى أُسِّسَ؟ ولماذا سُمِّي بهذا الاسم؟

أطلق العرب عليه هذا الاسم لأنّه كان أبعد مكان من جزيرة العرب يُعبَد فيه ربنا سبحانه وتعالى، سماه العرب المسجد الأقصى لبعده عن مكة المكرمة، واحتفظ بهذا الاسم حتى ذكره ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾. والسؤال الآخر من الذي بنى المسجد الأقصى؟ هناك اختلاف كبير جداً بين الرواة، ولتيسير الأمر أقول إنّ أصحّ الأقوال أنّ الذي بنى المسجد الأقصى هو آدم عليه السلام، وأنّ الذي بنى الكعبة أيضاً هو آدم عليه السلام، بنى الكعبة أولاً ثم بنى المسجد الأقصى؛ وعن ذلك سأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم **«عن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً»** (متفق عليه)

وهذا رباط واضح ووثيق بين المسجدين والمكانين المقدسين عند كل المؤمنين في الأرض؛ إذاً سيدنا آدم بنى الكعبة وبعدها بأربعين سنة بنى المسجد الأقصى، وهذا أقرب الاحتمالات، وعلى ذلك فعندما ذهب إبراهيم إلى مكة ليرفع القواعد رفع قواعد بيت كان بالفعل موجود، لكن مع مرور السنوات والقرون اندثر وانهدم البيت وضاعت معالمه وبقيت قواعده، كما ذكر ذلك ربنا ﴿إذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ فيكون سيدنا إبراهيم قد جدّد ورفع الكعبة المشرفة من جديد.

لنفترض أنّ الذي بدأ بناء المسجد الحرام هو سيدنا إبراهيم وليس آدم عليهما السلام، فيكون الذي بنى المسجد الأقصى هو يعقوب عليه السلام بعد بناء المسجد الحرام بأربعين سنة، وفي بعض الروايات إنّ سيدنا سليمانِ عليه السلام بنى لله مسجداً **«عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللَّهَ ثَلَاثًا... إلى آخر الحديث»** (رواه ابن ماجه والنسائي).

وفي هذا الحديث يتبين أنّ نبي الله سليمان عليه السلام بنى مسجداً لله عز وجل هو المسجد الأقصى في داخل أرض فلسطين، وعلى هذا يكون هناك احتمال بأنّ سيدنا سليمان عليه السلام قد جدّد البناء الذي بناه آدم عليه السلام، أو الذي بناه بعد ذلك يعقوب عليه السلام، وهناك روايات تذكر إنّ سيدنا داود عليه السلام هو الذي ابتدأ البناء ثم بعد ذلك سليمان عليه السلام، والشاهد في تلك القصص أنّ الذي بنى المسجد الحرام نبي من أنبياء الله وكذلك الذي بنى المسجد الأقصى نبي من أنبياء الله، والفارق بينهما أربعون سنة، وهذه دلالة على شدّة الصلة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في أرض فلسطين.

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، وإسم إسرائيل الذي ورد في التوراة هو ما نعنيه باسم يعقوب في القرآن الكريم، وفي أحاديث المصطفى ﷺ، وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب عليه السلام، وكما ذكرنا أنّه وُلد في أرض فلسطين في حياة سيدنا إبراهيم، ثم هاجر إلى مكان بعيد يقال إلى حرّان وهي في جنوب تركيا الآن، فعاش فيها وهناك أنجب أولاده الأحد عشر الذي ذُكروا في قصة سيدنا يوسف υ، ثم هاجر بعد ذلك من جديد إلى أرض فلسطين، والابن الثاني عشر الذي أنجبه هو سيدنا بنيامين، بعد أن ذهب سيدنا يوسف إلى أرض مصر كما هو معروف.

ذهب سيدنا يوسف إلى أرض مصر بعد أن وضعه إخوته في غياهب الجبّ، ثم انتقل إلى أرض مصر بعد أن بِيع هناك، ثم عاش في أرض مصر فترة من الزمن، وتولى الوزارة كما هو معروف بعد رحلة طويلة من العناء والتعب والضّنك في السجن في أرض مصر، ثم استدعى سيدنا يعقوب عليه السلام وأولاده إلى أرض مصر، فانتقل سيدنا يعقوب عليه السلام بأولاده الأحد عشر وزوجاتهم وأحفاده إلى أرض مصر، ويقال إنّ عدد الذين انتقلوا مع يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر كانوا 72 رجلاً وامرأة من عائلة يعقوب عليه السلام، وأصبح أبناء يعقوب الـ 12 يعيشون في مصر، وهؤلاء هم الأسباط الذين كانوا أصل قصة اليهود.





وأحب أن أقول إنّ سيدنا يعقوب عندما انتقل إلى مصر حيث كان يوسف عليه السلام يعيش، كان ذلك في زمن الهكسوس وليس في زمن الفراعنة، أي أنّ مصر كانت تحت الاحتلال الهكسوسي، وكما قلنا قبل ذلك كان لدى الهكسوس نوع من الحرية الدينية، فسمحوا لسيدنا يوسف ويعقوب عليهما السلام ولأولادهما أن يدعوا إلى التوحيد وأن يعيشوا حياتهم الدينية دون أي نوع من التدخل، وهناك إشارات جليلة تثبت أنّ القرآن متوافق مع التاريخ الإنساني، وهذا إعجاز في القرآن، حيث ورد في القرآن ذكر أنّ حاكم مصر آنذاك في فترة يوسف عليه السلام هو العزيز ولم يذكر أنّه فرعون، فالفراعنة لم يكونوا يحكمون في ذلك الوقت، ولكن حكمت مصر بالهكسوس في تلك الفترة، فقال:

﴿ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وقد وردت أكثر من مرة؛ والعزيز هو الملك من الهكسوس في ذلك الزمن.

عاش سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته في مصر فترة طويلة من الزمن، وبعد أن مات سيدنا يوسف عليه السلام استمر إخوة يوسف أو قبائل بني إسرائيل بالعيش في مصر لفترة يقال إنها 150 سنة تقريباً، وفي هذه الفترة لم يكن هناك أيّ نوع من المشاكل، فقد كانوا يوحدون الله سبحانه وتعالى، وكانوا طوال تلك الفترة على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولم يكن هناك توراة ولا يهودية، وبقوا على التوحيد إلى أن هُزم الهكسوس على يد أحمس الأول، وبعد هذه الهزيمة طُرد الهكسوس من أرض مصر وتولى الفراعنة الحكم، بداية من أحمس الأول ثم بقية الفراعنة من بعده، فحصل نوع من التغير السياسي الخطير على أرض مصر، واعتبر الفراعنة أنّ هؤلاء -أي بني إسرائيل- كانوا أعواناً للهكسوس، فبدأ الاضطهاد لبني إسرائيل في أرض مصر، واستمر هذا الاضطهاد لفترة من الزمن تصل إلى 300 سنة، وهذه السنوات هي التي غيّرت الكثير من طبائع بني إسرائيل وجعلتهم بالصورة التي نعرفها، وهذه الصورة هي التي غيّرت الكثير في مسيرة التاريخ.

كيف غيّر الفراعنة من طبيعة بني إسرائيل؟ وما هو رد فعل بني إسرائيل على ذلك؟

ومتى بُعث موسى عليه السلام؟ وما هي قصته مع فرعون مصر؟

وما هي قصته بعد ذلك في فلسطين؟



الفراعنة وبنو إسرائيل

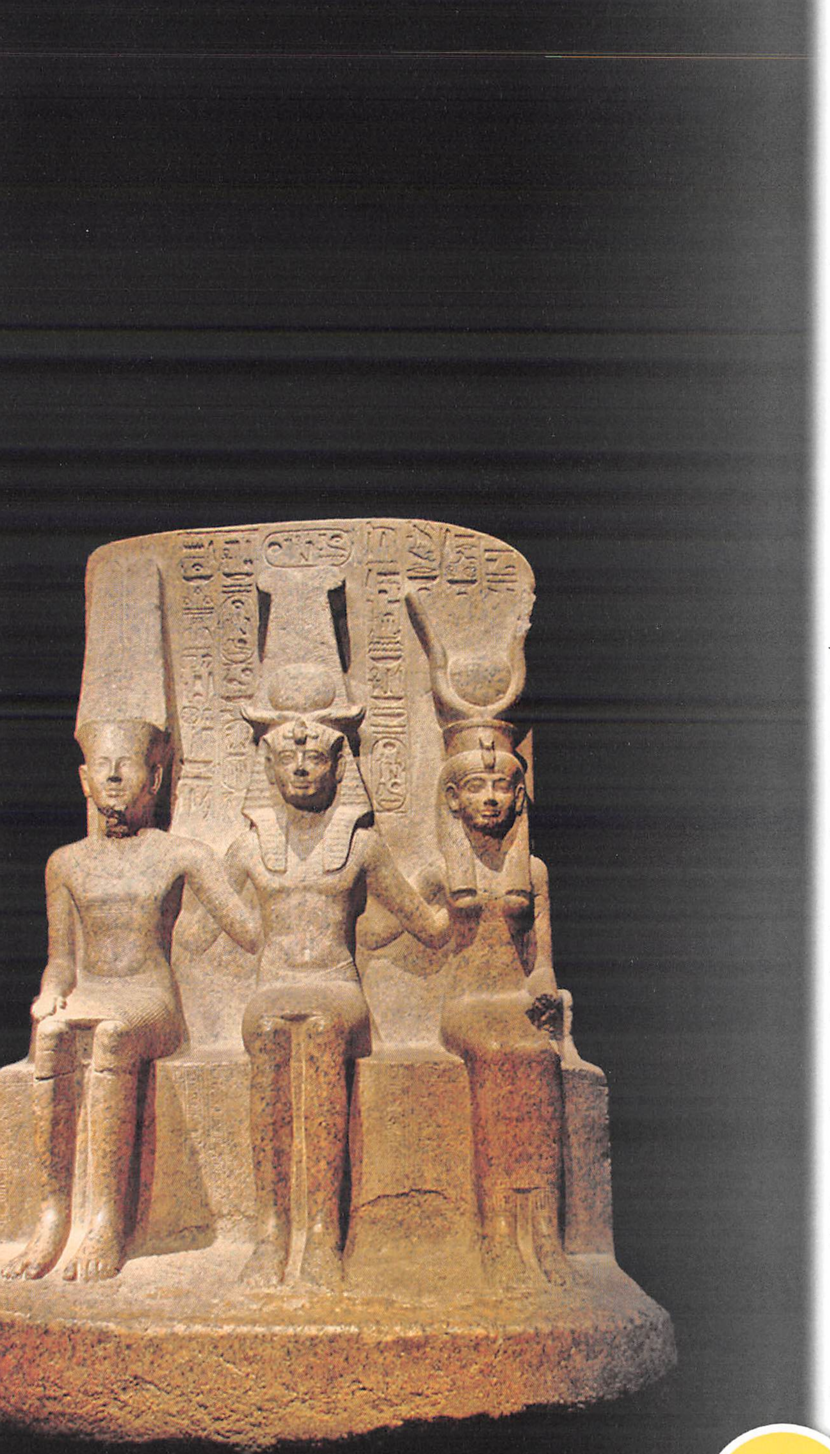
تكلمنا سابقا عن وضع يعقوب عليه السلام عندما هاجر إلى مصر بعد دعوة ابنه يوسف عليه السلام، وقد هاجر ومعه أولاده وبذلك عاش أولاد يعقوب عليه السلام (أولاد إسرائيل-بنو إسرائيل) في مصر، وعاشوا تقريباً 150 سنة في ظل حكم الهكسوس الذي يتميز بنوع من الحرية الدينية، فكانوا يدعون إلى التوحيد دون أن يتعرضوا لأذى داخل البلاد، وكانوا على ملة إبراهيم عليه السلام. ولكن بعد 150 سنة على وجود أولاد يعقوب في مصر وتحديداً سنة 1550 ق.م. هَزَم الفراعنة الهكسوس، وكانت الفراعنة بقيادة أحمس الأول، وقام الحكم الفرعوني في مصر، واعتبروا أنّ بني إسرائيل كانوا أعواناً للهكسوس، ومن ثم بدأ الاضطهاد لبني إسرائيل في مصر، واستمر هذا الاضطهاد 300 سنة متواصلة، منذ سنة 1550 ق.م. حتى سنة 1250 ق.م. عندما بُعث موسى عليه السلام.

هذه الـ 300 سنة غيَّرت كثيراً من طبيعة بني إسرائيل، والشعوب التي تتربى على القهر والبطش والظلم تصبح شعوباً رخوة ليس لها إرادة أو رأي أو أي مطامح عليا أو أحلام، فحياتها حياة العبيد. هكذا كان الوضع بالنسبة لبني إسرائيل، عاشوا على المهانة، وتعوَّدوا الذل والجبن والكذب، فالبطش الشديد كان يؤدي بهم إلى الكذب ثم الكذب، حتى ترسخ في داخلهم هذا الخلق الذميم واشتُهروا به، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ثم أصبحوا على الوثنية بعد أن عاشوا قبل ذلك على التوحيد، وبدؤوا يُظهرون الوثنية حتى ترسخ في وجدانهم ما كان يفعله الفراعنة من عبادة غير الله عز وجل، وكان للفراعنة آلهة شتى، فعندهم إله للخير وإله للشر وإله للجمال وإله للبحر وإله للنهر، ولكل شيء إله، فهذا التعدد في الآلهة، وهذا الشرك ترسخ في بني إسرائيل، مع أنهم صبروا على ملّة إبراهيم عليه السلام، ولكن بتحريفات كثيرة حدثت فيهم خلال هذه السنوات الطوال.

في سنة 1250 ق.م. تقريباً بُعث موسى عليه السلام، وكان قد وُلد في مصر وكان فرعون مصر في ذلك الوقت كما ذكر الله سبحانه وتعالى يستعبد الناس ويستضعفهم، ويُذبِّح الأطفال ويستحيي النساء، فكان هذا من الفساد الشديد كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى في كتاب الكريم:

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ يذبح أبناء من؟ يذبح أبناء بني إسرائيل.

في هذه الظروف وُلد هارون عليه السلام ونجا من القتل، ثم وُلد موسى عليه السلام، وكلّنا يعلم قصة نجاته كما وُصفت في القرآن الكريم، وتربى في بيت فرعون، ثم حدث حادث قتل المصري، وخرج موسى عليه السلام من مصر هارباً إلى مَدْيَنْ كما نعلم جميعاً.



علينا هنا أن نقف وقفة لننبّه تنبيهاً خطيراً جداً لخطأ يقع فيه الكثير من المصريين. ونحن نجد وللأسف الشديد أنّ المصريين في الكثير من الأمور السياسية والاقتصادية والرياضية، وفي الكثير من الأحوال يفتخرون بالفراعنة، والفراعنة لهم آثار مجيدة وعظيمة على مرّ التاريخ، ولكنّ هذا لا ينفي أنهم كانوا يعبدون غير الله عز وجل، وكانوا يحاربون الأنبياء ويبطشون بموسى وهارون عليهما السلام، وفعلوا الأفاعيل التي ذكرها ربنا وضرب بهم المثل في البطش والظلم، وعاش على نهجهم شعبهم في ذلك الوقت، حتى وصف الله سبحانه وتعالى شعب مصر في زمانهم بأنّه شعب فاسق، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ فإياكم والافتخار بمن عَبَدَ غير الله عز وجل، كمن يفتخر بأنّ أصوله تعود إلى أبو جهل أو أبو لهب أو الوليد بن المغيرة، ويقول إنّ هؤلاء عرب وأنا أفتخر بأني عربي، فيفتخر بالكفار من العرب سابقاً، وهذا كلام لا يقوله عاقل، وفي سياق هذا الكلام أذكر أنّ أحد الأفاضل وهو د. عبد الله عزام رحمه الله ذكر أنّ رجلاً من العلمانيين في الأردن كان يلقّب باسم أبي لهب، فسأله لماذا تسمي نفسك بأبي لهب؟ قال له: أنا عربي وأفتخر بالعرب، وأبو لهب عربي؟! وهذا هو العجب العجاب، فهذا ترك كلّ العرب واختار أبا لهب ليفتخر به!! هذا فكر مختل، ولكن يصاب به البعض من الناس، وأنا أتمنى ألا يفتخر المصريون بأنهم فراعنة، فالفراعنة كما قلت من قبل ذُكروا في القرآن الكريم على سبيل اللعنة والذم والنهي عن الاتباع.

موسى عليه السلام هذا النبي الكريم العظيم من أولي العزم خرج من مصر وعاش فترة في أرض مدين ثم عاد إلى مصر، وأُنزلت عليه الرسالة فجاء وخاطب فرعون، وآمن السحرة في موقف مهيب جليل، وأقام عليهم الحجة، ولم يؤمن من كلّ شعب مصر في ذلك الوقت إلا ثلاثة أو أربعة على الأكثر؛ آمنت زوجة فرعون السيدة آسيا رحمها الله، وآمنت ماشطة فرعون، وآمن مؤمن كما ذُكر في سورة غافر، ويقال إنّ أحد الطباخين في قصر فرعون قد آمن، أما بقية الشعب المصري في ذلك الوقت فلم يؤمن منهم أحد، بل وحتى شعب بني إسرائيل لم يؤمنوا، وذكر ربنا ذلك في سورة يونس عندما قال:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

فهم من شدة القهر والبطش والجبن والخوف الذي تربوا عليه طوال 300 عام، ترددوا في اتباع موسى عليه السلام، فأمرهم موسى أن يصلّوا في بيوتهم ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ متخفّين عن فرعون وجنده، ومرت السنوات، وابتلى الله عز وجل المصريين بآيات كثيرة، في تسع آيات إلى فرعون وقومه، ولكنهم لم يؤمنوا أبداً وعاشوا على الظلم والاضطهاد، وكذّبوا بموسى عليه السلام مرة وثانية وثالثة وتاسعة كما ذكر ربنا، حتى طمس الله عز وجل على أموالهم، ثم أذنَ لموسى عليه السلام أن يخرج بقومه من مصر، فطلب موسى من بني إسرائيل أن يخرجوا معه، فكان الخروج الكبير.

خرج بنو إسرائيل من مصر إلى خليج السويس واخترقوا هذا الخليج بالمعجزة الظاهرة، وفي هذه المعجزة وضح اليقين الذي كان عند موسى، ووضح الضعف والخور والجبن الذي كان عند بني إسرائيل عندما قال أصحاب موسى كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لم يكن عندهم يقين في نجدة ربنا سبحانه وتعالى لهم، فقال موسى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ فضرب البحر بالعصا فكان كل فرقٍ كالطود، فدخل موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل البحر وعبروا إلى الناحية الثانية، ودخل وراءهم فرعون بكل جبروته فهلك وهلك معه جنده، ونجا الله سبحانه وتعالى جسد فرعون ليكون آية للعالمين، وفي روايات كثيرة توافق الأحداث التاريخية في مصر مع أحداث قصة موسى عليه السلام، أنّ هذا الحدث كان في عهد رمسيس الثاني، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم، وجسده لا يزال موجوداً كمومياء ليصبح آية للعالمين.

وللأسف الشديد نجد الكثير من الناس تنبهر برمسيس الثاني، وتنبهر بالتحنيط، وتنبهر بالتماثيل الضخمة الموزعة على الميادين في كل مكان، ولا يتذكر إنسان أنّ هذا الرجل وأمثاله سواء أكان رمسيس الثاني أو أمثاله من الفراعنة قد أهلكهم الله عز وجل بمعجزة قاهرة، وترك جسده ليكون آية على قدرة رب العالمين سبحانه وتعالى.

ماذا حدث مع موسى وقومه بعد أن عبروا إلى سيناء؟

ويا ترى كم عدد الذين عبروا البحر مع موسى عليه السلام ؟

وكم بلغ عدد بني إسرائيل بعد هذا العمر الذي عاشوه في أرض مصر؟

بعض الكتب تقول -وهذا مذكور في كتب التفسير الإسلامية- إنّ عدد بني إسرائيل الذين عبروا كان 600 ألف، وبعض الروايات تقول 6 آلاف أو 15 ألف، وهذا أقرب للصواب، وأنا لدي أدلة تقول إنّه ليس من المعقول أنّ عدد بني إسرائيل في ذلك الوقت كان 600 ألف، فهم عادة يضخمون الأرقام ليسجلوا أنّهم دخلوا أرض فلسطين بأعداد كبيرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يونس ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ بهذه الصياغة يستحيل أن يكون العدد كبيراً، و 600 ألف رقم كبير، ولا تقال هذه الصيغة إلا على سبيل التقليل، الأمر الثاني أنّ فرعون نفسه عندما تتبع جيش موسى عليه السلام قال ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أي أن عددهم قليل، والأمر الثالث كم كان عدد بنو إسرائيل عندما دخلوا مصر؟ كم كان عددهم في عهد يعقوب عليه السلام؟ كما قلنا سابقاً دخلوا مع يعقوب عليه السلام 72 شخص تقريباً، أولاد سيدنا يعقوب الاثنا عشر مع أولادهم وزوجاتهم، فكيف يُعقل أنّه في خلال 450 سنة (150 سنة في عهد سيدنا يوسف وما بعده، 300 سنة في عهد الفراعنة، وهي فترة العهد البرونزي المتوسط)، أنّ 72 شخصاً يصبحوا 600 ألف، فهذا أمر مستحيل، خاصةً أنّ بني إسرائيل لم يكونوا يتزاوجوا مع المصريات، أي أنّ كلّ بني إسرائيل خالصين من بني إسرائيل، وسنرى بعد ذلك رعبهم من الدخول إلى فلسطين، وهذا الرعب يُفسر بأنّ عددهم لم يكن 600 ألف، وسنراهم عندما دخلوا مع يوشع عليه السلام لم يكن لديهم القدرة لاحتلال كلّ الأماكن لقلة عددهم. وهذا يثبت أنّ عددهم لم يكن كبيراً جداً.

بعد أن عبروا مع سيدنا موسى عليه السلام إلى أرض سيناء، يصف ربنا سبحانه وتعالى هذا الموقف، فعندما عبروا مباشرةً وجدوا قوماً وثنيين يعبدون شجرةً من دون الله عز وجل، فماذا قال بنو إسرائيل؟ انظروا إلى طبيعة الشعب الذي تربى على الذّل والاستعباد والظلم والقهر، تربى على حياة يُروَّجُ فيها للوثنية وللآلهة المتعددة، قالوا: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ ربنا سبحانه وتعالى أنجاهم بمعجزة ظاهرة قبل دقائق معدودات، ولم تجف بعد أرجلهم من مياه البحر التي عبروها، ومع ذلك يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، فقال لهم:
﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

ثم بعد ذلك مرَّ بأحداث كثيرة جداً ليس هناك مجال لتفصيلها، وذهب موسى عليه السلام لتلقي الألواح من جبل الطور، ومع أنه ترك في بني إسرائيل نبيّاً من أنبياء الله عز وجل وهو هارون عليه السلام، فماذا فعل بنو إسرائيل؟ عبدوا العجل من دون الله عز وجل، وسيدنا موسى عليه السلام عندما ترك قومه لم يغب عنهم أكثر من أربعين ليلة، وقد أخبرهم أنّه سيغيب ثلاثين ليلة ثم زادت بعد ذلك عشر أيام، وبعد الثلاثين ليلة لم يصبروا وعبدوا العجل من دون الله عز وجل، فانظروا إلى تلك النفسيات وتلك العقليات، وهؤلاء هم الذين أنجبوا بعد ذلك اليهود الذين نعرفهم، وهؤلاء هم الذين عذبوا موسى عليه السلام، فسيدنا موسى عليه السلام لم يجد يوماً الراحة مع قومه في الوقت الذي كان يُفترض أن يكونوا أكثر الناس مساعدةً لموسى ꞷ، وهو الذي بُعث لينقذهم من البطش والطغيان، ولكنهم آذوه في حياته أذىً شديداً، وكادوا أن يقتلوا هارون عليه السلام عندما نهاهم عن عبادة العجل كما ذكر الله في كتاب الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ، وكما نعلم من تاريخهم قتلوا فيما بعد الكثير والكثير من الأنبياء.

في كلّ هذه القصة لم نرَ من بقي على الصلاح إلا موسى وهارون عليهما السلام، وغلام موسى عليه السلام واسمه يوشع بن نون، ولا ندري إن كان قد عبر معه البحر أم أنه وُلد في أرض سيناء في تلك الفترة.



هؤلاء القوم الفاشلون طلبوا إلهاً ليعبدوه بداية، ثم بعد ذلك عبدوا بالفعل العجل من دون الله عز وجل أثناء تلقي موسى عليه السلام الألواح من ربه، ولما عاد موسى إلى قومه حرق العجل، وأخذ هذه المجموعة لينفذ ما أمره الله به وهو دخول الأرض المقدسة وهي أرض فلسطين، ذهب موسى بهؤلاء الذين أُنقذوا بمعجزة ظاهرة ومعهم رسول مؤيَّد من الله حتى وصلوا أرض فلسطين، فوقفوا أمام أسوارها، ثم قال لهم موسى ما أمره به الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ فأخبرهم أنّ هذه الأرض كتبها الله لكم لأنّكم من المؤمنين، وإن بدّلتم الإيمان فليست الأرض مكتوبة لكم، بل هي مكتوبة للمؤمنين بصفة عامة، فأيّ مؤمن متمسك بشرع ربه سبحانه وتعالى كُتبت له هذه الأرض، وأي إنسان يبدل نعمة الله كفراً بعد أن أنعم الله عز وجل عليه بالهداية فلا يستحق هذه الأرض أبداً: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فأين الكفاءة في هذا الأمر، بعد أن يخرجوا منها يأتون ويدخلون!! أين الاختبار؟! أين الابتلاء؟! أين الجهاد في سبيل الله؟! أين التضحية؟! هذا الإيمان إيمان باللسان فقط، ولا يصدِّقه أي نوع من أنواع العمل، وهذا أمر لا يُقبل عقلاً ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ردُّوا بمنتهى الغلظة على سيدنا موسى ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

من هم هؤلاء القوم الجبارون؟ هم الكنعانيون الذين كانوا يعيشوا في هذه الأرض وهم من الوثنيين، عاشوا في هذه الأرض قبل دخول اليهود إليها بأكثر من 1400 سنة، وكانوا من الجنود العسكر الأقوياء، ولذلك رفض اليهود دخول تلك الأرض.

والروايات الإسرائيلية، وللأسف الشديد الموجودة في داخل الكتب الإسلامية أيضاً، تروي روايات عجيبة جداً عن هؤلاء القوم الذين كانوا يعيشون في أرض فلسطين، وهناك الكثير من المسلمين يتناقلون هذه الروايات؛ فيروون أنّ هؤلاء كانوا من العماليق وأجسامهم ضخمة وعملاقة لدرجة لا نتخيلها، وفي روايتهم أنّ سيدنا موسى أرسل بعض الجواسيس من بني إسرائيل لتطلع الأخبار من داخل أرض فلسطين، فاكتشف أمرهم أحد العماليق فأخذ هؤلاء الجواسيس ووضعهم في كُمِّهم كما يقولون ونثرهم أمام قائدهم، انظروا إلى هذه العقلية: كانت أجسامهم ضخمة جداً لدرجة أنّه من الممكن أن يضع في كمّه أكثر من جاسوس!!

ويقولون إنهم من نسل عيصو بن يعقوب بن إسحاق الذي عاش في هذه الأرض، وقد كان عملاقاً وضخماً، وأنّه كان إذا أراد أن يشرب يعصر السحاب، وإذا أراد أن يأكل يضرب يده في البحر فيُخرج الحوت، ثم يرفع يده إلى الشمس حتى يُشوى ثم يأكله بعد ذلك!! تخيلوا هذه العقلية!! وللأسف مثل هذا موجود في بعض كتب التفسير الإسلامية، ولذلك لا بدّ أن تُنقّى كتب التفسير من الإسرائيليات الفاجرة، وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن: لماذا وُضِعَ في بعض التفاسير مثل هذه الإسرائيليات؟

وضعت حتى يبرروا لأنفسهم جبنهم ورفضهم لأمر نبيهم عليه السلام بأن يدخلوا الأرض المقدسة ويحاربوا فيها، وكان ردهم على نبيهم: من الذي يستطيع أن يقاتل أقواماً بهذا الحجم؟! ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فماذا قالوا؟! قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، انظر إلى تلك الكلمات، هذا هو الكفر الصريح ﴿اذهب أنت وربك﴾ وكأنه ليس بربهم، فماذا قال موسى عليه السلام؟ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾



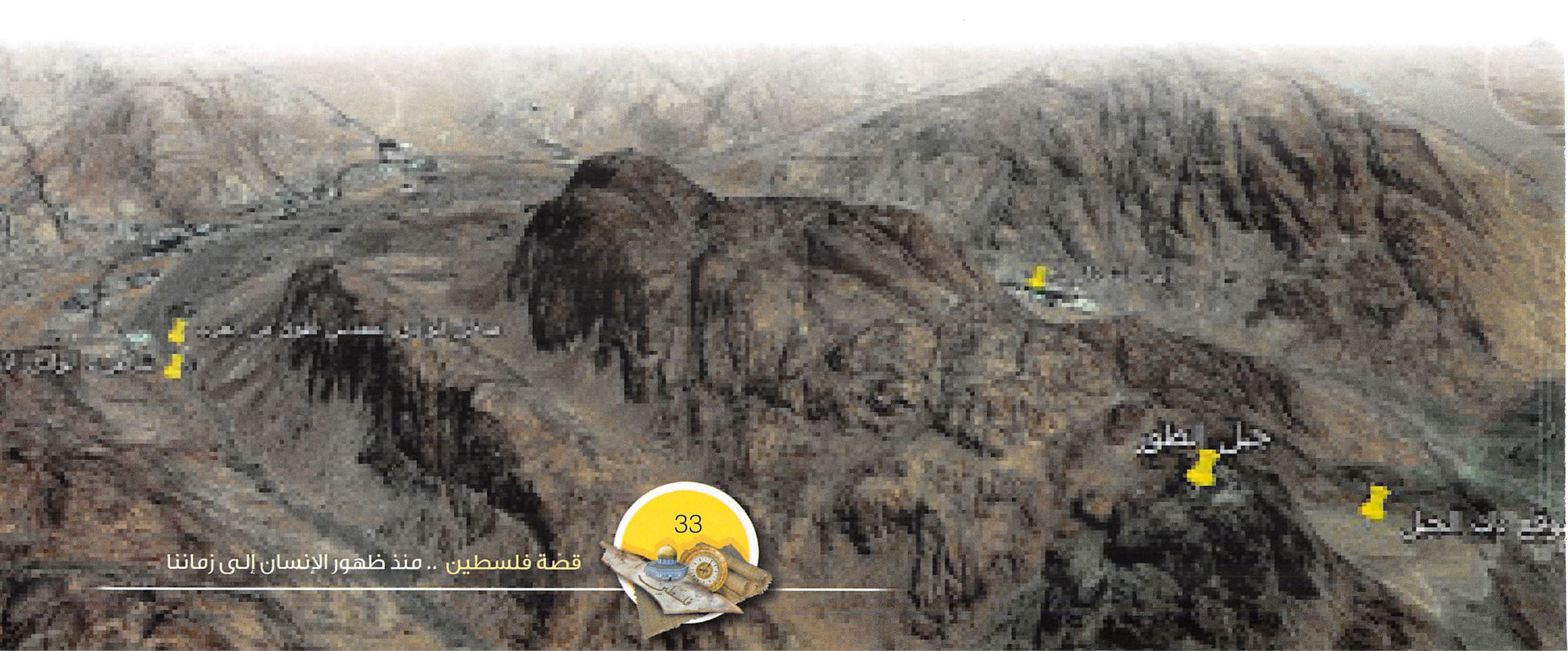
هذا ما يملكه من شعب كامل، خرج موسى بقومه من مصر لا يملك -وهو نبي قوي من أولي العزم من الرسل- إلا نفسه وهارون عليه السلام فقط، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ هم فاسقون بنص كلام ربنا سبحانه وتعالى، هم الذين رفضوا الدخول، فهم بهذا الجبن والخوف والخور، وكتب عليهم التيه في أرض سيناء نتيجة لذلك، وعادوا بعد أن رفضوا دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم معذبين مشردين في أرض سيناء، وكانوا كلما اقتربوا من أرض فلسطين ضيَّع الله عز وجل الدروب وضيَّع عليهم الطرق وتاهوا مرة ثانية وثالثة وعاشرة، حتى إنهم كانوا يقتربون جداً من أرض فلسطين ثم لا يدركون أبداً الطريق، ومات موسى عليه السلام في فترة التيه هذه، وكان قد طلب من ربه سبحانه وتعالى أن يُدنِيَه من الأرض المقدسة رمية حجر، وبالفعل أدناه ربه سبحانه وتعالى ودُفن بالقرب من القدس عند الكثيب الأحمر كما يذكر الرسول ﷺ، ومع قربهم هذا من أرض القدس إلا أنهم لم يدركوا الطريق إليها لأن الله عز وجل كتب عليهم التيه.

وهكذا يا إخواني وأخواتي يُكتب التيه والضلال والبُعد وعدم الهدى على كلّ من يهمل شرع الله سبحانه وتعالى، ويهمل قول رسوله، ويهمل اتباع نهج الأنبياء.

ترى ماذا حدث لبني إسرائيل في التيه ؟

ماذا حدث ليوشع عليه السلام عندما أمر قومه بدخول أرض فلسطين؟

وماذا حدث بعد هذا الدخول؟



بنو إسرائيل في التيه

تكلمنا عن قصة سيدنا موسى عليه السلام، وكثُرت علينا في هذه القصة الأرقام والأحداث، وقبلها كنا نتحدث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأرى أنّه من الأفضل أن نراجع سوياً الآن الأحداث التي مرت بقصة فلسطين ثم نكمل بعد ذلك بإذن الله سير الأحداث.

نقول إننا قسمنا التاريخ القديم في فلسطين إلى مراحل معينة بحسب الاكتشافات التي اكتشفها الإنسان في هذه الفترة، فأسمينا العصور الأولى القديمة جداً بالعصور الحجرية، حيث لم تُكتشف في هذه العصور المعادن، ولعلّ أهم ما يميز هذه العصور، ما ذكرناه من أنّ أريحا هي أول مدينة أُنشئت في العالم، قبل عشرة آلاف سنة من الآن. وذكرنا أيضاً أنّ أحد المحطات المهمة في تاريخ فلسطين هي العصر البرونزي، حيث بدأ العصر البرونزي من سنة 3200 ق.م. إلى سنة 1200 ق.م.، أي 2000 سنة متصلة هي مدة العصر البرونزي، الذي اكتشف فيه الإنسان القصدير وخلطه بالنحاس مما أنتج البرونز، وبالتالي اخترع آلات كثيرة. وقسمنا العصر البرونزي إلى ثلاثة مراحل: القديم، والمتوسط، والحديث، وأهم ما يميز القديم ظهور الشعوب المعروفة في أرض فلسطين، وكلها جاءت من جزيرة العرب: الكنعانيون والفينيقيون والآموريون واليبوسيون، وهؤلاء هم الذين أنشؤوا معظم المدن في أرض فلسطين وكانوا وثنيين. ثم في العصر البرونزي المتوسط الذي دام لنحو 450 سنة، من سنة 2000 إلى سنة 1550 ق.م.، وخلال هذه السنوات دخل التوحيد إلى أرض فلسطين بعد أن دخلها سيدنا إبراهيم عليه السلام فنشر التوحيد، ووُلد له إسماعيل ثم إسحاق، ثم وُلد ليعقوب اسحاق، ثم حدثت بعد ذلك قصة يوسف عليه السلام، وأصبح في مصر بعد أن بيع فيها، ثم استدعى أهله فعاش في مصر مع سيدنا يعقوب وإخوته الأسباط الإثنا عشر، الذين هم أصل بني إسرائيل، وعاشوا في مصر حوالي ١٥٠ سنة انتهت في سنة 1550 ق.م.، وهي نهاية العصر البرونزي المتوسط، وكما قلنا من قبل كانت نهاية الهكسوس على يد أحمس الأول، وبذلك بدأ عصر الفراعنة الجديد، الثلاثمائة سنة التالية وهي العصر البرونزي الأخير من سنة 1550 إلى سنة 1250 ق.م.، تلك السنين الـ ٣٠٠ هي التي عاش فيها سيدنا موسى عليه السلام، حيث بُعث سنة 1250 ق.م. ثم أكمل بعد ذلك بعثته في محاجة طويلة جداً مع فرعون وقومه، ثم بعد ذلك حصل الخروج الكبير، ودخل سيدنا موسى إلى أرض سيناء وحاول أن يقنع أهله وقومه بدخول الأرض المقدسة، ولكنهم كما ذكرنا سابقاً رفضوا، فدخلوا في التيه، وعاش موسى وهارون عليهما السلام معهم في التيه، ومات سيدنا موسى عليه السلام في هذه الفترة في سنة 1200 ق.م. لينهي بذلك العصر البرونزي الحديث وهو في داخل التيه.

كان بنو إسرائيل يعبدون الله وعلى ملة إبراهيم عليه السلام طيلة لفترة السابقة كلها إلى أن وصل سيدنا موسى عليه السلام إلى جبل الطور وتلقى الألواح، ، وبعد أن تلقى موسى الألواح؛ وهي الشريعة الجديدة، تحول اليهود إلى الشريعة الجديدة. ومات سيدنا موسى عليه السلام وهو حزين لأنّه لم يرَ الأرض المقدسة، وكان يتمنى أن يدخلها، لكنّ قومه خذلوه ورفضوا الدخول، فعاشوا في التيه فترة أربعين سنة كما قضى ربنا سبحانه وتعالى، في هذه الفترة مات الجيل الذي تربى على الذلّ والخنوع والظلم والاستعباد، مات الجيل الذي تعوَّد على الكذب، والذي ترسخت في قلبه علامات كثيرة من علامات الوثنية، وبدأ يظهر جيل أفضل من الجيل السابق.

هذا الجيل الجديد الذي ظهر رُبِّيَ على يد الجيل السابق، وورث صفات كثيرة من ذلك الجيل، ولكنه على الأقل كان فيه نوع من الحميّة لمحاولة دخول الأرض المقدسة، بُعث في الجيل الجديد يوشع بن نون عليه السلام، وهو المعروف في التوراة باسم يشوع، وذُكرت قصته في السنّة المطهرة ولكنها لم تُذكر في القرآن الكريم، وهو الذي استنفر لدخول الأرض المقدسة، ودخلوا الأرض المقدسة من مدينة أريحا، بعد أن دخلوا أرض الأردن وعبروا نهر الأردن، وكانوا قد دخلوا في يوم الجمعة، وكما هو معروف أنّ اليهود لا يعملون في يوم السبت، فكان لا بدّ أن ينتهي القتال يوم الجمعة، فاستمر القتال لفترة طويلة حتى قاربت الشمس على المغيب، وكانت الجيوش في ذلك الوقت لا تقاتل في الليل، فكان هذا الأمر قد يُعرِّض اليهود للهزيمة بسبب القعود عن القتال في يوم السبت، فسأل يوشع بن نون ربه أن يوقف الشمس وألا تغرب، فأوقف الله عز وجل الشمس، وهي آية واضحة لبني إسرائيل، حتى تم النصر لبني إسرائيل، وهذا في الحديث الصحيح عن رسولنا ﷺ.



انتصر الجيش اليهودي المؤمن بقضية دخول الأرض المقدسة، والمطيع لنبيِّهِ حتى هذه اللحظة، ولكنّهم بمجرد دخولهم الأرض المقدسة بدؤوا يخالفون العهد ويأخذون ما ورثوه عن آبائهم من عصيانهم وكفرهم بالله عز وجل، وأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يدخلوا الباب سجّداً وأن يقولوا (حطة)، أي أن يحطّ عنا خطايانا ويغفر لنا، فماذا فعلوا؟! لم يدخلوا سجّداً كما أمر الله سبحانه وتعالى، إنما دخلوا بظهورهم، وكان من المفترض أن يدخلوا بوجوههم من الأمام وهم سجود خضوعاً لله سبحانه وتعالى، كما بدّلوا القول، فبدل أن يقولوا (حطّة) قالوا (حنطة) سخرياً من الكلمة التي قالها لهم نبيهم يوشع بن نون عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

من هم هؤلاء؟

هم الذين كانوا قبل قليل انتصروا في موقع من مواقع الإيمان على عدوهم الوثني، هؤلاء هم الذين أوقف الله لهم الشمس، هؤلاء هم الذين أرسل إليهم يوشع بن نون بعد أربعين سنة من التيه، هؤلاء هم الذين أراهم الله الآيات تلو الآيات ولكنهم أبوا إلا العصيان والكفر والجحود، مع أنّ هذا الجيل كان هو الخلاصة بعد الجيل الفاسد الذي كان مع موسى عليه السلام، ولكنها سنّة ماضية في بني إسرائيل في الكفر والعصيان والبُعد عن جادّة الطريق.

دخل يوشع عليه السلام إلى أرض فلسطين سنة 1190 ق.م. تقريباً، أي بعد عشر سنوات من وفاة موسى، وحكم بني إسرائيل لفترة من الزمن، وكان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كما تسوس الناس الملوك، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، أي كلما مات نبيّ بُعث نبيّ آخر، وهؤلاء كانوا قوماً في غاية الانحراف، وكثرة الأنبياء لبني إسرائيل ليست علامة على الصلاح، فالمسلمون بُعث فيهم نبيّ واحد وإلى الآن ما زالوا على المنهج القويم، والكثير من الناس يرفعون الراية الصحيحة ويتمسكون بالكتاب الصحيح والسنّة المطهرة، ولكن بني إسرائيل كلما مات نبي خالفوا وابتعدوا حتى كانوا يخالفون في وجود النبي، بل كان الله عز وجل يُرسل إليهم أحياناً نَبِيَّين اثنين في وقت واحد، بل كان أحياناً يُرسل ثلاثة أنبياء في وقت واحد لشدّة انحراف بني إسرائيل.

عاش يوشع بن نون في أرض فلسطين وخالف قومه بوجوده أكثر من مرة، ثم مات وأرسل الله نبياً آخر ثم ثالث، فعاشوا فترة 150 سنة بعد وفاة يوشع عليه السلام، وكانت هذه الفترة من الفترات التي اشتد فيها انحراف بني إسرائيل حتى مكّن الله عز وجل منهم الوثنيين، واستطاعوا أن يقهروهم على أعز ما يملكون في ذلك الوقت وهو التابوت.





ما هو التابوت؟

التابوت هو صندوق وضعوا فيه ألواح التوراة وبقية ملابس آل موسى، ووضعوا فيه عصا موسى عليه السلام وبعض الأشياء المقدسة، وكانوا يتبركون به ويحملونه معهم في كل مكان، فلما عصوا الله عز وجل وأفسدوا في الأرض إفساداً كبيراً، استطاع الكنعانيون أن ينتصرون عليهم وأن يأخذوا منهم التابوت، وكان في هذا ذلة كبيرة جداً لليهود، فشعروا بانتكاسة كبيرة جداً، وبعد ١٥٠ سنة من وفاة يوشع بن نون ظهر فيهم نبي جديد اسمه صموئيل، ولكننا لا نعرف اسمه على وجه الحقيقة لأنّ هذا الاسم ذُكر في التوراة ولم يأتِ في السنّة المطهرة، بعد أن بُعث فيهم هذا النبي ذهب إليه القوم وطلبوا منه أن يجاهدوا حتى يستردوا التابوت ويستعيدوا مجدهم الذي ضاع بعد أن سيطر عليهم الكنعانيون، قال لهم نبيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

أرسل الله تعالى النبي إليهم وهذا النبي أمرهم بالقتال، فلما فُرض عليهم القتال تولّى معظمهم ولم يبقى إلا القليل منهم، ممن قال لهم نبيهم إن الله بعث لكم طالوت ملكاً.

فماذا فعل اليهود مع طالوت؟

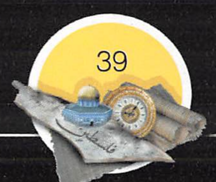
وماذا كانت قصته في أرض فلسطين؟

سأل النبي القوم عن مدى جدِّيَّتهم في الحرب في سبيل الله، ولماذا تريدون أن تقاتلوا وأنتم قد خذلتم دينكم سنوات وسنوات؟ فقالوا: وما علينا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا، ثم بمجرد فرض القتال تولّوا إلا قليلاً منهم، وكان هذا التولي قبل أن يلتقوا بعدوهم، ثم قال لهم نبيهم إنّ الله بعث لكم طالوت ملكاً، أي إنه من اختيار الله سبحانه وتعالى وهو من القادة اليهود ليكون قائد الجيش، فانظروا إلى ردِّهم، وماذا قالوا لنبيهم على اختيار الله عز وجل لطالوت قائداً لهم، قالوا:

﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ وقد كان لليهود فرع يتوارث أهله النبوة وهو فرع لاوي، وفرع آخر يتوارث أهله الملك وهو فرع يهوذا، وهم من أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام أي أنهم من الأسباط، وطالوت كان من أولاد بنيامين بن يعقوب وليس من أولاد يهوذا، ومع أنّ الله عز وجل قد اختاره وجعل ذلك فتنةً واختباراً لبني إسرائيل، إلا أنهم رفضوا أن يعطوا هذه الإمارة لهذا الرجل لأنّه ليس من نسل يهوذا، ثم وضعوا استثناءً غريباً جدّاً، إذ قالوا ﴿ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ﴾ ، أي أنهم كان من الممكن أن يعطوه هذا الاستثناء لو أنّه كان غنياً، ولكنّه كان فقيراً وليس من نسل الملوك فكيف يحكم الجيوش؟! فأدى هذا إلى ذبذبة كبيرة جدّاً في الجيش، وتخلّف عدد كبير جدّاً، وبذلك خرج طالوت رحمه الله بعدد قليل جدّاً من الإسرائيليين، وبعد خروجهم اعترضهم النهر، وكما تعلمون جميعاً حصلت فتنة عند النهر، فمعظم الناس شربت من النهر على خلاف ما أمرهم به طالوت، فتخلّف هؤلاء أيضاً ولم يبقَ مع طالوت إلا عدد قليل جدّاً من الرجال؛ يقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: كنّا نعدُّ أنفسنا في يوم بدر على عُدَّة جيش طالوت، وقد كان جيش بدر نحو 314 رجلاً، وفي أقصى الروايات 317 رجلاً، وهذا هو عدد الناس الذين ثبتوا مع طالوت، أكثر من ٣٠٠ بقليل من آلاف مؤلَّفة من شعب كامل، حتى إنّ هؤلاء الذين خرجوا للقتال في سبيل الله عندما أمرهم طالوت ليخرجوا لحرب الجيوش الكافرة الظالمة بقيادة جالوت رفضوا وقالوا:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

والذي تحرك من كل هذا العدد (نحو 300 من الإسرائيليين) تحرك شخص واحد فقط وهو داود عليه السلام، وهذا أول ظهور لاسم داود عليه السلام في قصتنا، وكانت هذه المعركة سنة ١٠٢٥ ق.م.، وقد كان داود شاباً صغيراً لا يتجاوز السادسة عشر من عمره، وكان معه مقلاعه، واستطاع أن يهزم جالوت بفضل الله عز وجل وأن يقتل هذا الطاغية، وانتصر الإيمان المتمثل بسيدنا داود عليه السلام وطالوت رحمه الله، والقلة الباقية التي ثبتت معهما في هذا الطريق الطويل.



عاش داود عليه السلام فترة من الزمن مع النبي الذي يسبقه (صموئيل)، وبعد أن مات صموئيل بُعث داود عليه السلام وقاد بني إسرائيل، وفي سنة 1004 ق.م. دخل داود عليه السلام إلى أكثر من مدينة في فلسطين، ومنها مدينة القدس، وأسَّسَ ما يُعرف بـ «مملكة اليهود»، وهي أكبر مملكة أُسِّست في تاريخ اليهود على الإطلاق، وحكم سيدنا داود عليه السلام هذه المملكة.

وأودّ القول هنا إنّ المملكة التي أسسها سيدنا داود عليه السلام لم تكن تشغل من مساحة فلسطين إلا 20 ألف كيلومتر مربع تقريباً، ومساحة فلسطين هي نحو 27 ألف كيلومتر مربع، أي 74% تقريباً من مساحة فلسطين، وهذا يعني أنّ أكبر مملكة في تاريخ اليهودية كلّها لم تكن تشمل إلا نحو 74% من مساحة فلسطين. وكانت تلك أول سيطرة إيمانية حقيقية على أرض فلسطين على مرِّ التاريخ، حيث إنّ سيدنا إبراهيم عندما كان في فلسطين لم تكن تُحكم بالإيمان، إنما سُمح له بالدعوة إلى الله عز وجل، وذلك خلال سيطرة الهكسوس كما ذكرنا، وكانوا من الوثنيين، وكذلك سيدنا يوشع بن نون عندما دخل إلى الأرض المقدسة لم يستطع أن يسيطر على أماكن كثيرة، ولكنّه دخل أريحا بجيش بعيدٍ كلّ البُعد عن الإيمان الحقيقي، وكانت المرة الأولى التي تقوم فيها مملكة إيمانية حقيقية لسيدنا داود عليه السلام استمرت لمدة 40 سنة، من سنة 1004 ق.م. إلى سنة 963 ق.م..

بعد وفاة سيدنا داود عليه السلام، ورثه ابنه سليمان، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ وعندما جاء سيدنا سليمان كانت فترة قوة واضحة لمملكة اليهود، وسيطر نبي الله سليمان على الأماكن نفسها التي سيطر عليها والده عليه السلام. ونلاحظ أن القرآن الكريم عندما يأتي ذكر سليمان يصف قوته وينسبها إلى الله عز وجل وأنّ الله سخر له.. وسخر له.. وسخر له.. ولم يذكر في هذا التسخير ما فعله اليهود مساعدةً لأمر الإيمان أو الشريعة، إنما كان دائماً يذكر الطير والجن والريح وما إلى ذلك من الأمور، ولكنّ اليهود كانوا يُقمّعون من سيدنا سليمان عليه السلام وفي قلوبهم الكفر والبغض والعصيان، وهذا ما ثبت بعد وفاة سليمان عليه السلام، فقد نَكَصَ القوم على أعقابهم، ونكثوا العهود التي قطعوها لأنبيائهم.

حكم سيدنا سليمان عليه السلام من سنة 963 ق.م. إلى سنة 923 ق.م.، أي لأربعين سنة أخرى، وهذه الفترة التي حكم فيها سليمان نُسجت حولها آلاف الأساطير وما زالت إلى الآن تُنسج، ولعلّ أشهر تلك الأساطير هي قصة «هيكل سليمان»، واليهود يبحثون عنه في كل الأماكن، وأشهر الأماكن التي يبحثون فيها أسفل المسجد الأقصى المبارك، ولا نرى ذلك إلا بغية هدم المسجد الأقصى، لكثرة الأنفاق التي حُفرت تحته على يد يهود، وبالطبع فإنّ قصة الهيكل هذه قصة وهمية، لأنّ الرسول ﷺ ذكر ذلك: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا فَرَغَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، سَأَلَ اللهَ ثَلَاثًا... إلى آخر الحديث» (رواه ابن ماجه والنسائي)،



فكلّ ما فعله سليمان عليه السلام أنّه أقام القواعد من جديد، وجدّد المسجد الأقصى الذي بين أيدينا اليوم، وليس هناك وجود لما يسمى «الهيكل»، ويوجد في التوراة وفي كتب اليهود الكثيرة اختلاف كبير جداً بين علماء اليهود على مكان هذا الهيكل المزعوم وشكله، فبعضهم يقول إنّه من الحجارة، وبعضهم يقول إنّه من الذهب الخالص، وبعضهم يقول إنّه من النحاس المكسي بالذهب، وقام علماء اليهود وغيرهم الكثير بحفريات كثيرة جدّاً، ولم يظهر لهم أيّ أثر لما يسمى «الهيكل»، وهو في الحقيقة من نسج خيالهم، وهناك أوصاف كثيرة ذُكرت في حقّ سيدنا سليمان عليه السلام مع أنّه من أعظم أنبياء بني إسرائيل ويفتخرون بفترة حكمه،

فما بالكم بالأنبياء الذين جاؤوا في فترة ضعف بني إسرائيل.

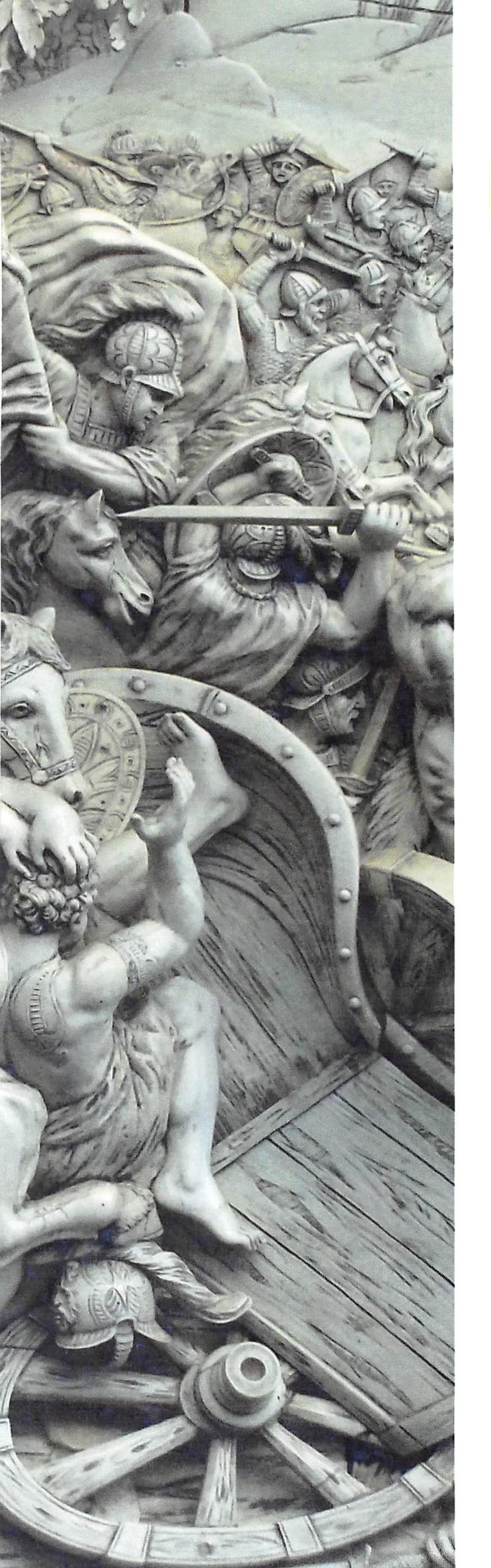
وهنا أكرر الكلمة التي ذكرتها في أول كلامي،

نحن أحقّ بأنبيائهم منهم، نحن أحق بأنبياء بني إسرائيل من بني إسرائيل، لأننا نقدّر ونعظّم ونبجّل كلّ أنبياء الله عز وجل.

ماذا حدث في أرض فلسطين بعد وفاة سليمان عليه السلام؟

وما الذي حدث لهذه المملكة الكبرى التي أسّسها هو وأبوه؟

وما واقع اليهود مع الإغريق والرومان ومع الدول التي تتالت بعد ذلك على أرض فلسطين؟



تمزيق اليهود في فلسطين

توقفنا مع قصة مملكة اليهود التي أسسها داود ﷺ، ثم سليمان ﷺ، وهذه المملكة كما ذكرنا حكمت أرض فلسطين حوالي 80 سنة متصلة، من سنة 1004 ق.م. إلى سنة 923 ق.م.، وهذه هي فترة الحكم الإيماني الوحيدة في تاريخ اليهود بكامله، وقد رأينا أنّ هناك فساداً في أيام موسى ﷺ، وكذلك في أيام يوشع بن نون ﷺ، وكذلك مع النبي صموئيل الذي بُعث بعد يوشع بـ 150 سنة، ومعظم القوم أفسدوا ولم يتبعوا جيش طالوت رحمه الله، إلى أن تمّ نصر الله الذي جعله على يد الفتى الصغير داود، ثم بُعث داود ﷺ، ثم كانت المملكة التي تكلمنا عنها، والتي كانت على 74% فقط من أرض فلسطين، ولم تشمل أرض فلسطين بكاملها.

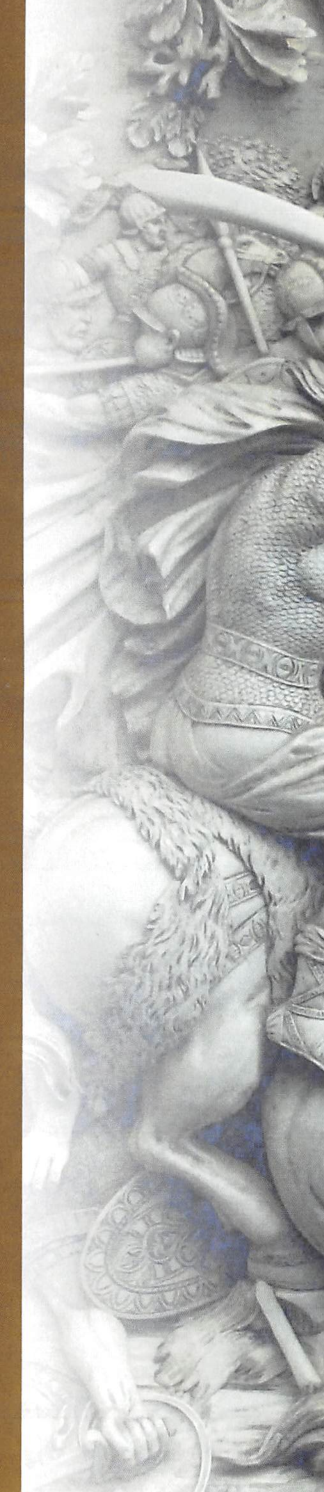
وبوفاة سيدنا سليمان ﷺ سنة 923 ق.م. ظهرت النوايا الخبيثة لهؤلاء القوم الذين حُكموا طوال هذه الفترة بقوة سليمان ﷺ، وبقوة داود ﷺ قبل ذلك، ولم يكن الإيمان مترسخاً في قلوبهم، فبمجرد وفاة سيدنا سليمان ﷺ انقلب الناس على أنفسهم، وبدأ الفساد والبُعد عن كلّ فضيلة وكلّ خلق حميد، وكما نعلم فأبناء سيدنا يعقوب ﷺ 12 سبطاً وما تفرع منهم بعد ذلك، فانقسم اليهود على أنفسهم، 10 منهم اتفقوا على قيادة معينة، و2 اتفقوا على قيادة أخرى، أما العشرة الذين اتفقوا مع بعضهم، فقد كوّنوا مملكة أسموها «مملكة إسرائيل»، وكانت في شمال فلسطين، وقد بدأت مباشرةً بعد وفاة سيدنا سليمان ﷺ، والمملكة الثانية كانت في الجنوب وهي «مملكة يهوذا»، وكانت مكونة من سبطين فقط، هما سبط يهوذا وسبط بنيامين، وكانت المشكلة الأخلاقية نفسها، والفساد نفسه، والوثنية نفسها، فعبدوا الأصنام من دون الله، وقرّبوا الآلهة التي كان يعبدها الكنعانيون، والآلهة التي كان يعبدها الفينيقيون في سوريا ولبنان وما حولها بعد موت سليمان υ مباشرة، واستمر حكم مملكة إسرائيل في شمال فلسطين لمدة 202 سنة، عمّها الفساد والبغي والظلم والعدوان، إلى أن سلّط الله عليهم الآشوريين وهم من أهل العراق، وجاؤوا سنة 721 ق.م. فأفنوا «مملكة إسرائيل» وأخذوا معظم شعب إسرائيل الذي كان في هذه المملكة وبعثروهم في العالم، وباعوهم هنا وهناك، وبذلك انتهى تماماً من الدنيا كلّ نسل هؤلاء الأسباط، ولم يعد في التاريخ شيء اسمه يهودي من نسل هؤلاء الأسباط العشرة، وظلت مملكة يهوذا في جنوب فلسطين المكونة من فرعي يهوذا وبنيامين، وبقيت مملكتهم.

وكما ذكرنا كان يهوذا هو الذي فيه الملك، ولذلك اختار الأتباع من بني إسرائيل أن يسموا أنفسهم بـ (اليهود) نسبةً إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ولم يكن هذا الاسم معروفاً أيام سيدنا موسى عليه السلام ولا في أيام الأنبياء السابقين، وعاشت «مملكة يهوذا» لفترة أطول من «مملكة إسرائيل» وبقيت لمدة 150 سنة أو أكثر، وبالتحديد بقيت لسنة 586 ق.م.

ثم سلَّط الله عز وجل عليهم قوماً أبادوا هذه البلاد لكونها عصت ربَّها عز وجل لفترات طويلة، ففي سنة 597 ق.م. أرسل الله سبحانه وتعالى قوماً من العراق، فجاسوا خلال الديار، وحصل التهديد بالإفناء، وتمّ تدمير عدد من القرى، وسَبَوا من هذه المملكة نحو عشرة آلاف من اليهود إلى بابل في العراق، وكان مع هذا السبي الإهانة التي تعرض لها اليهود، ومع هذا التذكير ببُعدهم عن ربنا سبحانه وتعالى، إلا أنهم استمروا في عصيانهم وطغيانهم، فسلَّط الله عز وجل التسليط الثاني والأخير في سنة 586 ق.م.، وكان قائد هذا التسليط هو «نبوخذنصر» أو «بختنصر» كما في بعض الروايات، وكان قائداً للبابليين في العراق، فجاء ومسح كلّ شيء لليهود في أرض فلسطين، ودمَّر «مملكة يهوذا» بكاملها، ودمَّر المسجد الأقصى الذي يدعونه الهيكل، ثم خرج من فلسطين ومعه أربعين ألف من اليهود، وهذا ما يسمى في التاريخ بالسَّبي البابلي الثاني، وبذلك سقطت مملكة اليهود سقوطاً كاملاً.

بهذا السقوط كانت نهاية الحكم اليهودي في فلسطين في تلك الفترة، والذي بدأ سنة 1004 ق.م. إلى سنة 586 ق.م. أي حوالي 418 سنة، منها 80 سنة حكمٌ إيماني، وقد كان اضطرارياً بالنسبة لليهود نظراً لقوة داود وسليمان عليهما السلام وقوة جيوشهما، ولم يكن الإيمان في قلوبهم حينها، وحفظ الله هذه البلاد بتقوى وصلاح الذين حكموا هذه المملكة، وبعد هذه المملكة تولى اليهود حكم البلاد 338 سنة بالفساد والبغي والظلم بل والوثنية في ظل وجود بعض الأنبياء بينهم، بل وكانوا يقتلون بعض أنبيائهم كما هو ثابت في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي سنّة حبيبنا ﷺ، وبعد أن جاء نبوخذنصر أنهى كلّ الوجود اليهودي، وبعد ذلك بفترات عاد اليهود ولكنّهم لم يعودوا حاكمين لأرض فلسطين، أي أنّ فترة حكمهم لفلسطين حكماً إيمانياً حقيقياً لم تكن إلا 80 سنة، وهي الفترة التي يعتمدون عليها في ادعائهم لأحقيتهم وملكيتهم لهذه الأرض، ثم انظروا ماذا قالوا عن أنبيائهم الذين حكموا هذه الفترة الإيمانية.

من بقي من بني إسرائيل في أرض فلسطين هرب إلى مصر، فقد توجّه معظمهم إلى بابل عن طريق السبي، 10 آلاف في السَّبي الأول و40 ألفاً في السَّبي الثاني.





ومن المهم القول إنّ هؤلاء اليهود عندما ذهبوا إلى أرض العراق بدؤوا يسجلون التوراة، وبحساب الفترة التي بدؤوا يسجلوا فيها التوراة من لحظة نزولها على موسى عليه السلام إلى تلك اللحظة ستصل إلى 700 سنة، فتخيّل أنّ بداية تسجيل التوراة لم تكن إلا بعد 700 سنة من نزولها على موسى عليه السلام، أي أنّه طوال تلك الفترة لم تكن هناك توراة بين أيديهم بسببِ سرقة التابوت والألواح، فلم يعد لديهم سوى ذكريات يتناقلونها بينهم، ولَكُم أن تتصوروا مدى التحريف الذي حدث للتوراة، وخاصة أنها أُعطيت لهؤلاء الكذّابين الأفّاقين، ولم يكتبوها على مدى سنة أو سنتين، بل كتبوها على مدار 400 سنة متصلة.

فالحديث هنا عن كتاب يستحيل بالعقل أو بالبرهان أو بالحجة أن يُحفظ، خاصةً بعد أن حدث نوع من البُعد عن الفطرة السليمة، والطعن في أنبياء الله عز وجل، والتضادّ بين الآيات والمواقف المختلفة، والاختلاف البَيِّن من أوَّله عن آخره، والركاكة في الأسلوب، وأمور أخرى كثيرة جدّاً داخل هذا الكتاب المحرَّف.

قال الله تعالى في كتابه الكريم آية تصف هذه الأحداث ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ﴾ وغالب المفسرين يقولون إنّ هذه الآيات تذكر الإفساد الأول والعلوّ الكبير الذي كان لبني إسرائيل بعد سيدنا سليمان عليه السلام، وأنّ هذا الإفساد هو الذي بسببه سلّط الله عز وجل عليهم عباداً له وهم قوم «نبوخذنصر» فقاموا بإهلاك بني إسرائيل، وما حدث من تضييع لقوتهم وإزالة لممالكهم، وهناك بعض المفسرين أو الدعاة من يقول ليس هذا هو التسليط لنبوخذنصر، فالله وصفهم بأنّهم عبادٌ لله عز وجل، ونبوخذنصر كان وثنيّاً ولم يكن من عباد الله عز وجل المؤمنين. فنقول: ليس معنى رفض الظالم عبوديته لله عز وجل أنّ هذا ينفي عنه العبودية؛ فهو من عباد الله عز وجل، شاء أم أبى، وكلّنا من عباد الله، سواءًا العصاة منّا أو الطائعون، الكفار أو المؤمنين، فقد قال الله تعالى: ﴿ عِبَادٗا لَّنَآ ﴾ وليس عُبَّاداً لنا، وكلمة عِباد هي جمع لكلمة عَبد، وكلّنا عباد لله عز وجل، ثم إنّ هناك إشارة جميلة جدّاً في كلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من الملهمين، عندما قال وهو يخاطب جيشاً من الجيوش المسلمة المسافرة إلى العراق للجهاد في سبيل الله: «ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إنّ عدوّنا شرٌّ منّا فلن يُسلَّطَ علينا، فقد سلَّط الله عز وجل المجوس وهم كفرة على بني إسرائيل وهم من عباد الله، لما أفسدوا في الأرض فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا».

لاحظ كيف أنّ الفاروق استخدم نفس الألفاظ التي جاءت في الآية، دلالة على أنّه يعلم أنّ نبوخذ نصر غير المؤمن هو الذي أرسله الله سبحانه وتعالى لإهلاك بني إسرائيل.

كان هذا هو العلوّ الأول لبني إسرائيل، فيا تُرى ما هو العلوّ الثاني؟

لعلّ العلوّ الثاني هو ما يحدث الآن في أرض فلسطين، هذا العلوّ الذي استطاع فيه اليهود أن يسيطروا على فلسطين، وأن تمتدّ أيديهم بعد ذلك إلى أماكن كثيرة، حيث احتلوا قبل ذلك بقاعاً من مصر والأردن، وبقاعاً من لبنان وما زالوا يحتلوها، وأجزاء من سوريا وما زالوا يحتلوها، ويريدون التوسع أكثر لتحقيق قضية إسرائيل الكبرى، ولهم اتصالات اقتصادية على أعلى مستوى في معظم بلاد العالم، ولهم هيبة سياسية، ولهم وضع اجتماعي معين، ولهم قرارات، وكلنا يعلم أنّ دولاً مسلمة كبرى تقع إلى جوار هذه الكيان الصغير المزروع داخل فلسطين الحبيبة، فكلُّ هذا علوّ، ونحن نطمع بالبشارة التي جاءت في كتاب الله سبحانه وتعالى أنّه سيُرسل عليهم عباداً له فيعيد الكرَّة، ويعيدوا إهلاك اليهود كما أُهلكوا من قبل نظراً لفجورهم وذنوبهم الكثيرة.

وهنا أريد أن أذكر تفسير اليهود أنفسهم في التلمود والتوراة لهذا الإهلاك الذي حدث على يد نبوخذنصر، لنعرف أنهم يفهمون القضية جيّداً، ويعلمون أنّ هناك مخالفة، إلا أنهم اختاروا طريق الضلال بإرادتهم، يقول التلمود وهو من الكتب المقدسة المفسِّرة للتوراة عند اليهود: «**حدث هذا** -أي إهلاك نبوخذ نصر لمملكة يهوذا- **عندما بلغت ذنوب بني إسرائيل مبلغها، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات إرميا**» -وهو أحد أنبياء اليهود المذكورين في التوراة- ويخاطب إرميا نبوخذنصر في التوراة ويقول له: «**لا تظن أنّك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الله المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب**» ورد هذا في التلمود المقدس عند اليهود، وكذلك كلام أشعيا، وهو أحد أنبياء اليهود في سفر أشعيا في التوراة حيث يقول: «**ويلٌ للأمة الخاطئة -يتكلم عن بني إسرائيل- الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين، تركوا الربّ، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء**» هذا في التوراة. وكذلك: «**الأرض تدنَّست تحت سكانها لأنهم تعدّوا الشرائع، غيرVوا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي**» هذا في كتبهم، فتخيّل واقع الأمر كيف كان؟! إذا كانوا يقولون هذا في كتبهم مع أنها شديدة التحريف، فما بالك بالواقع الحقيقي الذي كانوا عليه!! فقد كانوا على وثنية وضلال وبُعد عن الدين لا يتخيله عقل ولا تصفه أقلام، ويكفي ما ذكره ربنا في حقهم في سيرة أنبيائهم بدءاً بموسى عليه السلام مروراً بكلّ أنبيائهم.

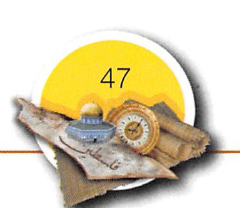


بدخول نبوخذنصر وإهلاك «مملكة يهوذا» بدأ عصر جديد في أرض فلسطين المباركة، بدأ الحكم البابلي من سنة 586 ق.م. إلى سنة 539 ق.م.، أي استمر لفترة 47 سنة فقط، وكأنهم لم يدخلوا إلا لإهلاك بني إسرائيل وإزالة «مملكة يهوذا» الظالمة، الخارجة عن شرع ربها سبحانه وتعالى، وبعد انتهاء الحكم البابلي بدأ الحكم الفارسي القادم من أرض إيران، حيث كان هناك صراع -وما زال- بين أرض إيران وأرض العراق في شتى مراحل التاريخ الإنساني،

سواء قبل الدولة الإسلامية أو بعدها. وبعد أن احتدم الصراع بين الفرس والبابليين، انتصر الفرس بزعامة قورش بمساعدة اليهود، وكما ذكرنا فقد كان اليهود يعيشون عبيداً في بابل نتيجة السَّبي، فساعدوا الفرس لينتصروا على البابليين، ثم فتحوا فلسطين وضموها للحكم الفارسي لفترة استمرت لـ 207 سنة، انتهت في سنة 332 ق.م. عندما دخل القائد الروماني الشهير جدّاً إسكندر المقدوني الذي أزال الحكم الفارسي الوثني وأقام الحكم الإغريقي الوثني كسابقه، وعاش اليهود تحت حكم الإسكندر المقدوني القائد الفاتح، وفي الرحلة ذاتها التي فتح فيها فلسطين، فتح الاسكندر مصر والعراق، ومساحات واسعة جدّاً من آسيا، ووسّع مملكته.

وهنا أودّ أن أشير إلى خطأ شائع، فبعض الناس يقرن اسم الإسكندر المقدوني بـ «ذي القرنين»، ويقارن بين قصة هذا القائد بقصة ذي القرنين المذكورة بالقرآن الكريم، وهنا نقول: إنّ ذي القرنين كما وصفه الله سبحانه وتعالى كان موحِّداً لله عز وجل وعبداً صالحاً، بينما كان الإسكندر المقدوني وثنيّاً يعبد الآلهة التي كان يعبدها الإغريق ولم يكن موحِّداً.

الفترة التي حكم بها الإسكندر المقدوني فلسطين، وأتباعه بعد ذلك، استمرت لـ 269 سنة، من سنة 332 ق.م. لسنة 63 ق.م.، والإغريق كان لديهم حضارة عريقة، وعلوم وازدهار، انبهر بها اليهود الذي عاشوا في أرض فلسطين، فبدؤوا يتعلمون لغة الإغريق وحياتهم، وانقسم اليهود القلّة الموجودون داخل أرض فلسطين إلى طائفتين؛ طائفة أطلقت على نفسها اسم المتأغرقة؛ أي الذين يقلّدون الإغريق، وهؤلاء عاشوا بأخلاق الإغريق وآلهتهم وغيّروا الكثير في التوراة المحرَّفة أصلاً تبعاً لما عندهم من التراث الإغريقي، وهكذا نستطيع أن نفهم كيف يتكلمون عن الربّ، فالربّ عندهم غير مقدس، والربّ عندهم قد يُغلَب، وقد يجهل الكثير من الأمور، وقد تكون أخلاقه غير سويّة، وهذا نتيجة الفكر الإغريقي الذي تسلّل إلى الديانة اليهودية، وهناك طائفة أخرى قليلة بقيت على اليهودية المحرَّفة لم تتأغرق كما تأغرقت الطائفة الأخرى، وهذه الطائفة اتبعت رجلاً ظهر فيهم اسمه «يهودا المكابي» و«المكابي» تعني المطرقة، وهو رجل معظّم عند اليهود، وقاموا بشيء من الثورة،



فاحترم الإغريق هذه الثورة وقَبِلوا دخول يهودا المكابي إلى القدس، وكان هذا الدخول في 25 يناير 116 ق.م.، وهو تاريخ أحد الأعياد المشهورة عند اليهود واسمه «عيد الأنوار» أو «حانوكا»؛ لأنّ أحد اليهود حافظ على التوراة -المحرَّفة أصلاً-.

هكذا كان الوضع في فلسطين إلى سنة 63 ق.م.، وبعد ذلك تغيرت الأوضاع تماماً بدخول دولة جديدة تسيطر على الأوضاع في فلسطين، لتستمر هذه السيطرة 700 سنة متصلة.

يا ترى ما هي هذه الدولــة ؟

وما الأحداث التي حدثت في زمانهـا؟

وما هي قصة المسيح □ في أرض فلسطين ؟



ولادة السيد المسيح ونهاية الوجود اليهودي

في سنة 324م حدث أمر غيّر طبيعة الدنيا في ذلك الوقت، وهو تنصُّرُ الإمبراطور الروماني قسطنطين بعد تنصُّرِ والدته، وقسطنطين هو أحد أشهر القياصرة الرومان مطلقاً، فهو الذي بنى مدينة القسطنطينية، التي أصبحت بعد ذلك عاصمة الدولة البيزنطية المشهورة، والتي هي الآن اسطنبول في تركيا، كان يعيش في روما ويحكم الدولة الرومانية واسعة الأطراف، وكانت دولة كبيرة تملك كلّ الدول التي حول البحر الأبيض المتوسط، والذي كان عبارة عن بحيرة في داخل الدولة الرومانية، ولذلك عرف ببحر الروم كما هو مشهور في كل الكتابات القديمة، وامتد ملكه إلى منطقة إيطاليا وفرنسا وألمانيا وكلّ شرق أوروبا، بالإضافة إلى ساحل الشام بكامله، بما في ذلك سوريا والأردن وفلسطين ولبنان، كما سيطر على مصر وليبيا وتونس والمغرب والجزائر، ولما تنصَّرَ جعل الديانة النصرانية هي الدّين الرسمي لكلّ تلك البقعة الشاسعة من الأرض، وهي الدولة الرومانية، وبذلك بدأ الانتشار السريع للنصرانية في الدنيا، وكان هذا بداية التحول من الوثنيّة إلى النصرانية، لكنّ الأفكار الوثنيّة في تلك المنطقة بقي أثرها وامتدَّ إلى الديانة الجديدة؛ فكلّ الخرافات التي كانت موجودة فيها، والآلهة المتعددة وتجسيمها، وكون الآلهة يتزاوجون ويتوالدون، وكلّ هذه المعتقدات الوثنية التي عاشوا عليها قروناً طويلة، بقيت وامتدت إلى الديانة النصرانية، فانتشرت الديانة النصرانية في أرجاء الدولة الرومانية بهذه الصورة المحرّفة،

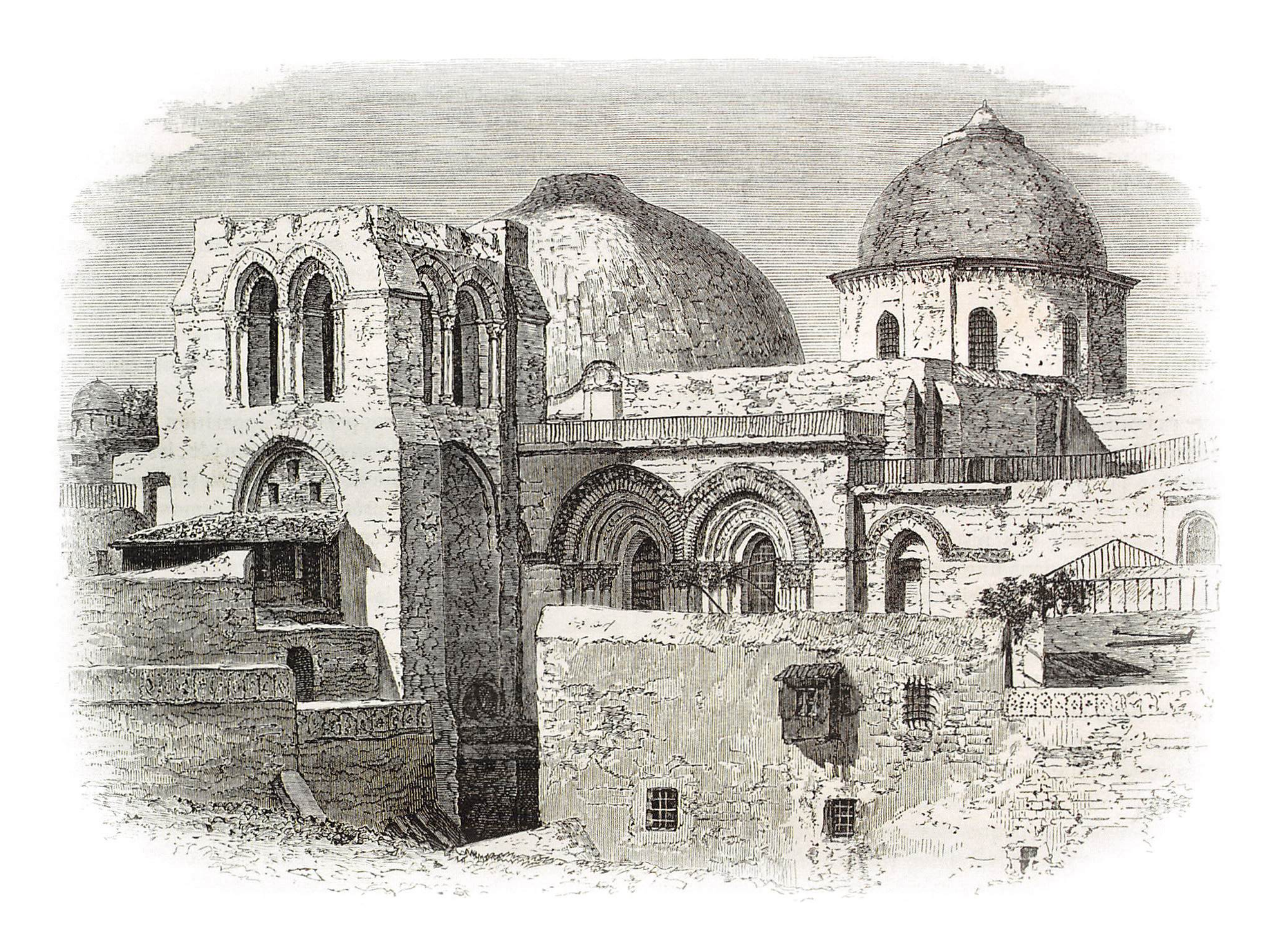
ومن تلك البقاع التي وصلتها النصرانية فلسطين، فقد كانت من أملاك الدولة الرومانية، وبقيت النصرانية هناك أكثر من 300 سنة، إلى أن بُعث نبينا وحبيبنا محمد ﷺ، أما فترة ميلاد عيسى عليه السلام والثلاثمائة سنة التي تبعتها، فلم يكون قد تنصَّر من أهل فلسطين في تلك المدة إلا قليل القليل.

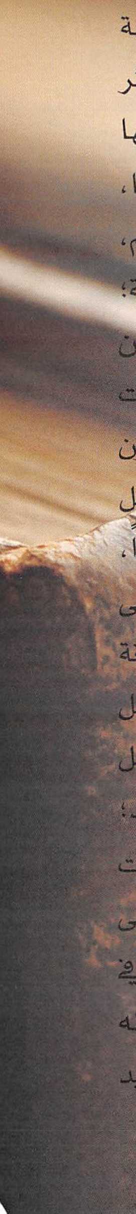
قصة تحول فلسطين للنصرانية تعود للإمبراطور المشهور قسطنطين، حيث كانت أمه قد زارت فلسطين، وبنت كنائس كثيرة فيها، لأنها كانت قد دخلت النصرانية حديثاً وتريد أن تقدم كلّ ما تستطيعه لخدمة هذا الدين الجديد، فبنت كنيسة القيامة المشهورة الآن في القدس، أما القصة التي يدّعونها من أنّ عيسى عليه السلام قُتل ومات وبقي ثلاثة أيام، ثم قام من مكانه في مكان محدّد في فلسطين، وعند هذا المكان الذي قام فيه عيسى عليه السلام بنوا كنيسة القيامة، أي قيام عيسى بعد مقتله بثلاثة أيام، فهي محض اختلاقات ليس فيها شيء من الصحة، ونحن نتساءل.. كيف يا ترى كان حال الدنيا إذا كان الإله قد غاب عنها ثلاثة أيام؟؟

تى في المعتقدات البيزنطية الرومانية يذكرون أنّ الزلازل تحصل عندما تأخُذُ الإلَهَ السّنَةُ من النوم، ولك أن تتخيل أنّه يغيب عن الدنيا ويموت ثلاثة أيام، هذا شيء لم يأت به الأولون ولا الآخرون.



وللأسف الشديد، فهم يقولون أنّ هذا المكان أنشأت فيه أم قسطنطين والتي تدعى «هيلانة» كنيسة القيامة، وكذلك كنيسة المهد في بيت لحم، وأنشأت كنيسة البشارة في الناصرة، حيث ترعرع ونشأ عيسى عليه السلام، وأصبح الجو العام في داخل فلسطين نصرانياً، ولم يقتربوا من المسجد الأقصى، فالمسجد الأقصى هو المكان الذي عُبد فيه ربنا سبحانه وتعالى كلّ هذه السنوات والقرون الطويلة السابقة، والذي عَبَدَ عيسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى فيه، وعبد يوشع ʊ أول أنبياء بني إسرائيل الذي دخل إلى أرض فلسطين ربنا سبحانه وتعالى فيه، وكذلك داوود وسليمان وكل أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، عبدوا الله فيه، ولذلك فإن البيزنطيين لم يقتربوا منه، ونحمد الله عز وجل أنّ رواياتهم تذكر أنهم لم يقتربوا منه، ولم يحولوه إلى كنيسة، فهذا سيصعب على المسلمين بعد ذلك أن يحوّلوه إلى مسجد، ولكن هذا تقدير رب العالمين.

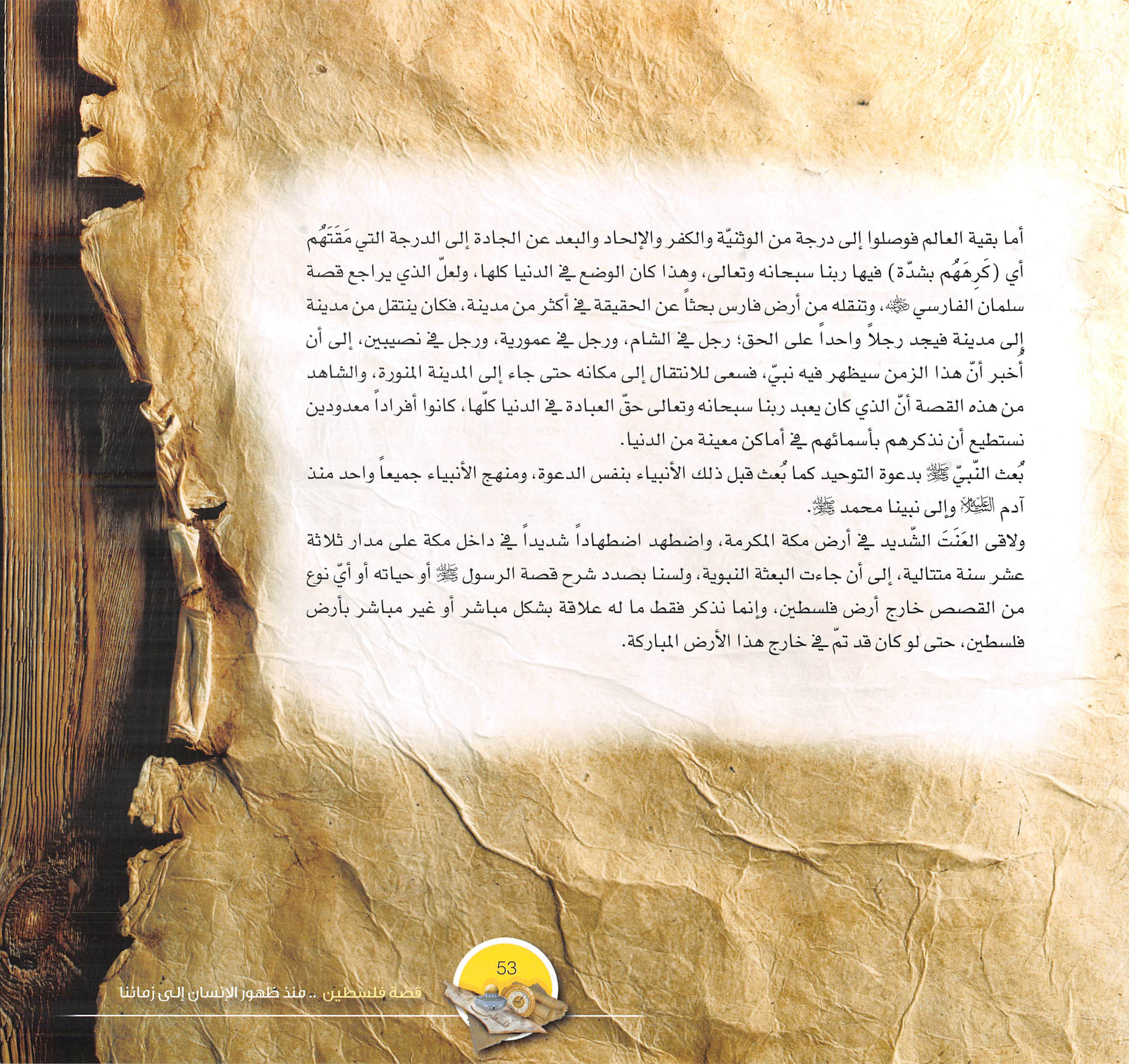




استمر العهد النصراني في فلسطين حوالي 312 سنة حتى دخول الفتح الإسلامي إلى فلسطين، وأقف هنا وقفة حول قصة النصرانية، فبعد أن تنصّر قسطنطين في سنة 324م، وَجَدَ أكثر من خمسين إنجيلاً، وما لا يحصى من الرسائل التي ذكرت فيها آيات يقال أنها من الآيات التي أُوحِيَ بها إلى عيسى عليه السلام أو قالها، فأمر قسطنطين بعمل مؤتمر يُجَمِّعُ فيه النصارى من كلّ العالم، حتى يَخرُجوا بإنجيل يُعبد به ربنا تعالى، فعقدوا «مؤتمر نيقية؛ ونيقية هي مدينة موجودة في تركيا الآن، وجمعوا فيه أكثر من ثلاثمائة أو أربعمائة - على اختلاف الروايات وفي بعض الروايات يصل إلى خمسمائة- من أساقفة وقساوسة العالم، وبدؤوا يدرسون ما هو الإنجيل الذي يجب أن يُتّبع، وأخرج كلّ واحد منهم الإنجيل الذي معه، فأخرجوا أكثر من خمسين إنجيلاً ورسائل كثيرة جدّاً، ومن هذه الأناجيل الكثيرة جدّاً انتخبوا أربعة أناجيل وهي: متّى ومُرقص ولوقا ويوحنا، وهناك أناجيل أخرى مشهورة ومعروفة لم يتم اختيارها في مؤتمر نيقية، ثم قالوا إنّ هذه هي الأناجيل التي ستُتَّبع، وبالطبع هناك تضارب كبير جدّاً بين هذه الأناجيل بعضها البعض، بل هناك تضارب كبير في داخل الإنجيل الواحد؛ لأنها كتابة بشريّة سُجّلت بعد عيسى عليه السلام بعشرات بل وبمئات السنوات، وقبل ذلك قلنا عن التوراة أنها سُجّلت بعد وفاة موسى عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة بسبعمائة سنة وأكثر، وكتبوها في أربعمائة سنة، فانظر إلى مدى التحريف الشديد الذي تعرّض له العهد القديم (التوراة)، والذي تعرض له كذلك العهد الجديد (الإنجيل).

هذا الوضع استمر فترة طويلة من الزمن، وما يهمنا أن نعرفه أيضاً ما حدث في سنة 395م من انقسام الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية، وكنا قد تحدثنا قبل ذلك عن الدولة الرومانية ككيان واحد يحيط بالبحر الأبيض المتوسط من كلّ مكان، ففي سنة 395م انقسمت الدولة الرومانية إلى شرقية وغربية، وأصبحت الشرقية عاصمتها القسطنطينية والغربية عاصمتها روما، وفي سنة 476م تقريباً أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي 100سنة تقريباً، حصل سقوط الدولة الرومانية الغربية تماماً، وبذلك آلت أملاكها بكاملها إلى الدولة الرومانية الشرقية التي عاصمتها القسطنطينية، والتي كانت تشرف إشرافاً مباشراً على فلسطين وما حولها من أراضي الشام، فبدأ حُكم الدولة البيزنطية الشرقية لفلسطين من سنة 476م، واستمر فترة من الزمن قبل البعثة النبوية بحوالي 160سنة.

بقيت أرض فلسطين مع كونها تحت السيطرة الرومانية محلّ صراع بين الفرس والرومان، ومن هذا الصراع ما حدث سنة 614م في زمن البعثة النبوية وانتصر فيه الفرس، وأخذوا أرض فلسطين من الرومان، وهو ما ذكره ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عندما قال: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾، وهذه الهزيمة التي تعرّض لها الروم كان لها وقع في مكة على المؤمنين وعلى المشركين، ثم حصل بعده بسبع أو تسع سنوات على اختلاف الروايات نصرٌ للرومان، واستعادوا السيطرة على أرض فلسطين، كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ وُلد الرسول ﷺ سنة 570م، وأرض فلسطين كانت تحت الحكم الروماني، وبُعث ﷺ سنة 609م تقريباً بدعوة التوحيد، وهذا كان شيئاً مستغرباً جداً في الأرض بكاملها حتى في أرض فلسطين، ومستغرب عند النصارى وعند اليهود وعند عامة الناس، إلا عند قليل جداً من علماء بني اسرائيل وعلماء النصرانية، وهم من كانوا يؤمنون بأنّ ربنا سبحانه وتعالى واحد، وأنّه يجب أن توجّه إليه العبودية الكاملة، ويعترف أنّ هناك نبيّ سيبعث في هذا الزمان، وكانوا يعرفونه بصفاته وآياته ﷺ، وكانوا قلّة، وكان الوضع شديد التدهور في العالم بأكمله، وقد صور ذلك الرسول ﷺ بكلمات قليلة رائعة، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، قال ﷺ: **«إِنَّ اللَّه نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»** (رواه مسلم) ، فَهُمْ عدد قليل جداً، حتى أنّ كلمة «بقايا» توحي بالأثرية، فلا يوجد مجتمعات، وإنما أفراداً في الدنيا مبعثرين يعبدون الله عز وجل.



أما بقية العالم فوصلوا إلى درجة من الوثنيّة والكفر والإلحاد والبعد عن الجادة إلى الدرجة التي مَقَتَهُم أي (كَرِهَهُم بشدّة) فيها ربنا سبحانه وتعالى، وهذا كان الوضع في الدنيا كلها، ولعلّ الذي يراجع قصة سلمان الفارسي ﷺ، وتنقله من أرض فارس بحثاً عن الحقيقة في أكثر من مدينة، فكان ينتقل من مدينة إلى مدينة فيجد رجلاً واحداً على الحق؛ رجل في الشام، ورجل في عمورية، ورجل في نصيبين، إلى أن أُخبر أنّ هذا الزمن سيظهر فيه نبيّ، فسعى للانتقال إلى مكانه حتى جاء إلى المدينة المنورة، والشاهد من هذه القصة أنّ الذي كان يعبد ربنا سبحانه وتعالى حقّ العبادة في الدنيا كلّها، كانوا أفراداً معدودين نستطيع أن نذكرهم بأسمائهم في أماكن معينة من الدنيا.

بُعث النّبيّ ﷺ بدعوة التوحيد كما بُعث قبل ذلك الأنبياء بنفس الدعوة، ومنهج الأنبياء جميعاً واحد منذ آدم عليه السلام وإلى نبينا محمد ﷺ.

ولاقى العَنَتَ الشّديد في أرض مكة المكرمة، واضطهد اضطهاداً شديداً في داخل مكة على مدار ثلاثة عشر سنة متتالية، إلى أن جاءت البعثة النبوية، ولسنا بصدد شرح قصة الرسول ﷺ أو حياته أو أيّ نوع من القصص خارج أرض فلسطين، وإنما نذكر فقط ما له علاقة بشكل مباشر أو غير مباشر بأرض فلسطين، حتى لو كان قد تمّ في خارج هذا الأرض المباركة.

علاقة الرسول ﷺ بأرض فلسطين

من أوائل أيام البعثة النبوية والرسول ﷺ مرتبط بأرض فلسطين، فالمسلمون يصلّون تجاه بيت المقدس؛ تجاه المسجد الأقصى من أول أيام الدعوة الإسلامية، وهذا غريب جدّاً، فالصلاة من أوائل العبادات التي فُرضت على المسلمين، حتى قبل أن يجهر رسولنا ﷺ بالدعوة في مكة المكرمة، وهناك بعض الروايات تذكر أنّ بعض المشركين كانوا يشاهدونهم يصلّون صلاة عجيبة ليست كالتي يصلّيها أهل الشرك في مكة المكرمة، فكانوا يسألون فقالوا: يزعم أنّه يأتيه الرؤيا أو وحي من السماء، ولم يكن الرسول ﷺ جهر بالرسالة بعد، فالمسلمون في مكة المكرمة وهم في بلد الكعبة، ويصلّون نحو المسجد الأقصى في أرض فلسطين، وهذا فعلاً عجيب من عدة وجوه:



أولاً: لأنّ الكعبة أعلى قدراً، فالكعبة بجانبهم بذاتها فلماذا يأمر ربنا سبحانه وتعالى بالتوجّه إلى المسجد الأقصى؟! وكلّنا يعلم أنّه أقل في المنزلة -على عِظَم قَدرِه- من الكعبة، لكن يأمر ربنا سبحانه وتعالى بالتوجّه إليه وهذا يدعو للاستغراب.

وثانياً: أنّ عامةَ الناسِ لا تعرف المسجد الأقصى، فعامة الناس في مكة المكرمة والجزيرة العربية حين يسألون عن هذا الدين وتعاليمه، فالإجابة نحن نصلي صلاة ونتوجه فيها إلى المسجد الأقصى، فلماذا المسجد الأقصى؟ وهذا السؤال قد يخطر ببال الكثير، في حين لو قلنا: إلى الكعبة، فلن يسأل أحد، لأنّ الكعبة معرّفة ومشرّفة في داخل مكة والجزيرة العربية بكاملها، لكن عندما نقول المسجد الأقصى، فهذا يدعو للتساؤل والاستغراب عند الناس، وخاصة أنّ المسجد الأقصى في ذلك الوقت كان أنقاضاً، ولما أسري بالرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى رأى بناء معيّناً وكان يستطيع أن يصف هذا البناء، ولكنّه كان خراباً، قد تُرك من قرون طويلة دون أن يُعمّر، ولما نُشِرَ الدين النصراني في أرض فلسطين لم يهتم أهلها بالمسجد الأقصى، ولكن اهتموا بالكنائس الموجودة في القدس وما حولها من مدن. ومن الأمور الغريبة أيضاً أنّ ربنا سبحانه وتعالى يعلم أنّ القبلة الأخيرة للمسلمين ستكون الكعبة في مكة المكرمة، فلماذا جعل هذه الفترة الانتقالية؟ لماذا يتوجّه المسلمون فترة من الزمن إلى أرض فلسطين أو إلى المسجد الأقصى، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى القبلة الأبدية التي ستبقى بقية حياة الرسول الله ﷺ والحياة الدنيا بكاملها إلى يوم القيامة!! فالكعبة هي القبلة الوحيدة للمسلمين اليومِ، فلماذا هذه الفترة الانتقالية؟ هذا التوجيه من رب العالمين سبحانه وتعالى للصلاة باتجاه المسجد الأقصى كان يحمل معانٍ كثيرة جداً، أختارُ لكم منها معنَيَينِ في غاية الأهمية:

• **المعنى الأول:** أنّ دعوة هذا النبي الخاتم ﷺ هي استكمال لدعوة من سبقه من الأنبياء؛ فهي تحمل نفس التوجه والعبادة والتوحيد لربّ العالمين سبحانه وتعالى، ومهبط الوحي بالنسبة لعامة الأنبياء قبل الرسول ﷺ كانت في أرض فلسطين، فبهذا التوجه إلى أرض فلسطين ينقل ربنا سبحانه وتعالى العالم بكامله نقلة هائلة إلى تصور واحد، أنّ جميع الأنبياء يتوجهون إلى إله واحد، ويعبدون ربّاً واحداً، وبشريعة تأتي حسب اختلاف الزمان، ولكن كلّها تتوجه إلى عبادة إله واحد هو ربّ العالمين سبحانه وتعالى، ربّ سليمان وداود وموسى ويوشع وعيسى عليهم السلام، وربّ كلّ من عاش على هذه الأرض المباركة وبُعث فيها، وما أكثر الأنبياء الذين عاشوا عليها، هذا هو المعنى الأول وهو في غاية الأهمية، وفيه من التبجيل والتوقير والتعظيم لعامة أنبياء الله،
فلا نقول أنّ ديننا قد نقض الأديان الأخرى، فنقلّل من شأن الأنبياء هؤلاء، بل نرفع من قدرهم، ونجعل ركناً رئيسيّاً من أركان إيماننا أن نؤمن بهؤلاء الأنبياء الكرام.

• **المعنى الثاني:** هو إعلاء قيمة فلسطين والمسجد الأقصى والقدس في عيون كلّ المسلمين، فتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى في الصلاة لمدة خمس عشرة سنة متتالية، أي من أول ما بُعث الرسول ﷺ وطول فترة دعوته في مكة المكرمة التي استمرت ثلاث عشرة سنة، والمسلمون يصلون باتجاه المسجد الأقصى، حتى كانت تتوق نفس الرسول ﷺ إلى الصلاة باتجاه الكعبة، وهي أكثر عظمة وأعلى قدراً، فكان يتمنى أن يصلّي إلى الكعبة، ولهذا فقد كان يقف للصلاة جاعلاً الكعبة بينه وبين المسجد الأقصى في فلسطين،

فيكون متوجهاً للكعبة ومتوجهاً للمسجد الأقصى في فلسطين، واستمر في وجهة الصلاة إلى المسجد الأقصى طوال فترة دعوته في مكة المكرمة، واستمر في ذلك بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة، وظلّ سبعة عشر شهراً يصلى باتجاه المسجد الأقصى، إلى أن حدث تغيير القبلة في 15 شعبان عام 2 هـ، عندما ذهب إلى المدينة المنورة وأصبحت مكة في جنوب المدينة المنورة والقدس في الشمال، صلى ﷺ لمدة سبعة عشر شهراً متصلاً إلى المسجد الأقصى وظهره للكعبة، وكلّ هذا لتأكيد وترسيخ أهمية المسجد الأقصى في أذهان المسلمين، وحتى بعد أن حُولّت القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة لم يقلّ اهتمام الرسول ﷺ بالمسجد الأقصى، بل كان دائم الربط بينه وبين الكعبة، ونُذَكِّرُ هنا بالحديث المشهور: «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِى هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**» (متفق عليه).

فبجملة واحدة قصيرة وقد أوتي جوامع الكلم، ربط ﷺ بين المساجد الكبرى الثلاثة. فهل لك أخي المسلم أن تتخيل لو أنّ أحدهم احتل الكعبة المشرفة أو المسجد النبوي ماذا سيكون شعورك؟ الأصل أن يكون شعورك اليوم هو ذاك الشعور نفسه بسبب احتلال المسجد الأقصى، فقد ربط رسول الله ﷺ بين المساجد الثلاثة في هذا الحديث، وقال في حديث آخر: «**فَضْلُ الصَّلاَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلاَةٍ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلاَةٍ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَمْسُمِائَةِ صَلاَةٍ**» (رواه البزار)، فهو مسجد له خصوصية، وليست هذه الخصوصية للمسجد الأقصى فقط، بل لعامة أرض فلسطين، ولعامة من أحاط بفلسطين من الأراضي التي حولها من الشام والأردن وسوريا، ولهذا أدلة كثيرة.

فلسطين في عصر النبوة

توجّه المسلمون بالصلاة إلى المسجد الأقصى لمدة خمسة عشر سنة متصلة، ثلاثة عشر سنة في مكة المكرمة، وسبعة عشر شهراً في أرض المدينة المنورة بعد الهجرة، وهذا يمثل نحو ثلثي فترة البعثة النبوية، يعني ذلك خمسة عشر سنة من أصل ثلاثة وعشرين سنة، وهذا يعني أيضاً أنّ معظم حياة الرسول ﷺ أو الجانب الأكبر من حياة الرسول ﷺ كان متوجهاً بالصلاة إلى المسجد الأقصى، وفي هذا دلالات كثيرة لعلّ من أهمها تعظيم قدر فلسطين في صدور المؤمنين، وهذا الكلام لا يختص فقط بالجيل الذي صلّى باتجاه بيت المقدس، بل وإلى الآن وإلى يوم القيامة، وما زلنا نقول أنّ المسجد الأقصى أولى القبلتين وهذه لا ننساها أبداً، وهذا جزء مهمٌّ من ديننا، خمسة عشر سنة متتالية في عمر بعثة حبيبنا ﷺ، ولم يكن الرسول ﷺ يعظّم المسجد الأقصى فقط، بل كان يعظّم أيضاً المكان من حول المسجد الأقصى، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾، وكانت السيدة ميمونة بنت سعد رضي الله عنها تسأل الرسول ﷺ عن ذلك «**عن مَيْمُونَةَ مَوْلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ**» (رواه ابن ماجه) (يقصد القدس وما حولها من أرض الشام)، فتخيل أنّ بركة هذه الأرض وقيمتها ستظل إلى يوم القيامة، وسَيَحشُرُ ربنا سبحانه وتعالى الناس يوم القيامة، لا يحشرهم في البيت الحرام ولا في مكة المكرمة ولا في المدينة المنورة، إنما يحشرهم في بيت المقدس، في أرض الشام، ولهذا دلالات في غاية الأهمية على عظم قدر هذه الأرض. ولم يعظّم رسولنا ﷺ فقط الأرض التي هناك، وإنما عظّم البشر الذين يعيشون على هذه الأرض، قال ﷺ في أحد الأحاديث العظيمة التي تنبأ بالمستقبل الذي سنأتي عليه قال: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» (رواه مسلم). ستظل هناك طائفة من المؤمنين تحمل الراية، ولن تسقط راية الإسلام أبداً، هذا وعد من رب العالمين سبحانه وتعالى، بشّر به حبيبنا في أكثر من رواية.

وفي رواية أخرى: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الدِّينِ ظَاهِرِينَ، لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ**» (رواه أحمد)

أي في أرض فلسطين، في القدس وحول القدس، فحول القدس أرض رباط، ولعل من يراجع التاريخ سيلاحظ هذا.

نحن نعيش الآن مع قصة فلسطين، ونرى الملاحم الكبرى التي عاشها أنبياء الله عز وجل في أرض فلسطين، الصدام بين الحق والباطل المستمر في كلّ عهود الأنبياء، ثم في عهد نبينا ﷺ ، ثم في عهد الفتوحات الإسلامية وإلى زماننا الآن، وسنمرّ بمراحل كثيرة جدّاً وإلى يوم القيامة، فهذه نقطة صدام دائمة بين الحق والباطل في أرض فلسطين، لأجل ذلك زرع ربنا سبحانه وتعالى فيها الذين يحملون اللواء ولا يتركونه أبداً، في أرض فلسطين، في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، فعمّت بركة المسجد الأقصى وبيت المقدس كلّ بلاد الشام؛ قال رسول الله ﷺ يوماً: **«طُوبَى للشَّامِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهِمْ»** (رواه الترمذي) فالشام تظلله ملائكة الرحمن، الشام كلّه، ومركزه بيت المقدس في القدس الشريف في المسجد الأقصى، والأحاديث في هذا الأمر كثيرة، ولكن نأخذ بعض الشواهد من بعض أحاديث الرسول ﷺ ، وهناك كتب ومؤلفات ضخمة، أُلفت في فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى وأرض فلسطين، ومن أراد الإستزادة فليرجع إليها.

وكأنّ كلام الرسول ﷺ بوصف القيمة العظيمة لأرض فلسطين، ومدح الناس التي تعيش هناك، ووصف قيمة أرض الشام كأنّه ليس كافياً، فأرسل ربنا سبحانه وتعالى رسولنا الكريم ﷺ إلى أرض فلسطين بنفسه، لتزداد تشريفاً وتعظيماً وبركة بزيارة الحبيب إلى تلك البلاد، وأرسله سبحانه وتعالى إلى تلك البلاد بمعجزة خارقة وهي معجزة الإسراء والمعراج، وكلّنا يعلم معجزة الإسراء والمعراج والدلالات فيها أكثر من أن تحصى، والناس تختلف في تحديد زمان الإسراء والمعراج، وهو يقيناً كان في فترة مكة المكرمة، ويختلفون في تحديد السنة العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وأنا أميل إلى أنّه في السنة الثانية عشرة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، وهذا من أصحّ الأقوال، والشاهد من القصة أنّ الإسراء كان بالروح والجسد، فانتقل الرسول ﷺ بجسده كما وصف ﷺ وترك فراشه دافئاً، وأُسرِيَ به إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِجَ به إلى السماوات العُلى، ثم عاد إلى فراشه وما زال الفراش دافئاً، وهناك بعض الناس يقول أنّ الإسراء كان بالروح فقط وليس بالجسد، وهؤلاء مهزومون نفسياً أمام ما يقوله الغرب والشرق من أنّه لا يعقل أن ينتقل الرسول من هذا المكان إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات العُلى ويعود، وكلّ ذلك في جزء من الليل، ونحن نقول لهم: من الذي أسرى به؟ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، عندما تتفكر في قدرة رب العالمين فكل هذه الأشياء تهون، وكما قال الصدّيق عليه رضوان الله: أصدّقه في خبر السماء يأتيه في لحظة -يعني أنّ جبريل ينزل عليه من السماء العليا إلى الأرض، ثم يعود إلى رب العالمين ثم يعود إليه، كلّ هذا في لحظات فريدة، في ثانية أو أقل من الثانية ومع ذلك نصدقه- أفلا نصدّقه في هذا الخبر! وهذا هو يقين المؤمن.

وصل ﷺ إلى المسجد الأقصى في الإسراء، ويجب أن نقف وقفة ونسأل لماذا الإسراء؟ إذا كان الغرض أن يرى الجنة والنار، ويتعرف على أحوال الغيب، ويقابل الأنبياء في السماوات العلى، ثم يصل إلى سدرة المنتهى، ويلتقي مع رب العزة سبحانه وتعالى في هذا اللقاء الفريد الذي ما حدث مع بشر أو خلق قط، فلماذا هذه الانتقالة؟ لماذا لا يُعرَجُ به من عند الكعبة المشرفة في مكة المكرمة إلى السماوات العُلى؟ يقول بعض المفسرين: حتى يقابل الأنبياء، وإن كان كذلك فربنا سبحانه وتعالى قادر أن يأتي بالأنبياء إلى مكة المكرمة، ومكة المكرمة أعظم قدراً من القدس، والبيت الحرام أعظم قدراً من المسجد الأقصى، فلماذا إذاً هذه الانتقالة؟

هذه الانتقالة كانت لأهداف وحكم كثيرة، أذكر منها حكمتين:

- **الحكمة الأولى:** تسلّم مفاتيح قيادة البشرية؛ فالبشرية دينيّاً كانت تُقاد من فلسطين، وكلّ الأنبياء السابقين، أنبياء بني إسرائيل، ونبيّ النصارى عيسى عليه السلام بُعث في هذا المكان، وكان العالم يُقاد دينياً والتوحيد لرب العالمين سبحانه وتعالى يبدأ من هذا المكان، من أرض فلسطين.
 الآن ستنتقل القيادة إلى أمة الإسلام، وهي الأمة الخاتمة التي بُعث فيها النبي الخاتم ﷺ، وكتابنا القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، آخر منهج تشريعي أوحَى به ربنا سبحانه وتعالى إلى العباد، وهو الذي ارتضاه لهم ليكون حاكماً لحياتهم إلى يوم القيامة، فلذلك ذهب ﷺ ليتسلّم مفاتيح قيادة الدنيا بكاملها وإلى يوم القيامة من المكان الذي ظلّ يقود الدنيا سنوات وسنوات.
- **الحكمة الثانية:** تعظيم قيمة المسجد الأقصى وفلسطين في عيون المسلمين والمؤمنين إلى يوم القيامة، فهو القبلة الأولى، والصلاة في المسجد الأقصى تعدل خمسمائة صلاة فيما سواه، لا تُشد الرحال إلا إليه مع المسجد الحرام والمسجد النبوي، وفوق هذا كلّه فقد كان الإسراء إليه، ليصبح مسرى رسولنا ﷺ، يصبح هذا المكان مكرّماً ومعظّماً عند عامة المسلمين، يتوقون إليه ويتذكروه في كل عام مرّة على الأقل، وعندما نتحدث عن الإسراء والمعراج، فلا يمكن أبداً أن يخلو الحديث عن فلسطين والأقصى، كلّ هذا لأنّ ربنا سبحانه وتعالى يعظّم عندنا قدر هذا المكان العظيم؛ المسجد الأقصى والقدس وأرض فلسطين، ولأنّ ربنا سبحانه وتعالى في سابق علمه يعلم أنّ هذا المكان سيظل بؤرة صراع، وسيطمع فيه الفرس والرومان والصليبيون والتتار والإنجليز واليهود وغيرهم وغيرهم ممن عرفنا وممن لم نعرف بعد، وضع كلّ هذه المقومات لتحميس المسلمين للدفاع عن هذا المسجد العظيم، وهذا المكان المبارك، ولكن ليست هذه فقط هي فضائل فلسطين وبيت المقدس.

من يقرأ سورة الإسراء يجد في أول السورة آية تتحدث عن الإسراء والمعراج، ثم بعدها بآيات معدودة يتحدث عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، ولا شكّ أنّ العلاقة بينهما واضحة، فالحديث عن الإسراء والمعراج وقضية انتماء المسلمين والمؤمنين إلى هذا المكان وإلى المسجد الأقصى والأرض التي بارك ربنا سبحانه وتعالى فيها حول هذا المسجد الأقصى، وقضية الحديث عن بني إسرائيل وإفساد اليهود في الأرض، هذه قضية واضحة الربط تماماً، وربنا سبحانه وتعالى يقول لنا بشكل واضح، إنّ الصراع على هذه المنطقة سيظل طويلاً إلى يوم القيامة، نعم قد يحدث صدام بين المسلمين وبين أعداء آخرين كثيرين منهم الرومان أو الصليبيين أو غيرهم، لكن ستظل كلمة اليهود أو صراع اليهود مع المسلمين حول هذا المكان دائراً إلى يوم القيامة.

ولعلّ من يشاهد الأحداث التي تمرّ بها الأمة في زماننا اليوم يفهم جيّداً هذا الربط الذي في سورة الإسراء، فهم يدّعون الهيكل مكان المسجد الأقصى أو تحته، وهذه عقيدتهم المحرّفة كما يقولون، ونحن عقيدتنا أنّ المسجد الأقصى هو الذي أسري بالرسول ﷺ إليه، وهو المكان المشرّف المعظّم الذي تحدثنا عنه، هذه عقيدتهم وهذه عقيدتنا، فهي عقيدة في مواجهة عقيدة؛ يقولون هيكلهم ونقول مسجدنا، لذا فإن الاهتمام بالمسجد الأقصى أو فلسطين لم يكن مجرّد اهتمام بالمكان أو البشر الذين يعيشون هناك، أو بالتطلعات إلى المستقبل الذي يكون عليه، ولكن كان الرسول ﷺ يهتم أيضاً حتى في زمن مكة المكرمة بالقوى المتصارعة على هذا المكان من القوى العالمية، فكما قلنا سابقاً أنّ الفرس والرومان كانوا يتقاتلون على القدس وأرض فلسطين، وهذا الصراع الذي كان يدور بين هذه القوى العظمى كان يشغل الرسول ﷺ والصحابة معه، مع أنّ الرسول ﷺ كان يعيش في ذلك الوقت في مكة المكرمة، ومعه قلة قليلة جداً من المؤمنين، وأين قوة فارس وقوة الرومان من قوة المسلمين آنذاك؟ هذه قوى لا يمكن بحال من الأحوال أن تقارن بقوة المؤمنين في ذلك الوقت، ومع ذلك كان الرسول ﷺ مهتماً بصراع القوى العالمية حول هذا البيت العظيم، والمكان المبارك أرض فلسطين، وعندما انتصر الفرس على الرومان في أرض فلسطين **ماذا حدث؟**

حزن الرسول ﷺ وصحابته حزناً شديداً، وفرح المشركون، حزن الرسول ﷺ لأنّ الذين هُزموا أهل كتاب، وهم النصارى الذين كانوا يحكمون فلسطين، وهي الدولة الرومانية مع التحريف الذي كان عندهم، ومع الخلاف الشديد الذي كان بينهم وبين ما يجب أن يكون عليه من الاعتقاد السليم، ومع ذلك حزن ﷺ لأنهم أقرب إلى المؤمنين من أولئك الذين يعبدون النار من دون الله عز وجل وليسوا من أهل الكتاب، وفرح المشركون لأنّ الفرس وثنيون كالمشركين، فاعتبروا أنّ ذلك بشارة خير للمشركين، لكن نزل قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ، وهذه بشارة للمسلمين أنّ الرومان سينتصرون على الفرس عبدة النار من دون الله عز وجل.

حمل المسلمون هذه البشارة وآمنوا بها بكل يقين، حتى أنّ الصدّيق رضي الله عنه راهن أحد المشركين على هذا النصر، عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ لأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لأَبِي بَكْرٍ، فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : أَمَا إِنَّهُمْ سَيَهْزِمُونَ،



فذكر ذلك أبو بكر لهم فقالوا: اجْعلْ بيْننا وبيْنك أجلا، فإنْ ظهروا كان لك كذا وكذا، فإنْ ظهرْنا كان لنا كذا وكذا، فجعل بيْنهمْ أجلا خمْس سنين، فلمْ يظْهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنّبيّ عليْه السّلامُ فقال: ألا جعلْته -أُراهُ قال- دُون الْعشْرِ» (رواه الطبراني في المعجم الكبير)

وفي سبع أو تسع سنوات على اختلاف الروايات تمّ نصر الرومان على الفرس في أرض فلسطين، وعادت الأرض الفلسطينية تُحكم بالنصارى الرومان إلى أن أخذ الحكم بعد ذلك المسلمون، والشاهد أنّ الرسول ﷺ كان يتابع الأحداث في أرض فلسطين حتى وهو في مكة المكرمة، ولأنّ النصارى حرّفوا وبدلوا كثيراً، فقد حرص الرسول ﷺ أن يزرع في قلوب المسلمين أنّ هذه الأرض المباركة لن تظل طويلاً في أيدي النصارى المبدلين لشريعتهم، والذين لم يتّبعوا أقوال نبيهم عيسى عليه السلام، ولم يتّبعوا البشارة التي جاء بها عيسى عليه السلام أنّ هذا الرسول حق، وأنّه عندما يبعث لا بدّ لكم أن تتبعوه، ولهذا بشر الرسول ﷺ في يوم الأحزاب الصحابة رضي الله عنهم أنّ الشام بكاملها ستفتح بالإسلام، عندما اعترضتهم صخرة شديدة، وذهبوا إلى الرسول ﷺ وأتى بالمعول وبدأ يكسر هذه الصخرة وقال: **«اللّه أكْبرُ أُعْطيتُ مفاتيح الشّام، واللّه إنّي لأُبْصرُ قُصورها الْحُمْر منْ مكاني هذا»** (رواه أحمد) يبشّر الصحابة وهم محصورون في المدينة المنورة يوم الأحزاب أنّه سيأتي زمان يفتح الله عز وجل للمسلمين والمؤمنين أتباع النبي الخاتم ﷺ أرض فلسطين، فيحكموها بالإسلام كما بشّر الرسول ﷺ، وكان هدفه ﷺ أن يزرع فيهم المعنى الدقيق أنّ فلسطين هدية للمؤمنين، وأنّ الذي يتبع شرع ربنا سبحانه وتعالى يُعطى هذه الأرض، والذي يفرّط تضيع منه هذه الأرض، وإذا فرّط النصارى وبدّلوا وغيروا فلا بدّ أن تُنزع من الرومان حتى لو انتصروا على الفرس، وهما أعظم قوتين في الأرض في ذلك الحين، تُنزع من يد الرومان وتعطى للمؤمنين ولو كانوا قلّة ضعفاء.

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ إشارة لطيفة إلى كلمة أدنى، حيث أثبت العلماء الآن أنّ أدنى الأرض هي أكثر النقاط انخفاضاً عن سطح البحر في الدنيا، هي هذا المكان الذي هُزم فيه الرومان، أربعمائة متر تقريباً تحت مستوى سطح البحر في أدنى الأرض، وهي من المعجزات العلمية في القرآن الكريم.

بعد صلح الحديبية الذي كان في أواخر العام السادس من الهجرة بدأ الرسول ﷺ يراسل ملوك وأمراء العالم وقادتهم، وكان ممن أرسل إليهم القادة الذين يحكمون فلسطين وما حولها من أرض الشام، فلسطين كانت تحت الحكم الروماني في ذلك الوقت، وكان يتولى قيادة الأرض الفلسطينية وما حولها الغساسنة النصارى التابعون بعد ذلك للدولة الرومانية.

ممن أرسل إليهم الرسول ﷺ الرسائل هرقل عظيم الروم في زمن بعثة الرسول ﷺ ، وأرسل كذلك إلى شرحبيل بن عمرو الغساني ملك الغساسنة الذي يحكم دمشق وما حولها من أرض فلسطين وأرض الشام، فأرسل إليهم رسائل تدعوهم إلى الإسلام.

وكلنا يعرف الرسالة المشهورة التي أرسل بها الرسول ﷺ إلى هرقل وإلى عامة القادة في العالم، وعندما جاءت هرقل رسالة الرسول ﷺ أراد أن يستوثق من طبيعة الرسول ﷺ وهو يذكر أنّه نبيّ ومبعوث من ربّ العالمين سبحانه وتعالى، فسأل عن بعض العرب وكان أبو سفيان في تجارة في منطقة الشام فأتوا به إلى هرقل للحوار معه حول قضية بعثة الرسول ﷺ ، وكان الحوار المشهور، «عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ:



يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لا فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لا قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لا فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لا وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ» (متفق عليه)

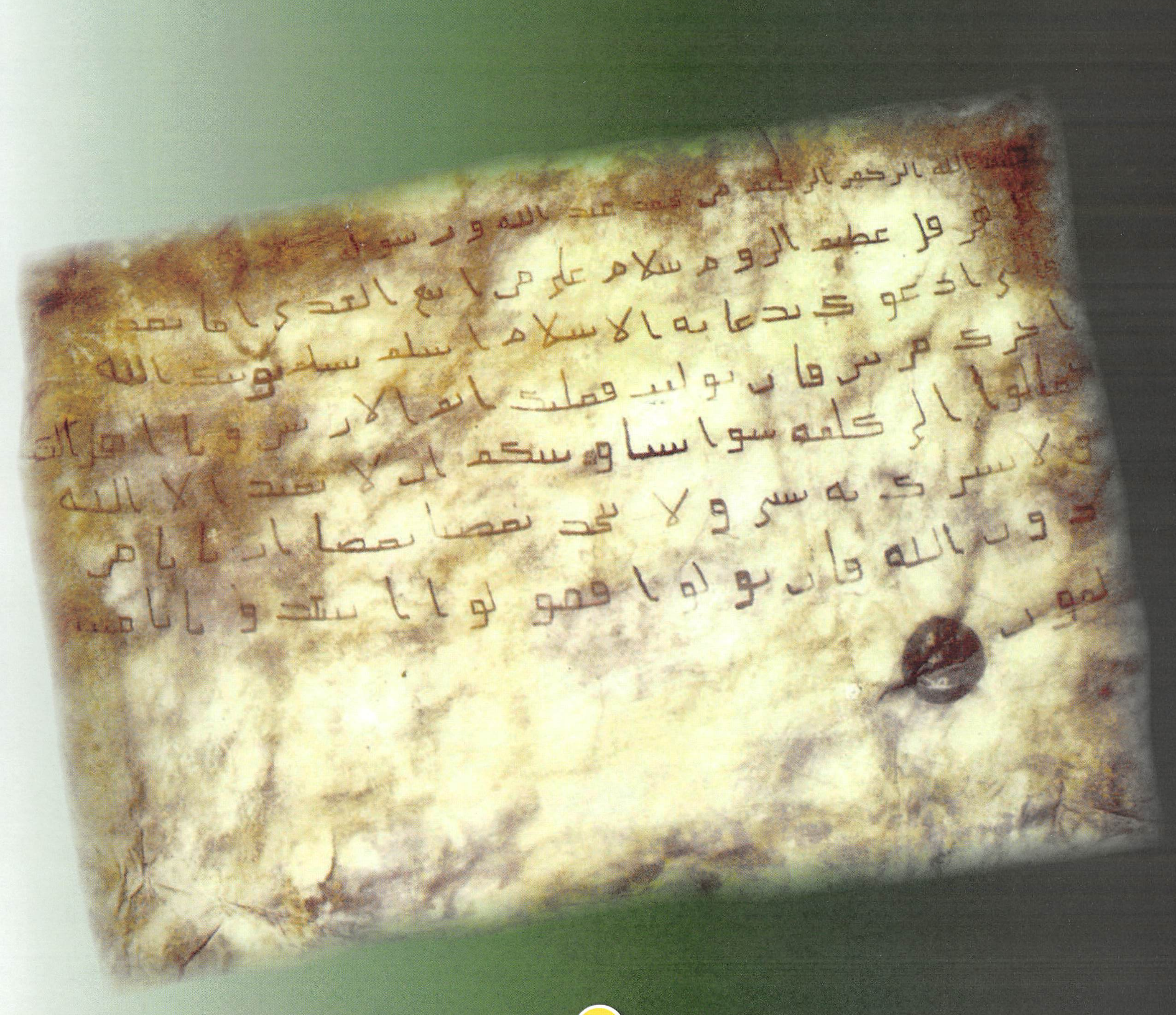


وفي هذا الحوار يسأل هرقل أسئلة معينة وهذه دلالة واضحة وصفات معينة موجودة في كتب التوراة والإنجيل تصف رسولنا ﷺ، وتحدّد صفات معينة للنبيّ الذي يبعث في آخر الزمان، وأراد أن يُسلِمَ لكنّه علم أنّ ملكه سيضيع، وأنّ الناس سيقتلونه في أرض الرومان، ووجد القساوسة كلّهم أو معظمهم يهاجمون النبيّ ، فخاف على ملكه وضنّ به وكفر بمحمد ﷺ، مع يقينه التام أنّه مبعوث من ربّ العالمين، هذا كان موقف هرقل، لكنّه حمّل الرسول بالهدايا وردّه ورفض أن يدخل في الإيمان خوفاً من أتباعه وسلطانهم.

ماذا فعل شرحبيل بن عمرو الغساني الذي كان يحكم دمشق في ذلك الوقت؟

وما هو ردُّ الرسول ﷺ على الذي فعله شرحبيل بن عمرو الغساني؟





ردُّ شرحبيل بن عمرو الغساني على رسالة رسول الله ﷺ

شرحبيل بن عمرو الغساني كان يحكم فلسطين ودمشق وما حولها من أماكن في الشام، وكان تابعاً لهرقل قيصر الرومان في ذلك الوقت. كان رسول الرسول ﷺ إلى شرحبيل بن عمرو الغساني هو الحارثة بن عمرو الأسدي رضي الله عنه، الذي حمل نفس الرسالة التي وُجّهت إلى ملوك وأمراء العالم، ففعل شرحبيل بن عمرو ما لم يفعله أحد من أمراء وملوك العالم مخالفاً بذلك الأعراف كلها، حيث أمسك بالرسول وقتله، وهذه جريمة شنيعة، ففي كلّ الأعراف (الرُّسُلُ لا تُقتَل)، والنبي ﷺ عندما جاءه رسولان من عند مسيلمة الكذاب وكانا من المؤمنين قبل ذلك وارتدا ودمهما حلال، ففي شريعتنا المرتدُّ يُقتَل، ومع ذلك لكونهما جاءا برسالة من مسيلمة الكذاب، قال لهما الرسول ﷺ لولا أنّكما من الرسل لقتلتكما، فحفظ حمل الرسالة دمائهما، لكنّ الذي فعله شرحبيل بن عمرو الغساني تعدّى به كلّ الأعراف، وقتل رجلاً من رعايا الدولة الإسلامية، هو رسول رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأسدي رضي الله عنه. **فماذا كان ردُّ فعل الرسول ﷺ ؟**

نظر الرسول ﷺ إلى هذا الفعل على أنّه انتهاك لحرمة الأمة الإسلامية، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة وقبل فتح مكة، ولم تكن الدولة الإسلامية قد توسعت، وكانت ما تزال دولة صغيرة في المدينة وبعض القبائل حول المدينة المنورة، لكنّه وجد أنّ هذا الانتهاك لا بدّ أن يُرَدَّ عليه بالقوّة، فجهّز ﷺ جيشاً كاملاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل للاقتصاص لهذا الرسول القتيل الذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني، ولم ينظر الرسول ﷺ إلى أنّ شرحبيل هذا وراءه الغساسنة بكاملهم، بل ووراءه الدولة الرومانية التي تقتسم العالم في ذلك الوقت مع دولة الفرس، وإنما نظر إلى حرمة الدولة الإسلامية، وكرامة الأمة الإسلامية، ودماء هذا الشهيد التي سالت على أرض فلسطين، فأخرج جيشاً كبيراً، انظروا الآن إلى الحرمات التي تنتهك في بلاد فلسطين وغيرها من بلاد العالمين، ولا يتحرك جيش من جيوش المسلمين لها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



خرج الجيش المكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وكان أكبر جيش إسلامي منذ نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة في العام الأول من الهجرة وإلى هذه السّنة الثامنة من الهجرة، أو في آخر السنة السابعة من الهجرة كما تقول بعض الروايات، وكان على رأس الجيش زيد بن حارثة رضي الله عنه، فإن قتل فالإمارة لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فإن قتل فالإمارة لعبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه، فإن قُتل فليجتمع المسلمون ويختاروا من بينهم زعيماً لهم، وهذا ما عُرف في التاريخ بـ «سريّة مؤتة» أو «غزوة مؤتة»، وتُسمى غزوة مع أنّ النبي ﷺ لم يخرج فيها لكبر حجم الجيش الذي خرج فيها.

عندما خرج هؤلاء الثلاثة آلاف لقتال الغساسنة والأخذ بثأر الحارث بن عمير الأسدي رضي الله عنه، جاء الغساسنة بمائة ألف مقاتل، وأعانهم الرومان بمائة ألف أخرى، فجمعوا مئتي ألف مقاتل نصراني ضد ثلاثة آلاف مقاتل مسلم فقط، بدأت المعركة واستشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ثم اختار المسلمون رجلاً من بينهم هو خالد بن الوليد رضي الله عنه فتمّ له الفتح كما ذكر رسولنا ﷺ .

المؤرخون يختلفون حول نتائج هذه المعركة، فمنهم من يقول أنّ المسلمين قد انتصروا، ومنهم من يقول أنّ النصارى قد انتصروا، ومنهم من يقول أنها كانت قوى متكافئة ومتعادلة، وأنا أرى في واقع الأمر أنّ المسلمين انتصروا في هذه المعركة، والشواهد على ذلك كثيرة، وليس هذا مجال التفصيل بها، ولكن نذكر فقط تعليق الرسول ﷺ على تلك الأحداث، فقد وقف في المدينة يصف بإعجاز ظاهر ما يحدث في أرض مؤتة الموجودة الآن في الأردن، ويقول: **حمل الراية زيد بن حارثة فقتل، وحمل الراية جعفر بن أبي طالب فقتل، وحمل الراية عبد الله بن رواحة فقتل**، وعيناه تذرفان بالدموع لاستشهاد هؤلاء العظماء، ثم قال: **وحمل الراية بعد ذلك سيف من سيوف الله وهو خالد بن الوليد ففتح الله عليه**، وهذه الكلمة لا تقال إلا عند النصر لا لمجرد الانسحاب، بدليل أنّ القوى الرومانية الضخمة الهائلة المكونة من مائتي ألف مقاتل لم تتبع المسلمين عند انسحابهم، وأنّ شهداء المسلمين في هذه الموقعة لم يتجاوزوا العشرين شهيد، ولك أن تتخيّل جيشاً من ثلاثة آلاف رجل يقاتل مائتي ألف، ولم يقتل منه إلا عشرون أو أقلّ -حوالي ستة عشر أو سبعة عشر كما في بعض الروايات- فهذه دلالة على أنّ الجيش الإسلامي كانت له اليد العليا، وبمجرد أن بدء خالد بن الوليد رضي الله عنه خطة الانسحاب رضي بذلك الرومان ولم يتعقبوا المسلمين دلالة على قناعتهم بهذه النتيجة، ويُثبِتُ ذلك أنّ الرومان هربوا من حرب الرسول ﷺ بعد هذه المعركة بسنة، وذلك في موقعة تبوك، دلالة على أنّهم لاقوا العنت الشديد في مؤتة، الشاهد من كلّ هذه القصة أنّ الجيش الإسلامي خرج إلى أرض مؤتة في الأردن، لكنّها كانت من القوى الحاكمة لأرض فلسطين في ذلك الوقت، وكانت هذه علامة بارزة في تاريخ فلسطين والشام بكاملها.

بعد ذلك بسنة خرج الرسول ﷺ في غزوة تبوك سنة 9 هـ، وكان جيشه من ثلاثين ألف مقاتل، خرج لأنه رأى أنّ الرومان يقومون بتجهيزات في أرض الشام لغزو المدينة المنورة، وكان هذا الغزو متوقعاً في أيّ لحظة، فبدأ ﷺ بالهجوم قبل أن يبدأ الرومان، وجهز الجيش الكبير وذهب إلى أرض الشام، وهناك هرب الجيش الروماني، وهو أقوى جيش في العالم في ذلك الوقت، هرب من جيش المصطفى ﷺ في سنة 9هـ، وأتى القوم من الأماكن البعيدة ليصالحوا الرسول ﷺ على الجزية، فأتى النصارى من تيماء وجرباء وأيلة وأذرح جميعاً ليعقدوا معاهدة مع الرسول ﷺ ويدفعوا الجزية، وعمّ الإسلام في شمال الجزيرة العربية بعد موقعة تبوك، وإلى اللحظات الأخيرة في حياة الرسول ﷺ وهو يفكر في قضية الشام وفلسطين.

ولعلّنا نعرف ما يسمى في التاريخ ببعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما حبُّ رسول الله ﷺ أو الحبُّ بن الحبِّ، وكان ﷺ يحبُّ زيد بن حارثة حبّاً شديداً، ويحب ابنه أسامة بن زيد حبّاً شديداً، ولذلك أطلق عليه الحِبُّ بن الحِبِّ، هذا الشاب الصغير ولّاه الرسول ﷺ قيادة جيش يخرج لحرب الرومان في أواخر حياته ﷺ ، هذا الجيش كان يُجهّز في صفر من العام الحادي عشر من الهجرة قبل وفاة الرسول ﷺ بشهر واحد، وقد تولى المصطفى تجهيزه، وجعل فيه كبار الصحابة ﷺ، ووضع على رأس الجيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وأمر الجيش أن يخرج لحرب الرومان، لكنّ الجيش بقي في شمال المدينة المنورة عندما علم بمرض الرسول ﷺ ووفاته، فتعطل خروج الجيش حتى بويع الصدّيق ﷺ فقام بإخراج الجيش كما سيتبين، لكن الشاهد من هذه القصة أن نقف وقفة مع قضية أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وفي توليته قيادة هذا الجيش دليل بارع وشاهد لحنكته وفطنته ﷺ ، فقد شهدت معركة مؤتة استشهاد أبوأسامة، وهو زيد بن حارثة ﷺ، فالدوافع قوية جدّاً عند أسامة للأخذ بثأر أبيه وثأر المسلمين وثأر أمة الإسلام، والانتقام من الدولة الرومانية والغساسنة الذين قتلوا هؤلاء العظماء من المسلمين، لكن هناك شواهد أخرى في غاية الأهمية، منها أنّ الرسول ﷺ كان يبرز في هذا الجيش إمكانيات الشباب، فعندما يتولى شابّ يبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر سنة قيادة جيش يضمّ عمالقة القيادة العسكرية في الأمة الإسلامية، وفيه أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وأبوعبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وأسيد بن حضير وغيرهم من عمالقة الصحابة ﷺ، فهذا إيمان كامل من الرسول ﷺ بقيمة الشباب في الدولة الإسلامية، ثم هو إشارة واضحة إلى دور الشباب في تحرير فلسطين والشام، وقمع قوى العالم العالمية التي تحارب الإسلام والمسلمين، ولا يجوز أبداً أن يستقل أحد أو يستصغر الشباب ويقلل من إمكانياتهم، فهذه مكانتهم في عين الحبيب ﷺ .

بعد وفاة الرسول ﷺ أخذ أبوبكر الصدّيق ﷺ قراراً لعلّه من أجرئ القرارات في تاريخ المسلمين، وهو قرار إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى حرب الرومان، ونقول لماذا كان هذا القرار جريئاً:

- **أولاً:** لأنّ الأنباء وصلت إلى المدينة المنورة من كلّ مكان بردّة العرب الذين آمنوا ودخلوا في حوزة الدولة الإسلامية في زمان الرسول ﷺ في أواخر حياته، والجميع تقريباً إلا القليل نكصوا وارتدّوا على أعقابهم، وماجت الجزيرة العربية بالردّة من كلّ أطرافها، فإخراج جيش كبير كجيش أسامة بن زيد رضي الله عنه بكلّ الطاقات العسكرية التي فيه إلى حرب الرومان والجزيرة العربية تموج بالردّة هذا قرار خطير جدّاً يترك المدينة المنورة دون حماية.
- **الأمر الثاني:** أنّ هذا الجيش يخرج لحرب الدولة الرومانية وهي أكبر الدول العسكرية في ذلك الوقت.
- **الأمر الثالث:** أنّ المسلمين كانوا قد خرجوا لتوّهم من مصيبة وفاة الرسول ﷺ ، ولم يتوازنوا بَعدُ من هذه المصيبة الضخمة، ولعلّها أعظم مصيبة مرّت على المسلمين مطلقاً، وهو فقدان الاتصال مع السماء لانقطاع الوحي بوفاة النبي الخاتم .

هذه كلها قضايا هامة جدّاً، ومع ذلك أصرّ الصدّيق رضي الله عنه على إخراج الجيش، وكانت حجته في ذلك ما قاله في كلمة تعبر عن منهجه في الحياة قال: «والله لو جَرَت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين في المدينة ما رددتّ جيشاً وجّهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواءً عقده»، فبما أنّ النبي ﷺ اختار أمراً فمن غير الممكن بأيّ حال من الأحوال أن أخالف هذا الأمر، حتى لو دخلت الجيوش المعادية والكلاب إلى أرض المدينة، وانتهكت حرمات زوجات النبي ﷺ ، أمهات المؤمنين اللواتي منهنّ السيدة عائشة بنت الصدّيق شخصياً رضي الله عنها، إلا أنّه سوف يوجّه الجيش الذي أراد النبي ﷺ أن يوجّهه، ولا يحلّ لواءً عقده رسول الله أبداً، ورفض أن يولى على الجيش غير أسامة بن زيد، واختار الاختيار الذي قال به النبي ﷺ ، وخرج بالفعل جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى الشام، ولم يلق حرباً هناك، لكنّه في طريقه إلى هناك قال كلّ من مرّ عليهم الجيش: إنّ هذا الجيش خرج من قوم عندهم قوة، ولو كانوا ضعفاء ما أخرجوا جيشاً لحرب الرومان، فآتى خروج هذا الجيش أكله، وخمدت الردة في كلّ القبائل الشمالية، وكلّ من مرّ عليهم الجيش، ولم يلقَ المسلمين شرّاً يذكر، وكان هذا من بركات اتباع أمر الحبيب ﷺ .

استمرت حروب الردة سنة كاملة، العام الحادي عشر من الهجرة بكامله إلى أوائل العام الثاني عشر من الهجرة، وحصل صدام مع أكثر من قوة في الجزيرة العربية، ولعلّ أهم هذه الصدامات وآخرها كان في موقعة اليمامة ضدّ مسيلمة الكذاب، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً بقيادة خالد بن الوليد سيف الله ﷺ، وتحقق النصر المبين للمسلمين على كلّ جموع المرتدين، وبعد سنة انتهت الردّة بكاملها من الجزيرة العربية، ثم أخذ الصدّيق القرار الأجرأ في حياته وهو غزو فارس، وبداية الفتوح الإسلامية، والدولة الفارسيّة دولة تقتسم العالم مع دولة الرومان.





فكان هذا قراراً عجيباً، وبدأت فعلاً الفتوح الإسلامية في أرض فارس في العام الثاني عشر للهجرة، وكان هذا الكلام يوافق سنة **٦٣٢** م، وحقق خالد بن الوليد انتصارات هائلة في أرض العراق، وفي أقلّ من اثنا عشر شهراً كان منتصراً في حوالي خمسة عشر موقعة عسكرية هائلة، وكان جيشه ثمانية عشر ألفاً، والفرس في أقل التقديرات ستين أو سبعين أو تسعين ألفاً، وفي موقعة الفراض كانوا مائة وعشرين ألفاً، وكانت انتصارات مبهرة، لكنّ الغريب والعجيب أنّ سيدنا أبا بكر الصدّيق أثناء حركة الجيوش الإسلامية في داخل أرض فارس قرّر أن يرسل جيوشاً إسلامية لفتح بلاد الشام وحرب الدولة الرومانية، وتبدأ قصة الخلفاء الراشدين مع أرض فلسطين في حياة الصدّيق خليفة رسول الله ﷺ .

القضية بدأت برؤيا رآها شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه، أوّلت هذه الرؤيا أنّ الجيوش الإسلامية تذهب لفتح الشام، وتزامن ذلك مع فكرة جاءت للصدّيق رضي الله عنه بفتح بلاد الشام وحرب الدولة الرومانية في نفس الوقت الذي يحارب فيه الدولة الفارسية، تخيّل دولة صغيرة مثل الدولة الإسلامية أنشئت منذ سنوات قليلة تحارب أكبر جناحين عسكريين في العالم أجمع في ذلك الوقت، فجاءت هذه الفكرة في ذهن الصدّيق، واستبشر بالرؤيا التي رآها شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه، ولم يكتف بذلك ولكنّه جمع المسلمين في مجلس استشاري لعلّه من أخطر المجالس الاستشارية في تاريخ الأمة الإسلامية، وكان هذا في 30 ربيع أول 12هـ. الموافق 14 يونيو سنة 633م، وفي هذا المجلس تشاور الصدّيق رضي الله عنه مع قادة المسلمين في قضية فتح الشام، واجتمع المسلمون على فتحها، وبذلك بدأ سيدنا أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه في تجميع الجيوش لحرب الرومان في أرض الشام، وكانت هذه قضية من أخطر القضايا في تاريخ الأمة الإسلامية، وبدأ يحمّس الناس للخروج، وكان أول من تحمّس إيجابياً لهذه القضية خالد بن سعيد الأموي رضي الله عنه، فأمّره أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه على سريّة صغيرة تبدأ بالاستكشاف والحرب لأرض الشام إلى أن يجمّع الجيوش الكبيرة، وبالفعل جمّع أربعة جيوش كاملة لحرب الرومان في أرض الشام، وأرض الشام تشمل أرض فلسطين، وهذه الجيوش الأربعة كان أولها خروجاً هو جيش يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه، فتوجّه للبلقاء في شرق الأردن، وخرج هذا الجيش في 23 رجب سنة 12 هـ الموافق 3 أكتوبر سنة 633م، أما الجيش الثاني فكان بقيادة شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه، ذهب إلى بصرى في جنوب الأردن، أما الجيش الثالث فكان على رأسه أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، وكان مقره في الجابية جنوب دمشق، والجيش الرابع كان على رأسه عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان متوجهاً إلى أرض فلسطين المباركة.

في جيش عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يوجد سادات قريش الذين دخلوا الإسلام بعد عام الفتح، وكان في هذا الجيش أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وكان أيضاً أخو أبوجهل الحارث بن هشام رضي الله عنهم، وهؤلاء من عظماء قريش وساداتها، وخرجت الجيوش الإسلامية لهذه الفتوحات، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه منشغلاً بحرب الفرس ويفتح فتوحات هائلة، والجيوش الإسلامية التي توجّهت إلى أرض فلسطين وأرض الشام كانت قد تعثّرت في البداية، وحققت انتصارين فحسب، ثم حصلت هزيمة للجيش الإسلامي، وبدأت الخطوات تكون متأرجحة في أرض الشام ما بين انتصار وهزيمة، وهذا أقلق الخليفة العظيم أبوبكر الصدّيق الذي كان يرقب الأحداث من المدينة المنورة وكأنه يراها رأي العين، فأخذ قراراً استراتيجيّاً بنقل خالد بن الوليد رضي الله عنه من أرض فارس إلى أرض الشام للقتال مع المسلمين هناك، ولزيادة القوة الإسلامية في مواجهة القوة الرومانية وقال كلمة عجيبة: «والله لأنسينّ الرومان وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» وكان يثق بقدرات وإمكانات هذا القائد الفذّ سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه.

انتقل خالد بن الوليد بتسعة آلاف مقاتل من العراق إلى الشام، وانضم بسرعة للجيش الإسلامي، وهو في طريقه للإنضمام للجيش الإسلامي استطاع الانتصار في خمس مواقع متتالية على الجيش الروماني في أرض الشام بمجرد نزوله، حتى قبل أن يلتقي بالجيوش الإسلامية، وبعد ذلك التقى بالجيوش الإسلامية وعرض توحيد الجيوش الإسلامية في جيش واحد حتى يلقوا عدوهم وفيهم بأس شديد، ووافق المسلمون على ذلك ولعلّ أول اللقاءات الحاسمة التي كانت بين الجيوش الإسلامية وبين الدولة الرومانية كانت في أرض فلسطين، وأول صدام حقيقي مروّع بين الجيش الإسلامي وبين الجيش الروماني كان في أجنادين، وأجنادين موجودة في جنوب غرب القدس، وهي على بعد أربعين كيلو متراً جنوب الرملة، ولم تكن مدينة الرملة موجودة في ذلك الوقت، فقد تم أنشائها بعد ذلك مدينة إسلامية صرفة، لكنّ الموقعة تمت في أرض الرملة في جنوبها في 27 جمادى الأولى سنة 13هـ الموافق 30 يوليو 634م، وفي هذه الموقعة التقى المسلمون بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ضد مائة الف روميّ، وحدث الانتصار المهيب للمسلمين، وقتل من الرومان في هذه الموقعة ثلاثة آلاف، ومع أنّ العدد ليس كبيراً إلا أنه أثبت أنّ القلة تستطيع هزيمة الكثرة، وثبّت أقدام المسلمين في أرض فلسطين، ولعلّ هذا النصر يرجع إلى كلمة جميلة قالها معاذ بن جبل رضي الله عنه قائد الميمنة في هذه الموقعة في بدايات الموقعة، يعبر فيها عن منهج المسلمين وقضيتهم قال: **«يا معشر المسلمين، أشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار إسلام أبداً»**، أي إذا صدقتم النّية مع ربّ العالمين سبحانه وتعالى في هذه الموقعة تحوّلت هذه البلاد وهي وثنيّة أو نصرانية إلى هذه اللّحظة تشرك بالله عز وجل إلى دار إسلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم منه، وتحقق ما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه، وتمّ النصر الكبير ولم يكن آخر الانتصارات في أرض فلسطين.

- **ماذا حدث مع المسلمين في أرض فلسطيــــــن؟**
- **وما هي عواقب الموقعة الكبيرة في أجنادين؟**
- **وماذا حدث بعدها من مواقع؟**
- **وماذا حدث في أرض القدس؟**

فلسطين في عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وصلت أنباء موقعة أجنادين إلى المدينة المنورة في اللحظات الأخيرة من حياة الصّدّيق رضي الله عنه، وكان حكم الصّدّيق للمسلمين استمر سنتين وستة شهور فقط، ولكن عندما ننظر إلى الأعمال التي أنجزها فسنحتاج إلى عقود لنستطيع أن نتم ما عمله الصّدّيق في سنتين ونصف، ونستطيع أن نعرف قيمة البركة في حياة الإنسان، وكيف يمكن أن يضعها ربنا سبحانه وتعالى في الأعمال، ويضاعف الأجور والثواب نتيجة الإخلاص الموجود في القلب، والصدق الموجود في العمل.، توفي الصّدّيق رضي الله عنه واستخلف قبل أن يموت الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبايعته الأمة على ذلك، وكان من أوائل القرارات التي أخذها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن إمارة الجيوش الشامية، وقد يحيك في صدورنا تساؤل حول هذا العزل، ونتساءل لماذا عُزل خالد بن الوليد وقد كان المنقذ للجيوش الإسلامية هناك في فارس، ثم المنقذ للجيوش الإسلامية في الشام، ولم يخطأ خطأ عسكرياً واحداً في كلّ هذه المعارك الحربية المبهرة، بل إنّ الصّدّيق وهو يعلم بالرجال تمام العلم كان منبهراً بهذه الشخصية العسكرية الفذة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكن نحن سنترك الأوهام والتكهنات، ونذهب إلى كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يفسر لماذا عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه فيقول: **«والله إني لم أعزله عن سخطة ولا خيانة، ولكني رأيت أنّ الناس قد فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه»**، لقد لاحظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ الجيوش الإسلامية والشعوب المسلمة تقول لو أنّ خالد بن الوليد موجود فلنا النصر، وإذا لم يكن خالد موجوداً فلا نصر لنا، ونُسيت قضية أنّ الله عز وجل هو الذي ينصر، فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يثبّت المسلمين على عقيدة سليمة فيعزل خالد بن الوليد، وكأنه يقول لهم إن ظللتم على عقيدتكم وارتباطكم بربكم سبحانه وتعالى فسيتم لكم النصر بخالد وبدون خالد، وهذا ما حدث بالفعل بعد عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد تولى قيادة الجيوش الإسلامية أبوعبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، أمين هذه الأمة، وأصبح خالد بن الوليد جنديّاً تحت إمرة أبو عبيدة، وموجود في نفس الجيوش الشامية ولم يرجع إلى العراق، وبعد هذا العزل مباشرة وقعت معركة كبيرة على أرض فلسطين وهي موقعة بيسان، وهذه الموقعة تمت بعد ستة شهور تقريباً من موقعة أجنادين، التقى فيها المسلمون بقيادة أبي عبيدة بن الجراح القائد الجديد للجيوش الإسلامية في أرض الشام مع الرومان، والتقت هذه الجيوش التي قوامها ستة وعشرون ألف مقاتل ضدّ جيوش الرومان، وهي في أقل تقدير خمسون ألفاً، وفي الروايات المكثرة ثمانون ألف مقاتل، وتمّت هذه الموقعة الكبيرة في جنوب بيسان، وتحقق فيها نصر كبير للمسلمين على الرومان، وقتل في هذه الموقعة عشرة آلاف رومي، ولم يستشهد من المسلمين إلا عدد قليل جداً.



بعد موقعة بيسان بدأ المسلمون يتتبعون الخطوات الرئيسية للجيوش الرومانية، فلم يكن غرض المسلمين في هذه المرحلة تطهير الشام بكاملها من الجيوش الرومانية أو فتح كامل فلسطين، ولكنّ الهدف هو تتبع القوات الرئيسية للجيش الروماني، وأكبر قوّة للجيش الروماني وأحصن مدينة في الشام كلّها كانت مدينة دمشق، فتوجهت إليها الجيوش الإسلامية ووصلتها بعد أربعة أشهر تقريباً من موقعة بيسان، وحاصرت هذه المدينة الكبيرة واستمر هذا الحصار أربعة أشهر متصلة، إلى أن أذن الله عز وجل بفتح المدينة العظيمة مدينة دمشق، ودخول الإسلام إلى هذه المدينة الكبيرة، وذلك في 15 رجب سنة 14هـ الموافق سبتمبر 635م، بعدها فُتحت بلاد كثيرة في الشام ومنها بعلبك في لبنان، وحمص في سوريا، وبدأ هرقل قيصر الرومان يشعر بالقلق الشديد، وفي أثناء هذه الفتوح الإسلامية، قدر الله أن يكون هرقل موجوداً في القدس يحجّ شكراً لله على نصره على الفرس، فلما جاءت الجيوش الإسلامية بدأ ينسحب باتجاه الشمال، فانسحب من دمشق وحمص، ثم انسحب لأعلى منها، ثم واصل انسحابه إلى أنطاكية، وأنطاكية في أقصى شمال سوريا على حدودها مع تركيا، ومكث هناك وأخذ يدير المعارك الرئيسية، وبدأ يعدّ جيشاً يكون أقوى جيوش الدولة الرومانية في حرب المسلمين، ولعلّ بعض هذه المعارك تكون خارج أرض فلسطين، لكن هذه المعارك تتم مع القوة الحاكمة لأرض فلسطين، فهي ترتبط ارتباطاً مباشراً بقصتنا، فأعدّ هرقل مائتي ألف رومي، وما زالت الأعداد تتوالى من هنا وهناك، والجيش المسلم في ذلك الوقت كان قوامه ستة وثلاثون ألف مقاتل أو في أكثر التقديرات تسعة وثلاثون ألفاً، وكان على رأس الجيوش أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه،وجاءت الأنباء إلى أبي عبيدة أنّ جيش الرومان مكوّن من مئتي ألف مقاتل، أما جيش المسلمين فهو على أعلى تقدير تسعة وثلاثون ألفاً، فأخذه الفزع على جيش المسلمين من هذه الأعداد الكبيرة، وأرسل رسالة استغاثة عاجلة إلى الفاروق عمر رضي الله عنه في المدينة المنورة، وقال في هذه الرسالة كلمات تشعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمدى الألم والأسى الذي يعيشه المسلمون نتيجة هذه الجموع الضخمة التي تتهيئ لهم من قبل الرومان.

أنقل لكم بعض الكلمات التي قالها أمين الأمة أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه في خطابه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**العجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال**»، يقصد أنه يريد أمداداً من المسلمين تساعد في المعارك الفاصلة القادمة في أرض الشام، ثم يقول: «**وإلا فاحتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا**»، يعني لو ثبت المسلمون وبقوا في أرض الشام في مواجهة الجيوش الرومانية كلّها لضاعوا، لأنّ الأعداد التي أمامنا أعداداً ضخمة جداً، وما زالت تأتي أعداد أخرى، والتسليح والتدريب على أعلى مستوى، فهي أكبر دولة في العالم، «**واحتسب دينهم منهم إن هم تفرّقوا**»، لو ثبتوا ستذهب نفوسهم ولو فرّوا سيذهب دينهم، لأنّ هذا فرار من أرض الزحف، وكلا الأمرين خطير، يبقوا أو يفرّوا، والمشكلة كبيرة ونحتاج إلى مدد، «**فقد جاءهم يا أمير المؤمنين ما لا قبل لهم به إلا أن يمدّهم الله بملائكته أو بغياث من عنده، والسلام عليك**» .

هذه رسالة قصيرة تبين مدى الألم والمأساة التي يعيشها الجيش الإسلامي القليل العدد في أرض الشام. عندما وصلت هذه الرسالة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذه الفزع الشديد، بل إنّه بكى عندما قرأ هذه الرسالة، ولعلّ ما أبكاه أنّه لم يشعر فقط بالخطورة على الجيش المسلم، ولكنّه خشي أن يكون هناك لَبسٌ في فهم المسلمين لضوابط ومعايير النصر في القضية الإسلامية، فأرسل رسالة مع مدد، والمدد كان من ألف شخص مع سعيد بن عامر رضي الله عنه، فلم تكن أعداداً كبيرة، لكنّه بعث رسالة هي والله بمئات الآلاف من الرجال يقول فيها: «**لا تهولنّكم كثرة ما جاء منهم، فإنّ الله منهم بريء، ومن برئ الله منه كان قمناً «جديراً» أن لا تنفعه كثرة**»، من برئ الله منه لا يمكن أبداً للأعداد أن تنفعه، ومن يكله الله إلى نفسه يخذله، ثم قال: «**ولا توحشك قلّة المؤمنين فإنّ الله معك، وليس قليلاً من كان الله عز وجل معه**».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾



عندما وصلت الرسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح ثبت رضي الله عنه وثبت من معه من المسلمين، وبدأ المسلمون يناقشون خطة مواجهة الجيوش الرومانية الهائلة. الجيوش الإسلامية في اجتماعها في الجابية وهي في جنوب دمشق، غلب على رأيها الانسحاب إلى أطراف الصحراء، ومعنى ذلك أن ينسحب الجيش من سوريا والأردن وفلسطين ويصل إلى أطراف الجزيرة العربية، وكانت حجّة القادة في ذلك الأمر أنهم إذا هزموا في موقعتهم أمام الرومان أن ينسحبوا إلى الصحراء، والجيوش الرومانية لا تستطيع القتال في الصحراء، وشعر خالد بن الوليد أنّ هذا هروبٌ من المعركة، وفتح الطريق للانسحاب، وهذا قد يعوق نفسية المسلمين للقتال، مع أنّه لم يكن زعيماً للجيش الإسلامي في ذلك الوقت، لكن قال كلمة تعبر عن طبيعة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ونستطيع منها أن نفهم لماذا يُنصَرُ هذا الرجل؟ ولماذا يحقق نصراً وراء نصر؟ يقول رضي الله عنه: **«أرى والله إن كنّا نقاتل بالكثرة والعدد هم أكثر منا وأقوى منا، وما لنا بهم إذاً طاقة، وإن كنّا نقاتلهم بالله ولله، فما أرى أنّ جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً»**، انظروا إلى عقيدة المسلم، العقيدة العملية في أرض القتال ثَبَّتَت جيشاً كاملاً، تسعة وثلاثون ألف مقاتل كانوا ينتظرون هذه الكلمة من خالد بن الوليد سيف الله المسلول رضي الله عنه، ثبت المسلمون بكلامه ووقفوا استعداداً للقتال، وأبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه قائد الجيوش يستشير خالد بن الوليد، وهو من أعظم العبقريات العسكرية في التاريخ، وما زالت خططه إلى الآن تدرس في الجامعات والكليات العسكرية في الدنيا.

أحضر أبوعبيدة خالدَ بن الوليد وسأله عن رأيه في الحرب، وعن الخطة العسكرية والجيوش التي يحركها والميمنة والميسرة وغيره، فقال خالد: **«أتطيعني فيما أمرك به؟» أي أنّك تستشيرني فسأقول لك رأيي فهل ستسمعه؟! فقال: نعم، وأبو عبيدة كامل الثقة بهذا الرجل الذي سماه الحبيب ﷺ سيف الله المسلول، فقال خالد: «فولّني ما وراء ذلك وخلّني والقوم، فإني والله أرجو أنّ الله ينصرني عليهم»، فقال أبوعبيدة: «فأنت وذاك»**.

وأعطاه قيادة الجيوش في هذه الموقعة مع أنّه معزول من قبل الخليفة سيدنا عمر بن الخطاب ﵁، لكنّ أبا عبيدة ﵁ احتفظ بالقيادة العامة للجيش من الخارج، قيادة الشام بكاملها، ولكن في هذه المعركة وتقديماً لمصلحة المسلمين، أعطى القيادة لخالد بن الوليد ﵁.

وإذ به يجلس ويخطط خطة من أعظم الخطط العسكرية في الدنيا، قسّم جيشه إلى تسعة وثلاثون كردوساً، والكراديس كانت نظاماً جديداً مستحدثاً في الحروب العسكرية، تسعة وثلاثون فرقة؛ كل فرقة من ألف مقاتل، والجيش قوامه تسعة وثلاثون ألفاً، فجعل كلّ ألف مع بعضهم، وكل قسم وحدة من قبيلة معينة، وبدأ يحمّس كلّ قبيلة ألا يؤتى المسلمون من قِبَلِها، وجعل على الميمنة معاذ بن جبل ﵁، وعلى الميسرة قباث بن أشيم ﵁، ووضع نفسه على قيادة الخيول، ووضع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ﵁ على قيادة الرجالة، وبدأ يخطط لأرض المعركة، واختار المكان، وأنا أحسب أنّ اختيار المكان هو توفيق كامل من ربّ العالمين سبحانه وتعالى، وهي أرض اليرموك، لتتم موقعة اليرموك أشهر مواقع الإسلام، ومن أشهر مواقع الدنيا على هذا المكان، وقد رأيت بنفسي أرض اليرموك، وهي واقعة داخل حدود الأردن، ومتوسطة ما بين الأردن وسوريا وفلسطين، نسأل الله عز وجل أن يحرر فلسطين بكاملها. هذه الأرض في غاية الصعوبة، وهي محاطة من ثلاثة أطراف بهاوية سحيقة، فتح خالد بن الوليد طريقاً معيّناً ضيّقاً للجيوش الرومانية تدخل فيه إلى هذه الأرض، ووقف هو على أطراف هذه الأرض يسدُّها لكي لا يحارب الجيوش الضخمة الهائلة في وقت واحد، ولكن يحارب مجموعة مجموعة، ومساحة الأرض الضيقة لا تسمح للرومان بالمناورة داخل هذه الأرض، فاستطاع بذلك أن يتغلب على كثرة الأعداد عند الرومان، بالإضافة إلى ذلك فإنّ خلفية الأرض هاوية سحيقة، فلو استطاع خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين أن يضغطوا على الجيش الروماني فسيكون هناك أعداداً ضخمة تقع في هذه الهاوية التي كانت تسمى الواقوصة، وهي هاوية ضخمة سحيقة، ولا شكّ أنّ الذي يقع في هذه الهاوية سيقتل في الحال، كلّ هذا إعداد خالد بن الوليد، وأذكركم بقول خالد:

«أنه لا ينصر إلا بالله عز وجل»، هذه عبقرية وتخطيط وفكرة ومهارة وقيادة وفروسية ، كلّ هذا لن يؤتي ثماره إلا إذا أراد الله عز وجل، وهكذا كان يعتقد خالد ولذلك كان يُنصر ﵁.

في 5 رجب سنة 15هـ وهو يوم لا بد أن يحفظه المسلمون جميعاً في ذاكرتهم، وأن يعلموه أولادهم والعالَمَ أجمع، تمت موقعة اليرموك، في يوم من أيام الله المشهودة الذي يوافق 12 أغسطس 636م، كان خالد بن الوليد ﵁ على رأس الجيوش، وكانت علامة البدء أن يتحرك هو باتجاه العدو، ومع أنّه قائد الجيوش فقد كان أسرع الناس إلى عدو المسلمين، فوقف على رأس الجيوش ووقف إلى جواره أحد الجنود، ونظر الجندي المسلم إلى الأعداد الهائلة والجموع الضخمة من الرومان فقال كلمة نمّت عن خوفه وضعفه قال: **ما أكثر الرومان وما أقل المسلمين!** فقال خالد بن الوليد في منتهى الحسم: **اصمت يا رجل**، بل قل: **ما أكثر المسلمين وما أقل الرومان، إننا والله لا ننصر إلا بالله عز وجل، ولا يخذل المسلمون إلا بخذلان الله عز وجل لهم، ثم قال: والله لوددت أنّ الأشقر براء من توجّيه وأنهم أضعفوا في العدد.**

والأشقر هو فرسه وقد كان مريضاً، وكان خالد يقاتل على فرس آخر وكان هذا الفرس لا يعطيه المناورة التي يريدها، ولو كان فرسه صحيحاً لما ضاره أن يكونوا الضعف، فهو لا يخشى كثرة العدد.





هكذا عقيدة
التي انتصرت، ودارت
من أشرس المواقع في تاريخ
الإنسانية، احتدم الصدام
وارتفع الغبار وارتفعت صيحات
التكبير والتهليل من المسلمين، وفي يوم
واحد تمّ أعظم نصر للمسلمين في أرض الشام
في موقعة اليرموك، وسُحق الجيش الروماني تماماً،
فقتل منه مائة وثلاثون ألف رجل من أصل مائتي ألف،
وكُسرت شوكة الدولة الرومانية في هذه الموقعة، قتل المسلمون
من الرومان أربعين ألفاً، وسقط
في الواقوصة تسعون ألفاً، لتهلك بذلك القوة الرئيسية في
الجيش الروماني ويفرّ بقيّة الجيش، وبعد هذه الموقعة تصل الأنباء
إلى هرقل وهو في أنطاكية فيصعد على تلّ كبير كان يشرف على سوريا،
وكان معتاداً أن يصعد عليه كلما حجّ إلى القدس أو جاء إلى سوريا ويقول:
«**سلام عليك يا سوريا، سلام الذي يعود إليك بعد حين**». أما في هذه المرة قال:
«**سلام عليك يا سوريا، سلام المفارق لا عودة لك بعد الآن**». فهو ضمن ألا يعود إلى هذه الأرض بعد أن كُسر جيشه هذه الكسرة، وعمّت الفرحة بلاد المسلمين، ووصلت الأنباء إلى كلّ مكان، وحقّق الله عز وجل نصره المبين للمسلمين في هذا اليوم الكريم 5 رجب سنة 15هـ. انفصلت الجيوش الرومانية المتبقية عن الأماكن التي كانت تحميها في الشام، وانساح المسلمون في أرض الشام بعد هذه الموقعة، وبدأ أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقسّم الجيوش الإسلامية من جديد؛ فوضع يزيد بن أبي سفيان على قيادة دمشقٍ ومعه أخاه الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأوكل إليهما فتح ما تبقى من الحصون في سوريا، وفتح إقليم لبنان الذي كان تابعاً للشام في ذلك الوقت، وبالفعل تم فتح لبنان وبقية المدن في سوريا على يد يزيد بن أبي سفيان، ثم على يد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم وضع شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه على قيادة الأردن، وكان الحكم الروماني لفلسطين استمر سبعمائة سنة، وآخر هذه السبعمائة سنة في 636م، وقد وُكّل شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه على الأردن وفتحها كما يقول الرواة فتحاً يسيراً، فدخل على كلّ المدن في الأردن بمنتهى اليسر، وأدخلها جميعاً في حوزة الإسلام والمسلمين، أما أبوعبيدة رضي الله عنه فتوجه بنفسه إلى حمص شمال دمشق ومعه خالد بن الوليد رضي الله عنه، ووجّه بطلنا وقائدنا العظيم عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى أرض فلسطين؛ لتبدأ قصة جديدة لصحابي جليل من الصحابة العظام الكرام عمرو بن العاص رضي الله عنه مع أرضنا وحبيبتنا فلسطين.

عمرو بن العاص رضي الله عنه في فلسطين

قبل أن نتكلم عن خط سير حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه داخل أرض فلسطين نحتاج أن نقف وقفة مع هذا الصحابي الجليل، لأنّ التاريخ للأسف الشديد شُوّه وزُوّر كثيراً، لأهداف كثيرة ولغايات متعددة من هنا وهناك، لكنّ المحصلة النهائية أنّ هناك بعض الشخصيات مثل عمرو بن العاص رضي الله عنه وغيره من عمالقة الإسلام شُوّه تاريخهم بشدّة، حتى ظهرت الأعمال الإعلامية والسينمائية وغير ذلك تطعن فيهم، وقلّما يجود الزمان بأمثال هؤلاء الكرام، لن أدافع عن عمرو بن العاص رضي الله عنه بكلماتي، ولكن سأذكر كلمات الحبيب ﷺ في ذكر شخصيته وتقييمه لهذه الشخصية، قال ﷺ في حق عمرو بن العاص: «أَسْلَمَ النَّاسُ وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ» (رواه الترمذي) وبالتأكيد كلّ الناس تفهم معنى كلمة الإسلام، والفرق بينها وبين كلمة الإيمان، إذا جُمع الإسلام مع الإيمان، الإسلام يكون في الظاهر لكنّ الإيمان يكون في سويداء القلب، وهذا يثبته له ﷺ ، وكلامه ﷺ متابع بالوحي، ولو كان هناك أيّ انحراف عن جادة الصواب في مثل هذه الجملة ما سكت وحي السماء أبداً عن مثل هذا التقييم من حبيبنا ﷺ لهذه الشخصية الرائعة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، يقول ﷺ في حديث آخر: «إِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ مِنْ صَالِحِي قُرَيْشٍ» (رواه الترمذي)، عمرو بن العاص رضي الله عنه استخلفه رسول الله ﷺ على إمارة عُمان في زمان الحبيب ﷺ ، وظل عليها حتى مات، وكان ﷺ يثق في دينه وورعه وأمانته وتقواه، لدرجة أن يوليه حكم بعض البلاد الإسلامية الضخمة، وأن يوليه جَمعَ الخَراج وقيادة الناس وتعليمهم أمور الإسلام، هذه والله كرامة كبيرة جداً، عمرو بن العاص رضي الله عنه أدخل الإسلام إلى عُمان، ثم فلسطين، ثم مصر، وتخيّل كلّ إنسان يقوم بعمل من الأعمال الصالحة في كلّ هذه البلاد يضاف إلى حسنات هذا الصحابي الجليل عمرو بن العاص، فما أكرمه من صحابي رضي الله عنه .





اختار أبوبكر الصّدّيق عمرو بن العاص ليذهب إلى فلسطين، ذكرنا أنّ توزيع الجيوش الإسلامية في بداية فتوح الشام كانت أربعة جيوش، وكان على رأس الجيش الرابع إلى فلسطين عمرو بن العاص رضي الله عنه، ولعلنا نقف وقفة ونقول لماذا عمرو بن العاص بالذات إلى فلسطين؟ قد يرجع ذلك إلى أنّ أم عمرو بن العاص كانت من قبائل قضاعة، وقبائل قضاعة كانت قبائل من شمال الجزيرة العربية قريبة جداً من فلسطين، قد يكون هذا أحد الأسباب؛ لأنّه أعلم بهذه الديار وأقرب لها رحماً، وقد يسهل عليه فتح هذه البلاد أكثر من غيره، لكن قبل ذلك فإنّ الاختيار وقع على عمرو بن العاص رضي الله عنه لأنّه كان عبقرية عسكرية فذّة، وكان من أمهر العرب قيادة للجيوش، ومن أدهى العرب ذكاء وحكمة وقدرة على تسييس الجيوش بل والشعوب، فقد استطاع عمرو بن العاص رضي الله عنه بفضل الله عز وجل أن يفتح ثلاثة دول هي عُمان وفلسطين ومصر، وهذا ينمّ عن حكمة وسياسة وفروسية وقيادة.

وقد قال كلمة حين استشاره أبوبكر الصّدّيق في عزله من إمارة عُمان وإطلاقه إلى فلسطين فقال: **«إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بَعدَ الله الرامي والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم به»** فهو يقول أنا ليس لي إرادة في ذلك، أنا سهم من سهام الإسلام، والمكان الذي ترى فيه مصلحة الأمة إرمني إليه، أكان ذلك في فلسطين أو في مصر أو في عُمان أوغيرها،

فأنا طوع إرادة خليفة المسلمين في دفعي إلى أيّ مكان للجهاد في سبيل الله. بهذه الرؤيا الواضحة والتجرد الكامل استطاع هذا البطل العظيم أن يُدخل الإسلام إلى عدة دول، أهلها كلّهم في ميزان حسناته، نسأل الله عز وجل أن يرفع من قدره.

بعد موقعة اليرموك تولى عمرو بن العاص رضي الله عنه من جديد قضية فلسطين، وأخذ جيشه مباشرة وعبر نهر الأردن واتجه إلى فتح المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى، ولو راجعتم خريطة تحركات الجيش الإسلامي الذي قاده عمرو بن العاص، ستجدون أنّه فتح في البداية سبسطية ثم نابلس ثم اللّد ثم يبنى ثم عمواس ثم بيت جبرين ثم رفح، وفي بعض الروايات أنّه فتح يافا، وبعض الروايات تضيف غزة إلى هذه الفتوحات، ولاحظوا أنّ كل هذه الفتوحات تقع شمال وغرب وجنوب القدس ولكنه لم يقترب من القدس في هذه الرحلة الطويلة، لأنّ القدس كانت أحصن مدينة في فلسطين، وفي داخلها حامية رومانية ضخمة؛ فهي المدينة المقدسة التي كان الرومان يهتمون بها اهتماماً كبيراً، وبعد أن أنهى كلّ هذه الفتوحات، لم يبق سوى مدينتين فقط هما القدس وقيسارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ووجد أنّ الوقت الآن أصبح مناسباً فاتجه إلى القدس، وفي الطريق إلى القدس التقى بالجيش الروماني الكبير، وكان هناك معسكر قبل القدس بقيادة رجل من أشهر قادة الرومان وهو أرطبون، ولعلّ الكثير سمع عن هذا الاسم «أرطبون الروم» وهو من أشهر القادة العسكريين في زمانه،





ولما وصلت الأنباء إلى عمر بن الخطاب ﷺ أنّ الجيش الروماني الذي يحمي القدس على رأسه أرطبون لم يفزعه ذلك الأمر، وإنما قال كلمته المشهورة التي هي شهادة عظيمة من رجل جليل في حقّ صحابي عظيم هو عمرو بن العاص ﷺ قال: «**قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج**»، إذا كان عندهم أرطبون هو قائد عسكري فذّ، فقد رميناه بأرطبون العرب يقصد عمرو بن العاص ﷺ «**فانظروا عما تنفرج**»، أي ننتظر ونرى ماذا ستكون الأحداث، وإن شاء الله سيكون النصر لعمرو بن العاص وللإسلام والمسلمين في هذه المعارك.

وصل الجيشان وبدأ عمرو بن العاص يحاول أن يعرف دقائق الحصن الذي يعسكر أرطبون في داخله، وأراد أن يرسل رسولاً ليحكي له عن تحركات الجيش في داخل هذا الحصن الكبير، لكنّه خشي أن ينقل له الرسول صورة غير صحيحة فأراد أن يدخل بنفسه إلى داخل حصن الرومان، وهذا تجرّد كبير ومخاطرة، لكنّه يريد مصلحة الجيش الإسلامي حتى وإن ذهبت حياته فداء لنصر هذا الجيش الإسلامي العظيم الذي يفتح أرض فلسطين، ولعلّنا لا نعلم أنّ هناك عملاً كبيراً جداً أنجز على أرض فلسطين، ودماء زكية بُذِلَت، وخُطَطاً وجهداً وفكراً، ومنّ الله سبحانه وتعالى على المسلمين بعد هذا العطاء الطويل بفتح هذه البلاد المقدسة والمباركة، أراد عمرو بن العاص أن يذهب بنفسه فتنكر في زي رسول ولم يذكر اسمه، ودخل على أرطبون الروم لكي يتحدث معه في أمور فتح القدس أو الصلح أو ما إلى ذلك من أمور، فدخل على أرطبون الروم وبدأ يتكلم معه، ويحاول أرطبون الروم أن يأخذ منه معلومات، فيخفي عنه عمرو بن العاص المعلومات، ولم يستطع أن يأخذ عمرو منه معلومات أخرى عن جيشه، فأرطبون الروم في منتهى الذكاء، وبعد أن سمع أرطبون الروم حديث عمرو بن العاص علم أنّ هذا الرجل ليس شخصاً عادياً من الجنود، فهذا إما أن يكون قائد الجيش أو الذي يستشيره قائد الجيش، فقرر أرطبون الروم أن يخالف كل الأعراف ويقتل الرسول دون أن يعلم أنّه عمرو بن العاص، هذا الأمر حدث في داخل الحصن، وعلم عمرو بن العاص بذكائه وشدّة دهائه أنّ أرطبون الروم يدبّر له مكيدة لكي يقتله، فأراد أن يخرج بحيلة من هذا الموقف فقال لأرطبون الروم:

«إنني أنا وعشرة من أقراني نحن نشير على أميرنا بما ينبغي أن يفعله، وأنا لا أستطيع أن آخذ رأياً واحداً في هذه القضية، فأذن لي أن أذهب إلى قومي وأعود بالعشرة، فإذا تحدثنا معك أخذنا رأياً قاطعاً»، ففكر أرطبون الروم وقال واحد قليل وعشرة كثير، إذاً أعطيه فرصة ليذهب ويعود بالعشرة معه لكي أقتل العشرة دفعة واحدة ويستريح الجيش الروماني من هذه العقول المفكرة، فسمح له بالخروج، فخرج عمرو بن العاص وأقسم ألا يعود لمثلها أبداً، وعندما وصلت الأنباء إلى عمر بن الخطاب ﷺ قال: **«لله درّ عمرو بن العاص» ما هذا الفكر؟ ما هذا العقل؟ ما هذا الذكاء؟ بل قل ما هذا التوفيق من ربّ العالمين سبحانه وتعالى.**

وبمجرد خروج عمرو بن العاص وعدم عودته، أدرك أرطبون الروم أنّ عمرو بن العاص قد خدعه، **فقال هذا ليس في الرجال مثله**، وفعلاً استطاع عمرو بن العاص أن ينجو بهذه الحيلة، وبدأ يجهز الجيوش وحاصر حصون القدس، وكان أول واحد يقف على حصون القدس لحصارها، ودخل أرطبون الروم إلى داخل حصون القدس ليقوي الحامية الرومانية في داخلها، واكتشف عمرو بن العاص بجهده العسكري الضخم ونظرته الثاقبة، أنّ هذه الحصون من الصعب جداً أن تفتح بجيشه البسيط، فأرسل رسائل مباشرة إلى أبي عبيدة بن الجراح القائد العام على جيوش الشام يستغيثه أن يمدّه بالإمداد، وكان رجلاً واقعياً ليس عنده ميل للمبالغات، فقال أنّه لا ينفع بجيشي المحدود أن أفتح حصون القدس الكبيرة، وبالذات أنّ داخلها حامية كبيرة وعلى رأسها أرطبون الروم، فأتى مباشرة أبوعبيدة بن الجراح ﷺ وأرسل إلى يزيد بن أبي سفيان في حمص وأرسل إلى خالد بن الوليد أن يتوجها إلى أرض القدس في فلسطين، وأرسل إلى معاذ بن جبل ﷺ وأرسل إلى شرحبيل بن حسنة ﷺ ، وتجمّعت الجيوش الإسلامية بكاملها في أرض فلسطين حول القدس.

اشترك في حصار القدس أربعة آلاف صحابي، وهذا من تشريف وتكريم رب العالمين سبحانه وتعالى لهذه الأرض المباركة الطيبة، فهذه الأرض أرض مباركة، أتى ليفتحها رجال الواحد منهم يزن أمة، فتخيل تجمّع كلّ هذه القامات العظيمة في مكان واحد حول القدس المباركة في الأرض المباركة. وصلت الجيوش الإسلامية من هنا وهناك وحاصرت القدس حصاراً شديداً، ثم جاء أبوعبيدة بن الجراح ﷺ، وعند قدوم أبي عبيدة ﷺ حصل نوع من التكبير والتهليل العالي جداً عند المسلمين، لأنّ هذا القائد العام لكلّ جيوش المسلمين في بلاد الشام، فسمع التكبير أهل القدس في داخلها فقال بطريرك القدس: هذا الرجل إن كان أميرهم وكانت صفته كما عندنا في الكتاب، فإنّ البلد تسلم لا محالة، لأنّ عندهم صفات الذي يستلم مفاتيح هذه البلدة في كتبهم المقدسة، فشعر أنّ الذي كبّر له المسلمون بهذه الصورة هو القائد الذي تفتح له البلاد، ومن ثم هدّأ من روع الناس وقال إنني أذهب إلى لقائه، وأفتح له الباب، لأنّه لا أمل في المقام إن كان هو الرجل، فلما ذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح وجد أنّه ليس هو الرجل الذي عندهم صفته في كتبهم، فعاد إلى قومه وقال اثبتوا على قتالكم إنّه ليس الرجل، وبدأت الحرب الشرسة على أسوار القدس، وبدأ المسلمون يرمون السهام في داخل القدس، ويرد عليهم الرومان بالحرب والضرب المستمر، وأصبح الموقف عسيراً على المسلمين، وضاقت الأمور بشدّة على الرومان والنصارى المحاصرين في داخل القدس، وعندها أدرك بطريرك القدس أنّه ما هي إلا أيام ويموت أهل القدس

جوعاً من الحصار الشديد، بدأ يفكر من جديد، ورجع من جديد يطلب المحادثة مع أبي عبيدة بن الجراح، وسأل أبا عبيدة بن الجراح عن صفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يعيش في المدينة المنورة على بعد مئات الكيلومترات، فقال له أبوعبيدة صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال: هذه صفته التي عندنا فماذا تريدون؟ فقال أبوعبيدة: إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال فقال:

« فنحن نقبل الصلح والجزية على أن يأتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه ليتسلم مفاتيح القدس «.

أرسل أبوعبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب وقال له أنّه لا بد أن يأتي، فأرسل له رسالة صغيرة قال فيها أنا آتيك، وأتى بنفسه رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين، ولم يأخذ معه من المدينة المنورة إلا غلاماً واحداً، وهو رئيس الدولة الإسلامية التي كسرت جيوشها شوكة أعظم دولتين في ذلك العصر فارس والروم، الدولتان اللتان كانتا تقتسمان العالم، فهورجل يحكم الجزيرة العربية بكاملها، واليمن بكاملها وعُمان، وفوق ذلك يحكم أرض العراق والشام بما فيها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، فهو يحكم أكثر من عشرة أو خمسة عشر دولة من زماننا الآن.

ومع ذلك يتحرك من المدينة المنورة إلى القدس مسافة ألف كيلو أو أكثر ومعه غلام واحد فقط، ويركبان على دابة واحدة فقط يتناوبان عليها هو والغلام، أيّ رجل هذا؟! هذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ما كنّا نُنصَرُ بعدد ولا عدّة ولكن بارتباط هؤلاء بربهم سبحانه وتعالى، والله عز وجل هو الذي ينصر ويحققً الفضل للمسلمين والمجد والشرف والرفعة لهذه الأمة، وصل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أرض القدس، وكان في الطريق يتناوب مع غلامه على ركوب الدابة، وعندما وصلا إلى القدس -وكنت أظنّ هذه الرواية ضعيفة ولكنّي وجدت لها تأكيداً حيث ذكرها ابن عساكر في تاريخه على أنها صحيحة- أنّ عمر حين وصل إلى المدينة كانت نوبة الغلام في ركوب الدابة،

وعمر بن الخطاب يسير إلى جواره، ودخل عمر بن الخطاب في مخاضة من الطين بقدميه اعترضت طريقه، فتخيل شكله وهيئته، وكانت ثيابه مرقّعة رضي الله عنه، وهو الذي امتلك كنوز الدنيا، امتلك كنوز كسرى وقيصر، ولكنّه دخل بثياب بسيطة مرقّعة وهو يخوض في الطين وغلامه يركب على دابته، وكانت هذه الصفة في كتبهم المقدسة.



عندما رأى بطريريك القدس هذا المنظر، قال هؤلاء بهذه الصفة وملكهم بهذه الصفة لا يهزمون أبداً، هؤلاء ليس للدنيا في قلوبهم نصيب، هؤلاء تجردوا تجرداً كاملاً لله عز وجل، لا يرتبطون ببهرج ولا بمنظر أو ما يهمّ زعماء الدنيا، دخل عمر بن الخطاب بهذه الصورة ففزع المسلمون عندما رأوه بهذه الصورة، وتحرك إليه أبوعبيدة بن الجراح وهو من الزهاد لكنّه قال كيف يدخل قائد المسلمين بهذه الصورة، فقد ينظر إلينا الرومان نظرة قلّة واستخفاف، فذهب إليه وقال إنّ عظماء القوم ينظرون إليك لماذا دخلت بهذه الصورة؟ فضربه عمر بن الخطاب ﵁ في صدره وقال له: «**لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، كنّا قوما أذلة فأعزنا الله عز وجل بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله عز وجل**»، فهو رجل يفهم دقائق الأمور وليس كلاماً يقال فحسب، بل طبّق هذا واقعيا ﵁ ، وتبعه بذلك جيش كبير فنصره الله عز وجل، هذه صفات الذين سيفتحون القدس، أناس خلت الدنيا من قلوبهم، وما شغلهم سوى رضى الله سبحانه وتعالى فقط، ليس في قلوبهم كبر بل تواضع شديد، والعلاقة بين القائد فيها والجنود هي علاقة أب مع أبناءه وأخ مع إخوته، لا يوجد نوع من التفضل والكبر والغرور والخيلاء، هذه صفة الجيش المنتصر، وجلس عمر بن الخطاب ﵁ بهذه الهيئة ومعه كبار الصحابة ﵃ أمثال يزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من سادة المسلمين وقادتهم جلسوا جميعاً؛ ليكتبوا المعاهدة والصلح مع بطريرك القدس.

ترى ماذا جاء في هذه المعاهدة التي عرفت بالتاريخ بـ «العهدة العمرية»؟

وأين تحفظ هذه العهدة إلى زماننا الآن؟

وماذا فعل عمر بن الخطاب ﵁ عندما دخل إلى القدس ووصل إلى المسجد الأقصى؟

وماذا فعلت الجيوش الإسلامية بعد فتح مدينة القدس؟

العهدة العمرية

حصل الاتفاق بين بطريرك القدس وعمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن تفتح أبواب المدينة ويكتب عهد الصلح بين الطرفين فيما يعرف بالعهدة العمرية، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة 16هـ الموافق شهر مايو 637م، وكانت هذه المعاهدة في غاية الأهمية، وما زالت إلى الآن تحفظ في كنيسة القيامة في القدس، وطبقها المسلمون وحرصوا على تطبيقها لا لعام أو عامين، بل طبقت لعدة قرون إلى أن سقطت الخلافة العثمانية واحتلت فلسطين على يد الإنجليز 1917م.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العهدة العمرية: **«هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (القدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم»، وكانت تكفي كلمة كنائسهم، ومع أن المسلمين يدينون بعقيدة الإسلام التي تتنافى مع عقيدة الصليب والصلب فنحن نقول (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم) ومع ذلك أقرهم على عقيدتهم، وإن كنا كمسلمين نخالف هذه العقيدة ونعتقد غيرها، «أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتهم، يعني كلّ النصارى الموجودين في أرض القدس، ولا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»، وكان هذا نوعاً من التأكيد على حماية أرواح وممتلكات وديانة النصارى، لكن هذا الشرط الأخير بأن لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود شرط طلبه بطريرك القدس شخصياً، حتى يتم هذا الصلح وتتم هذه العهدة العمرية بأن لا يُسمح لليهود في داخل القدس بالذات، وهذا المنع من السكنى لليهود يصحبه سماح بزيارة اليهود للأماكن المقدسة في داخل القدس، وأقر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطريرك القدس على هذا البند الذي طلبوه، ووضعه في العهدة العمرية. ثم يقول: «وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص»، والروم هو الجيش المحارب للأمة الإسلامية، فقد كان بعض الفرق منهم موجودة في داخل القدس، فعلى بطريرك القدس وعلى نصارى القدس أن يخرجوا هذه الجيوش من القدس حتى تؤمن المدينة، وعمر بن الخطاب لا يريد أن يحارب في داخل القدس لهذه العهدة، ولو كان هناك لصوص في داخل القدس سنضطر أن نحارب هؤلاء اللصوص، فعلى أهل إيلياء أن يخرجوا اللصوص.**



ثم يقول: «**فمن خرج منهم**»، أي من الروم وهم الجيش المحارب للإسلام، والذين التقى معهم في أجنادين وبيسان واليرموك ودمشق وحمص وفي أكثر من موقعة سابقة، ومع ذلك يقول: «**فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم**»، **يؤمنهم عمر بن الخطاب حتى يخرجوا في منتهى الأمان إلى بلادهم، ومن أقام منهم ورضي أن يبقى في أرض القدس فالمسلمون يجيزون بقائهم على أن يدخل في العهدة والاتفاق، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، فلا يبقى في القدس محارب،** «**ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم**».

انظر إلى الرحمة يعني وإن كان لديك نيّة لحربنا لا مانع أن تخرج آمن حتى تصل إلى مكان خارج القدس ثم تحارب بعد ذلك المسلمين، ثم ختم الكتاب بقوله: «وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية» ثم شهد على هذا العهدة أربعة من الصحابة هم: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، هذه الشهادة من هؤلاء الأربعة دلالة على أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم هؤلاء لأهميتهم ومكانتهم ولعظم قدرهم، وإن كان هناك أربعة آلاف صحابي كلّهم عظيم القدر وجليل الأهمية، وهذا ينفي ما ذكر عن العلاقة السيئة التي ادعوها بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، ويثبت أنّه يكرمه ويقدّره ويقدّمه على غيره، كما يثبت الأهمية لمعاوية بن أبي سفيان الذي طعن فيه الكثيرون في مدة خلافته، لكن هذه شهادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهؤلاء الأربعة.

نلاحظ في هذه العهدة العمرية التسامح الواضح من طرف المسلمين، وإعطاء النصارى الكثير حتى مما لا يتخيلونه، أعطاهم الأمان على الأرواح والأموال مع أنّ البلد محاصرة والجيوش الإسلامية في كلّ مكان، والانتصار للمسلمين واضح، ورغم أنّ المدينة سقطت بعد حصار أربع شهور ومع ذلك يؤمنهم على أموالهم وأرواحهم، ويعطيهم الحرية الدينية الكاملة، ولم يكرههم أبداً على ترك دينهم، وإن كنا نخالف دين النصارى ونعتقد اعتقاداً مخالفاً تماماً في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.





وفي هذه العهدة العمرية أيضاً اشترط على عدم سكنى اليهود في إيلياء (القدس)، وظل هذا الاشتراط معمولا به في آخر زمن الخلافة العثمانية، مقابل كلّ هذا العطاء من المسلمين، وكلّ هذه الحرية الدينية والتأمين لحياتهم.

ماذا عليهم بالمقابل؟

فقط عليهم الجزية، والجزية كانت في عهد عمر بن الخطاب دينار واحد على القادر على القتال، فلو أنّ أهل إيلياء مثلاً ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف، لو كان منهم ثلاثين ألف مقاتل أو أربعين ألف مقاتل هم هؤلاء الذين يدفعون الجزية فقط، أما العاجز عن القتال أو الشيخ أو المرأة أو الطفل أو المعتكف للعبادة، فكلّ هؤلاء لا يدفعون الجزية، ولو أنّ أحداً كان يدفع الجزية من القادرين وبعد ذلك حصلت له إعاقة لأيّ سبب عن القتال لِكِبَرِ سِنٍّ أو لبعض المرض فتسقط الجزية عنه، وهذا في منتهى الرحمة، ومبلغ الجزية أقل بكثير من الزكاة التي يدفعها المسلمون.



دخل عمر بن الخطاب ﷺ القدس، وكان يوماً عظيماً من أيام الله عز وجل، وتجول في المدينة ووصل إلى كنيسة القيامة ودخل الكنيسة بالفعل، وحان وقت صلاة الظهر، وطلب منه بطريرك القدس أن يصلى الظهر في الكنيسة، لكن عمر بن الخطاب ﷺ مع علمه أنّ هذا يجوز إلا أنّه رفض، وعندما سأله البطريرك لماذا لا تصلي؟ قال: **أما إني لو صليت هنا لأخذها منكم المسلمون فيما بعد ويقولون صلى هنا عمر،** فهذا حماية لكنيستكم أن لا أصلي في هذا المكان.



خرج عمر بن الخطاب ﷺ يريد أن يصلي فسأل عن المسجد الأقصى، فلم يجد المسجد الأقصى، فبعد أن زار كنيسة القيامة سأل البطريرك أين المسجد الأقصى، فقال: أتقصد المكان الذي يعظمه اليهود؟ فقال: نعم. فأخذه وذهب به إلى مكان المسجد الأقصى، فوجد عمر بن الخطاب أنّه مجرد بقايا بناء، وقد ألقيت فيه القمامة في كلّ مكان، وأصبح مكبّاً للقمامة والمخلفات، مع أنهم يعرفون أنّ هذا المكان تعظمه الأديان السابقة ويعظمه اليهود، وعندما رأى عمر بن الخطاب ﷺ المسجد بهذه الصورة، بدأ ينظف المسجد هو والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم واشترك هو بنفسه في كنس المسجد الأقصى مع أنّه أمير المؤمنين، بمنتهى التواضع والخشوع، وأخذ الجيش الإسلامي واشتركوا مع بعضهم البعض لتنظيف المسجد الأقصى، وأذّن بلال بن رباح ﷺ في المسجد الأقصى وهذه المرة الثانية التي أذّن فيها بلال بعد وفاة الرسول ﷺ، لأنّه بعد وفاة الرسول ﷺ انقطع بلال ﷺ عن الآذان، وقال أنّه كان يؤذن في عهد الرسول ﷺ وكلما حاول أن يؤذن تخنقه العبرات ويتذكر الحبيب ﷺ فيبكي، ولا يستطيع أن يكمل الآذان فأذّن مرة واحدة في الجابية عندما أتى عمر بن الخطاب ﷺ واجتمع أمراء الشام في الفتوحات الإسلامية قبل فتح القدس بحوالي شهر أو أقل، وأذّن في اجتماع الصحابة ﷺ بعد أن طلب عمر بن الخطاب منه، فحتى هذا الآذان الذي كان في الجابية لم يستطع أن يكمله وخنقته العبرات وبكى، ثم في المسجد الأقصى في أول آذان في المسجد الأقصى بعد أن امتلكه المسلمون وأعادوا تنظيفه كان لبلال بن رباح ﷺ أن أتمّ الآذان، وكانت صلاة الفجر أول صلاة تصلى في المسجد الأقصى بعد أن دخله المسلمون.



والذي أمّ المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ وصلى بالركعة الأولى بسورة ص وسجد السجدة سجدة داود، وهذا لقناعة واضحة عند المسلمين أنّ هذا المكان هو الذي كان يعبد فيه داود ﷺ ربه سبحانه وتعالى، وهذا يلغي كلّ اعتقاد بوجود هيكل غير هذا المسجد الأقصى الذي كان يعظمه كلّ أنبياء الله عز وجل، وفي الركعة الثانية صلى بسورة الإسراء لقراءة الآية الكريمة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، ثم بدأ بعد هذه الصلاة ببناء المسجد الأقصى بناء متكاملاً، وكان هذا البناء من الخشب، وكان يتسع في عهد عمر بن الخطاب ﷺ إلى ثلاثة آلاف مصلّ، بنى على كلّ الحدود التي كانت موجودة للمسجد الأقصى، وحددوا مكان الصخرة التي ربط عندها الرسول ﷺ البراق في رحلة الإسراء والمعراج.

مكث عمر بن الخطاب ﷺ في المدينة يرتب الأحوال فترة قليلة من الزمن، ثم غادر القدس عائداً إلى المدينة المنورة، وفي عودته قال بعض الكلمات لأهل القدس من المسلمين، وهذه الكلمات هي دليل النصر وبرهان التمكين لأمة الإسلام في الأرض، كلمات بسيطة لكنها في منتهى العمق قال: «**يا أهل الإسلام! إنّ الله تعالى قد صدقكم الوعد**» فتح لكم هذه البلاد وأورثكم إياها؛ لأنّ الرسول ﷺ كان قد بشّر بفتح بلاد الشام كما قلنا سابقاً في غزوة الأحزاب، «فقد صدقكم الوعد ونصركم على الأعداء وأورثكم البلاد، ومكَّنَ لكم في الأرض، فلا يكون جزاءه منكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي فإنّ العمل بالمعاصي كفر بالنعم، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عز وجل عليهم عدوهم»، فهو يضع المسلمين على الطريق الصحيح، حتى لا يعتقدوا أنهم انتصروا بالعدد والعدّة، أو الخطة والإمكانيات البشرية والسلاح، يخبرهم أنكم انتصرتم لأنكم مع الله عز وجل، فإن عملتم بالمعاصي في يوم من الأيام، سلبتم العزة وضاع منكم التمكين، وهي رسالة في منتهى الأهمية وجهها أمير المؤمنين الفاروق عمر ﷺ إلى الجيل الذي عاصره وإلى الأجيال التي تأتي بعده وإلينا وإلى يوم القيامة، وبهذا الوضع فتحت فلسطين بكاملها إلا مدينة واحدة وهي مدينة قيسارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فحاول المسلمون أن يفتحوها لكنّها كانت صعبة جداً في الفتح؛ فقد كانت حصينة وتأتيها الإمدادات من البحر الأبيض المتوسط، وكانت من أهم الموانئ في مدينة فلسطين فتأخر فتحها قليلاً بعد مدينة القدس.



في سنة 18هـ الموافق 739م حصل حادث مؤسف في فلسطين، وأثّر عليها وعلى المناطق التي حولها في الشام، وهو ما يعرف في الشام بطاعون عمواس؛ وهو وباء قاتل معد، انتشر هذا الوباء في بلدة صغيرة في فلسطين اسمها عمواس، وهي في شمال غرب القدس، وعمَّ هذا الطاعون في الجيش الإسلامي، فقتل أعداداً كبيرة في فترة وجيزة، فبأقل من سنة فقد المسلمون أكثر من خمسة عشر ألف أو ثمانية عشر ألف مسلم، وكانت من اللحظات المؤثرة جداً في حياة المسلمين، وتخوف المسلمون أن يضيع منهم هذا الفتح العظيم، لكنّ الله عز وجل حفظ المسلمين وأيّدهم ومرّت الأزمة بسلام، وممن فقد المسلمون في هذا الطاعون الشديد العنيف، أبوعبيدة بن الجراح ﷺ ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس ابن عم الرسول ﷺ وسهيل بن عمرو، ومنهم الحارث بن هشام أخ أبوجهل، وكان قد أسلم بعد الفتح وشارك في الفتوحات الإسلامية والجهاد، وذكرنا أنه كان من المشتركين في موقعة اليرموك، توفي ﷺ في هذا الطاعون وكان قد أتى من مكة المكرمة ومعه سبعين من أهله، مات منهم ستة وستون في هذا الطاعون، وكان هذا الطاعون مأساة ضخمة، حيث فقد خالد بن الوليد عدداً كبيراً من أولاده يفوق الثمانية عشر أو التسعة عشر، وكانت كارثة كبيرة على المسلمين، لكنّ الله عز وجل سلّم ومرّت الأزمة.

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في فلسطين

احتفظ المسلمون بكلّ الفتوحات التي فتحوها في هذه البلاد في سنة 19هـ، ثم بفضل الله عز وجل فتحت قيسارية، المدينة التي صعب فتحها طوال أيام الفتح، فتحها معاوية بن أبي سفيان بعد حصار طويل، وكان قد ابتداء الحصار يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه أخو معاوية رضي الله عنه ولكنّه لم يستطع أن يتم الفتح فأكمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ووصل الخبر إلى المدينة المنورة التي لم تنم من شدة الفرح، وظل المسلمون طوال الليل سعداء يبتهلون لله عز وجل شكراً على فتح قيسارية، وبذلك تم فتح فلسطين بكاملها، وأصبحت فلسطين منذ ذلك الزمن دولة إسلامية، وستظل كذلك بإذن الله إلى يوم الدين، هذه شريعة الله عز وجل ودينه، وقد تحتل فلسطين وتضطهد وتظلم ولكنها تظل إسلامية، ولا تبديل لكلمات الله عز وجل.

هذه البلاد العظيمة المباركة أرض فلسطين زاد الله عز وجل من بركتها ومن شرفها أن روت أرضها دماء الصحابة الكرام الأفاضل رضي الله عنهم، في أجنادين وبيسان وفتح القدس وقيسارية، ودخلها من الصحابة العدد الكبير، دخلها عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة ومعاذ بن جبل وعبدالرحمن بن عوف، وأسماء الصحابة الذين دخلوا إلى أرض فلسطين وشرفوها بزيارتهم أكثر من أن تحصى، بل عاش فيها بعد الفتح الإسلامي عدد من الصحابة منهم عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، وأسامة بن زيد، ووثلة بن الأصقع، وفيروز الديلمي وهو من كبار الصحابة الذين قتلوا الأسود العنسي في اليمن، وعاش فيها دحية الكلبي، وعبد الرحمن بن غنم رضي الله عنه وكان يسمى فقيه الشام، وأوس بن الصامت البدري، ومسعود بن أوس البدري، وعدد كبير من قدامى الصحابة الذين اشتركوا في بدر، ومن المهاجرين إلى المدينة المنورة وغيرهم كثير، وهذا طرف من بركة أرض فلسطين أن عاش فيها هذا العدد الضخم من الصحابة.


الأندلس
بحر بنطس
بحر جرجان
البيزنطية
الامبراطورية
البحر المتوسط
كريت
قبرص
القيروان
الموصل
الدول
همذان
أصفهان
كرمان
نيسابور
دمشق
الكوفة
البصرة
الإسكندرية
برقة
الخليج العربي



وبعد فترة وجيزة جداً من دخول المسلمين إلى أرض فلسطين، دخل معظم أهل فلسطين في الدين أفواجاً، وأنقل لكم كلمة القائد العسكري الفيلد مارشال مونتغمري صاحب كتاب كتاب (الحرب عبر التاريخ) وهو قائد عسكري ، صور في كتابه الحروب التي مرت في تاريخ البشرية بصفة عامة، وعندما تكلم عن الفتوح الإسلامية قال: وصلت الفتوح الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق؛ لأنهم كانوا يُستقبلون في كلّ مكان يصلون إليه كمحرّرين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من إنسانية وحضارة. يعني بذلك أنّ الشعوب التي كانت تستقبل الفتوح الإسلامية كانت تدخل في دين الإسلام راغبة، وتعتبر المسلمين محررين من الظلم والاضطهاد الذي وقع عليهم، وبذلك دخل معظم السكان الأصليين من أهل فلسطين وهم من اليبوسيين والكنعانيين والبلستيين وغيرهم ممن تحدثنا عنهم سابقاً، دخلوا جميعاً في دين الله أفواجا، وأصبحت التركيبة السكانية الأصلية لأهل فلسطين هي التركيبة الإسلامية.

تحوّلت أرض فلسطين بكاملها إلى أرض إسلامية منذ العام التاسع عشر للهجرة، أي نحو سنة 639م، ودخلت فلسطين والشام بكاملها في حكم المسلمين، وكما ذكرنا فقد تولى إمارة بلاد الشام بما فيها فلسطين أبوعبيدة بن الجراح ﷺ، وحصل طاعون عمواس في سنة 18 للهجرة، ومات فيه أبوعبيدة ﷺ، وتولى من بعده معاذ بن جبل ﷺ ومات أيضاً في طاعون عمواس، فتولى من بعده يزيد بن أبي سفيان ومات أيضاً، كلّ ذلك حدث في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، ثم تولى إمارة الشام من بعدهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما (أي فلسطين ولبنان والأردن وسوريا)، وبقي في الولاية حتى وفاة عمر بن الخطاب ﷺ، ثم تولى خلافة المسلمين سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، وقد أقرّ معاوية طوال فترة حكمه التي استمرت 12 سنة (23-35 هـ) (644-655) على الشام، وخلال تلك الفترة لم يحدث في الشام ولا في فلسطين فتنة واحدة طوال فترة حكم معاوية بن أبي سفيان ﷺ، تحت خلافة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، وفي آخر عهد سيدنا عثمان حصلت بدايات أحداث الفتنة، فتمّ حصار منزل سيدنا عثمان في المدينة المنورة، ثم قُتِلَ سيدنا عثمان بن عفان ﷺ مظلوماً في العام ٣٥هـ الموافق لسَنة 655م، وخلال كلّ هذه الأحداث لم يشترك في هذه الفتنة في المدينة المنورة أيّ إنسان من بلاد الشام أو من فلسطين، ولكن كان معظم المشتركين فيها من العراق ومصر واليمن.



كان الناس في الشام يعيشون في منتهى الأمان والهدوء السياسي والديني والعقائدي في عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد كان من أعظم المسلمين سياسةً للرعيّة في تاريخهم، وعندما سألوه عن حُسْن هذه السياسة قال:

« إنّ بيني وبين الناس شعرة، إذا شدّوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت »،

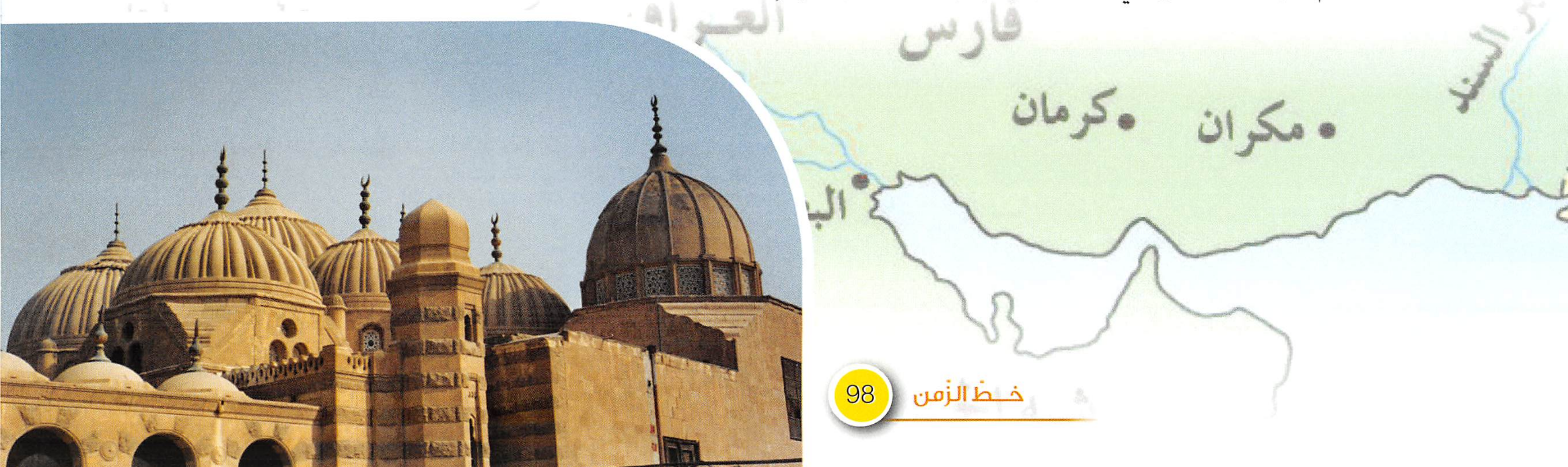
وهو ما بات اليوم يُتَداول في كلام الناس كمثل وحكمة (شعرة معاوية)، والذي كان يستطيع أن يحكم الناس مهما كانت تقلباتهم وبيئاتهم وظروفهم المختلفة.

ظل الوضع كذلك حتى بُويِعَ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة، ثم حصلت المشاكل الكبيرة في الأمة الإسلامية، وحصلت موقعة الجمل، وموقعة صفين، وقتال الخوارج، فكانت خمس سنوات من الفتن الكبرى التي مرت بها الأمة الإسلامية، ولكن مما نذكره في هذه الفترة أنّه لم تشهد فلسطين ولا بلاد الشام بكاملها أيّ نوع من القلاقل الداخلية، ونحن نعلم أنّ قتالاً حصل بين جيش معاوية وجيش سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحصلت بينهما موقعة صفين، ومقدمات لمواقع أخرى لم تتم، في كلّ تلك الأحداث كان شعب الشام وفلسطين على قلب رجل واحد، ويداً واحدة مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وبعد أن مات سيدنا علي رضي الله عنه شهيداً بعد أن قتله الخوارج، تولى الخلافة من بعده الحسن بن علي رضي الله عنهما، فتنازل عن الخلافة والحكم لمعاوية بن أبي سفيان في عام 41هـ الموافق 660م، وهو العام الذي عُرف في التاريخ بعام الجماعة، وبذلك استلم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حكم المسلمين وبدأ عهد الدولة الأموية.

الأندلس
قرطبة
إيطاليا
القسطنطينية
بحر بنطس
خراسان
كابل
صقلية
الدولة البيزنطية
سجستان
المغرب
المغرب الأوسط
القيروان
المتوسط
العراق
فارس
البحر
دمشق
كرمان
مكران
الكوفة
نهر السند

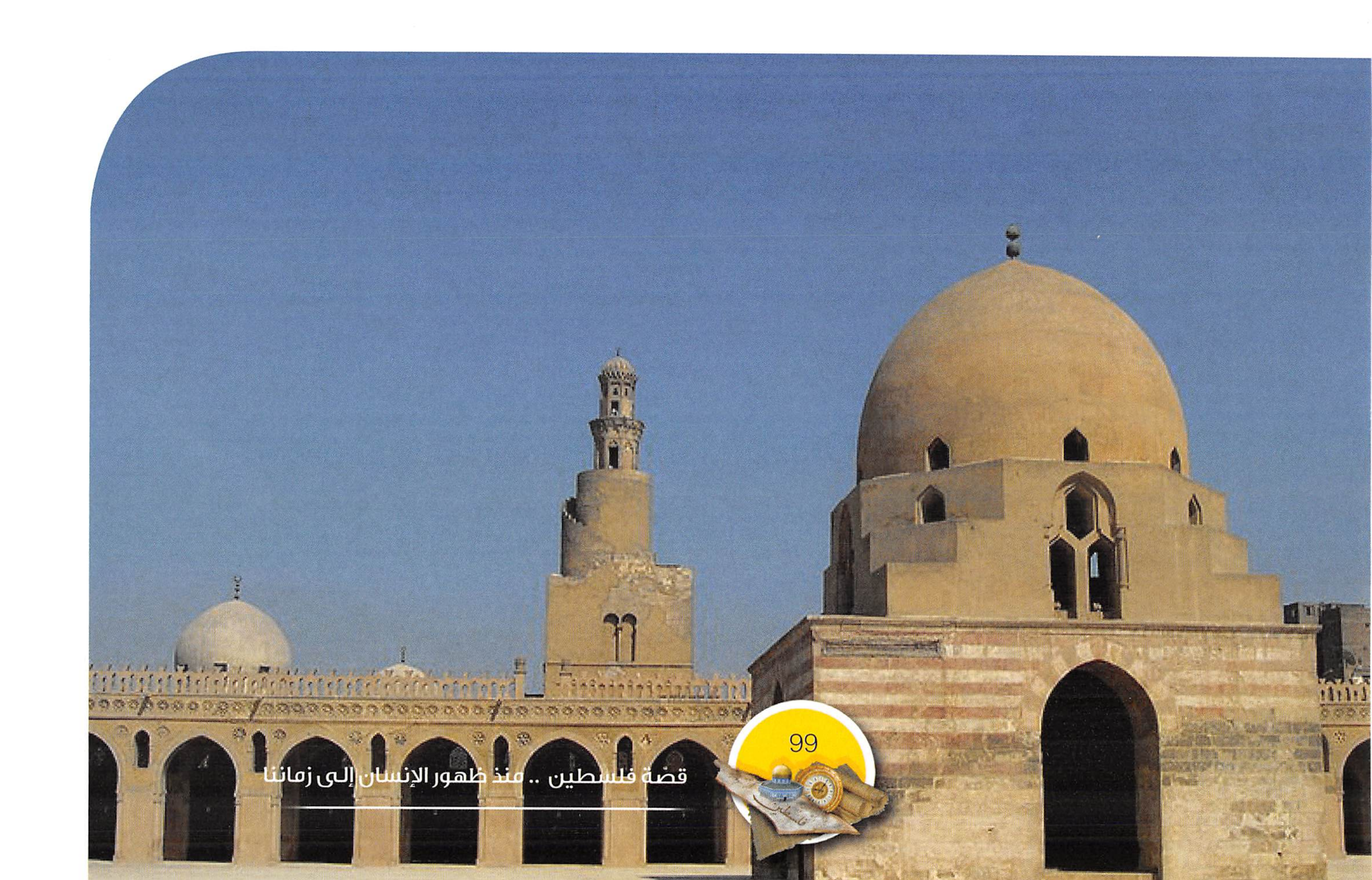
بدأت الدولة الأموية في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ، واستمرت لـ 92 سنة (132-41هـ) (660–750 م)، وكانت هذه السنوات من سنوات العزّ والتقدم والرفعة للشام، ولفلسطين بصفة خاصة؛ لأنّ عاصمة الحكم الأموي كانت في دمشق وهي قريبة جدّاً من القدس، وللقدس مكانة هامة ورفيعة.

كانت بداية الدولة الأموية بحكم معاوية بن أبي سفيان كما ذكرنا، ولا بدّ أن تكون لنا وقفة مع هذا الرجل الذي ظُلم كثيراً في التاريخ الإسلامي، فهو من الصحابة ﷺ أجمعين، وكلّ الأحاديث التي ذكرها حبيبنا ورسولنا ﷺ في حقّ الصحابة يدخل فيها معاوية بن أبي سفيان ﷺ، ولو أنفق أحدنا مثل جبل أُحُد ذَهَباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه، والمدُّ هو ملئ الكفّ، قال ﷺ: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُد ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ**» (متفق عليه) فعندما يُنفق أحد الصحابة ﷺ بما فيهم معاوية بن أبي سفيان ملئ الكفّ أو حتى نصفَ ملئ الكف، أفضل مما ننفق نحن مثل جبل أحد، لماذا؟! لأنّ الصحابة هم الذين أرسوا دعائم الإسلام، ورأينا كيف أدخَلَ معاوية الإسلام إلى مناطق كثيرة جدّاً من بلاد الشام، وهو الذي أدخل الإسلام إلى قيسرية وإلى أنطاكية وإلى أماكن كثيرة في جنوب تركيا، ولعلّه هو الذي أدخل الإسلام إلى لبنان، وهو الذي حكم المسلمين وثبَّت الدعائم الإسلامية في هذه الفترة، لا أقول لسنة أو لسنتين، ولكن لمدة عشرين سنة في زمن الخلفاء الراشدين ﷺ، وعشرين سنة أخرى بعد ذلك في زمن خلافته بصفة عامة، أي أنّه ظل والياً أو حاكماً على الشام لأربعين سنة متصلة، ثبَّت فيها دعائم الإسلام بشكل واضح وقويّ، ويكفي أنّ الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ ائتمنه على ولاية الشام، ولم يعزله ولو لمرة واحدة، مع أنّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يشتهر بكثرة العزل لمن يشك في ولايته أو إمارته، ولو كان الوالي من كبار الصحابة، ولا ننسى جميعاً أنّه قبل ذلك عزل أبوموسى الأشعري، وعزل العلاء بن الحضرمي، وعزل عمار بن ياسر، بل وعزل سعد بن أبي وقاص ﷺ، ومع كلّ هذا العزل لكرام الصحابة، لم يعزل معاوية بن أبي سفيان ولو لمرة واحدة في كلّ فترة إمارته.



والدولة الأموية نفسها دولة مظلومة في التاريخ، فالصحابي الجليل الذي بدأ هذه الدولة تعرّض إلى الظلم، فما بالكم بالدولة الأموية ؟! وكما قلنا استمرت الدولة الأموية لـ 92 سنة تداول على خلافتها 14 خليفة، لعلّ أشهرهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وعبدالملك بن مروان وأولاده الأربعة؛ وهم: الوليد وسليمان ويزيد وهشام، ومن أشهر وأعظم وأكرم خلفاء وحكام الدولة الأموية عمر بن عبد العزيز ﷺ.

وأنا لا أحب أن أقول إنّ عمر بن عبدالعزيز هو الخليفة الخامس كما هو مشتهر عند الكثير من الناس والكتب، لأني أرى أنّ الخليفة الخامس الراشد هو الحسن بن علي ﷺ، الذي تولى بعده معاوية بن أبي سفيان، والكثير من العلماء المسلمين يرفعون معاوية بن أبي سفيان في القدر والقيمة والعظمة فوق عمر بن عبد العزيز، وأنا أؤيدهم؛ لأنّه الصحابي الجليل الذي ائتمنه الرسول ﷺ على الكتابة، حيث كان يكتب رسائله، وفي بعض الروايات أنّه كان يكتب الوحي للرسول ﷺ، وهو الذي له السَّبق في إرساء قواعد الإسلام في هذه البلاد، وفي هذا السياق نذكر أنّ كلّ عمل عمله عمر بن عبد العزيز ﷺ كان في الأماكن والولايات التي رسَّخ الإسلام فيها معاوية بن أبي سفيان ومن معه من الصحابة ﷺ.



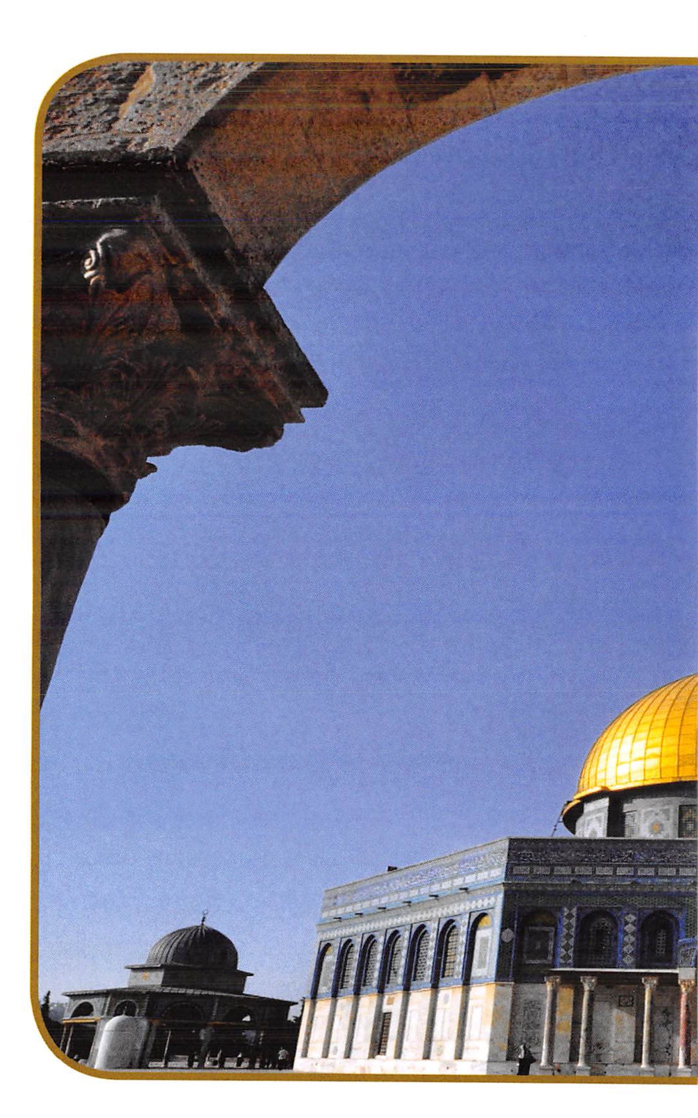


ازدهرت فلسطين في عهد الدولة الأموية ازدهاراً عظيماً، وذلك كما قلنا لقداستها ومكانتها العظيمة، ولقربها من دمشق عاصمة الخلافة الأموية، وظلّ هذا الاهتمام بقُطر فلسطين داخل الدولة الأموية. ومما يُذكر في هذا العهد أنّ عبدالملك بن مروان أنشأ من جديد المسجد الأقصى سنة 65 هـ، وجدّده وصرف عليه أموالاً ضخمة، وهو الذي بنى قبة الصخرة واستكملها من بعده الوليد بن عبدالملك، وكان بناءً في غاية الفخامة، وكلّف الدولة أموالاً ضخمة جدّاً، لدرجة أنّ الخليفة عبدالملك بن مروان ومن بعده الوليد بن عبدالملك أوقفوا خراج مصر وكلّ ما يأتي منها لمدة سبع سنوات لبناء المسجد الأقصى وبناء قبة الصخرة، والفرق بينهما كبير جداً سنأتي عليه إن شاء الله.

أتمَّ الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك هذا البناء، وكان حكمه من 86 إلى 96هـ، والقبة بناء وضع فوق الصخرة ليحدّد موقع الصخرة، وكان بناءً في غاية الفخامة والأبّهة، وهو البناء المشهور بالقبة ذات اللون الذهبي، وهذه القبة على مدار تاريخ الأمة الإسلامية كثيراً ما كانت تُدهن بالذهب الخالص، ولشدّة جمال هذا البناء لفت أنظار الكثير من المسلمين أكثر من المسجد الأقصى،



وهنا أريد التأكيد على حقيقة مهمة جداً أنّ مكان الصخرة لم يكن الصحابة ﷺ والتابعون والعلماء على مرِّ تاريخ الأمة الإسلامية يعطونه أهمية معينة، أي أنّه مكان مهمّ كأيّ قطعة من أرض فلسطين، وهو غير المسجد الأقصى الذي له أهمية أعلى وأهمية أخص، فالصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة، والإهداء للمسجد الأقصى مقدَّم ومعظَّم كما وصف الرسول ﷺ، والإسراء كان للمسجد الأقصى، فكلّ ارتباطنا والقيمة العالية والخاصة بفلسطين كانت للمسجد الأقصى، وليس لمسجد قبة الصخرة، ولكن في ربوع العالم الإسلامي وعلى فترات طويلة جدّاً ظلّت قبة الصخرة أكثر شهرة من المسجد الأقصى، وفي هذا تكمن خطورة كبيرة جداً:



أولاً: خطورة في الاتباع، لأننا لا نتّبع ما كان يفعله الصحابة ﷺ، وهم أهل الخير ومصابيح الهدى، وبدأنا نركز في شيء لم يأتِ في الشرع الدليل على أهميته أكثر من غيره.

ثانياً: أنّه مع مرور الوقت هناك أناس كثيرين جدّاً من المسلمين اعتقدوا أنّ قبة الصخرة هي المسجد الأقصى، وأنّ كلّ التعظيم يكون لهذا المكان، فإذا قام اليهود أو غيرهم من أعداء الأمة الإسلامية في يوم من الأيام بهدم المسجد الأقصى وأبقوا قبة الصخرة، قد يعتقد المسلمون أنّه لا ضيرَ في ذلك، فالمهم هو المسجد الأقصى المنتشر في الصور والبطاقات وفي الدعاية، حتى إنّه في بعض الأحيان من يحكم فلسطين يضع خلف ظهره صورة قبة الصخرة وليس صورة المسجد الأقصى، وهذا خطأ كبير وتلبيس على المسلمين، وعلى أهل هذا الدين العظيم، الذين يجب أن يدافعوا بأرواحهم عن فلسطين بأكملها وعن المسجد الأقصى بالأخص، فوَجَبَ التنبيه على هذه القضية.



شهدت أرض فلسطين الكثير والكثير من علماء المسلمين الذين عاشوا زمن الدولة الأموية، وممن عاش فيها رجاء بن حيوة الكندي رحمه الله وهو من كبار التابعين، وهو التابعي العظيم الذي أشار على سليمان بن عبدالملك بأن يولي من بعده عمر بن عبد العزيز ﷺ، مع أنّ عمر بن عبد العزيز لم يكن وليّاً للعهد، فكان هذا من أعظم أعمال رجاء بن حيوة. وهناك الكثير من التابعين الذين عاشوا في أرض فلسطين فترة من الزمن، ومنهم من عاش ومات فيها، ومن هؤلاء الذي عاشوا فيها: مالك بن دينار، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري، رحمهم الله جميعاً وهم من كبار علماء المسلمين.

تولى حكم المسلمين سليمان بن عبدالملك رحمه الله من سنة 96 إلى 99هـ، وهو أحد الخلفاء الأمويين المهمين. أنشأ مدينة الرملة سنة ٩٧هـ (717م)، وكان هذا من الأعمال التي عملتها الدولة الأموية في فلسطين، ولما انتهت الدولة الأموية سنة 132هـ (750م) قامت من بعدها الدولة العباسية، وكما نعلم كان قيام الدولة العباسية قياماً دموياً إلى حدٍّ كبير، حيث قُتل عدد كبير جدّاً من أمراء الدولة الأموية، وعلى رأسهم الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد الأموي وقد قُتل في حلوان في مصر، وبذلك انتهى عهد الدولة الأموية وبدأ عهد الدولة العباسية.

حَكَمت الدولة العباسية المسلمين لزمن طويل جدّاً يصل إلى خمسة قرون؛ وكان ذلك من سنة 132هـ إلى سنة 656هـ، أي من سنة ٧٥٠م إلى 1258م، أي 524 سنة كاملة، وبالطبع هذه فترة طويلة جدّاً من عمر الدولة الإسلامية، وهناك ألغاز كثيرة في الدولة العباسية، على سبيل المثال نسمع عن التقدم والرقي والحضارة والتقدم العلمي والاقتصادي، والسيطرة على بقاع كثيرة في العالم الإسلامي، ولكن في الوقت نفسه عندما نقترب كثيراً من حياة الخلفاء الذين حكموا الدولة العباسية، نجد بُعداً عن الشريعة والدين، من شرب الخمور ولعب مع الجاريات والراقصات، وتبذير الأموال بشكل غير مقبول، فكيف تصبح لهذه الدولة السيطرة على مساحات شاسعة من البلاد؟!! وكيف يكون تاريخ بعض الخلفاء فيها بهذه الصورة التي لا نرضاها أبداً لمسلم فضلاً عن خليفة يحكم المسلمين؟!!

وحتى نفهم هذا اللغز لا بدّ من تقسيم خلافة الدولة العباسية إلى فترتين رئيسيتين، فترة نسميها عهد القوة، وهي الفترة الأولى من حكم الدولة العباسية، وهذه استمرت من سنة 132 هـ إلى 247هـ، أي 115 سنة متصلة، ثم تأتي فترة ضعف الدولة العباسية والتي امتدت 409 سنة من عهد الخلافة العباسية ابتداءً من سنة 247هـ إلى سنة 656 هـ التي سقطت فيها الدولة العباسية، وهذه هي الفترة المشهورة للدولة العباسية، والفترة الأولى هي الفترة التي حكم خلالها أبوجعفر المنصور وهارون الرشيد والمعتصم والمأمون، وهذه هي الفترة التي عمَّ فيه الإسلام معظم ربوع الدولة العباسية، وورثت الدولة العباسية معظم أملاك الدولة الأموية، وحكمت دولة إسلامية تصل من الجزائر أو المغرب، إلى أطراف الصين، وكانت أعظم دولة في ذلك الزمن، وكان الحكم المركزي في بغداد، وكانت معظم هذه المناطق تدين بالولاء للدولة العباسية ومنها أرض فلسطين.



انتقلت فلسطين انتقالاً طبيعياً من حكم الدولة الأموية إلى حكم الدولة العباسية، ولم يحصل في هذه الفترة في فلسطين أي نوع من أنواع القلاقل، فقد كان من المتوقع أن يحدث ثورات في فلسطين أو داخل الشام بصفة عامة لشدة ولاء هذه المناطق للدولة الأموية، ولا زالت هذه المناطق إلى الآن تحب الدولة الأموية، لحُسن سياسة الخلفاء الأمويين للشعب بصفة عامة، ولأهل الشام بصفة خاصة، وأعود لأقول مرة أخرى إنّ الدولة الأموية كانت من الدول العظيمة التي انتشر فيها العلم والدعوة والفتوحات الإسلامية، ودخلت فيها الأندلس إلى الإسلام، وكذلك الهند، وعاش فيها الكثير من التابعين، وكان فيها الجهاد بشكل مستمر (الصوائف والشواتي)

أي جيوش الصيف تخرج في الصيف، وجيوش الشتاء تخرج في الشتاء للحرب والجهاد في سبيل الله، ولذلك فإنّ الناس أحبّوا الدولة الأموية حبّاً كبيراً جداً، ولو جاء حاكم من حكام الدولة الأموية إلى هذا الزمن لاعتُبِرَ قدّيساً رغم كلّ الأخطاء والمشاكل التي حدثت في عهد الدولة الأموية، ومع ذلك فنحن لا نقول عنهم ملائكة أو معصومين، لأنّه كان لديهم بالتأكيد أخطاء، إلا أنهم كانوا من أفضل وأعظم حكام المسلمين على طول عهد المسلمين وإلى زماننا هذا، فلو أنّ لدينا دولة تحكم المساحة التي كانت تحكمها الدولة الأموية فإنني أؤكد لكم أنّ هذه الدولة ستحكم العالم.

ورغم حبّ الشعب لهذه الدولة فإنّه لم يحدث بعد سقوطها ثورات في فلسطين أو في الشام بصفة عامة، ولعلّ ذلك يرجع إلى بطش العباسيين في بداية عهدهم، وسفكهم الكثير من الدماء، وهذا الأمر لم يكن مقبولاً شرعاً، وكما قلنا انتقلت فلسطين انتقالاً هادئاً من حكم الأمويين إلى حكم العباسيين.

اهتم العباسيون بأرض القدس وبفلسطين بصفة عامة لأنها أرض مباركة ومقدّمة، ولكن لم يكن اهتمامهم بها كاهتمام الدولة الأموية، ولم يهتموا بها كاهتمامهم بأرض العراق، حيث نقلت الدولة العباسية عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، فبَعُدَت فلسطين عن مركز الخلافة، ولكن ظل الاهتمام بها قائماً لوجود القدس والمسجد الأقصى، ولوجود عدد كبير من المدن الساحلية المهمة التي كانت تعتبر ثغوراً للدولة العباسية مطلة على البحر الأبيض المتوسط، ومنها على سبيل المثال يافا وحيفا وعكا وقيسرية وغزة وغيرها من مدن الساحل في فلسطين.

فما الذي حصل بعد ذلك للدولة العباسية عندما ضَعُفَت بعد سنة 247 هـ؟

فلسطين في عصر الطولونيين والإخشيديين

تكلمنا مسبقاً عن الدولة الأموية التي حكمت الأمة الإسلامية لـ 92 سنة تقريباً، وتكلمنا عن سقوط الدولة الأموية واستلام العباسيين الحكم، وقلنا إنّ قيام الدولة العباسية كان قياماً دموياً، ولكن في واقع الأمر تغيرت الأحوال كثيراً بعد هذا القيام الدموي، فكانت الدولة العباسية دولة عظيمة حكمت المسلمين لفترة طويلة من الزمن، وقسّمنا هذه المدة إلى فترتين رئيسيتين: فترة قوة استمرت 115 سنة، وفترة ضعف استمرت 409 سنوات.

وهنا أريد التعليق على هذه الفترة الطويلة وأقول إنّ اهتمام العباسيين بفلسطين كان اهتماماً كبيراً رغم أنّه أقلّ من اهتمام الأمويين بها، لأنّ مركز الخلافة ابتعد وأصبح في بغداد بعد أن كان في دمشق، واهتمام العباسيين بأرض فلسطين لم يكن اهتماماً يجورون فيه على حقّ النصارى، بل على العكس، فقد حافظوا على أملاك النصارى، وعلى العهدة العُمرية والسماحة الدينية، بل كانت هناك علاقات دبلوماسية بين هارون الرشيد الرجل العظيم وبين شارلمان ملك فرنسا، وكان شارلمان أعظم ملك في أوروبا في ذلك الوقت، وتبادلا الهدايا، وحدث في سنة 169 هـ (786 م) نوع من التواصل بين الملكين، وصدر قراران من الملكين بسبب هذا التواصل، كان القرار الأول أن يرسل شارلمان ملك فرنسا الأموال الكثيرة من فرنسا إلى القدس لتعمير وتجديد وتحسين كلّ الكنائس الموجودة في القدس وعلى رأسها كنيسة القيامة، وكان هذا نوعاً من التسامح الديني من الدولة الإسلامية التي تقبل زيادة العظمة لهذه الأبنية، وتحولت هذه الكنائس إلى قلاع، رغم أنّ ذلك فيه خطورة كبيرة، وحصل بالفعل أن سبَّبَت بعض المشاكل بعد ذلك عند قدوم الصليبيين في تاريخ الأمة الإسلامية. والقرار الثاني كان توفير حماية إسلامية عسكرية لكلّ الحجاج النصارى الذين يأتون من أوروبا إلى القدس، من لحظة نزولهم على الساحل وذهابهم إلى القدس، وحتى العودة من القدس إلى الساحل مرة أخرى وحتى يغادروا إلى بلادهم، حتى لا يتعرضوا لأيّ نوع من الأذى.

استمرت فترة القوة 115 سنة، وفي سنة 247 هـ قُتل المتوكل وهو أحد خلفاء الدولة العباسية، وهو آخر الخلفاء في عهد القوة، ثم بدأ بعد ذلك عهد الضعف الذي سيطرت فيه قوى مختلفة على الدول العباسية، فكانت الدولة العباسية موجودة كصورة، ويحكم من وراء الستار وأحياناً من أمامه قوى كثيرة مختلفة، منهم الأتراك العسكريون، والبويهيين الشيعة الذين حكموا الدولة العباسية لفترة طويلة، وفي فترة أخرى سيطر السلاجقة.

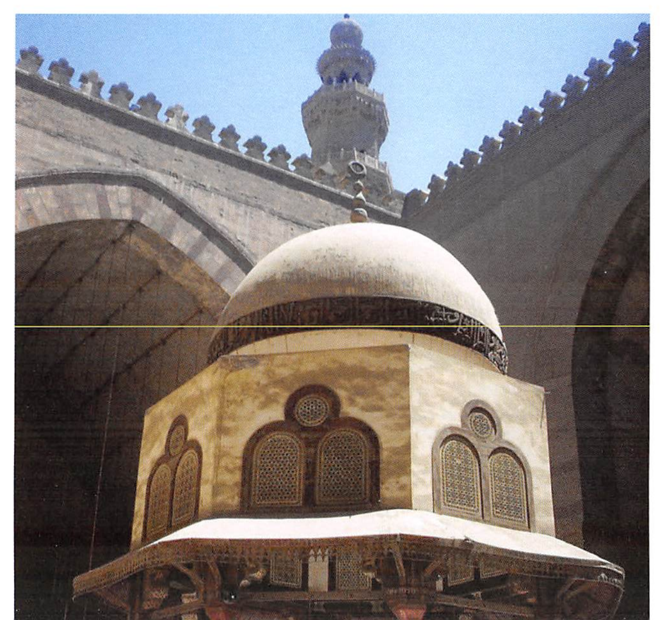


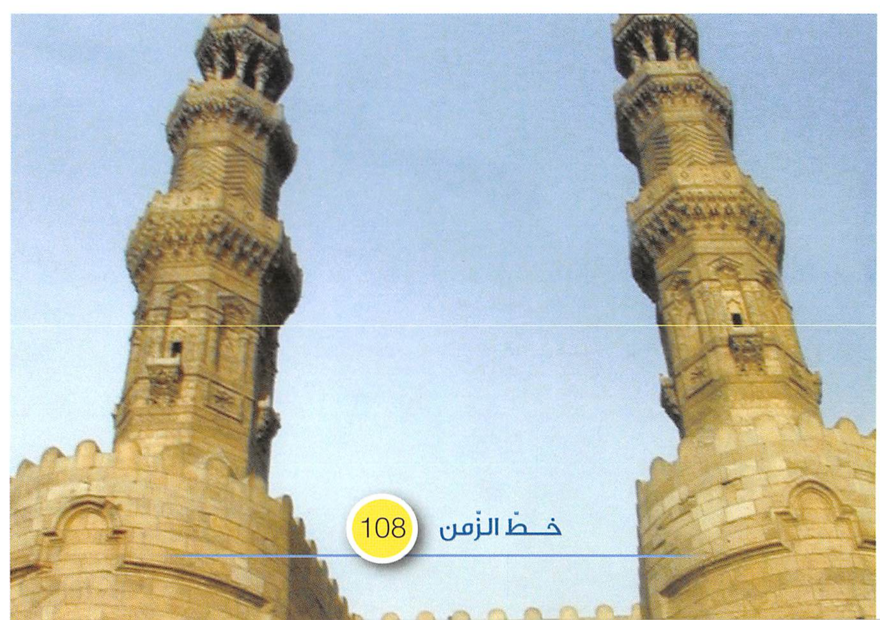
وفي كلّ هذه الفترة التي تصل إلى 409 سنة كانت الخلافة العباسية مجرد اسم، ولم يكن هناك أي نوع من السيطرة على أملاك الدولة الإسلامية، بل لم يكن هناك سيطرة على العراق ذاتها ولا حتى بغداد رغم أنّ مركز الخلافة فيها، بل حتى القصر الحاكم الذي يعيش فيه الخليفة الذي يحكم المسلمين جميعاً، فقد كان اسمه خليفة المسلمين وقائد الدولة العباسية، ولكنّه لا يملك أن يُنسب إليه أمر من أمور الأمة الإسلامية، كما هو وضع ملكة إنجلترا الآن، فهي ملكة واسمها الرسمي ملكة إنجلترا، ولكن لا يعود إليها الرأي في أيّ أمر من أمور الدولة، ورئيس الوزراء هو الذي يحكم، فنظام الدولة يعود إلى رئيس الوزراء، وهكذا كان الأمر مع الدولة العباسية في المرحلة الثانية، فلا يمكن أن نؤرخ لحياة المسلمين ولتاريخهم وتاريخ الدولة العباسية بتاريخ الخلفاء الذين حكموها، وهذا خطأ موجود في معظم كتب التاريخ أن نؤرخ لهذه الفترة تبعاً للخليفة الذي كان يحكم، فالخليفة قد يكون إنساناً ماجناً وفاسقاً ومضيِّعاً لوقته وماله، ونربط تاريخ الأمة بكاملها بمثل هذا الإنسان، وننسى أنّ في داخل الدولة العباسية عاش خلفاء وأمراء وعظماء ومجاهدون من المسلمين، لا يمكن أبداً أن يُغفل التاريخ اسمهم أو ذكرهم، فعلى سبيل المثال عاش في فترة الضعف هذه نورالدين محمود الشهيد رحمه الله، وعاش فيها عمادالدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وألب أرسلان، ويوسف بن تاشفين، وهي أسماء كبيرة وقامات ضخمة في تاريخ الأمة الإسلامية، عاشوا في الزمن الذي كان يسمى زمن الضعف للدولة العباسية، ونحن في الحقيقة نحتاج إلى أن نعيد كتابة التاريخ بشكل يبرز أماكن القوة في تاريخنا، وليس فقط مجرد صورة الخلافة العباسية في فترة ضعفها.



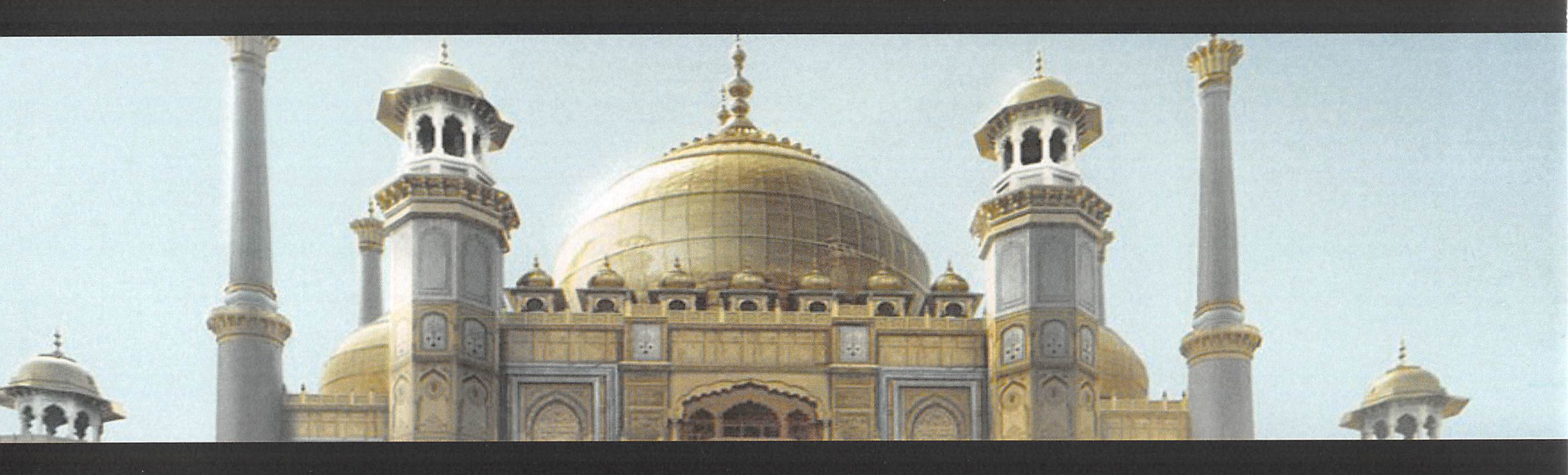
عندما ضعفت الخلافة العباسية سنة 247 هـ (861 م) سيطر الأتراك العسكريون على الحكم، وكان حكماً عسكرياً جبريّاً، وكان هناك نوع من الاضطهاد الشديد للمسلمين في بغداد والعراق ومعظم المناطق التي حكمها العباسيون في ذلك الوقت، وظهر هذا الظلم العسكري لكلّ المتابعين للأحداث، ومن هنا بدأت تتفلّت الولايات الكثيرة تحت حكم الدولة العباسية عن الدولة العباسية، وبالطبع لم يحكم العسكريون بالحكم الشرعي، بل كان فيه الكثير من المخالفات، وانتشرت الخمور في بغداد معقل الخلافة العباسية، وانتشر الظلم والفساد والرشوة والإباحية والرقص والأغاني، حتى أصبحت الأمور خارجة عن الحكم الإسلامي، وبالتالي أعطى ذلك مسوِّغاً لكثير من الولايات أن تنفصل عن الخلافة العباسية الأم التي كانت تضمّ المسلمين، وكان من أوائل الذين انفصلوا أحمد بن طولون حاكم مصر، وهذا سيكون له مردود على فلسطين كما سيأتي لاحقاً.

أحمد بن طولون كان والي الدولة العباسية على مصر، اشتُهر بالورع والتقوى والجهاد في سبيل الله، وكان له إسهامات كثيرة إدارية ومعمارية وفنية وثقافية داخل مصر، وكان من الذين يحكمون بشكل متوازن ومتميز، وعندما شاهد ما يحدث في بغداد وسقوط الحكم العباسي تحت سيطرة تركيا، ورأى أنّ الخليفة العباسيّ مجرد صورة لا معنى لها، بدأ يستقل بمصر عن حكم العباسيين، وهو أول من انفصل عن الحكم العباسي، وكان ذلك في سنة ٢٥٤هـ (868م)، أي بعد ضعف الدولة العباسية بسبع سنوات تقريباً، فاستقل أحمد بن طولون وهو ليس عبّاسياً، بل ليس عربياً، فأبوه طولون كان من الأتراك الذين يعيشون في مدينة بخارى، وأهدى أمير بخارى في ذلك الوقت وهو نوح بن سامان، أهدى طولون وهو أبوأحمد بن طولون إلى المأمون حاكم الدولة العباسية في زمن القوة.





انفصل أحمد بن طولون عن الدولة العباسية دون أن يعلن عن هذا الانفصال، ثم بعد ذلك أعلن عن هذا الانفصال رسميّاً، بل ودارت بينه وبين الجيوش التركية الحاكمة للدولة العباسية بعض المعارك، وكان من جراء تلك المعارك أن تقدم أحمد بن طولون بجيشه ووصل إلى فلسطين وإلى الشام، وحارب الدولة العباسية هناك وسيطر على هذه المناطق، وبذلك دخلت فلسطين تحت حكم الدولة الطولونية في سنة 264 هـ (877م)، أي بعد عشر سنوات تقريباً من سيطرته على مصر، وبذلك تدخل فلسطين في فترة جديدة من تاريخها تحت الحكم الطولوني الذي يستمر حتى سنة 321هـ أي 57 سنة، وكانت فترة جيدة من فترات الحكم في فلسطين، وكما قلنا من قبل إنّ أحمد بن طولون اشتُهر بالورع والتقوى وحبّه للمساجد؛ لذلك اهتم بأرض فلسطين لأهميتها وقداستها، وأعطى مساحة كبيرة للنصارى في القدس بصفة خاصة وفي فلسطين بصفة عامة، كما اهتم بالحجاج الذين يأتون إلى أرض فلسطين من أوروبا، وهنا سأذكر لكم رسالة ذكرها المؤرخ الأمريكي تومسون في كتابه (التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعصور الوسطى)



وصدر هذا الكتاب سنة 1928م، وهي شهادة من مؤرخ نصراني أمريكي، يشهد على واقع الأمة الإسلامية في ظل الدولة الطولونية، ويشهد على واقع فلسطين، ينقل رسالة وجهها إلى ثيودروز وهو بطريرك القدس في ذلك الوقت إلى بطريرك القسطنطينية، وكان ذلك في سنة 255هـ (869م) قال فيها حرفياً: إنّ المسلمين قومٌ عادلون، نحن لا نلقى منهم أيّ أذىً أو تعنّت، وأنا أنقل هذه الرسالة لكلّ البشر في العالم حتى أقول لهم إنّ مبررات وأسباب الحروب الصليبية كذب، ودعوى الاضطهاد الذي يمارسه المسلمون ضدّ النصارى محض تلفيق. حيث إنّ بطريرك القدس ليس كأيّ شخصية أخرى في القدس، وكانت رسالته لبطريرك القسطنطينية أي ليست موجّهة للمسلمين كنوع من التقيّة أو تجنّب الصِّدام، بل إنها من نصراني إلى نصراني، يذكر فيها أنّ المسلمين قومٌ عادلون.



قامت دولة أخرى في مصر سنة 321هـ وهي الدولة الإخشيدية، وكان ذلك على يد محمد بن طغج الإخشيدي، وكان من أصول تركية وليس عربياً، حكم مصر من سنة 321هـ وحتى سنة 359هـ، أي 38 سنة تقريباً، وكان من الطبيعي أنّه بعد أن أسقط الدولة الطولونية وسيطر على الأمور في مصر، أن يمتد لأملاك الدولة الطولونية وهي الشام ومن ضمنها فلسطين، واستطاع أن يسيطر على فلسطين في السنة نفسها التي سيطر فيها على مصر، وبذلك دخلت فلسطين والشام تحت حكم الدولة الإخشيدية، وكانت فترة جيّدة من فترات فلسطين، فكانت امتداداً لحكم الدولة الطولونية، فلم تتغير طبيعة الحكم، بل إنّ ملوك الدولة الإخشيدية اهتموا اهتماماً بالغاً بفلسطين بصفة عامة وبالقدس بصفة خاصة، لدرجة أنّه عندما يتوفى خليفة من خلفاء الدولة الإخشيدية كان يُحمل ليُدفن في القدس تعظيماً لهذا المكان الجليل، ولكن هناك مشكلة كبيرة، أنّ هذا الاهتمام الديني والاهتمام بالمظاهر وبالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة لم يصحبه اهتمام عسكريّ مناسب في هذه المنطقة،



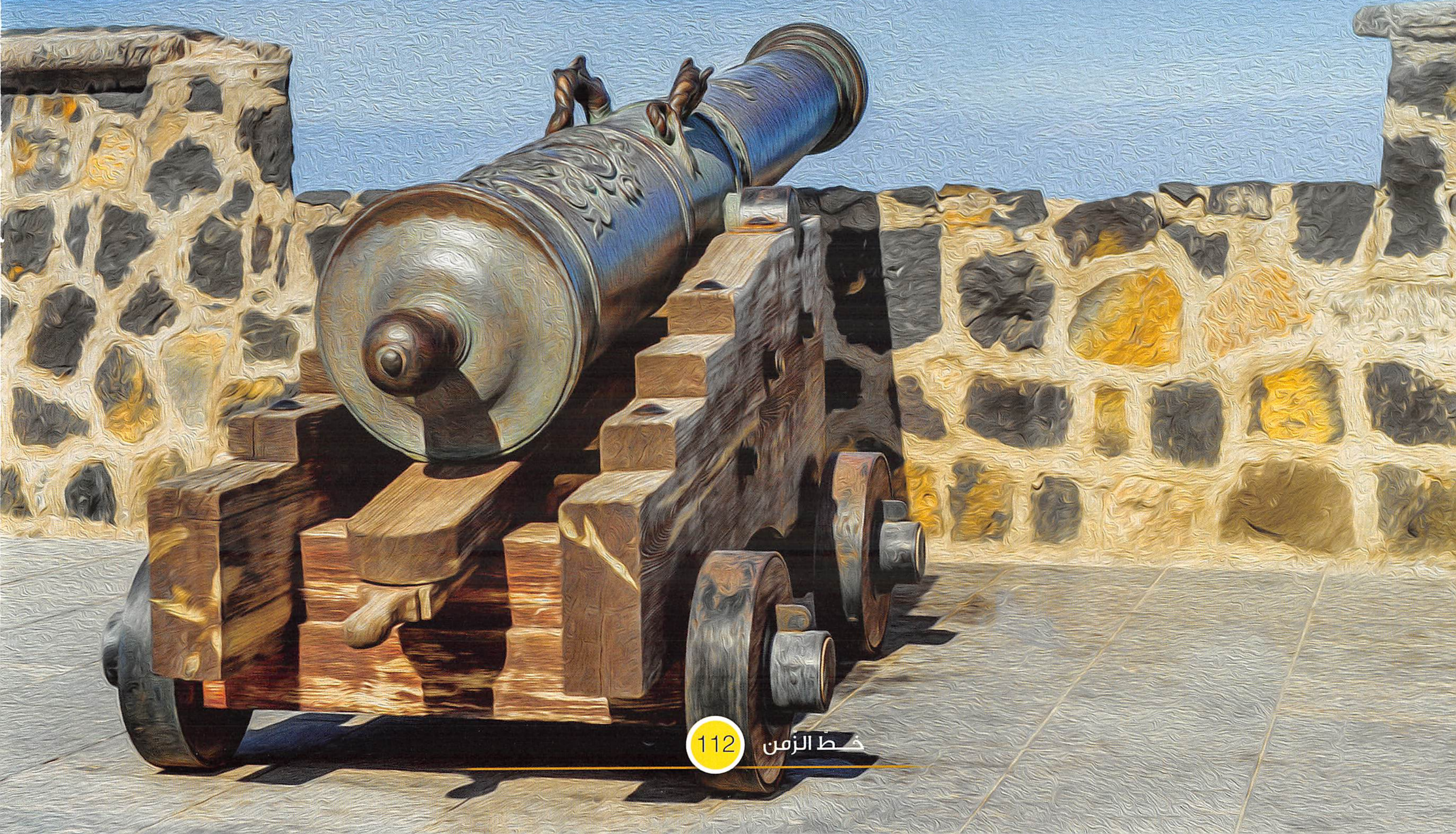
ولم يصحبه اهتمام تعليميّ دعويّ، فقد كان معظم التركيز على أرض مصر التي كانت مركز الدولة الطولونية ومن بعدها الدولة الإخشيدية وعاصمتها الفسطاط، حيث لم تكن القاهرة قد أُنشئت بعد، بالإضافة إلى المراكز الكبرى الأخرى كالإسكندرية ودمياط وغيرها من مراكز القوى في ذلك الوقت، فلم يكن هناك اهتمام كافٍ للمناطق البعيدة عن مركز البلاد ومنها أرض فلسطين، وهذا أورث ضعفاً فيها، ولم تظهر علامات هذا الضعف في زمن الدولة الطولونية لأنّها كانت دولة قوية، ولكن بسقوط الدولة الإخشيدية سنة 359هـ ظهر هذا الضعف بشكل واضح في أرض فلسطين، وهذا أدى لمشاكل كبيرة جداً ستحدث بعد ذلك.

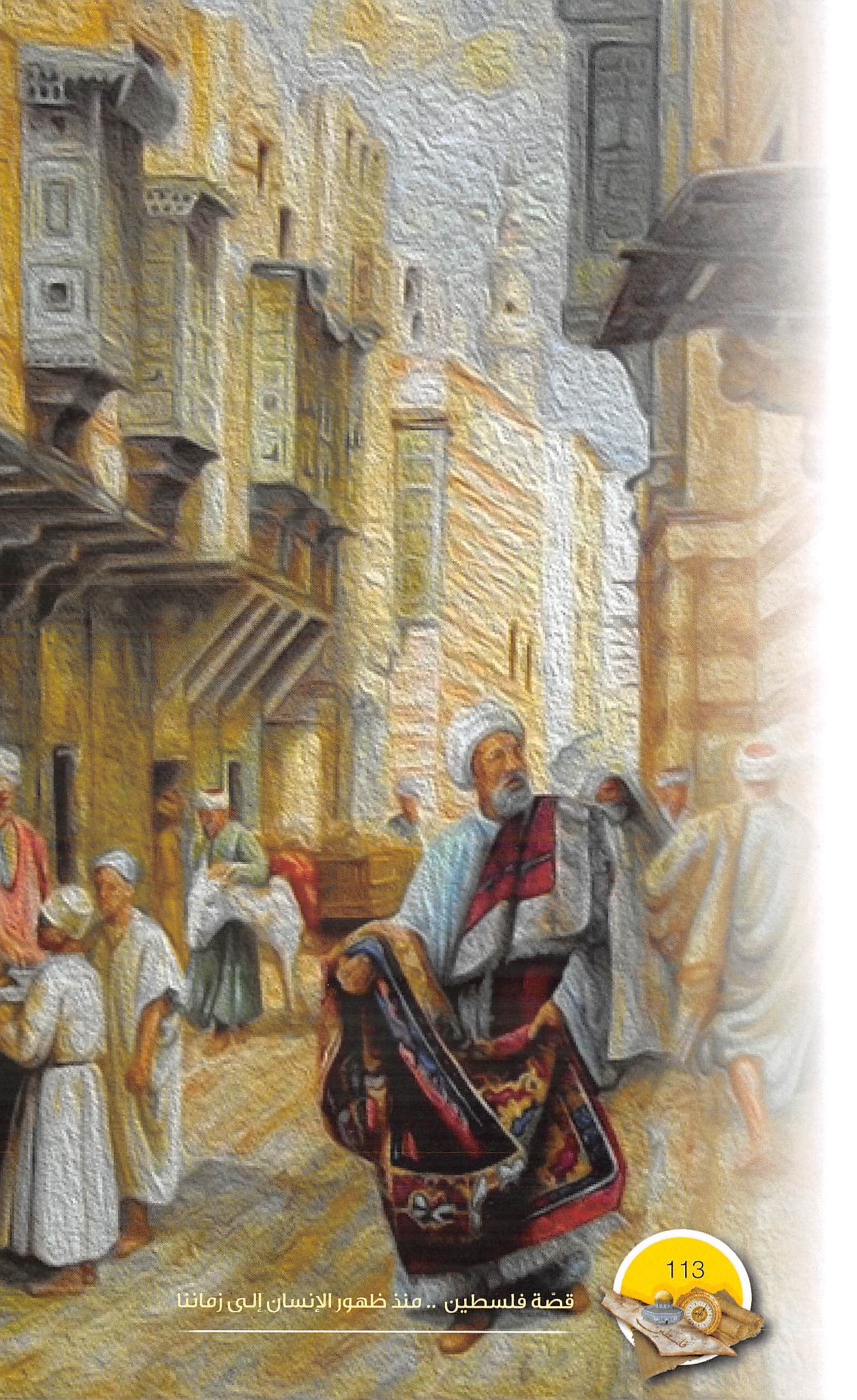
الدولة العبيدية (الفاطمية)

تحدثنا عن الدولة الطولونية، وعن ضعف فلسطين عسكرياً ودعوياً لاهتمام الطولونيين والإخشيديين بشكل أكبر بالمركز في الفسطاط في مصر، أما بغداد والعراق وما حولها فقد هيمنت السيطرة البويهية الشيعية على المنطقة هناك، والبويهيون جاؤوا من منطقة فارس (إيران حالياً) ، وكانوا يدينون بالمذهب الإثني عشري الشيعي، وهو مذهب إيران الآن، وانتشروا في العالم الإسلامي وفي الشرق بشكل أخص، وسيطروا على أرض العراق بكاملها، وكان هناك مشكلة أخرى وهي أنّ العالم الإسلامي كلّه من سنة 400-300هـ كان تحت سيطرة شيعية خالصة، فقد كانت منطقة العراق وما حولها وكذلك إيران تحت سيطرة البويهيين، ومنطقة شرق العالم الإسلامي الأبعد وهي منطقة كازاخستان وأوزباكستان كانوا تحت حكم السامانيين وهم أيضاً شيعة إثنا عشرية، ومنطقة الموصل وشمال الشام تحت حكم الحمدانيين وهم أيضاً شيعة إثنا عشرية، ومنطقة اليمن كانت تحت سيطرة بني زياد وبني الرس وهم شيعة زيدية وهم أقرب إلى السُنَّة، ومنطقة الجزيرة العربية كانت تحت سيطرة طائفة من أخبث الطوائف في التاريخ وهي طائفة القرامطة، وهم خرجوا من الشيعة، ولكنّهم وصلوا إلى درجة كبيرة من الكفر لم ينكرها أحد من علماء المسلمين، حتى أنهم تركوا الدين بالكلية، وأحدثوا فظائع في الجزيرة العربية بصفة عامة وفي البيت الحرام بصفة خاصة، والهمّ الكبير الذي أصاب الأمة الإسلامية كان الدولة العُبيدية، وهي المعروفة بالدولة الفاطمية، وقد نشأت في المغرب سنة 296هـ، وفي بداية ظهور هذه الدولة ادَّعت النسب إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وهذا في غالب أقوال العلماء ادعاء باطل، بل إنهم ينتسبون إلى ميمون القدَّاح وهو يهودي، والجدّ الرابع لعُبيدالله الفاطمي (كما يسمي نفسه) يهوديّ ادّعى الإسلام، فهو ليس عربياً ولا قرشيّاً. كان الهمّ الأكبر لهذه الدولة هو ضرب السنّة في كلّ مكان يصلون إليه، ومن أوائل السنَّة الذين حاربوهم الدولة الإسلامية في الأندلس، والتي كانت تحت قيادة عبدالرحمن الناصر الأموي رحمه الله، وهو من أعظم القادة الإسلاميين في تاريخ الإسلام، وقامت الدولة العُبيدية الفاطمية في المغرب بشنّ حروب كثيرة على عبدالرحمن الناصر، بل إنهم تعاونوا مع الصليبيين في شمال الأندلس لضربه، وأكثروا من البدع والمنكرات وسبّ الصحابة ﷺ، بل وسبوا الرسول ﷺ في أسواق بغداد كما كان يفعل ابن عُبيدالله الذي تولى الخلافة من بعده، فكان يقول: **العنوا الغار وما حوى**، والغار حوى الرسول ﷺ، وقالوا: **العنوا عائشة وبعلها**، وبعل عائشة هو الرسول ﷺ ، وكان هذا الأمر في الأسواق وليس خافياً عن الناس.

كانوا شديدي الولاء لليهود وللنصارى، وكانوا يتبنّون المنهج الإسماعيلي من الشيعية، والشيعة الإثنا عشرية يقولون بإمامة موسى كاظم بن جعفر الصادق، ويعطون إمامة موسى الكاظم الإمامة السابعة؛ فالإثنا عشرية: 12 إمام بدءًا من سيدنا علي ، مروراً بعامة الأئمة عندهم: الحسن والحسين وزيد العابدين إلى آخر القائمة، والإمام السابع عندهم هو موسى الكاظم، أما هؤلاء فينكرون إمامة موسى الكاظم ويعطونها لإسماعيل بن جعفر الصادق، ولذلك يُسمَّون بالإسماعيلية نسبةً إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم عملوا تحريفاً كبيراً من الشيعية المحرَّفة أصلاً، وبدؤوا يطلقون البدع والمنكرات الغليظة، لدرجة أنّ علماء الإسلام أخرجوا الإسماعيلية من دائرة الإسلام على الإطلاق.

حاول الإسماعيليون محاولات متكررة للسيطرة على مصر ومنطقة الشمال الإفريقي منذ أن نشأت الدولة العبيدية في المغرب، إلا أنهم فشلوا في محاولاتهم تلك في عهد الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية، ولكن في سنة 359هـ نجحت محاولات العبيديين (أو الفاطميين) في احتلال مصر، ودخلها قائدهم جوهر الصقلي، وكان ذلك في زمن المعز لدين الله وهو الأمير الفاطمي، وكانوا يسمون أنفسهم بالخلفاء وهم ليسوا خلفاء وليسوا مسلمين، فادعى الخلافة، وأنا أقول إنّه كان احتلالاً لمصر، وليس انتقالاً طبيعياً كما حدث مع الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية.





فتلك كانت دولاً إسلامية واضحة، أما هذا فإنّه احتلال إجرامي، وعندما دخلوا مصر ارتكبوا الموبقات الشديدة مع علماء السنّة؛ فذبحوا عدداً كبيراً منهم، وأنشؤوا الجامع الأزهر لنشر المذهب الشيعي الإسماعيلي، فقد كانت بداية إنشاء الأزهر بنوايا خبيثة جداً لتحطيم السُّنِّيَة المالكية والحنفية والحنبلية والشافعية، ولإقامة المذهب ليس الإثنا عشري، بل المذهب الإسماعيلي في مصر، وتم تعميم ذلك على شعب مصر بالإكراه، وكانت كارثة كبيرة جداً أحاطت بالأمة الإسلامية.

وللأسف الشديد نحن لا نعرف ذلك، حيث إننا ندرس تاريخ الفاطميين على أنهم مسلمون حكموا مصر لفترة من الزمن، مما يجعلنا ننبهر إلى حدٍّ كبير بتاريخ الفاطميين، وننبهر بتلك الإنشاءات والعمران الذي قاموا به في مصر والبلاد التي وقعت تحت سلطانهم، وأشهر تلك الإنشاءات جامع الأزهر وإنشاء القاهرة، ولذلك تُعرف بـ (قاهرة المعز) وهو الأمير المعزلدين الله الفاطمي الذي أنشئت مدينة القاهرة في عهده، وتزامن مع إنشاء مدينة القاهرة سقوط الدولة العُبيدية في المغرب، وبالتالي أصبحت مصر هي عُمق الدولة العُبيدية، وأصبحت القاهرة هي عاصمة الدولة العُبيدية، وبذلك حدث نوع من الإنعاش لهذه المدينة في وسط العالم الإسلامي.

الجيش العُبيدي لم يكن من المصريين، بل كان جميعه من المغاربة ومن السودان ومن إفريقيا بصفة عامة، وكانوا يربون هؤلاء على العقيدة الإسماعيلية، ولكنّ الشعب المصري رفض هذه العقيدة وهذا التوجه في سبّ الصحابة والطعن فيهم والخروج عن المنهج بكلّ أنواع الخروج، فظلَّ الشعب سُنِّيّاً في ظلّ حكم الدولة الإسماعيلية، واستمر هذا الوضع لمدة 200 سنة.

وبمجرد احتلال العُبيديين لمصر بدؤوا يفكرون بأملاك الدولة الإخشيدية التي سقطت على أيديهم، وأوّل ما فكروا فيه كانت أرض الشام، وبداية أرض الشام كانت فلسطين، فتوجّهت الجيوش العبيدية من مصر مباشرة إلى فلسطين، وفي السنة التي سقطت فيها مصر سقطت فلسطين وهي سنة 359هـ (969م)، وبدأ الاحتلال العبيدي لفلسطين، ودخلت فلسطين في فترة مظلمة جدّاً من تاريخها، وامتدت هذه الفترة لأكثر من 300 سنة، فترة العبيديين في فلسطين استمرت لـ 104سنة متصلة، ثم بعد ذلك دخلوا مرة أخرى كما سيأتي الكلام فيما بعد، ولكن تخيّلوا 100سنة من التفريغ الكامل لكلّ طاقات البلاد العلمية والدعوية والدينية، عن طريق قتل كلّ علماء السُنّة، وكان لذلك أثر سلبيّ كبير على فلسطين وعلى مصر أيضاً.

وأودّ هنا أن ألفت النظر إلى معلومة مهمة جدّاً، وهي أننا كلّما تكلمنا عن مصر تكلمنا عن فلسطين، فالرباط والامتداد طبيعيّ جدّاً، فأرض فلسطين هي أرض مصر، وأرض مصر هي أرض فلسطين، فقد كانتا خلال الدولة الأموية مع بعضهما، وكذلك خلال الدولة العباسية والطولونية والإخشيدية، وعندما جاء العبيديون احتلوا الاثنين معاً، وعندما سيأتي الصليبيون بعد ذلك ليحتلوا فلسطين، يفكرون باحتلال مصر، فهذا الامتداد هو امتداد طبيعيّ جدّاً، ليس فقط تاريخيّ وجغرافي، بل وكذلك امتداد عقائديّ ودينيّ واجتماعيّ، ولهذا الامتداد جذور عميقة جدّاً، ولا بدَّ لشعوب مصر وفلسطين أن يفهموا هذا الرابط القوي.

كان العبيديون يهتمون بالظواهر بشكل كبير، والباطن كان خاوياً تماماً، وبسبب اهتمامهم بالمظاهر أكثروا من إنشاء المساجد في العالم الإسلامي، وأشهرها جامع الأزهر، وهذا ما يجعل مكانة الفاطميين كبيرة جداً عند علماء التاريخ، دون النظر إلى عقائدهم أو وسائلهم القبيحة في نشر معتقدهم الفاسد، فليتفت المؤرخون إلى المساجد والعظمة والأبهة، ولا يلتفون إلى فسادهم الذي كانوا عليه، ومن أشهر فسادهم احتلالهم لمدينة عسقلان في فلسطين، وكان فيها مشهد يقولون إنّ فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما، لأنّه كما تعلمون عندما قُتل قُطع رأسه، ويقال إنّ رأسه انتقلت من كربلاء إلى دمشق ومنها إلى عسقلان، والعبيديون ليرفعوا من قدرهم وقيمتهم عند المسلمين بصفة عامة، أخذوا هذه الرأس كما يقولون، من عسقلان وانتقلوا بها إلى مصر، وأقاموا مسجداً على هذه الرأس وهو المعروف الآن باسم مسجد الحسين بالقرب من خان الخليلي في مصر.



ولعلنا هنا سنقول كلاماً سيكون مفاجأة لأناس كثيرين؛ رأس الحسين لم تكن في عسقلان ولم تأتِ إلى مصر، وهذه المساجد كلّها قائمة على وهميات ليس لها أي نوع من الحقيقة، فرأس الحسين لم تنتقل أصلاً من كربلاء إلى دمشق، وكلّ الروايات التي ذكرت أنها أُرسلت إلى يزيد بن معاوية في دمشق هي روايات كاذبة وموضوعة، وليس فيها أيّ جانب من الصحة، بل إنها دُفنت في كربلاء حيث استُشهد ﷺ، وكلّ هذه الإشاعات زُوِّرت في تاريخ الدولة الأموية، وكما رأينا كان لهذه الإشاعات آثار سلبية كبيرة على الأمة الإسلامية في تزوير التاريخ، والشاهد في عسقلان أنّه لم يكن فيها رأس الحسين، وبالتالي مسجد الحسين الذي تُشدّ إليه الرحال من كلّ مكان وتُرتكب عنده البدع والمنكرات الكثيرة ليس لها أيّ معنى، وهذه البدع كلها موروثة من أيام الدولة العبيدية الفاسدة التي حكمت مصر،

وأكثرت من البدع والمنكرات، ومنها الموالِد والأعياد الصوفية المشهورة الموجودة في أكثر من مسجد من مساجد مصر الكبيرة، وكذلك في معظم بلاد العالم الإسلامي التي دخلها الاحتلال العبيدي، وأنا أقول حتى لو أنّ الرأس موجودة في مسجد الحسين، فلا تجوز كلّ هذه الأعمال، فما بالكم بالوهم الكبير الذي يعيشه من يشدّ الرِّحال إلى هذه الأماكن على أنّ فيها رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما وليس بها شيء، وهذا طرف من أعمال الدولة العبيدية الخبيثة.

في سنة 386هـ (996م) حصل أمر مفزع في الدولة العبيدية (الفاطمية)، ظهر الحاكم بأمر الله وهو من أشهر الشخصيات في التاريخ الإسلامي، بل هو من أفسد الشخصيات في التاريخ الإنساني بصفة عامة، وهو يقارَن بالمفسدين في الأرض من كلّ الملل والنِّحَل،



وهذا الرجل يُعرف بالتاريخ بـ (المجنون)، وهو ليس مسلماً بالقطع، وإن كان من حكام الدولة العبيدية التي تدَّعي الإسلام وتبني المساجد، وإن سُمِّيَ مسجد الحاكم بأمر الله باسمه، إلا أنّه بالقطع ليس مسلماً. تولى هذا الرجل الحكم وهو يبلغ ١١ سنة فقط تحت رعاية الأوصياء عليه لمدة 3 أو أربع سنوات، ثم بعد ذلك تولى الحكم بنفسه وبدأ يصدر الأحكام وهي أقرب إلى الجنون منها إلى العقل، فكان يحرّم الكثير من الحلال ويحلّل الكثير من الحرام، ومن أشهر أعماله أنّه أمر بسبّ الصحابة علناً، وأن يُكتب هذا السبّ على أبواب المساجد في مصر وفلسطين وبقيّة الشام، وحرَّم بيع الرُّطب، وحرم أكل السّمك الذي ليس له قشر، ومنع أكل الملوخية، وفرض على ديوان الدولة بالعمل ليلاً والنوم نهاراً، فقَلَب آيات الله عز وجل بالكون، ولما قامت ضدّه بعض الثورات داخل القاهرة، خرج منها وأمر بإحراق القاهرة بكاملها، فحرق القاهرة بأهلها، ثم أرسل أحد الخُدّام ليعرف الأخبار فقال له: فُعل بها ما لم يفعله ملك الروم لو سيطر عليها، فقتله لأنّه أحسّ بنوع من الإهانة، وفي آخر عهده وصل إلى أمر قبيح لم يُقدِم عليه حاكم بتاريخ المسلمين، وهو أنّه ادَّعى الألوهية، وادعى أنّ الله حلَّ فيه، وخاطبه شعراؤه بهذه الصفة، وبأنّه إله من دون الله عز وجل، ومن أشهر الأبيات التي قيلت له:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　　فاحكم فأنت الواحد القهار

هكذا خاطبوا الحاكم بأمر الله الذي حكم المسلمين 25 سنة متصلة، انتهت في سنة 411 هـ (1021م) وقُتِلَ هو يبلغ من العمر 36 سنة، ومن أخطر القرارات التي اتخذها واشتُهرت عنه بعد ذلك في تاريخ أوروبا وفي تاريخ المستشرقين والمستغربين، هو أمره بهدم الكنائس والمعابد اليهودية واضطهاد اليهود والنصارى، وأمر النصارى بتعليق الصلبان في أعناقهم حتى يُعرفوا من بين المسلمين، وكذلك أمر اليهود بتعليق علامات معينة في أعناقهم، وأمر بهدم كنيسة القيامة المعروفة عند النصارى في القدس، واضطر عدد كبير من النصارى لدخول الإسلام خوفاً من القتل على يد الحاكم بأمر الله، وبذلك وضع بذور أحقاد بين النصارى والمسلمين ما رأيناها طوال حكم الدولة الأموية والعباسية والطولونية والإخشيدية، كلّ ذلك بسبب هذا المجنون، وهنا لنا وقفة مهمة جدّاً مع هذه القصة،



أقول إنّ هذا الاضطهاد لم يكن منشأه الدين أو الاعتقاد، بل على العكس فنحن عندنا منتهى التسامح مع النصارى كما تحدثنا فيما سبق، ونحن نقول إنّ هذا الرجل كان كافراً وبعيداً كلّ البُعد عن الإسلام، ولا يرتبط المسلمون بما يقوم به من أعمال، وأقول أيضاً إنّ هذا الاضطهاد لم يكن خاصّاً باليهود والنصارى، ولكن عانى منه المسلمون السنّة على المذاهب الأربعة، وهذا الاضطهاد لليهود والنصارى لم يكن مقبولاً من الشعب ومن العلماء، بل قامت بعض الثورات ضدّه من المسلمين السنّة لأنّه يقوم بهذا الاضطهاد، وهو بذلك يخالف العُهدة العمرية والاتفاقيات التي كانت بين المسلمين والنصارى، وكذلك فهي تُخالف الإسلام، ونتيجة لهذه الثورات الكبيرة اضطر الحاكم بأمر الله أن يرجع عن اضطهاد اليهود والنصارى سواء في مصر أو في فلسطين، بل وأمر أولئك الذين أسلموا من النصارى أن يرجعوا إلى نصرانيتهم لأنهم أسلموا رغماً عنهم كما هو معروف، ولكن لا ينبغي أبداً للمؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين أن يأخذوا هذا قرينة على أنّ المسلمين يضطهدون غير المسلمين في بلاد الإسلام، فنحن أصلاً لا نعتبره مسلماً، إلا أنّ الكارثة التي اقترفها كانت عامة على كلّ البلاد.

بعد قتل الحاكم بأمر الله تولى الحكم من بعده شخص اسمه الظاهر لإعزاز دين الله، وحكم لمدة 16 سنة، ثم تولى الحكم المستنصر لدين الله الذي حكم لمدة 60 سنة متصلة، وهو من أكبر حكام الدولة العبيدية، وانتهى حكمه في مصر سنة 487هـ (1095م)، وحياة المستنصر بالله لا تهمنا بشيء ولكنّه في آخر حياته انقسمت دولته إلى قسمين: المستعلية والنزارية، وهذا سيكون له تطبيقات معنا في قصة فلسطين وبالعالم الإسلامي بصفة عامة.

حصلت بعض التطورات التي غيّرت من سير الأحداث في أرض فلسطين، فيا ترى

ما هي هذه التغيرات في أرض فلسطين؟

وما هي التغيرات في الدولة العبيدية؟

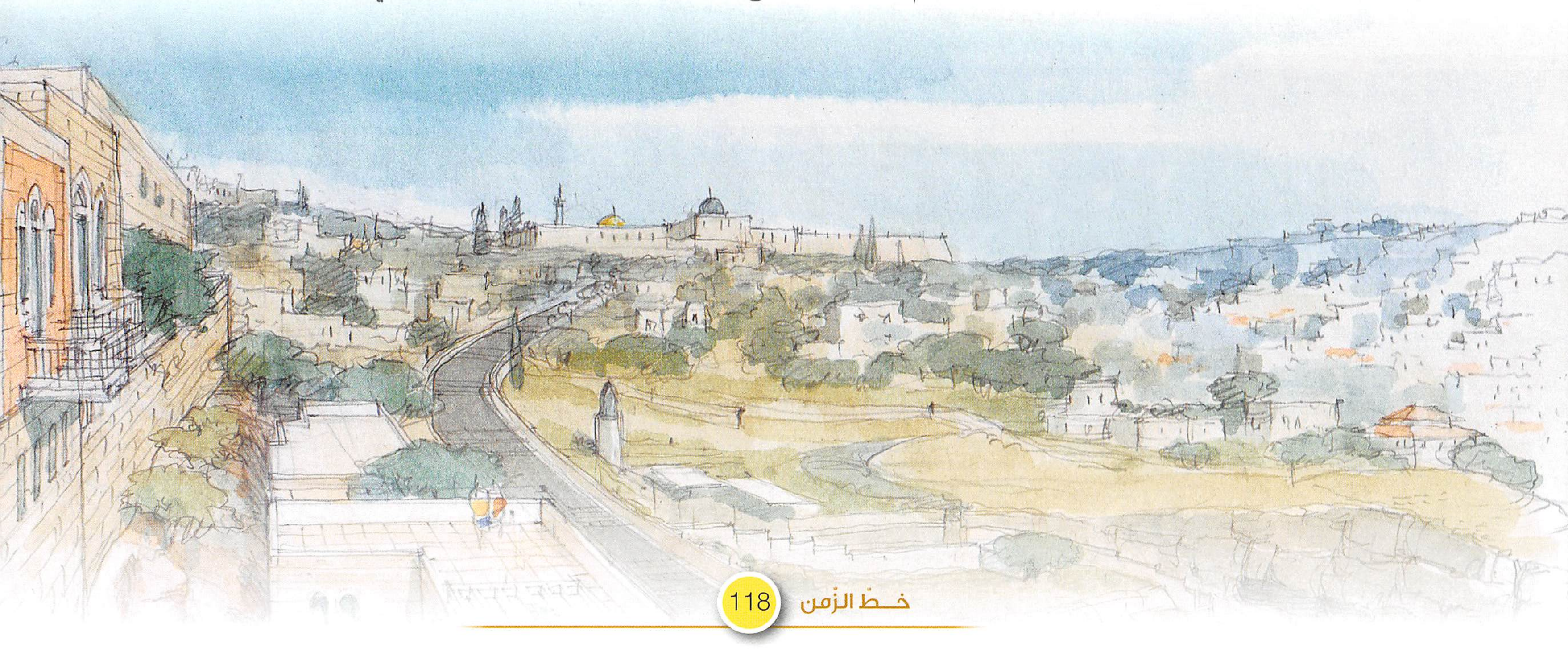
وما هي النتائج التي عادت على العالم الإسلامي كلّه؟



فلسطين في عهد السلاجقة

تكلمنا عن الدولة العبيدية، وعن ظلمها وانحراف عقيدتها وفسادها وقتل علماء السنّة وسبّ الصحابة ﷺ، وعن تغييرها لأمور الدين وإنشاء المساجد وتحريف العقيدة، وأمور سيئة كثيرة فعلتها في الدولة الإسلامية، استمرت الدولة العبيدية في فلسطين لمدة 104 سنة.

في أيام المستنصر بالله الذي حكم فلسطين ومصر لمدة 60 سنة، رغم كلّ المشاكل التي كانت تحدث في أرض فلسطين ومصر، ومع كلّ هذا الظلام هنا وهناك إلا أنّ هناك نوراً بدأ يظهر في العالم الإسلامي، وكما قلنا من قبل كان كلّ العالم الإسلامي تحت السيطرة الشيعيّة باستثناء مناطق قليلة جداً، وفي سنة 432 هـ (1041 م) ظهر نور جديد في شمال أفغانستان وشرق إيران، وهذا النور هو ميلاد دولة السلاجقة، وهي دولة سنيّة عظيمة جداً، قام على إنشائها سلجوق بن دوقاق وهو من الأتراك، والأتراك عرق كبير يعيش حول بحر قزوين، وليس في منطقة الأناضول (تركيا الآن)، فهم هاجروا من منطقة بحر قزوين إلى تركيا الحالية، ومنبتهم ومنشأهم من منطقة بحر قزوين، وكان في هذه المنطقة قبيلة من الأتراك اسمها سابيو، وهي التي أنشأت دولة السلاجقة في سنة 432 هـ، ثم بدأت تتوسع تدريجياً في شمال أفغانستان وشرق إيران إلى أن كبُرت في عهد طغرل بك، وهو من أعظم الأمراء في تاريخ دولة السلاجقة، وهو المنشئ الحقيقي لهذه الدولة.



وُصف هذا الرجل في الكتب الإسلامية أنه كان من القوّامين في الليل ومن الصوّامين في النّهار، كان معتاداً أن يصوم كلّ اثنين وخميس، وقارئ للقرآن ومن المجاهدين في سبيل الله، وكان يبحث عن الكفار هنا وهناك ليدعوهم إلى الله عز وجل، كانت حياته كلّها لله، وكان شخصية من شخصيات الإيجابية المؤثرة في تاريخ الأمة الإسلامية، سَمِعَ به الخليفة العباسي الذي كان كما قلنا مجرد صورة ووهم، والبويهيين الشيعة الإثنا عشرية الذين كانوا يحكمون العراق في ذلك الوقت، ويشيعون الفواحش والمنكرات الكثيرة، ويحرفون الدين، وهم أبقوا على الخليفة العباسي فقط للحفاظ على شكل الخلافة العباسية، حتى لا تثور عليهم البلاد الإسلامية، ولكنهم كانوا يعاملونه بمنتهى الإهانة والاحتقار والذلة، وبمجرد أن سمع هذا الخليفة عن طغرل بك، وعن قوته وجدارته في السيطرة على الأمور في البلاد الإسلامية، أرسل إليه رسالة يدعوه فيها إلى دخول بغداد، وإقصاء الحكم البويهي الشيعي، فقام طغرل بك من منطلق ديني واضح، ومن منطلق الجهاد في سبيل الله والحفاظ على شريعة الله بأخذ جيشه وأتى إلى بغداد، وبالفعل استطاع دخول بغداد في سنة 447هـ (1056م) ليُقصي بذلك الحكم البويهي الشيعي عن بغداد ويقيم حكم السلاجقة.





عاشت الدولة العباسية فترة جيدة جداً تحت حكم السلاجقة، وعادت إليها الملامح الإسلامية الواضحة في شرع الله، وبقي الخليفة العباسي لا دور له ولا رأي في إدارة البلاد، فالحكم كلّه كان لسلطان السلاجقة، ولكن أعيد للخليفة العباسي مكانته الدينية والاقتصادية والمعاملة المحترمة، وبقي السلاجقة فترة من الزمن يحكمون العراق وما حولها من البلاد الإسلامية، وظهرت فيهم سنة 455 هـ (1064م) شخصية من أروع الشخصيات في تاريخ المسلمين وهو ألب أرسلان رحمه الله، وهذه الرجل من الشخصيات المحورية في تاريخ الأمة الإسلامية، قام بتوسيع الكثير من أملاك دولة السلاجقة، والتقى مع الروم (الدولة البيزنطية) في موقعة فاصلة سنة 463هـ (1071م)، وهذه الموقعة اسمها (ملاذ كرد) استطاع أن ينتصر فيها هذا البطل المغوار بعشرين ألف مقاتل مسلم على 200 ألف بيزنطي، فكُسرت بذلك شوكة الدولة البيزنطية التي كانت عاصمتها القسطنطينية/ وأُسر رومانوس الرابع وهو إمبراطور الدولة البيزنطية، وأُخذ معظم الجيش البيزنطي أسرى وقُتل الجزء الآخر، فانهارت بذلك القوة العسكرية للدولة البيزنطية وارتفع نجم الدولة السلجوقية، وبالذات ألب أرسلان.

استُشهد ألب أرسلان بعد ذلك بسنتين، أي في سنة 465هـ (1073م) ليتولى من بعده ابنه ملك شاه، وكان كذلك من أعظم الشخصيات في تاريخ الإسلام، وحكم تقريباً في دولة واحدة من الصين إلى الشام، ولذلك كان يُلقَّب بسلطان العالم، اتُّصف بالعدل والورع والتقوى، وكان من أعظم وزرائه في ذلك الوقت نظام الملك الطوسي رحمه الله، وكان أيضاً من المحبين للعلم والجهاد والدعوة ونشر الإسلام، كلّ ذلك ترك أثر إيجابياً على المناطق الموجودة تحت حكم الدولة السلجوقية، وكلّ هذا وفلسطين ما زالت قابعة تحت الاحتلال العبيدي.

وفي سنة من السنوات في أيام ألب أرسلان رحمه الله أوكل إلى أحد قادة جيش الأتراك أن يدخل إلى منطقة فلسطين ليحررها من الاحتلال العبيدي، وكان اسم هذا القائد هو (أتسز بن أوق الخوارزمي)، وكان أحد عسكريي ألب أرسلان، واختلف عليه الكثير من المؤرخين المسلمين في وصف طبيعته، وأغلبهم وصفه بأنّه كان ظالماً فاسداً، ذهب هذا القائد إلى أرض فلسطين، واستطاع أن يتغلب على الحامية العبيدية هناك، وانتصر عليها انتصاراً كبيراً وأخرجها من فلسطين، وكان ذلك في سنة 463هـ، وهي السنة نفسها التي انتصر فيها ألب أرسلان على البيزنطيين في ملاذ كرد، وبعد هذا التحرير لفلسطين من العبيديين سيطر أتسز بن أوق الخوارزمي على فلسطين وانفصل بها عن السلاجقة، وللأسف الشديد بدأ يعامل شعب فلسطين بنوع من الإيذاء، وبفرض الضرائب والبُعد عن المنهج الإسلامي الأصيل، وإن كان أعاد من جديد علماء السنّة وأخرج علماء الإسماعيلية، أي أنّ فلسطين خرجت من أزمة إلى أزمة، لكنها أخفّ وطأة من السابقة.

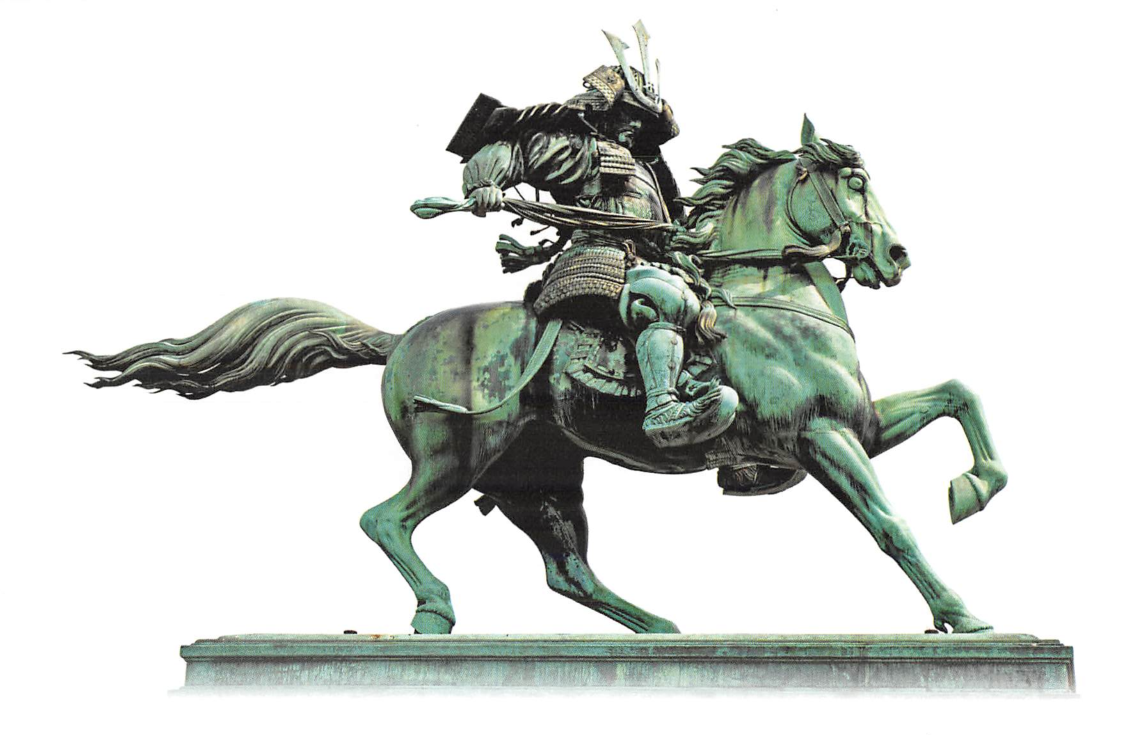


استمر هذا الحال في فلسطين لفترة من الزمن إلى أن ظهر شخص اسمه توتش وهو ابن ألب أرسلان، ولكنّه للأسف مع أنّه ابن ألب أرسلان إلا أنّه كان فاسداً وظالماً، وليس على منهج أبيه ولا على منهج أخيه ملك شاه، وتوتش هذا أقطع أرض الشام، وكان له ما يفتحه من أرض الشام، وبالتالي طَمِعَ أن يُدخل أرض فلسطين في ملكه، فاصطدم مع أتسز بن أوق الخوارزمي ووصل الأمر أن قتل أتسز بن أوق الخوارزمي ليتولى بذلك توتش الحكم، وأقطع أرض فلسطين لأحد قواده واسمه أرطق بن أكسب وكان ذلك في سنة 470 هـ. فبدأ أُرطق بن أكسب يحكم فلسطين من سنة 471 هـ إلى سنة 489هـ، أي لمدة 18 سنة متصلة.

كانت هذه الفترة جيّدة جدّاً في تاريخ فلسطين بعد الفترات السيئة جدّاً في تاريخها، فرغم أن توتش بن ألب أرسلان حاكم بلاد الشام، وكان ظالماً وفاسداً، إلا أنّ والي فلسطين أرطق بن أكسب كان يتقي الله ويرعى الله عز وجل في الرعية، وبعد وفاة أُرطق بن أكسب رحمه الله تولى الحكم أولاده، كان أحدهم اسمه سُقمان وآخر اسمه الغازي، وكانوا على نفس الورع والتقوى، وبقوا في فلسطين إلى أن جاء العبيديون مرة ثانية في سنة 489هـ وأخرجوا سُقمان بن أُرطق والغازي بن أُرطق وأعادوا احتلال فلسطين مرة أخرى، واستمر هذا الاحتلال لثلاث سنوات متصلة. بعد أن هُزم سُقمان والغازي وأخرجوا من فلسطين هاجروا إلى شمال الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة عند دجلة والفرات، أي هاجروا إلى المناطق الجنوبية من تركيا وأقاموا هناك مملكة وهي مملكة الأراطقة، والتي سيكون لها شأن كبير في الجهاد ضدّ الصليبيين.

عادت فلسطين مرة أخرى تحت حكم الدولة العبيدية، وعاد من جديد قتل العلماء السنّة، والاضطهاد العام للسنّة، ونشر المذهب الإسماعيلي المنحرف، وعادت الأوضاع من جديد إلى الوضع السيء الذي كانت عليه قبل ذلك، ولا ننسى أنّ الدولة العبيدية في مصر انقسمت إلى قسمين: نزارية ومستعلية، وكانت فلسطين في ذلك الوقت تحت حكم الدولة المستعلية بقيادة المستعلي بالله حاكم مصر.

وللأسف الشديد خرج العبيديون من أرض فلسطين باحتلال جديد، خرج العبيديون ليأتي الصليبيون، وحتى نتكلم عن الحروب الصليبية لا بدّ لنا أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنتكلم عن جذور الحروب الصليبية، ولماذا خرجت الحروب الصليبية من أوروبا الغربية إلى العالم الإسلامي بصفة عامة وإلى فلسطين بصفة خاصة، وهي فترة مهمة جداً كنت أرغب أن أُفرد لها مساحة كبيرة وهذا صعب لكثرة التفصيلات فيها، ولكننا كما قلنا، نحن فقط نفتح صفحات في التاريخ، وأدعو الجميع إلى القراءة المتأنية في هذا التاريخ.



إنّ فترة الحروب الصليبية فترة مهمة جداً لأيّ محلل للتاريخ الإسلامي بصفة عامة وللتاريخ الإنساني بصفة أكثر عمومية، ولتاريخ فلسطين بصفة خاصة، وفترة الحروب الصليبية طويلة جداً تصل إلى 200 سنة، وهذه الفترة تعكس خلفيات الفكر الأوروبي، فهي ليست مجرد حملة أو حملتين، وليست مجرد سنة أو سنتين، بل إنها سلسلة متتالية من العلاقات المستمرة والحروب المتتالية وأشياء كثيرة جداً حدثت في غضون 200 سنة، نستطيع من خلالها تقييم الفكر الأوروبي، فما زلنا إلى الآن نتعامل مع الفكر نفسه بشكل أو بآخر، وفي واقع الأمر فترة الحروب الصليبية تشبه إلى حدٍّ كبير الواقع الذي نعيشه الآن، فلو أردنا الخروج من أزماتنا الحالية لا بدّ لنا أن نعرف كيف خرج المسلمون من أزماتهم أيام الحروب الصليبية.

تعرضت فترة الحروب الصليبية لتشويه كبير جداً من المؤرخين، وللأسف الشديد الكثير منهم من المسلمين، وهي فترة ثرية جداً لأيّ أديب لأنّ فيها الكثير من القصص والحكايات والروايات، ومعظم الأدباء أخذوا منها قصص وكتبوا مؤلفات خارجة تماماً عن السياق التاريخي السليم، فهم كانوا يريدون تجميل القصة أو إكمال المعلومة بكلام ليس من الواقع، وفي النهاية اختلط الأمر على الناس، فلم نعد نعرف أين الحقيقة وأين الضلال، والآثار التي نتجت عن الحروب الصليبية آثار ضخمة جداً، فقد قامت أوروبا على أقدامها وقامت النهضة الأوروبية بعد الحروب الصليبية، وانتقل الكثير من التراث العلمي الإسلامي إلى أوروبا، وبدأت مراحل التخلف في الأمة الإسلامية بعد الحروب الصليبية، لأنها شغلت المسلمين عن الإنتاج العلمي والفكري والاقتصادي لفترة طويلة جداً استمرت لـ 200 سنة، والأمر الآخر أنهم دمروا إلى حدٍّ كبير معظم التراث العلمي الإسلامي، وعلى سبيل المثال عندما اقتحم الصليبيون مدينة طرابلس، قاموا بحرق 3 مليون كتاب إسلامي في ميادين المدينة، وكانت كتباً في الشريعة والطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا، فتخيلوا الميراث الضخم الذي فُنِيَ بعد دخول الصليبيين.

لا بدَّ أن نتساءل ما الذي دعا أوروبا للحروب الصليبية؟

وحتى نعرف لماذا جاءوا من أقصى الأرض إلى الشام ليحاربوا المسلمين، فلا بدّ من وجود خلفيات لدى الشعب والقيادة في ذلك الوقت، ولو عدنا لما قبل الحروب الصليبية بـ 50 أو 60 سنة، لوجدنا خلفيات كثيرة جداً كانت تحكم حركة الجيوش الصليبية إلى بلاد الإسلام، من أوائل هذه الخلفيات الخلفية الدينية؛ فقد كانت أوروبا في ذلك الوقت تعيش تحت السيطرة الكنسية، سواء أكانت سيطرة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية عقائدية، وقد شاع في أوروبا في ذلك الوقت أنّ العالم سينتهي، وكانوا يتوقعون قيام القيامة مع الألفية الأولى لميلاد المسيح ابن مريم عليه السلام، ورغم أنّ ذلك لم يحدث إلا أنّ الاعتقاد لا زال موجوداً عندهم، وهذا الاعتقاد دفعهم إلى السعي لطلب الغفران، وطلب الغفران كان يطلب من القساوسة والرهبان، الأمر الذي أعطاهم قوة أكبر في حكم أوروبا، وكان الرهبان والقساوية يقولون إنّ من لا يستطيع دفع ثمن غفرانه يمكن أن يستبدله بالذهاب إلى فلسطين للحج، ومن هنا كان اسم فلسطين متداولاً في أوروبا بكثرة في ذلك الوقت.

بالإضافة إلى ذلك حدث أمر كبير في أوروبا في سنة 445 (1054م)، وهو انقسام أوروبا إلى قسمين دينيين، قسم شرقي أرثوذكسي، وقسم غربي كاثوليكي، وكان عند البابوات في إيطاليا خاصةً وفي فرنسا المتدينة بشدة رغبة شديدة لتوحيد الكنيستين بعد هذا الانفصال الذي حدث قبل الحروب الصليبية بـ 50 سنة.

فإذاً هناك خلفية دينية وسيطرة كاملة من الكنيسة، والناس مغيَّبة، واسم فلسطين متداول في أوروبا في ذلك الوقت، بالإضافة إلى أنّ أوروبا الغربية الكاثوليكية فقدت أوروبا الشرقية التي أصبحت أرثوذكسية، كلّ ذلك أدى إلى الحروب الصليبية.

كانت أوروبا في ذلك الوقت تعيش مجاعات هائلة، وكان هذا الأمر يُعرِّض الكثير من الناس للموت، وكان هناك ظلم شديد يقع على الأوروبيين بصفة عامة، فالأموال مكدّسة بشكل كبير في أيدي عدد قليل جداً من الأمراء والحكام والكنيسة، وعامة الشعب يعيشون في فقر شديد جداً، لدرجة أنّه عندما تحدث مجاعة يموت أعداد هائلة من البشر، ومن أشهر المجاعات التي حدثت تلك التي كانت في شمال فرنسا وغرب ألمانيا قبل الحروب الصليبية بعشر سنوات فقط، والتي أثرت بشكل كبير على الحروب الصليبية، وفي الوقت نفسه الذي نرى فيه تلك الشعوب المطحونة في أوروبا، كان هناك تنافس تجاري كبير ما بين الملوك والأمراء وكبار التجار في أوروبا، وبشكل خاص في إيطاليا، فقد قامت في إيطاليا أكثر من جمهورية اقتصادية تجارية، ومن أشهر تلك المناطق: جنوة وبيزا والبندقية (فينيسيا حالياً)، هكذا كان الوضع في أوروبا، أناس في أعلى القائمة يتصارعون على المال، وأناس مطحونة لا يجدون ما يأكلون، كما تحولت أوروبا إلى الشكل العسكري لكثرة الحروب سواء مع المسلمين في الأندلس، أو مع الفايكنغ في شمال أوروبا، وأصبح المثال الطبيعي الجيّد للشخصية النبيلة الأوروبية هو الفارس، فهيمن جوّ الحروب العسكرية على الجوّ بشكل كامل مما أدى إلى الحروب الصليبية.



وكذلك كان هناك تنافس شديد بين الأمراء والملوك في داخل الدولة الواحدة، فعلى سبيل المثال كان يحكم فرنسا ملك، وتحت حكم هذا الملك ولايات تكاد تكون منفصلة عن حكم الملك، ولكلّ واحد منهم أطماعه الخاصة وأهدافه التوسعية الخاصة، وهذا يجعل الجميع يرغبون بالذهاب إلى فلسطين لتوسيع أملاكهم.

أضف إلى ذلك الخلفية الاجتماعية، فقد كان هناك جهل شديد جداً وأُميَّة ونوع من القهر، ونظام وراثة يحكم البلاد، كلّ تلك الخلفيات المعقدة أدت إلى نشوب الحروب الصليبية.

ظهرت شخصية في التاريخ الأوروبي عملت على جمع كلّ أطماع الأمراء والملوك والقساوسة والرهبان والشعوب الجائعة في هدف واحد، وهو الحرب الصليبية على فلسطين، لتُحَلّ كلّ مشاكل أوروبا.



- **فيا ترى من هي هذه الشخصية؟**
- **وما الذي فعله؟**
- **وما أثر ذلك على الدولة الإسلامية؟**



الجيوش الصليبية تتوجه إلى فلسطين

تكلمنا عن سقوط الحكم العبيدي في فلسطين وقيام أتسز بن أوق بالسيطرة على فلسطين، وتكلمنا عن أُرطق بن أكسب وحكم الأراطقة في فلسطين لفترة قصيرة، ثم سقوط فلسطين تحت الحكم العبيدي لثلاث سنوات، ثم بدء الحروب الصليبية، وتكلمنا عن خلفيات الحروب الصليبية حتى نفهم لماذا أتى الصليبيون من غرب أوروبا إلى بلاد الإسلام ليحتلوها، وتكلمنا كذلك عن الخلفية الدينية لديهم وسيطرة الكنيسة، وعلى الجهل المطبق في كلّ مكان في أوروبا، وتكلمنا عن الخلفية السياسية والتنازع بين الملوك والأمراء وأطماع التوسع، وتكلمنا عن صورة الفارس في أوروبا الموسوم بالنبل والسمو وارتفاع القيمة، وطموح كلّ الناس في أوروبا أن يعيشوا حياة الفارس، وتكلمنا عن الخلفية الاقتصادية وعن المجاعات الطاحنة التي كانت تمر بها أوروبا وخاصة شمال فرنسا وغرب ألمانيا، وتكلمنا عن الخفايا الاجتماعية والظلم والقهر الذي كان يعيشه الفلاحون وعامة الشعب في أوروبا.

كل تلك الأمور أدت إلى أنّ الكثير من الناس يصبح لديهم أطماع، فالملوك وكبار التجار لديهم أطماع، وكذلك الفقراء الكادحون لديهم أطماع، ورجال الدّين كذلك لديهم أطماع، فظهرت شخصية جمعت كلّ تلك الأطماع في اتجاه واحد وهو غزو البلاد الإسلامية واحتلال فلسطين، وأنّ هذا الاحتلال سيُخرج أوروبا من كلّ مشاكلها، وهذا الشخص هو أوربان الثاني البابا الكاثوليكي، وهو من تولى حكم منصب البابوية سنة 480هـ (1088م)، وكان يحكم أوروبا كلّها، وكان أعلى شخصية قيادية وسياسية وعسكرية، وأعلى من كلّ الأمراء والملوك، وللأسف فالمقام لا يتسع لوصف العلاقة بينه وبين الأمراء والملوك، في الوقت الذي كان يفكر فيه أوربان الثاني بكيفية توحيد كلّ هذه الطموحات في قضية واحدة، وكيف يمكن أن يزيد من سيطرته على أوروبا، جاءته استغاثة من أليكسوس كومنين وهو الإمبراطور البيزنطي الذي يحكم أوروبا الشرقية، كانت استغاثته بشأن السلاجقة وانتصاراتهم على البيزنطيين المتتالية، خصوصاً وأنّه في سنة 463 هـ (1071 م) تم النصر الكبير لألب أرسلان على الجيوش البيزنطية، وأُسر رومانوس الرابع الذي أُطلق بعد ذلك ثم قُتل في القسطنطينية، وكُسرت الدولة الرومانية بعد موقعة ملاذ كرد، وبقيت لمدة 50 أو 60 سنة لا تستطيع أن ترفع سيفاً في وجوه المسلمين، فانتشار السلاجقة بهذه القوة خوَّف أليكسوس كومنين الأرثوذكسي، فاضطر لإرسال استغاثة لأحد أعدائه وهو أوربان الثاني الكاثوليكي، وعندما طلب أليكسوس كومنين النجدة لم يكن يقصد أن تأتي الجيوش الصليبية لتعيش في فلسطين، بل كان يريد نوعاً من الجنود المرتزقة، فقد كانت الدولة البيزنطية معتادة على هذا الأمر، حيث كانت تأتي بجنود أرمن وأتراك وثنيين، ومن أعماق آسيا ومن أوروبا نفسها ليعملوا بالأُجرة عند الجيوش البيزنطية الواسعة المنتشرة في البلاد، وبالطبع كانت الدولة الإسلامية قد أخذت معظم أملاك الدولة البيزنطية في الشرق، ولم يبقَ للدولة البيزنطية إلا شرق أوروبا وأجزاء من الأناضول ومنطقة القسطنطينية.





وكانت هناك فرصة أن يتحرك بين الأمراء فيضرب هذا بذاك حتى يُخرج في النهاية جيوشاً تحارب المسلمين، بالإضافة إلى ذلك كانت فرنسا أكثر البلاد تديّناً في أوروبا، وهو كان يريد جنوداً عندها حميّة لنصرة النصارى كما يدّعي أليكسوس كومنين، وفي الوقت نفسه لحرب المسلمين (الكفار) كما يدّعون، ويذكرونهم في كتبهم وخطبهم، هذا المنطلق الديني جعل لفرنسا مكانة كبيرة في أوروبا، وهذا الأمر ليس تاريخيّاً فقط، بل حتى زماننا هذا، فقد شاهدت ذلك عندما ذهبت إلى فرنسا منذ فترة وزرت استرسبورغ وهي أكثر المدن تديّناً في فرنسا وفي أوروبا بصفة عامة، وهي التي اختارها الأوروبيون لتكون عاصمة الاتحاد الأوروبي.

عمل البابا أوربان الثاني مؤتمره في كليربون في جنوب فرنسا سنة 1095م (488هـ) جمع فيه طوائف كثيرة جداً، وجمع عامة الشعب الفقراء والفلاحين وما إلى ذلك، وجمع الملوك والأمراء والقساوسة والرهبان ورجال الاقتصاد والتجارة، فعمل توليفة من كلّ القوى المؤثرة، حتى القوى الشعبية من الفقراء الذين لم يكن لهم وزن، وعقد اجتماعاً مهيباً وألقى خطباً مؤثرة جداً تتسم بالبلاغة وحُسْن البيان، وهذا أثّر تأثيراً مباشراً على كلّ الحضور، فقرر الجميع في هذا المجلس الخروج إلى فلسطين، ورغم أنّ هذا القرار استراتيجي وخطير جداً، وهم بهذا يؤخذون جيوشاً من فرنسا ومن غرب أوروبا لتعبر البحر الأبيض المتوسط لمسافات هائلة لحرب فلسطين، وبتكلفة كبيرة جداً، ومع ذلك لم يأخذوا وقتاً للتفكير من شدّة التأثير الذي ألقاه عليهم أوربان الثاني، وقالوا إنّ هذه الحرب لله، والإله الذي يؤمنون به هو عيسى عليه السلام، فحملوا الصليب وقرروا الخروج مباشرةً، واستعان أوربان الثاني ببعض الرهبان والقساوسة لتحميس الناس، وعلى رأس هؤلاء بطرس الناسك ووولتر المفلس، وهم من كبار قساوسة فرنسا.

من ينظر إلى هذه الحروب يعرف أنها سميت ظلماً وعدواناً بالحرب المقدسة، أو الحرب الدينية، أو الحرب الصليبية، فهي لم تكن تَمُتُّ إلى الدّين بأيّ صلة، لا من قريب ولا من بعيد، وسنرى بعد ذلك تأثر الصليبيين بجمع المال والثروات، وعدم تأثرهم مطلقاً بعوامل الدين العقيدة كما كانوا يزعمون في بداية حركتهم.

خرج بطرس الناسك ليجمع الناس، واستطاع بالفعل تجميع عدد كبير من الناس من فرنسا ومن غرب ألمانيا، وكذلك وولتر المفلس جمع أعداداً كبيرة، وهذه الأعداد لشدّة فقرها وجوعها وضياعها بسبب المجاعات المتتالية قرروا الخروج حتى قبل أن تتجمع الجيوش النّظامية،

فخرجت الجموع الهائلة من الصليبيين غير المدربين على القتال، وهم جموع من الفلاحين والفقراء والبسطاء للمحاربة في أرض فلسطين، طمعاً في الحياة لأنهم غير قادرين على العيش في بلادهم، ثم قطعوا طريقاً طويلاً جداً سيراً على الأقدام، من فرنسا إلى القسطنطينية، ليصلوا منها إلى آسيا الصغرى (تركيا حالياً) ويخترقوها بعد ذلك إلى فلسطين، وخلال الطريق مروا على قرى نصرانية كثيرة جداً، ومرّوا على ممالك النصارى الأرثوذكس (إخوانهم في الدين) وذبحوا أهلها، ومن أشهر هذه المذابح مذبحة سملين في المجر، فشعب سملين شعب نصراني بمجمله، وعندما دخل عليها بطرس الناسك كما يسمي نفسه، قام جيشه بقتل أربعة آلاف نصراني فيها طمعاً بأموالهم، هذه هي الحروب المقدسة أو الصليبية!! وعندما وصلوا إلى القسطنطينية فعلوا فيها الفواحش الكثيرة على شعب القسطنطينية النصراني، فاستغرب أليكسوس كومنين لأنّه اعتقد أنّ هؤلاء جاؤوا ليساعدوه في محاربة المسلمين، وإذا بهم يغيرون على أملاك الدولة البيزنطية، لكنّه كان رجلاً ذا دهاء شديد، فضبط أعصابه ولم يعترضهم، لأنّه يريد إبقائهم ليحارب بهم المسلمين، وبشيء من المفاوضات أرسلهم إلى آسيا الصغرى، وأوصاهم ألا يقاتلوا حتى تأتي الجيوش النظامية الصليبية المدربة على القتال، فهؤلاء كانوا مرتزقة لا خبرة لهم، ولا فقه لديهم لا في الدين ولا في السياسة ولا في أي شيء، إلا أنهم لم يستمعوا لنصيحته، فالتقوا مع المسلمين السلاجقة في منطقة الأناضول بقيادة قلج أرسلان السلجوقي، وحصل الصدام بين هذه الجموع الضخمة التي تقدر وفقاً لأقلّ التقديرات بـ 100 ألف، وفي بعض الروايات تقول إنهم 300 ألف مقاتل، اصطدموا مع القوة الإسلامية فسُحِقَت القوة الصليبية سَحقاً، فجيش الصليبيين كان مجرد فلاحين غير مدربين، أما جيش السلاجقة فلم يكن جيش الدولة البيزنطية ذاته قادراً على ملاقاته، وبذلك سُحقت القوات الصليبية ولم ينجوا منهم إلا ثلاثة آلاف فقط، وقُتل الباقي الذين جاؤوا من أوروبا الجائعة البربرية، وهرب بطرس الناسك في هذه الموقعة، ليدلل دلالة واضحة أنّه لم يأتِ للدين، بل أتى من أجل الدنيا، وهرب من هذه الموقعة طمعاً في إعادة مهاجمة المسلمين عندما تأتي الجيوش النظامية الصليبية.

سمع البابا أوربان الثاني بهذه الأخبار وتأثر تأثراً شديداً لفقدان هذا العدد الهائل من الصليبيين، وعمل على تجميع الجيوش النظامية، فجمع خمس جيوش من أوروبا، الجيش الأول كان بقيادة جود لي ليبيون ومع أخيه بلدوين وكان من أهم الجيوش، جاء هذا الجيش من شمال فرنسا وكان يساعده فريق من الألمان، ولأنّ ألمانيا كانت على خلاف مع الكنيسة، لم يكن لها تمثيل كبير في هذه الحروب الصليبية، أما الجيش الثاني كان بقيادة ريمون الرابع وهو من جنوب فرنسا، والجيش الثالث كان بقيادة روبرت النورماندي في غرب فرنسا، وانضم إليه بعض الجنود من إنجلترا، أما الجيش الرابع كان بقيادة هيو في وسط فرنسا حيث منطقة باريس وما حولها، وكان يعتبر تمثيلاً شَرَفياً للملك في ذلك الوقت، أما الجيش الخامس والأخير كان من جنوب إيطاليا وهو الجيش النورماني بقيادة بوهيموند النورماني ابن جيسكارد، وهؤلاء بالطبع من الملوك المشهورين في أوروبا، ولهم تاريخ طويل في المعارك العسكرية، وكان من أقوى الجيوش في أوروبا على الإطلاق، وفي الجيش الخامس أيضاً شخص اسمه تنجيرد الروماني ابن أخت بوهيموند النورماني. هذه الأسماء هي التي ستحرك الجيوش الصليبية بعد ذلك إلى بلاد الإسلام.

بدأت الجيوش الخمسة بالتحرك تباعاً من فرنسا إلى القسطنطينية سنة 1097 م (490هـ)، منهم من أخذ طريق البحر الأبيض المتوسط، ومنهم من أخذ طريق البر، واتفقوا على الالتقاء في أغسطس، بعض الإحصاءات تقول إنّ هذه الجيوش تصل إلى مليون إنسان، منهم 300 ألف مقاتل معهم النساء والأطفال، وهذا يدلّ على أنهم لا يريدون المحاربة ثم العودة، بل هم ذاهبون ليعيشوا وليبدّلوا الشعب المسلم في فلسطين بشعب نصراني قادم من أوروبا، تماماً كما فعل اليهود بعد ذلك، ولهذا أقول أنّ علينا دراسة التاريخ بشكل جيد جداً. بعد أن وصلت هذه الجيوش الضخمة إلى القسطنطينية، وبعد خلاف فكريّ وسياسيّ وعسكريّ مع أليكسوس كومنين الملك البيزنطي دخلوا إلى أرض آسيا الصغرى للقاء المسلمين.

قبل أن نتحدث عن هذا اللقاء يجب أن نلقي نظرة على واقع العالم الإسلامي في ذلك الوقت، لنفهم أكثر الحروب الصليبية وكيف دخلت إلى أرض المسلمين واستقرت، وهنا أقول إنّ العالم الإسلامي كان يعاني من فُرقة شديدة جداً، فبعد وفاة الملك شاه ابن ألب أرسلان انفرط عقد الأمة الإسلامية، وتفتت تفتتاً كبيراً، حتى انقسمت الدولة السلجوقية إلى خمسة أقسام، منها القسم الغربي وهي منطقة الشام، ومنطقة الشام لوحدها انقسمت إلى عشرات الإمارات، فدمشق كانت إمارة منفصلة، وحمص إمارة، وحلب إمارة، وحماة إمارة، حتى أنّ حماة كان فيها نزاع ما بين الأمراء، ورأينا كيف كان الوضع في مصر خلال الاحتلال العبيدي (الفاطمي) لمدة 100 سنة قبل الحروب الصليبية، وبالتالي كانت مغيَّبة كلّ التّغييب عن أيّ قضية جهادية أو أيّ قضية إسلامية أو شرعية، بعد أن عمل علماء الإسماعيلية على التبديل والتغيير وإظهار البدع والمنكرات، وكان الشعب بعيداً كلّ البعد عن القضية الإسلامية، وكذلك فلسطين كانت تعاني من الاحتلال العبيدي كما ذكرنا من قبل، ففُرِّغت الشام من علمائها ودعاتها ومجاهديها، وبالتالي كان هناك بُعدٌ عن الشريعة، فلم تكن الزكاة تُجمع لعشرات السنين قبل قدوم الحروب الصليبية، بالإضافة إلى الذنوب والمعاصي والترف الشديد، وغياب كامل لمعنى الجهاد في سبيل الله، وقد كانت هناك حروب لكنها لم تكن في سبيل الله، بل كانت في سبيل الحكم والسلطان والسلطة، وفي سبيل البحث عن الأملاك الواسعة، وأحياناً كانت تقوم هذه الحروب بين أمراء من أب واحد وأم واحدة، ولعلّ من أشهر الأمثلة التي سبقت الحروب الصليبية، الحرب بين دُقاق بن توتش والي دمشق ورضوان بن توتش والي حلب، فالاثنين إخوة من أب واحد، والاثنين أحفاد ألب أرسلان القائد العظيم، إلا أنّه كان بينهما حرب ضروس على الملك، ورضوان الخبيث هذا لم يكن ظالماً وفاسداً وحسب، بل إنّه كان متشيّعاً إسماعيلياً، وكان يُظهر أنه يدين بالإسماعيلية ليتقرّب إلى حكام مصر في ذلك الوقت.

هذا الوضع المتردي سهّل بشكل كبير دخول الصليبيين أرض فلسطين، وفي بداية الأمر دخلوا آسيا الصغرى التي كانت تخوض حرباً ضروساً بين قلج أرسلان السلجوقي وغازي بن الدلشمند التركي المسلم، ومن هنا يتضح أن آسيا الصغرى كانت منقسمة إلى قسمين مسلمين وبينهما صراع، وفي ظلّ هذا الصراع في العالم الإسلامي والبُعد عن الشريعة، دخل الصليبيون، وما أسهله من دخول وما أطوله من احتلال.



الصليبيون والطريق الى القدس

تكلمنا عن تجهيزات الحروب الصليبية وعلى دعوة البابا أوربان الثاني لكلّ ملوك وأمراء واقتصاديي وعامة الشعب لغزو العالم الإسلامي واقتحام فلسطين للسيطرة على بيت المقدس، وكما ذكرنا أنّ هذه الدعوة العامة كان لها نوع من الاستجابة الذي أدهش البابا نفسه، فهو لم يكن متوقعاً لها كل هذا الإقبال.

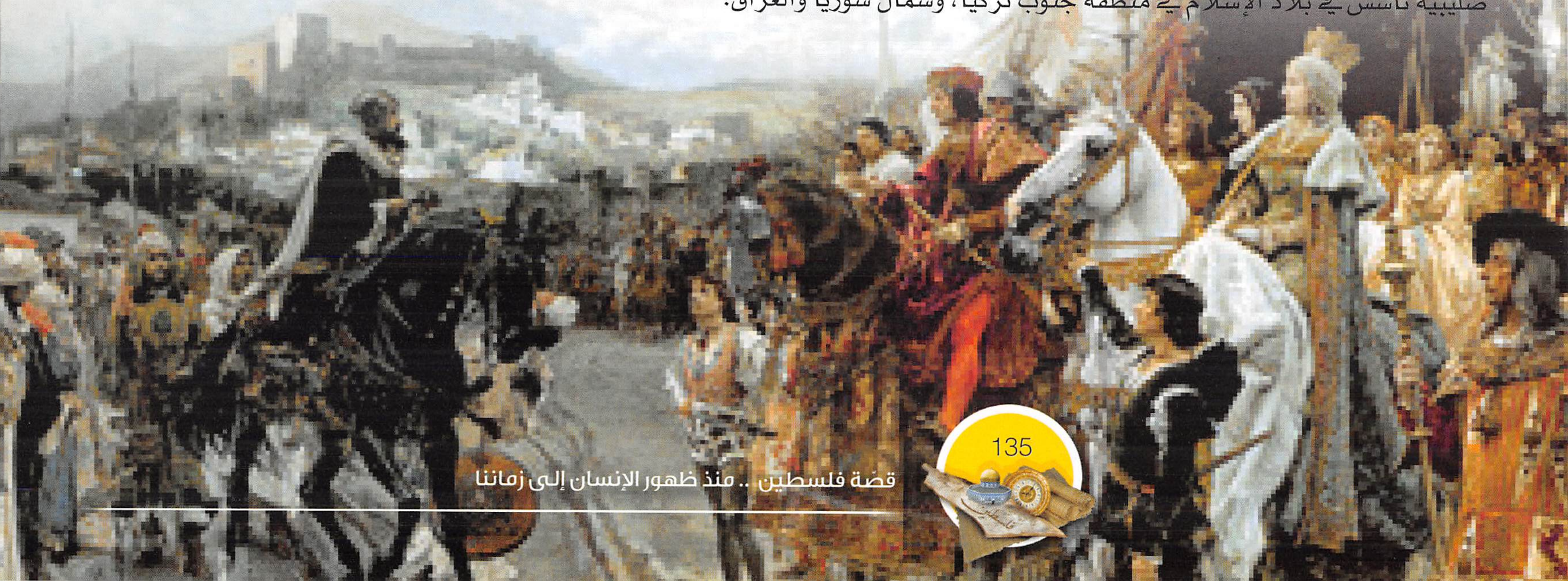
وتكلمنا أيضاً عن حملة بطرس الناسك وولتر المفلس التي كان فيها عامة الفلاحين والفقراء والبسطاء والتي سُحقت على يد قلج بن أرسلان سلطان سلاجقة الروم المسلم في منطقة الأناضول، ثم تكلمنا عن تحرك الجيوش الصليبية الخمسة الكبيرة، وقلنا إنّ زعامات هذه الجيوش الكبيرة كانت تتنافس على الملك في بيت المقدس أو في بلاد المسلمين بصفة عامة، فلم يكن لها الغرض الديني الواضح، بل على العكس، ظهر من تحركاتها ظلم الكثير من النصارى الذين كانوا على مذهب الأرثوذكس في المجر وفي الدولة البيزنطية.

دخلت هذه الجيوش بأعداد كبيرة يقال إنها كانت بمليون إنسان، منهم مئة ألف مقاتل ومعهم ٧٠٠ ألف من النساء والأطفال، ليستوطنوا في الأراضي الإسلامية، ولا يرجعوا إلى أوروبا التي كانت بلاد جهل وجوع وضياع، وذكرنا أنّه حصل نوع من الخلاف الفكري والسياسي والحربي مع أليكسوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية الذي دعاهم للقدوم لبلاد المسلمين لأنّه كان لديه أطماع فيها، وهنا يوجد أكثر من قائد لديه أطماع في بلاد المسلمين: أليكسوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية، وخمسة من قادة الجيوش النصرانية، واثنان من القادة تحت الجيوش الصليبية، وكان بين هؤلاء القادة كفاح مرير ضدّ بعضهم البعض للحصول على ميراث العالم الإسلامي.

وصوّرنا الوضع المزري للعالم الإسلامي من فُرقة شديدة وبُعد عن الدين، بسبب التصارع على الملك، وغياب العلماء، وبالتالي أصبح المسلمون فريسة سهلة للصليبيين.

آثارهم ظهرت بعد ذلك، وكان دخولهم في بداية الأمر لآسيا الصغرى سنة 490هـ (1097م)، واستطاعوا ببساطة التّغلب على قلج أرسلان لأنّ قلج أرسلان لم يكن متفرغاً لهم، بل كان على صراع مع غازي بن دانشمند المسلم، وللأسف الشديد أدّى هذا القتال بين المسلمين إلى دخول الصليبيين إلى قونية عاصمة قلج أرسلان واحتلالها ببساطة، ومنها الوصول إلى أنطاكيا حدود الشام في شهور قليلة، وهكذا ضاع من المسلمين الحدّ الأول الفاصل للدفاع عن حدود الأمة الإسلامية.

وصل الصليبيون إلى منطقة أنطاكيا المهمة، وهي منطقة تاريخية فيها بعض الكنائس المهمة للنصارى، وفيها بطرس الذي تكلمنا عنه في البداية في أيام المسيح عيسى ابن مريم، لذلك اكتسبت هذه المنطقة قداسة كبيرة عند النصارى بصفة عامة، وكان لها أهمية تاريخية كبرى عند الدولة البيزنطية قبل أن يدخلها المسلمون في فتوحهم لبلاد الشام في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحكمها المسلمون لفترة طويلة من الزمن، ولهم فيها تاريخ طويل أيضاً، وحتى الجيوش الصليبية التي جاءت إلى بلاد المسلمين كانت تنظر إلى أنطاكيا بالذات لأنّ فيها بوهيموند النورماني قائد الجيش الإيطالي، وكانت له ذكريات مع أنطاكيا، وحاول قبل ذلك في أيام والده جوسكار أن يحتلها ولكنّه فشل فجاء بنيّة الاحتلال، والآن هذه المدينة يتنازعها المسلمون الذين يحكمونها بقيادة رجل اسمه ياغسيان وهو من المسلمين الأتراك، لم يكن لديه دوافع الجهاد في سبيل الله، ولكن كان يريد الحفاظ على الملك في هذه المدينة، ومن هنا نرى أنّ الرؤية الإسلامية كانت غائبة عن معظم القوات في ذلك الزمن، وتنازع على مدينة أنطاكيا أليكسوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية والخمس جيوش القادمة من أوروبا، فتنازع الجميع على أنطاكيا ولكلّ طرف منهم أطماعه وأحلامه، وفجأة انسحب أحدهم من الجيش وهو بلدوين، وهو نائب أخيه جودفري قائد الجيش الأول القادم من شمال فرنسا وغرب ألمانيا، وعندما انسحب بلدوين أخذ معه فرقة من الجيش واتجه إلى منطقة بعيدة عن أنطاكيا إلى الشرق منها، وفي مساحات واسعة من البلاد كانت تسمى في ذلك الوقت (الرُّها)، واكتُشف بعد ذلك أنّ أحد الأرمن أغراه بتكوين إمارة خاصة له في هذه المنطقة، وبالفعل انسحب وترك قضية القدس بالكامل، وانعزل بجيشه وكوَّن إمارة خاصة وهي إمارة الرُّها، وبذلك تصبح أول إمارة صليبية تُأسَّسُ في بلاد الإسلام في منطقة جنوب تركيا، وشمال سوريا والعراق.



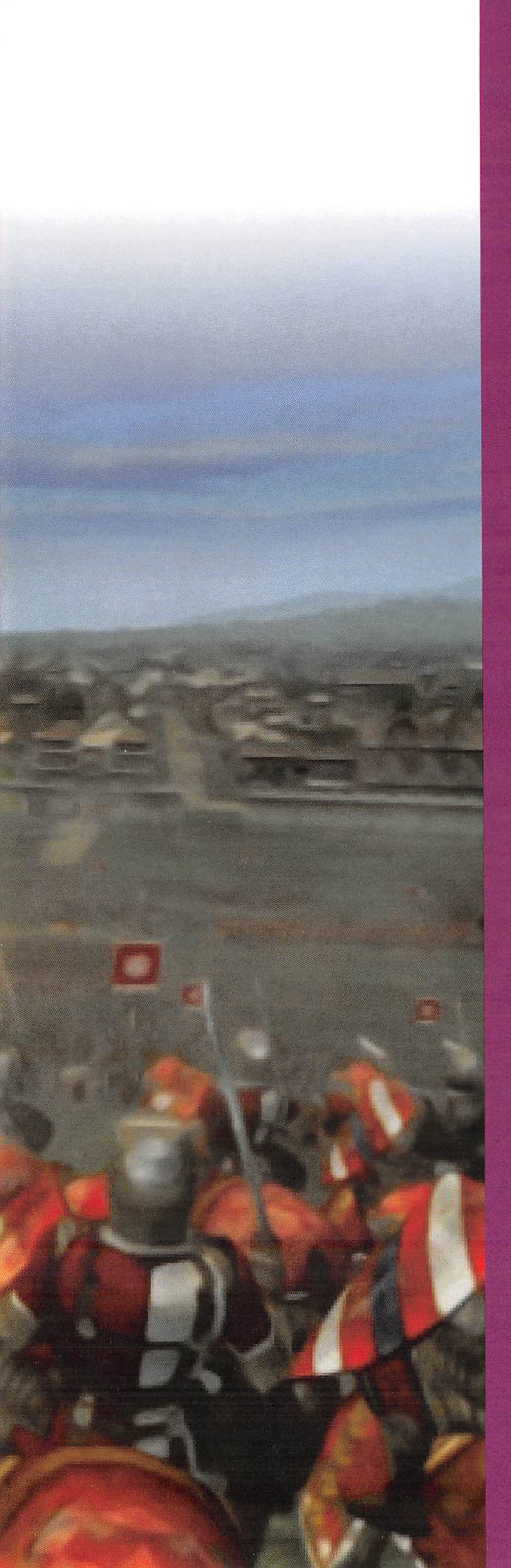
حصل صدام كبير جداً على أسوار مدينة أنطاكيا ليس فقط بين النصارى والمسلمين، بل وأيضاً بين النصارى أنفسهم، فكلّ واحد منهم أراد أن يكون الحكم له، واستمر حصار مدينة أنطاكيا لسبعة أشهر، وللأسف الشديد لم يتحرك لمدينة أنطاكيا طوال هذه الفترة أيّ جيش إسلامي، وفي الشهر السابع جاءهم جيش ضعيف من شمال العراق كان على رأسه رجل اسمه كربوغة وهو من الأتراك الذين كانوا يحكمون تلك المنطقة في ذلك الوقت، إلا أنّ هذا الجيش لم يستطع الصمود أمام الصليبيين، فتمّ النصر للصليبيين في هذه الموقعة الكبيرة، وسقطت أنطاكيا تحت أقدام الصليبيين، وأقدم الصليبيون على مذبحة هائلة للشعب الآمن في أنطاكيا، ولم يفرّقوا فيها بين الرجال والنساء والأطفال، وبذلك تصبح أنطاكيا الإمارة الثانية الصليبية في العالم الإسلامي، وصار هناك نزاع كبير بين الصليبيين للسيطرة على الملك، وفي النهاية انتصر بوهيموند النورماني صاحب أقوى الجيوش وهو الجيش الإيطالي، بعد أن هدَّدَ بالعودة إلى إيطاليا، فلو لم يُعطَ أنطاكيا لترك القضية كلّها بما فيها القدس وفلسطين والأحلام الدينية، فبقي هذا الجيش في أنطاكيا وباع القضية وترك الجيوش الصليبية لإكمال الطريق إلى القدس.

كانت هناك محاولات كثيرة لإنشاء إمارات في أماكن أخرى، فمرّت سبعة أشهر أخرى وهم متردّدون في الذهاب إلى القدس، لأنهم يريدون تكوين إمارة لهم في الطريق نتيجة ما وجدوه من ثروات وكنوز كبيرة، بالإضافة إلى الحضارة والإمكانيات الغير موجودة في أوروبا، لذلك أرادوا السيطرة على كلّ ما يمرّ بهم، وكلّ ما تقع عليه أعينهم، وحصل نزاع لأكثر من مرة، وكان يتقدم هذا النزاع ريمون الرابع قائد الجيش الثاني القادم من جنوب فرنسا، وكان أكثرهم مدَّعي الدينية ومدَّعي الانتماء للصليب وللمسيح، وكان يرفع الصليب في كلّ معاركه، وكان يرى نفسه أنّه ممثل البابا، ولكن كان يتضح من كلّ لقاء أنّه لا يسعى إلا لمصلحته الخاصة، ولا يبحث إلا على ملك ذاتي له ولجيشه.

كان نتيجة هذا الصراع أن انتهى الأمر بحصار مدينة معرّة النعمان، وهي أحد المدن القريبة من أنطاكيا، وأمَّنوا أهلها على أن يفتحوا الأبواب، ففتحوا لهم الأبواب، فقام الصليبيون بمذبحة هائلة جداً وقتلوا معظم السكان فيها، فقد كان هذا الفعل دائم في كلّ مدينة يدخلها الصليبيون، واختلف الصليبيون فيما بينهم على من يرأس معرة النعمان، فتعطل الجيش الصليبي عن الزحف إلى بيت المقدس نتيجة هذا الصراع، ثم أكملوا الطريق وتوقفوا أمام طرابلس، فأُعجب بهذه المدينة ريمون الرابع فقرر الوقوف للسيطرة على هذه المدينة، وفرض عليها الحصار لعدّة أشهر دون أن يستطيع أن يدخل طرابلس، ثم حصل نزاع آخر بين القادة الصليبيين انتهى بأن رفع ريمون الرابع الصليب ومشى حافي القدمين، ولَبِسَ لبْس الحجيج، واتجه مع الصليبيين إلى بيت المقدس لفتحه بعد فشلهم بفتح طرابلس.

أحبّ هنا أن أقول إنّ الجيش الصليبي بعد كلّ تلك الأشهر في العالم الإسلامي والتي وصلت حتى تلك اللحظة إلى سنتين، فقد عددا كبيراً من المقاتلين نتيجة الحصار الذي ضربوه حول أنطاكيا لسبعة أشهر متصلة، ونتيجة المعارك في آسيا الصغرى، ونتيجة الجوع والعطش الذي مروا به في جبال آسيا الصغرى عندما عبروها في طريقهم لبلاد الشام، ونتيجة تخلُّف عدد كبير من الصليبيين، فبعضهم تخلّف في إمارة الرُّها مع بلدوين، وبعضهم تخلّف في إمارة أنطاكيا مع بوهيموند، وبالتالي أصبح عدد الجنود المقاتلين الذين انطلقوا من مدينة أنطاكيا إلى بيت المقدس نحو 80 ألف مقاتل فقط، وقد كنّا نتكلم عن 300 ألف مقاتل، إذاً فهناك نحو 220 ألف غابوا، فمنهم من مات أو قُتل، ومنهم من تخلّف في الإمارتين، وبالتالي لم يبقَ إلا نحو 80 ألفاً وهذا على أكثر تقدير، وبعض الروايات تقول إنّ العدد لا يتجاوز الستة آلاف، ولكني لا أقتنع أنّ هذا العدد الضئيل يستطيع أن يخترق كلّ هذه المسافات في داخل البلاد الإسلامية، وحتى رقم 80 ألف مقاتل يعتبر رقماً ضئيلاً أن يستطيع هؤلاء أن يخترقوا المناطق بدءاً من أنطاكيا في شمال غرب سوريا، أي أنها في أقصى بقاع الشام، حتى يصل هذا الجيش لبيت المقدس، أي عليه أن يخترق سوريا بأكملها ولبنان بأكمله ويخترق فلسطين بكاملها حتى يصل للقدس في وسط فلسطين، كيف يقطع كلّ هذه المسافات بدون تدخل الجيوش الإسلامية؟ هذا أمر غريب خاصةً أنّ ذلك الزمن لم يكن فيه قنابل أو صواريخ أو دبابات، والقتال كلّه بالسيف، أي أنّ الناس لو خرجوا إليهم لأكلوهم بأسنانهم.





سبحان الله! فقد ضُرب على الناس الذلّة في ذلك الزمن لغياب العلماء والفقهاء والتعليم الإسلامي، ولكثرة الذنوب والمعاصي، كلّ ذلك فتح الأبواب للصليبيين، وعندما مرّ الجيش الصليبي بإمارة شيزر وهي مدينة في سوريا الآن، قام أمير شيزر ليتّقي شرّ الصليبيين وقدّم لهم الأدلاء ليسيروا بالجيش داخل الأراضي الإسلامية فيدلّوهم على الطريق لبيت المقدس، وعندما مرّوا بطرابلس وبعد أن حاصروها لعدة أشهر قدّموا لهم الجزية بدون قتال لشدة رعبهم من الصليبيين، وقدمت بيروت وعكا الهدايا للصليبيين، وموّلوا الجيش الصليبي بالطعام حتى يصلوا إلى بيت المقدس، فقط من أجل أن يبتعدوا عنهم، بل وحتى إنّ المدن البعيدة عن خطّ سير الجيوش الصليبية كدمشق وحلب سارعت بتقديم الهدايا خوفاً من أن يغيّر الصليبيون طريقهم إلى مدنهم وبلادهم، وهذا والله شيءٌ من الخسَّة والمهانة كان عليه قادة المسلمين، بل وكانت عليها الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت للأسف الشديد، وبالإضافة إلى استغرابي من واقع الشعوب الإسلامية فإنّني أستغرب من واقع الصليبيين، فكيف جاءت للصليبيين هذه الجرأة بأن يخترقوا البلاد الإسلامية من شمالها إلى جنوبها دون خوف أن يُحاصَروا من الجيوش الإسلامية أو من الشعوب، أو أن يُضرَبوا في ظهورهم، فبمجرد أن اخترقوا الأراضي الإسلامية فإنّ المدد انقطع عنهم، حيث إنّ مددهم في باريس ولندن وألمانيا البعيدة آلاف الأميال، وبينهم وبين مدنهم البحار والجبال، حتى إنّ الإمارات الصليبية التي تأسّست في العالم الإسلامي لا تستطيع أن تكون مدداً لهذا الجيش لأنها تريد بالدرجة الأولى أن تحافظ على أمنها.

فكيف تجرأ الصليبيون على اختراق العالم الإسلامي كلّه؟ من أين جاءتهم الشجاعة والجرأة أن يدخلوا في عمق العالم الإسلامي؟! يا إخواني كنت محتاراً من هذا الأمر ولكني وجدت الردّ في حديث حبيبنا المصطفى ﷺ يصف فيه هذه الحال بمنتهى الدقة، يقول: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»

(رواه أحمد)



تتداعى: أي يدعو بعضهم بعضاً، من فرنسا وألمانيا وإنجلترا، حتى إنها جاءت من بلاد بعيدة جداً مثل اسكندنافيا والدنمارك. كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها: أي كما يأكل الناس من طبق واحد، فتجتمع الأمم كلها لتأكل من أمة الإسلام، «**قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ**» المسلمون بالملايين في هذه المناطق، فهي مناطق ذات كثافة سكانية عالية، وكانت هذه المناطق عاصمة الخلافة الأموية ومعقل الإسلام لفترة طويلة من الزمن، فعاش الناس في حلب ودمشق ولبنان وفلسطين، فكيف تُخترق هذه الكثافة؟!

قال رسول الله ﷺ : «**تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ**» وهذا ما كنت أبحث عنه، أي يُنزع من الأعداء الرهبة والمهابة من المسلمين، فينظرون إلى الأعداد الكثيرة فلا يكترثون، وينظرون إلى الحصون فلا يهتمون، ويُكملون الطريق في عمق العالم الإسلامي حتى يصلوا إلى دُرَّة الشام ودُرَّة فلسطين، القدس، دون أن يتعرضوا لحركة مقاومة واحدة في كلّ هذه الرحلة الطويلة التي قطعوها، «**وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**» قالوا وما الوهن؟ قال: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»، فقد كانت مشكلة العالم الإسلامي في ذلك الوقت أنهم أحبوا الدنيا وكرهوا الموت في سبيل الله، وهذا ما أدى أن وصلت الجيوش الصليبية في منتهى الأمان إلى حصار المدينة المقدسة القدس.

وصلت الجيوش الصليبية إلى أسوار القدس في 7 يونيو سنة 1099م (492هـ)، وبالطبع تفيض الكتب النصرانية بوصف المشاعر الفيّاضة للجيوش الصليبية عندما أتوا لمدينة الربّ القدس، وهم كاذبون لأنّه لم يكن لديهم أيّة عواطف دينية بالمرة، أو أيّ مشاعر مقدسة، أو أيّ اعتبار لكلّ المقاييس الدينية لديهم، فقد كان همّهم جمع الثروات وإبادة المسلمين، فقاموا بقصف المدينة بشكل متواصل لمدة خمس أسابيع، ورغم ذلك لم يتحرك جيش واحد لنجدة هذه المدينة، وفي النهاية في يوم 15 يونيو 1099م الموافق لـ 20 شعبان 492هـ سقطت القدس، ودخلت الجيوش الصليبية لترتكب مذبحة من أكبر المذابح في تاريخ الإنسان، وللأسف لم يكن للناس أيّ طاقة للدفاع عن أنفسهم، فهرب الجميع إلى المسجد الأقصى على اعتبار أنّه مكان مقدّس قد يحترمه الصليبيون، إلا أنّ هؤلاء لا عهد لهم ولا أمان، فدخلوا على المسجد الأقصى بخيولهم فذبحوا 70 ألف مسلم من الرجال والنساء والأطفال، ثم رفعوا الأعلام النصرانية، وذهبوا لكنيسة القيامة ليصلُّوا صلاة الشكر لربهم على أنّه مكّنهم من رقاب المسلمين.

- **ويا ترى كيف ستكون الأحداث في فلسطين بعد هذه الواقعة المريرة؟**
- **وكيف سيتعامل الصليبيون مع أهل فلسطين بصفة عامة؟**
- **وكيف سيكون ردّ فعل المسلمين؟**

دخول الصليبيين بيت المقدس

تكلمنا عن أزمات كبيرة مرّت بها الأمة الإسلامية بصفة عامة، ومرّت بفلسطين بصفة خاصة، وتكلمنا عن الحروب الصليبية وكيف استطاع الصليبيون أن يؤسسوا في سنة 490هـ إمارة الرُّها في جنوب تركيا (شمال العراق وسوريا)، واستطاعوا تأسيس إمارة أنطاكيا في شمال غرب سوريا، واستطاعوا أن يصلوا إلى بيت المقدس وأن يحاصروا القدس في غياب كامل للحميّة الإسلامية، والجيوش الإسلامية المبعثرة هنا وهناك في المدن المختلفة، بل على العكس وجدنا تمويلاً ودليلاً وإعانةً وهداية للجيوش الصليبية في طريقها من أنطاكيا إلى بيت المقدس، كلّ ذلك لتجنّب القتال مع الصليبيين، وكان هذا نوعاً من الذلة والمهانة للأمة الإسلامية فُتِحَت بها الأبواب للصليبيين حتى وصلوا إلى بيت المقدس وارتكبوا المذبحة الشنيعة؛ فقتلوا أكثر من 70 ألف مسلم في يوم واحد.



ـ في اليوم الذي دخلوا فيه إلى القدس حصل تنازع على سلطان القدس، وبالطبع كان هذا النزاع أشدّ من التنازع على أنطاكيا أو الرّها؛ لأنّ القدس هي أهمّ مدينة في العالم للنصارى، وأهمّ مدينة لكلّ الديانات، وتُعظَّم فيها الديانات، وبالطبع مكة والمدينة هما أعظم عند المسلمين، ولكن لا يعظّمهما اليهود أو النصارى، أما مدينة القدس فإنها تُعظَّم من كل الديانات، من المسلمين واليهود والنصارى، والذي يحكم هذه المدينة يكون له مكانة عالية في العالم كلّه، ليس فقط عند النصارى، فتنازعوا عليها نزاعاً شديداً، وفي النهاية وصل الحكم لجوديفري الذي كان رئيس أكبر الجيوش الفرنسية القادم من شمال فرنسا وغرب ألمانيا.

أما البابا أوربان الثاني الذي حرّك هذه الجموع كلّها، فإنّه مات قبل دخول الجيوش الصليبية للقدس، وتولى من بعده رجل آخر اسمه باسكال الثاني، ولم يكن ثبّت أقدامه بعد لينازع جوديفري في حكم القدس، وقام بتمثيلية ليُقنع الجميع بأنّه رجل دينيّ وأنه قَدِمَ من أجل المسيح والصليب، فأسمى نفسه حامي بيت المقدس، ولم يقبل أن يلبس تاجاً من الذهب، فلبس تاجاً من الشوك، وقال: لن ألبس تاجاً من الذهب في بلدٍ لبس فيه المسيح تاجاً من الشوك، فانطلت هذه التمثيلية على جموع كثيرة من المؤرخين، ولا أقول غير المسلمين، بل المسلمين أيضاً، فغير المسلمين من المعروف أنهم يزورون التاريخ، وكما تعلمون المنتصر هو من يسجل التاريخ، ولكن كيف ينقل المسلمون أنّ هذا الرجل اختاره النصارى لتقواه ولورعه ولطيبة قلبه؟! هذا الكلام مكتوب في مراجع إسلامية، تخيلوا أنّ هذا الكلام يُكتب عنه بعد أن ذَبَحَ في اليوم السابق 70 ألف مسلم في المسجد الأقصى، وهذا يدلّ على غياب كامل للرؤية عند المؤرخين المسلمين، ونحن بالفعل نحتاج لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي من جديد.

كما قام بحرق اليهود، واليهود لا يعيشون في القدس بسبب العهدة العمرية، ولكنّهم يأتون إليها لأنها مقدسة عندهم، فقام بجمع كلّ اليهود في الكنيس، وحرَّق الكنيس بمن فيه، وهنا تتضح الحرب العنصرية التي كان يمارسها الصليبيون ضدّ أيّ أحد مخالف لهم، وكما رأينا قبل ذلك كيف قتلوا واغتصبوا النصارى الأرثوذكس، وقاموا في فلسطين بحرب إبادة جماعية.

أراد جوديفري أن يقيم مملكة على أرض فلسطين بالكامل، فبدأ يوسِّع أملاكه، إلا أنّ قوته العسكرية ضعيفة، فالجيش عنده جيش ضعيف لا يستطيع أن يتحرك هنا وهناك، وبعد أن استقرت له الأوضاع داخل مدينة القدس، بدأ يحتل المدن من حول القدس، فاحتل يافا واللّد والرملة ونابلس وبيسان وطبريا، إلا أنّه لم يكن قادراً على احتلال المدن كلّها؛ لأنّ بعض تلك المدن كانت قوية، وكان البعض منها لا زال في يد الحامية العبيدية مثل مدينة عسقلان وعكا، فاستعمل معها سياسة قديمة حديثة، استمعوا إلى هذا الكلام وتدبروه لتعرفوا كيف أعداؤنا يغزون العالم الإسلامي، وكيف أنّ هذه المواقف تتكرر، لأنّنا لا نقرأ التاريخ.

قرر جوديفري أن يقوم بمباحثات سلام مع المدن التي لم يستطع احتلالها بالقوة، وعقد نوعاً من السلام مع هذه المدن الفلسطينية رغم أنّ في يديه القدس وأكثر من مدينة أخرى، فعمل معاهدة سلام مع أرسوف وعكا وقيسرية وعسقلان، انظروا ماذا سيحقق هذا السفاح من هذه المعاهدة:



حقق اعترافاً من المسلمين بمملكة بيت المقدس النصرانية، ولعلّ هذا أكبر المكاسب التي يمكن أن يحققها، فهذه المعاهدة تعني أننا نقرّ هذا الرجل على القدس مقابل أن يقرُّنا على عسقلان أو على قيسرية أو على غيرها، وهو -في الوقت نفسه- بحاجة إلى أيدي عاملة وأناس تعمل في المزارع وأناس تبني القِلاع العسكرية، وبالطبع كلّ ذلك يكون بشكل مؤقت إلى أن يحصل على القوة من أوروبا، ووقتها سوف يلغي كلّ هذه المعاهدات، في الوقت ذاته سيقوم بتنشيط حركة التجارة داخل فلسطين لأنّه لا يملك أسطولاً في ذلك الوقت، والإسطول الفرنسي في ذلك الوقت كان ضعيفاً جداً، وكان أقوى أسطول في مياه البحر الأبيض المتوسط هو أسطول إيطاليا المكوَّن من جنوة وبيزا والبندقية (فينسيا حالياً)، ولكن تلك الأساطيل كانت أساطيل تجارية وليست عسكرية، ولن يساعدوه إذا لم يكن هناك مال، فقال لهم أن يأتوا إلى بلاد الشام ليجلبوا بضائعهم ويبيعها في فلسطين مقابل أن ينقلوا له الجنود تلو الجنود والسلاح تلو السلاح من أوروبا، وبشكل موازٍ عمل انقساماً داخل المجتمع الفلسطيني، فهناك أناس سيوافقون على مباحثات السلام وأناس أخرون سيرفضون مباحثات السلام، فيحدث صِدام بين الفلسطينيين، وقد يقتتل الإخوة داخل البلد الواحد، والمستفيد الأول هو الجيش الصليبي في القدس.



كما أنّه سيخمد روح العداء، فالموجود في القدس هو صديق ومعه معاهدة سلام، وبعد بضعة سنوات سننسى، وستصبح دولة الصليبيين دولة صديقة تصادق عسقلان وقيسرية، كما أنها ستكون فترة استعداد وراحة بعد أن تغيب هذه القضية عن أدمغة المسلمين، وتخيلوا الخِسَّة والذّلة في هذه المعاهدة للمسلمين، فهو يفرض فيها على المسلمين دفع الجزية، وبعد ذلك كلّه وافق المسلمون على مباحثات السلام، ومنهم من باع الأرض والعِرض والوطن، ووضع يديه في يدي جوديفري وباع أجزاء من أرض فلسطين، كلّ ذلك بشكل مؤقت إلى أن تكتمل قوة جوديفري فيأخذ فلسطين كلّها.

وما إن بدأت المساعدات تصل إليه، بدأ يخرج إلى خارج القدس، وإلى خارج المعاهدات ويخون هذه العهود، وهذا الأمر لم يكن مستبعداً، بل على العكس، فالناس الذين يستغربون من خيانة اليهود والنصارى للعهود أولئك لم يقرأوا كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ فالله سبحانه وتعالى يصف لنا التاريخ والمستقبل والواقع الذي نعيشه، أما الذي لا يقرأ كتاب الله فلا يلومنّ إلا نفسه، فهو الذي يوقِع نفسه في المشاكل، وهو الذي يرى الحفر ويقع فيها متعمداً، وبالطبع هذا يدل على غباء شديد وبُعد شديد عن دين ربه سبحانه وتعالى.

المشكلة أنّ جوديفري خان المعاهدة لأكثر من مرة في رحلته الطويلة من أنطاكيا إلى بيت المقدس، فكيف يأمن المسلمون لعهده في هذه الأوقات، فقد كانوا يحافظون على القليل من الحياة لمجرد أن يعيشوا زيادة عن ذلك ولو ليوم واحد ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ هذه الآية نزلت في اليهود وفي كلّ من اتصف بصفاتهم من البشر، فإنّه يعاقَب بمثل ما عوقب به اليهود قبل ذلك بالذّلة والمسكنة، وهكذا ضُربت الذّلة والمسكنة على المسلمين في هذه الفترة المؤسفة من تاريخ الأمة.

وهنا أنا لا ألقي اللّوم على القادة والرؤساء الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت، بل إنّ لومي يمتد إلى العلماء الذين كانوا يعيشون في ذلك الزمن، فمنذ سنة 463هـ بعد أن تحررت البلاد من الاحتلال العبيدي إلى سنة 490هـ هناك 27 سنة تقريباً، وكان هناك علماء سنّة، فلماذا لم يتحركوا !!

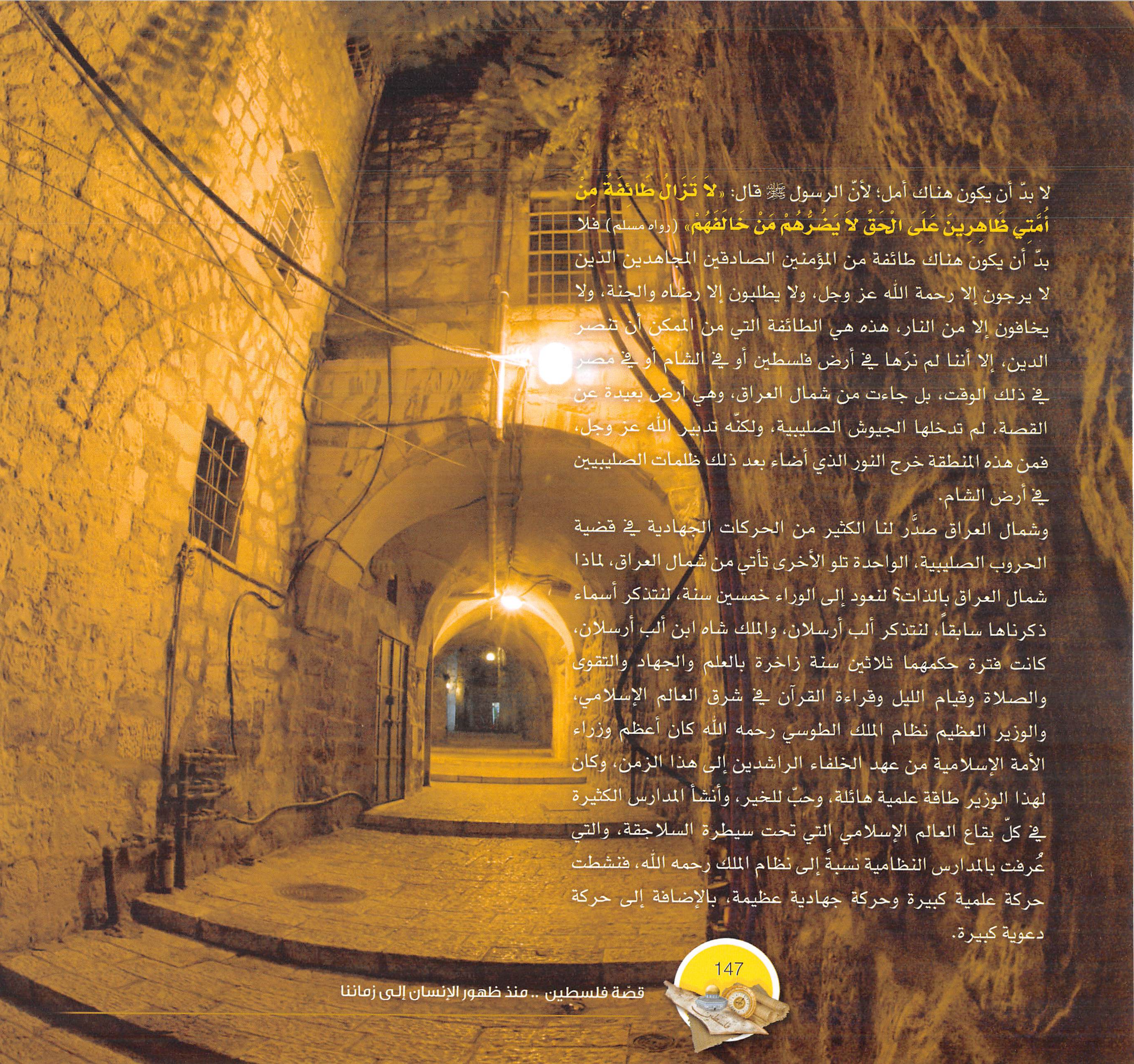


تجد بعض الروايات في تاريخ دمشق لابن عساكر أنّ العلماء في ذلك الوقت كانوا لا يتكلمون خوفاً على حياتهم، فقد كان دوقاق بن توتش الذي كان يحكم دمشق ورضوان بن توتش الذي كان يحكم حلب، كانا من الحكام الظلمة الفاسدين، فسكت جميع العلماء خوفاً على حياتهم وسلطانهم، وإذا كان الجاهل يجهل، والعالم يسكت فكيف سيتعلم الناس، فلا ألوم الحكام وحدهم بل والعلماء أيضاً، بالإضافة للشعوب التي رضيت بهؤلاء الحكام ورضيت بهؤلاء العلماء؛ فالشعوب التي لا تثور إلا من أجل رغيف العيش فهي شعوب لا تستحق الحياة، والشعب الذي يستحق الحياة بالفعل هو الشعب الذي يثور من أجل عقيدته ودينه وأرضه وعِرضه، وفي الحروب الصليبية لم نرَ حتى من يتحرك دفاعاً عن نفسه، ورأينا الركوع والخنوع المستمر بعد تراكمات السنوات، مما أدى إلى سقوط العالم الإسلامي تحت سيطرة الصليبيين.

قامت إلى الآن ثلاث إمارات صليبية في العالم الإسلامي، قامت إمارة الرّها في سنة 490هـ، وإمارة أنطاكيا سنة 491هـ، وإمارة بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، وبعد ذلك بـ 11 سنة أي في سنة 503هـ قامت إمارة طرابلس وما حولها من مدن في لبنان، وتلك الإمارات هي التي بقيت حتى نهاية الحروب الصليبية.

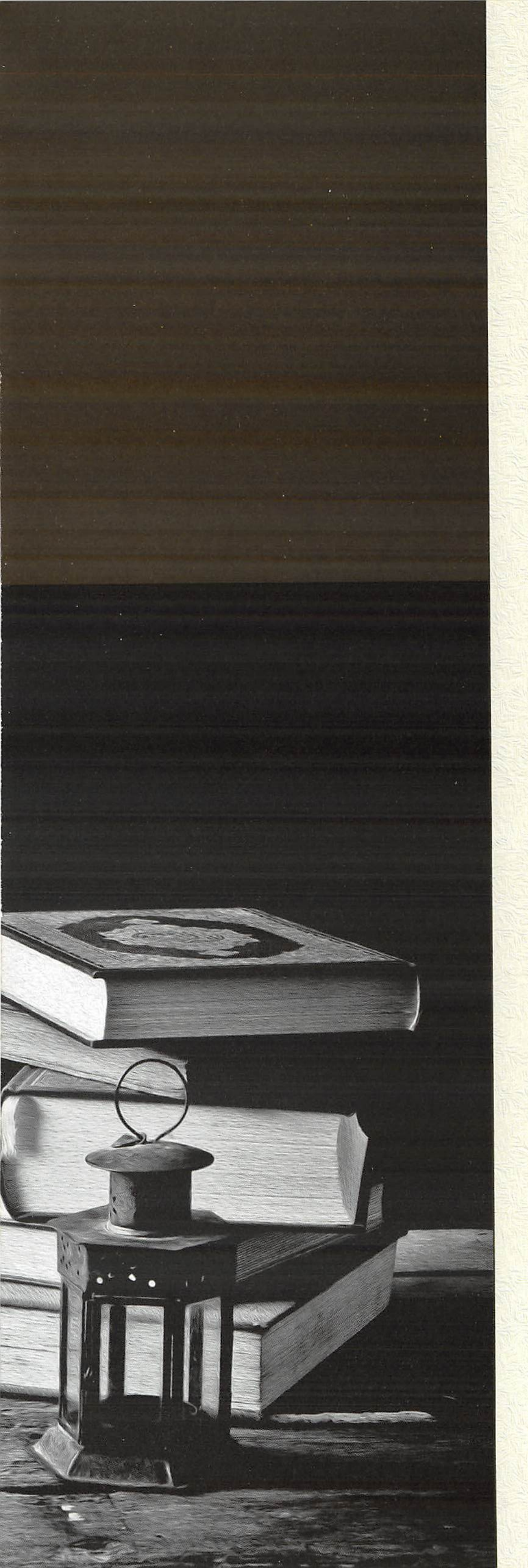
بعد كلّ ذلك الإحباط نتساءل

هل هناك أمل؟ نعم،



لا بدّ أن يكون هناك أمل؛ لأنّ الرسول ﷺ قال: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ**» (رواه مسلم) فلا بدّ أن يكون هناك طائفة من المؤمنين الصادقين المجاهدين الذين لا يرجون إلا رحمة الله عز وجل، ولا يطلبون إلا رضاه والجنة، ولا يخافون إلا من النار، هذه هي الطائفة التي من الممكن أن تنصر الدين، إلا أننا لم نرَها في أرض فلسطين أو في الشام أو في مصر في ذلك الوقت، بل جاءت من شمال العراق، وهي أرض بعيدة عن القصة، لم تدخلها الجيوش الصليبية، ولكنّه تدبير الله عز وجل، فمن هذه المنطقة خرج النور الذي أضاء بعد ذلك ظلمات الصليبيين في أرض الشام.

وشمال العراق صدَّر لنا الكثير من الحركات الجهادية في قضية الحروب الصليبية، الواحدة تلو الأخرى تأتي من شمال العراق، لماذا شمال العراق بالذات؟ لنعود إلى الوراء خمسين سنة، لنتذكر أسماء ذكرناها سابقاً، لنتذكر ألب أرسلان، والملك شاه ابن ألب أرسلان، كانت فترة حكمهما ثلاثين سنة زاخرة بالعلم والجهاد والتقوى والصلاة وقيام الليل وقراءة القرآن في شرق العالم الإسلامي، والوزير العظيم نظام الملك الطوسي رحمه الله كان أعظم وزراء الأمة الإسلامية من عهد الخلفاء الراشدين إلى هذا الزمن، وكان لهذا الوزير طاقة علمية هائلة، وحبّ للخير، وأنشأ المدارس الكثيرة في كلّ بقاع العالم الإسلامي التي تحت سيطرة السلاجقة، والتي عُرفت بالمدارس النظامية نسبةً إلى نظام الملك رحمه الله، فنشطت حركة علمية كبيرة وحركة جهادية عظيمة، بالإضافة إلى حركة دعوية كبيرة.



وعندما دخل الصليبيون إلى الشام وفلسطين، شعر المسلمون في شمال العراق بالأسى لما يحدث في تلك البلاد المسلمة، ولما يحدث في الأرض المباركة أرض فلسطين والقدس، فبدأت تتحرك فيهم الحمية، وبدأت تخرج منهم الطاقات الجهادية، خرج منهم كما قلنا قبل ذلك كربوغة ولكنّ جيشه كان ضعيفاً، وخرج جكرمش وخرج مودود بن التونتكين رحمه الله، وهو من أروع الشخصيات في العالم الإسلامي، كانت لديه حمية عالية للجهاد وعنده تقوى وورع وقيام وصيام، وكان لديه طاقات سياسية وإدارية على أعلى مستوى، إلا أنّه وللأسف كان عملاقاً في زمن الأقزام، فلم ينصره أحد، بل على العكس، فإنّ رضوان بن توتش حاكم حلب أغلق أمامه الأبواب ودسّ عليه الدسائس، وقائم بمؤامرات تجاهه لأنّه خشي أن يأتي ليحرّر البلاد من الصليبيين فيأخذها هو، فوقف ضدّه مع الصليبيين، القوة المحتلّة التي كانت تحكم العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ولكن مودود بن تونتكين لم ييأس فحارب مرة تلو المرة وانتصر على الصليبيين سنة 507هـ (1113م) في موقعة كبيرة جداً في فلسطين، فقد جاء من شمال العراق واخترق العالم الإسلامي حتى وصل إلى منطقة جنوب بحيرة طبرية، وانتصر على الصليبيين في موقعة الصنبرة، وذُلَّ فيها الجيش الصليبي ذلاً كبيراً، وقُتل عدد كبير من الجنود، كان ذلك في 7 محرم سنة ٥٠٧هـ، أي بعد 16 أو 17 سنة من دخول الجيوش الصليبية إلى أرض الإسلام، وفي هذه الموقعة ظهر نجم أحد الأبطال المجاهدين العظماء في تاريخ الأمة الإسلامية، وقد كان يقاتل كجندي في جيش مودود رحمه الله، وهو عمادالدين زنكي رحمه الله، وكان في ذلك الوقت شاباً صغيراً يبلغ 24 سنة من العمر، مع العلم أنه حمل السيف منذ أن كان عمره 12 سنة، وشارك في حروب الجيوش التي سبقت جيش مودود رحمه الله.

بعد انتصار مودود بن تونتكين رحمه الله على الصليبيين، دسّ عليه رضوان ملك حلب على الأغلب من يقتله من الشيعة الإسماعيلية، فقتله في مسجد دمشق وهو يصلي صلاة الجمعة، لتُغلق بذلك صفحة جهاد مودود بن تونتكين، وليظهر للعالم الإسلامي الفضائح التي كان عليها زعماء وقادة العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ولكن بفضل الله لم يمت الجهاد بموت مودود، ولن يموت الجهاد في سبيل الله، فظلت الراية مرفوعة، وظهرت أسماء إسلامية كثيرة منها سُقمان بن أرطق الذي تكلمنا عنه قبل ذلك، والذي حكم فلسطين واتجه إلى شمال الجزيرة، ومنهم أيضاً بلك بن بهران والغازي بن أرطق، وبعد ذلك سُلِّم الأمر كلّه لعمادالدين زنكي رحمه الله ليتولى قيادة المسلمين، فاستلم إمارة الموصل سنة 521هـ، وحكم المسلمين حتى سنة 541 هـ.

ومع أنه نشأ يتيماً وحيداً بعد أن قتل توتش بن ألب أرسلان الحاكم الظالم الذي كان يحكم بلاد الشام أق سنقر والد عمادالدين، ومع أنّ الظروف كانت ضدّه، ومع أنّه مرَّ بظروف صعبة جدّاً بعد أن ترك حلب التي وُلد فيها وعاش في الموصل، فإنّ الله سبحانه وتعالى صنعه على عينه وأنشأه نشأة إسلامية، فقد كان مجاهداً عالمِاً مغيِّراً ومجدداً، ليبدأ صفحة الجهاد الحقيقية مع الجيوش الصليبية، كما أنّ أولاده كان لهم الأثر الكبير في الحروب الصليبية.



عمادالدين زنكي ومظاهر الإخلاص

قلنا في السابق أنّه مع كلّ الألم الذي اعتصر قلوب المسلمين في أرض الشام وفي أرض فلسطين وفي كل البلاد الإسلامية التي شهدت هذه المجازر والمآسي، إلا أنّ الله عز وجل دائماً يمنّ على المسلمين بنور يخرج من الجهاد، وليس بالضرورة أن يخرج هذا النور من البلاد التي تعرضت للأزمة، فنحن عندما نريد أن نقيّم الأحداث ننظر إلى مكان الأزمة فقط، ولا نوسع النظرة إلى بلاد المسلمين فيفوتنا خير كثير، فلو أننا ننظر فقط إلى فلسطين والشام والأراضي التي احتُلت في ذلك الوقت، لرأينا أنّ الأمل ينعدم تماماً في التحرير، ولكن إذا ابتعدنا بالنظرة قليلاً لرأينا في شمال العراق حركة جهادية عالية، كون هذه المناطق كانت عرضة لثورات مكثفة من التربية والتعليم والجهاد والدعوة والقرب من الله عز وجل في زمان ألب أرسلان وملك شاه ونظام الملك الطوسي، حتى خرج لنا من هذه المناطق مجاهدون كثر، وكان على رأس هؤلاء المجاهدين مودود بن تونتكين رحمه الله، وهو من أعظم المجاهدين في هذه الأمة.

بمقتل مودود رحمه الله حمل الراية من بعده أعداد كبيرة من المجاهدين، ولكن ظهر في موقعة الصنبرة التي كانت آخر مواقع مودود بن تونتكين سنة 507هـ نجم جديد من المقاتلين المهرة وهو عمادالدين زنكي رحمه الله، وبعد سلسلة طويلة من الظروف العجيبة التي مر بها عمادالدين زنكي وصل إلى كرسي الحكم في سنة 521هـ، أي بعد هذه الموقعة بـ 14سنة، وأصبح أمير الموصل، وتعرض لمضايقات كثيرة جداً من معظم القادة المسلمين في العالم الإسلامي.

كان عمادالدين زنكي شخصية محترمة تبغي رضا الله عز وجل، ولذلك كان لا بدّ أن يتعرض للمضايقات، لأنّ معظم الناس في ذلك الوقت كانت تطلب الملك والسيطرة والثروات، ومما لا شكّ فيه أنّ هذا سيتعارض مع ما يرغب به عمادالدين زنكي رحمه الله؛ فعمادالدين زنكي منذ اليوم الأول لاستلامه الحكم والقضية عنده واضحة، وهي تحرير العالم الإسلامي من الصليبيين، ورغم أنّ الصليبيين لم يدخلوا الموصل إلا أنّ القضية قضيته، والأمة أمته، والبلد بلده، أيّ أحد يفكر بهذه الطريقة لا بدّ أن يكون له صفات، وهي صفات المجدّد، وأنا أرغب أن نعرف جميعاً صفات الإنسان المجدّد، صفات الإنسان الذي من الممكن أن يغيّر، صفات الإنسان المحرّر، صفات الإنسان الذي يرفع رأسه مع أنّ كلّ من حوله راكعين للصليبيين، ولعلّ من أهم هذه الصفات وأوضحها في عمادالدين زنكي الإخلاص لله عز وجل، ومع أنّ الإخلاص عمل قلبي بين العبد وربه، إلا أنّ له شواهد كثيرة، وهذه الشواهد كلّها كانت موجودة في حياة عمادالدين زنكي، ومن هذه الشواهد عدم تغيّر القضية أبداً في ذهنه، فقد حكم المسلمين لعشرين سنة لم تذهب هذه القضية عن ذهنه ولو لسنة واحدة.



ومن هذه الشواهد أيضاً إيثاره مصلحة المسلمين على مصلحته الشخصية، ففي إحدى معاركه مع الصليبيين رأى قوته ضعيفة وأنّه بحاجة إلى مدد من المسلمين، فاستعان بالسلطان مسعود الذي كان سلطان السلاجقة في ذلك الوقت، وكان على خلاف شديد مع عمادالدين زنكي، بل إنّه حاول اغتياله قبل هذه المعركة بفترة بسيطة، ومع ذلك طلب عمادالدين زنكي المساعدة منه لمحاربة الصليبيين، وقال له أحد الجنود إنّ السلطان مسعود لو انتصر فإنّه سيأخذ البلاد كلّها، فرد عليه عمادالدين: لا بأس بأن يأخذها مسلم فهو خير من أن يأخذها صليبي، فلم يكن لديه أية مشكلة في ضياع سلطانه مقابل أن يُخرج الصليبيين من بلاد الإسلام، وكانت علامة البدء في معارك عمادالدين زنكي أن يتحرك هو بنفسه للقتال في سبيل الله، فيكون الشخص الأول الذي يمكن أن يفقد حياته وملكه، ولذلك نقول إنّ في قلبه الإخلاص، والله سبحانه وتعالى بارك له هذا الإخلاص، وأتمّ له النصر المرة تلو المرة، ولا يتمّ الله عز وجل النصر إلا للمخلصين، وعمادالدين زنكي كان محبوباً من كلّ المسلمين الذين تحت حكمه أو عرفوه من أطراف الدنيا وسمعوا بقصته، وحتى في زماننا هذا من يسمع قصته يحبّه، وحبّ الناس أمر ليس سهلاً، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ»** (رواه أحمد)، فلا يكون أحد في الأرض إلا وأحبه، وكان عمادالدين زنكي رحمه الله كذلك، كانت قضيته نصرة هذا الدين وهذه الأمة، وهذه أول علامة من علامات نجاح قائد في تغيير الأوضاع، ونجاح قائد في تحرير البلاد.

وكان عمادالدين زنكي موقِّراً تمام التوقير للشريعة منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الحكم في الموصل إلى آخر أيامه، فهو يقدم الشريعة في كلّ بنودها؛ في السياسة، في القضاء، في الأحكام الشرعية، في الحكم على المجرمين، في التعاملات الاقتصادية، وكان لا ينزل على رأي إلا بعد سماع بهاء الدين الشهرزوري الذي كان كبير القضاة، ومن علماء الأمة الشرعيين في زمانه، ولاحظوا أنّه سمى أولاده جميعاً بأسماء مرتبطة بالدين توقيراً للدين، فابنه الكبير اسمه سيف الدين، والثاني نورالدين، والثالث نصرة الدين.

كان عمادالدين زنكي يملك شجاعة كبيرة جداً، لدرجة أنّ ابن الأثير قال فيه كلمة جميلة جداً قال: **وكان عمادالدين زنكي أشجع خلق الله.** وابن الأثير عاش في العصور التي تلت عمادالدين زنكي بفترة بسيطة، أي أنّه سمع هذا الكلام بأذنيه ممن شاهد وعاصر وعاش مع عمادالدين زنكي رحمه الله، والشجاعة ليست فقط في أرض القتال فحسب، بل وفي أخذ القرار، فقد يملك أحدهم الجيوش الكبيرة والإمكانيات والسلاح والتعداد، ولكن لا يملك القدرة على أخذ قرار الحرب ضدّ أعداء الأمة، وهذا ما كان يميز عمادالدين زنكي رحمه الله، وفي موضع آخر يقول ابن الأثير عنه: **وقد بلغ في الشجاعة الغاية.** أي أنّ أعلى مثل كان يُضرب به في الشجاعة.



كما كان يوصف بالعدل، فالشعوب التي تُحكم بالظلم لا يمكن أبداً أن تنصر قضية، ولا يمكن أبداً أن تحرّر بلداً، أما الشعوب التي تعامَل بالعدل فإنها تفني عمرها كلّه في سبيل قضية من القضايا، وكان رحمه الله يأمر جيشه ألا يضرّ عوداً واحداً من القمح أو من الزراعة لفلاح من الفلاحين البسطاء، فعندما تمشي الجيوش في الأراضي الزراعية كانوا يحافظون على ألا يدوسوا على زراعة الفلاحين البسطاء، بل إنّه إذا أخذ جندي من الجنود الذاهبون للجهاد في سبيل الله تبناً للحصان أو الدابة التي معه من فلاح، فإنّه يأمره أن يدفع ثمن هذا التبن، ولم يقل هذا في سبيل الله حتى لا يظلم الفلاح، هذا العدل الذي حكم به هو الذي يسَّر له بعد ذلك أن ينصره ربّ العالمين سبحانه وتعالى .

وكان عمادالدين زنكي مع هذه القوة والبأس، ومع هذه الانتصارات ضدّ الصليبيين، كان رقيقاً جداً مع الضعفاء والفقراء، وكان يُخرج صدقات علنية كلّ أسبوع ليشجع أثرياء المسلمين أن يخرجوا صدقاتهم في سبيل الله، وكان يُخرِج صدقات سريّة كلّ يوم، حتى أصبح حبّه في قلوب عامة الرعية.

وكان حَسَن السياسة رحمه الله، وكان عارفاً بالرجال، وعالماً بالإدارة وفنون الحرب، وكان فارساً على أعلى مستوى، فجمع كلّ صفات القائد المسلم، فهذه الصفات لا بدّ أن تكون موجودة في القائد الذي يطمح بالتغيير، والذي يطمح أن يجدّد لهذه الأمة دينها وشريعتها وانتصارها ومجدها وعزها على الكافرين.





عمادالدين زنكي كان لديه رؤية واضحة وقضية في منتهى الوضوح وهي تحرير العالم الإسلامي، فكيف كان ذلك؟ بعد أن رتَّب الأوضاع في دولته في مجال القضاء والشرطة والأمن، ونسَّق كلّ الأمور، اتضح له الطريق لتحرير العالم الإسلامي، ولنأخذها كلمة من عمادالدين زنكي ومن كلّ من جاء من ورائه من القادة والمغيِّرين والمحررين، والكلمة هي: وحدة وجهاد، هذا هو المنهج الذي سار عليه عمادالدين زنكي ومن تبعه ممن حرر بيت المقدس وحرر فلسطين والشام، فلا يمكن أن يُحرَّر العالم الإسلامي بغير وحدة، ولن يُحرَّر العالم الإسلامي بغير جهاد في سبيل الله، فالجيوش المفرقة لا يمكن أن تنتصر.

فقد قال رب العالمين: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾

والتنازع الذي كان بين إمارات الشام، والتنازع الذي كان في آسيا الصغرى بين المسلمين، والتنازع الذي كان في فلسطين، والصراعات المستديمة بين الإخوة والأشقاء، كانت من الأسباب الرئيسية لفشل الأمة الإسلامية أمام الجيوش الصليبية، ولن ينتصر المسلمون إلا إذا توحدوا، كان هذا الأمر واضحاً تمام الوضوح في عيني عماد الدين زنكي.

والقضية الثانية هي قضية الجهاد في سبيل الله، رأى رحمه الله أنّ المفاوضات ومباحثات السلام وكلّ تلك الأمور التي كان يقوم بها بعض المسلمين مع النصارى لاتقاء شرّهم، هذا كلّه لا يفلح أبداً في ردّ بلاد المسلمين إليهم، وعَلِمَ علم اليقين أنّ الحقوق التي أُخذت لا تُستجدى من الأعداء، بل تُأخذ رغماً عن أنوفهم. **فماذا فعل؟**

بدأ يضم إليه العالم الإسلامي بعد أن كانت الموصل فقط تحت إمرته، وحرص كلّ الحرص على ألا يريق الدماء في هذا التوحيد، وكانت حلب أول من انضم إليه، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يهيئ له الأوضاع، فقد وجد أنّ الشعب في حلب هو الذي يطلبه، وكان أبو عماد الدين زنكي اسمه أق سنقر الحاجب رحمه الله، وكان من الأتقياء الورعين، ومرَّ في فترة من فترات حياته بحكم حلب، وكما يقول ابن الأثير: ترحَّم الناس عليه أبد الدهر، فقد كان شخصية خيِّرة ابن إنسانٍ خيِّر، فشعب حلب عندما سمع بولاية عماد الدين زنكي على أرض الموصل تذكروا أباه أق سنقر الحاجب، فطلبوا عماد الدين زنكي ليحكمهم، وبالفعل استطاع عماد الدين زنكي توحيد الإمارتين مع بعضهما، وبذلك اجتاز الطريق إلى بلاد الشام، فالشام هي المحتلة من الصليبيين، والشام هي الطريق إلى فلسطين، ثم بدأ يضم إليه المدينة تلو الأخرى، فانضمت إليه حماة وحمص وشمال الجزيرة التي كانت منطقة الأراطقة ومنطقة الأكراد في شمال العراق، إلا أنّ مدينة دمشق وقفت عقبة أمامه، وفي الحقيقة أنّ مدينة دمشق منذ بداية الحروب الصليبية وهي تقف حجر عثرة أمام الجيوش الإسلامية وأمام التوحيد الإسلامي، لأنّ دمشق وللأسف حُكمت بالعبيديين لمئة وأربع سنوات، وبعد خروج العبيديين منها احتُلّت باحتلال إسلامي فحكمها تتش بن ألب أرسلان، ومن بعده ابنه دقاق بن تتش، وكان حكمهما ظالماً وخارجاً عن الشريعة، فعانى الشعب ألواناً كثيرة من الذل أخرجته عن طبيعته الإنسانية الإسلامية الصحيحة، فأصبح يقبل بالجُبن والضعف والخور، وقَبِلَ أن يدفع الجزية مرة للنصارى ومرة للحكام العبيديين، وكما قلنا من قبل فُرِّغت الشام من علمائها، وأصبح الوضع مؤسفاً جداً في هذه الفترة من الزمن، فلم تقبل بالتوحد مع عماد الدين زنكي، وظلّت إلى آخر حياته تقف حجر عثرة أمام الوصول إلى أرض فلسطين.

بعد أن وحّد عمادالدين المناطق الكبيرة باستثناء دمشق، بدأ الجهاد ضدّ الصليبيين بعد أن عقد هدنة في البداية لمدة سنتين، استطاع خلالهما أن يقوم بهذا التوحيد، ثم بدأ يجاهد ضدّ الصليبيين في سنة 524هـ (1130م)، واستطاع أن يحقق نصراً عظيماً ضدّ الصليبيين في حصن الأثارب وإعادته للمسلمين، وقتل في هذه الموقعة 3000 صليبي، وبعد هذه المعركة بسنتين أو ثلاث حقّق انتصاراً آخر في مدينة تل باشر، وبدأت الانتصارات تتوالى، وفي سنة 530هـ (1136م) حقق انتصاراً مهيباً في اللاذقية، واستطاع تحريرها من الصليبيين، وأخذ معه سبعة آلاف أسير صليبي، وحقق من الغنائم ما لا يُتخيَّل؛ منها مئة ألف رأس ماشية، وهذه الأرقام ترينا عزة هذا الانتصار، ولكن في الوقت نفسه ترينا إمكانيات الإمارات الصليبية، فإمارة اللاذقية كانت تابعة في ذلك الوقت لمدينة أنطاكية.

وفي سنة 531هـ (1137م)، أي بعد سنة واحدة من انتصاره في اللاذقية، حقق انتصاراً مهولاً في مدينة بارين، واستطاع الانتصار على مملكة طرابلس بالاتحاد مع مملكة بيت المقدس، وكان على رأس مملكة طرابلس في ذلك الوقت ريمون الثاني، وفولك إنجوي على رأس مملكة بيت المقدس، وفي رمضان من سنة 532هـ (1138م) استطاع أن يحقق انتصاراً كبيراً في موقعة شيزر، وكان هذا النصر على الجيوش الصليبية بكاملها المجتمعة من هنا وهناك، وكان معهم جيش الإمبراطورية الرومانية، ثم توّج أعماله رحمه الله بفتح الرّها سنة 539هـ (1144م)، وفتح الرّها وكأنّه فتح إمارة صليبية من الإمارات العتيقة في داخل البلاد الإسلامية، وكانت أول إمارة صليبية في بلاد المسلمين تأسست سنة ٤٩٠هـ، وفتحها المسلمين سنة 539هـ، أي بعد حوالي 48 سنة متصلة من الاحتلال، وقصة فتحها في منتهى الأهمية، استطاع فيها عمادالدين زنكي رحمه الله أن يجيِّش الجيوش ويحاصر المدينة، وقام بخدع كثيرة، كما قام بنقب الأسوار الهائلة التي حاول المسلمون من قبل اقتحامها ولم يفلحوا، واستطاع عمادالدين زنكي دخولها في 26 جمادى الآخرة ليصبح يوماً من الأيام المشهودة في تاريخ الأمة الإسلامية، وكُسرت شوكة الصليبيين في هذه الإمارة، وسقطت إمارة الرّها بكاملها باستثناء مدينة واحدة من مدنها وهي مدينة تل باشر، وكان هذا الفتح من أرقى الفتوح في تاريخ الإنسانية، دخل رحمه الله المدينة التي احتُلَّت لـ 48 سنة متصلة، ومع ذلك أمَّن أرواح جميع النصارى غير المقاتلين في داخل المدينة، ولم يقاتل إلا من قاتله، بل وأعاد الأملاك لأصحابها الذين عاشوا في هذه البلاد من الأرمن الذين كانوا يعيشون فيها قبل دخول الصليبيين، مع أنّ هؤلاء الأرمن من النصارى، إلا أنّه أمَّنهم وأعاد إليهم أملاكهم، ولم يُزهق روحاً واحدة غير مقاتلة في مدينة الرّها، ورُفعت الأعلام الإسلامية فوق مدينة الرّها، وأصبح يوماً من الأيام المشهودة في تاريخ الأمة الإسلامية.



وكان هذا أعظم انتصارات عمادالدين زنكي، بل وأعظم انتصارات المسلمين منذ بدأت الحروب الصليبية وحتى هذه اللحظة، هذا الانتصار أثبت لنا أنّ الأمل لا يمكن أن يموت، فبعد 48 سنة من الاحتلال وبعد أن ماتت أجيال وعاشت أجيال، ظلّت القضية حاضرة في أذهان المجاهدين في سبيل الله حتى حُرِّرت هذه الأرض، وأصبح عمادالدين زنكي اسماً يتناقله جميع المسلمين في كلّ مكان، وجاءته التشريفات من هنا وهناك، ومن الذين أرسلوا له التشريفات الخليفة العباسي والذي كان لا يمثل شيئاً في ذلك الوقت قياساً بعمادالدين زنكي، وجاءته التشريفات بألفاظ جميلة جداً، فسمَّاه الخليفة العباسي المقتفي لأمرالله بالملك العادل، وركن الإسلام، وعمدة السلاطين، والأمير المظفر، وزعيم جيوش المسلمين، وكانت هذه بداية تكوين الدولة الزنكية نسبةً لعمادالدين زنكي رحمه الله، وبذلك فُتح الطريق من العراق والشام إلى البلاد الإسلامية المحتلة من الصليبيين، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من مراحل الجهاد في سبيل الله.

في سنة 541هـ، أي بعد سنتين من فتح الرّها دخل عليه أحد خُدَّامه وبحركة خيانة كبيرة قام بقتله رحمه الله ليلقى الشهادة وهو محاصِر لأحد القلاع، وقصة قتله هذه حولها علامة استفهام كبيرة، يقال إنّ هذا الرجل كان متعاوناً مع الصليبيين أو متعاوناً مع غيرهم، ولكن المهمّ أنّ عمادالدين زنكي استُشهد، فظنّ المسلمون أنّ الأمور ستضيع، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى جعل من بعده خير خلف لخير سلف، فجاء من بعده نور عظيم أضاء العالم الإسلامي وهو نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي، وسلسلة جديدة من الجهاد سنتعرف عليها إن شاء الله.

نورالدين زنكي وبيت المقدس

رأينا فيما سبق كيف غيَّر عمادالدين زنكي من أوضاع العالم الإسلامي، وكيف حرَّك الشعوب الإسلامية للجهاد في سبيل الله، وكيف كانت القضية في عينه في منتهى الوضوح، وهي تحرير العالم الإسلامي من الصليبيين، وكيف كان الطريق واضحاً جداً في عينيه: وحدة وجهاد.
و ذكرنا مقتل عمادالدين زنكي رحمه الله، وظنَّ الكثير من المسلمين أنّ في مقتله ستتأثر الأمة تأثراً سلبياً، فقد كان علماً كبيراً من أعلام الجهاد في سبيل الله، وعلماً في الدعوة لدين الله، إلا أنّ هذه الأمة يعوِّضها ربُّها سبحانه وتعالى دائماً خيراً، فعوَّضها خير تعويض بهذا الإنسان الذي خرج من صلب عمادالدين زنكي رحمه الله، وهو نورالدين محمود.
نورالدين محمود من ألمع الشخصيات الإسلامية، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ الإنسانية قاطبة، وسأنقل لكم بعض الكلمات التي قالها بحقه ابن الأثير رحمه الله حيث يقول: طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفي الإسلام وإلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرةً من الملك العادل نورالدين. وهذا يعني أنّه في تقييم ابن الأثير أنّ نورالدين محمود أفضل شخصية على مدار ٤٥٠ سنة في تاريخ الأمة الإسلامية، وهذا الكلام لا يأتي من فراغ، بل يأتي من دراسة وافية لتاريخ هذا الإنسان المجدد العظيم.
إنه قائد رباني بمعنى الكلمة، استلم الحكم وعمره ٣٠ سنة، أي أنّه شاب صغير، كان يقضي ليله في قيام الليل، دائم الاستغفار بالأسحار، وقارئاً للقرآن الكريم، ودائم الدعاء لله عز وجل، وكان كثير الصمت، وهذه الصفة أخذها من أبيه، وكان دائم التفكر في ملكوت الله عز وجل، ولا يتكلم إلا بالكلام المحسوب القليل، كان وقوراً تمام الوقار، غير متفحش ولا يخرج منه السوء، كان طيّب المجلس رحمه الله، وكان زاهداً تمام الزهد مع أنّه يحكم المسلمين، لدرجة أنّ زوجته كانت تعاني وتطلب منه أن يعطيها بعض المال، وكان يقول لها أنا لا أملك إلا ثلاثة دكاكين في حمص، وكان يقول لها: لا أخوض النار من أجلك، فعاش حياة الزهد رحمه الله، وكذلك سيرة كلّ المجددين في تاريخ الأمة.
كان عالماً بالفقه، وكان من علماء المذهب الحنفي، وكان كلّ الزنكيين على الفقه الحنفي، وكان مؤلفاً لكتاب عن الجهاد في سبيل الله، كان إنساناً مَتكاملاً ومبهراً، وكان طالباً للشهادة طوال حياته، ولم يمت شهيداً إنما مات على فراشه، ولكن عُرف في زمانه وفي أزماننا في كلّ كتب التاريخ بنورالدين محمود الشهيد، لماذا؟! لكثرة طلبه للشهادة، ولكثرة ما تحدث به مع أقرانه وإخوانه، وذكره في خطبه عن كونه يطلب الشهادة، فأعطاه الله سبحانه وتعالى هذا اللّقب وإن لم يمت في ميدان المعركة، ومن سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه.

اتسع ملكه حتى صار أعظم ملوك زمانه، ومع ذلك كان من أشدّ المتواضعين، جاءه خطاب من الخليفة العباسي يذكر فيه الصفات التي أنعم الله بها على نورالدين محمود، وقد كان الخليفة العباسي صورة وهمية بوجود نورالدين محمود، فذكر الكثير من الأسماء والصفات لنورالدين محمود، وأنا هنا أقول أنها حقيقةً كانت موجودة في نورالدين محمود، قال له: اللهم أصلح المولى السلطان، الملك العادل، العامل العالم، الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المثاغر، نورالدين وعُدَّته، وركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من المظلومين، ناصر دولة أمير المؤمنين. كل هذا الكلام كان يقوله الخليفة العباسي حتى يقرُّه نورالدين محمود ليلقى في ذيل خطب كل مساجد المسلمين تحت الخلافة العباسية، فيدعون في نهاية الخطبة للخليفة العباسي، ويدعون لنورالدين بهذا الدعاء، فماذا كان رد فعل نورالدين محمود؟! بعث له الجواب طالباً منه أن يوقف كل هذا الدعاء وأن يكتفي بقوله: اللهم أصلح عبدك الفقير نورالدين ابن زنكي، هكذا كان في قمة التواضع وهو على قمة الدولة الإسلامية، مع أنّ كل ما ذكره الخليفة العباسي هو حقيقةً في هذا المجاهد الورع التقي رحمه الله.

كان من كلماته العظيمة في موقعة حلب، وهي من المواقع الكبرى في تاريخه، قال:

اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، ومن محمود هذا حتى يُنصر،

وقيل في هذه المقولة كلمات كثيرة لا يتسع المقام لشرحها.



ولو أردت أن ألخّص حياة نورالدين محمود أقول إنّه أسس الدولة الشاملة، وقد يعتقد البعض أنني أتكلم عن إنسان بسيط معتزل للناس، معتكف في كهفه يتعبد الله، كلا، بل كان مختلطاً بالناس تمام الاختلاط، حتى نجح في كلّ مجالات حياته، وهكذا تُحرَّر الأمم، فليس الأمر مجرد موقعة أو جيش يُعَدّ، بل كان يعدّ دولة شاملة متكاملة، فاستقدم العلماء من كل مكان، ولم يستقدم علماء المذهب الحنفي فقط، بل كانوا من كلّ المذاهب، وعمل اجتماعاً لكل العلماء في داخل حلب، ثم في داخل دمشق بعد أن فتحها وضمّها لمملكته، استقدمهم من كل المذاهب ليجتمعوا على رأي واحد في كل قضايا المسلمين، وطبَّق الشريعة في كل أركان مملكته، وعمل إعداداً عسكرياً منظماً، وهذا معناه أنه اهتم بالنواحي العسكرية كاهتمامه بالنواحي الدينية، فاهتم بإنشاء القلاع والحصون، وحشد الجيش العسكري، كما عُرف الحمام الزاجل في زمن نورالدين محمود، وأقام له هيئة خاصة ليتناقل الحمام الزاجل البريد من مكان إلى مكان في أرجاء المملكة الكبيرة، كما كان لديه العديد من الخطط السياسية والإدارية على أعلى مستوى، وبالإضافة إلى ذلك عمل إعماراً في دولته، وبالرغم من الحروب إلا أنه اهتم بإقامة المدارس والمساجد والمستشفيات، فمستشفى النوري نسبةً إلى نورالدين محمود الذي أُنشأ في دمشق استمر العمل فيه لأكثر من 800 سنة متصلة، حيث بناه نورالدين محمود في القرن السادس الهجري واستمر يعمل حتى القرن الثالث عشر الهجري.

أضف إلى ذلك أنه كان مهتماً بالرياضة، مثل رياضة البولو وهي لعبة الكرة من على الخيول، حتى يُعلِّم الناس على حركة الخيول، ويُعلِّمهم الفروسية، حتى إنّ بعض العلماء كانوا يلومونه أنه يلعب فيقول لهم: أنا لا ألعب، بل أحثّ الناس على الجهاد في سبيل الله، ولكنّ النفوس تملّ أحياناً الجهاد في أرض المعارك، فأعلِّمهم الجهاد في أرض الرياضة.

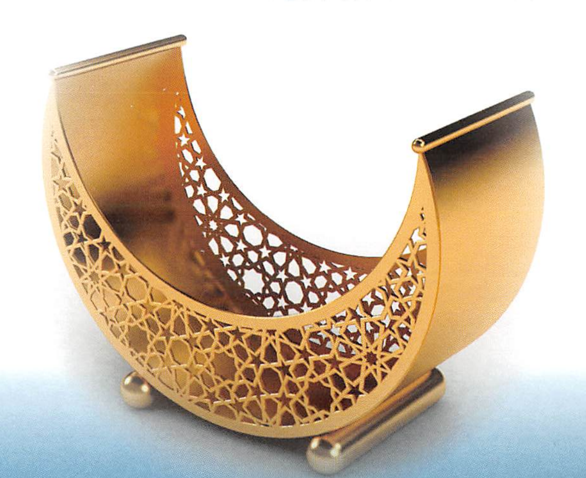
استلم الحكم في حلب رحمه الله سنة ٥٤١هـ بعد مقتل أبيه، ولم يستلمه في كل البلاد التي كان يحكمها عمادالدين زنكي، لأنّ عمادالدين عندما قُتل ترك ورائه أربع أبناء، منهم سيف الدين غازي ونورالدين محمود، فتولى سيف الدين غازي أمور الموصل، وتولى نورالدين محمود أمور حلب، وكأنّ الله عز وجل جعله في هذا المكان ليكون في مواجهة الصليبيين؛ لأنّ في قلبه حبّاً شديداً للجهاد في سبيل الله، وأخوه سيف الدين غازي كان من الأتقياء الورعين، وحكم الموصل لثلاث سنوات ثم مات، وتولى الموصل أولاده من بعده، وكان على تناسق دائم مع نورالدين محمود في حروبه مع الصليبيين.

عندما تولى نورالدين محمود أمر حلب، كان بيت المقدس في يد الصليبيين، وهي عبارة عن جميع أرض فلسطين ونصف أرض لبنان، وكان بيدهم أيضاً طرابلس بالإضافة إلى أنطاكية في شمال سوريا، أما مملكة الرّها فقد سقطت في عهد أبيه ولم يبقَ منها إلا مدينة واحدة وهي مدينة تل باشر.

ومنذ بداية استلامه للحكم كانت تشغله القضية نفسها التي شغلت والده وهي الوحدة والجهاد، وكان لا يزال هناك ثلاث إمارات صليبية، ولكنّ المشكلة كانت أنّه حتى يصل إلى هذه الإمارات الصليبية لا بدّ أن يضم إليه دمشق، وكما قلنا إنّ دمشق كانت حجر عثرة أمام المسلمين، وفشل عمادالدين زنكي في ضمّ دمشق للحكم الإسلامي، وعندما استلم نورالدين محمود الحكم كان على رأس الحكم في دمشق مجيرالدين بن آبق، ولم يكن له أيّ سلطة في دمشق، حيث كانت الكلمة لمعين الدين أنر، وكان شخصية فاسدة وظالمة ومكروهة ومخالفة للشرع وكثيرة التحالف، مع الصليبيين أحياناً، ومع المسلمين في أحيان أخرى، أي أنّه كان كثير التّقلب حسب المصلحة، وبالطبع هذا الأمر كان يعدّ مشكلة لنورالدين محمود، فحتى يصل لمملكة بيت المقدس أو طرابلس أو حتى أنطاكية لا بدّ أن يؤمن ظهره من دمشق.

وللأسف الشديد عندما مات عمادالدين زنكي وجد الصليبيون في ذلك فرصة لإعادة امتلاك الرّها، فتحركت الجيوش الصليبية بالاتفاق مع الأرمن في أرض الرّها، مع أنّ هؤلاء عاملهم نورالدين زنكي بمنتهى الرقي وحَفِظَ دماءهم وأملاكهم ورعاهم رعاية كاملة، وأقرّهم على حريتهم الدينية، وقام بأمور كثيرة ما كان للصليبيين أن يعاملوهم بها، ومع ذلك حصل غزو الصليبيين لإمارة الرّها من جديد، ولكن كان نورالدين محمود قد جهّز جيشه وأدّب الصليبيين وعلَّمهم أنّ عمادالدين زنكي إن كان قد مات فإنّه ترك وراءه أسداً هصوراً هو نورالدين محمود، وانتصر انتصاراً ساحقاً وأخذ الأسلاب والغنائم، وكان نصراً مجيداً في أوائل أيام حكم نورالدين محمود رحمه الله، ليعلم الجميع أنّ البلاد ما زالت في أيدٍ أمينة.





بعد هذا الانتصار المهيب انزعج الصليبيون انزعاجاً كبيراً، وعلموا أنهم أمام أزمات قادمة، فاجتمع قادة الصليبيين في القدس، وحصلت بينهم استشارات موسعة، وتوصلوا في النهاية إلى أنه لا بدّ من طلب الإعانة من أوروبا، وأنهم لن يستطيعوا بقوّتهم الحالية أن ينتصروا على نورالدين محمود وجيوشه الإسلامية، فبدؤوا يستنصرون بأوروبا، وبدأ البابا أوغنيوس الثالث يجهز ما عُرف في التاريخ بالحملة الصليبية الثانية، حيث قام بالحملة الصليبية الأولى البابا أوربان الثاني، وكان على رأس الحملة الصليبية الثانية لويس السابع ملك فرنسا، وكونرد الثالث ملك ألمانيا والنمسا، وكانت حملة كبيرة جدّاً، عبر فيها ملك ألمانيا أوروبا بكاملها، ووصلوا إلى آسيا الصغرى، وفي طريقه حاول إيمانويل بن أليكسوس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية أن يعوّق الجيوش الصليبية لأنّه وجد أنّ الجيوش الصليبية السابقة لم تعطه شيئاً في بلاد المسلمين، وخاف على أملاكه البيزنطية من الجيوش الصليبية الغربية، ولكنّه لم يُفلح، إلا أنّه قلّل من أعداد الجيش الألماني، وحصل صدام ثانٍ مع السلاجقة الروم، وحصل تهرب للجيش الألماني نتيجة الروح العالية عند المسلمين، ولم يصل من الجيش الألماني سوى خمسة آلاف إلى الشام، مع أنّه كان قد خرج من النمسا وألمانيا 200 ألف مقاتل.

ووصل جيش فرنسا عن طريق البحر إلى يافا ومنها إلى القدس، واجتمعوا مع زعماء النصارى في القدس، وبدؤوا يفكرون أين سيحاربون نورالدين محمود، وكما هو معلوم أنّ أملاك نورالدين محمود في حلب وما حولها، وفي الرّها بعد إسقاطها، وأخوه سيف الدين غازي يحكم الموصل، فتوصلوا إلى رأي غريب جداً.

وهو أن يحاصروا دمشق التي كانت بيد معين الدين أنر ليستردوها، وحتى يصلوا إلى نورالدين محمود في مناطقه لا بدّ من إسقاط دمشق التي كانت توالي النصارى في فترات كثيرة، ولكنّ النصارى لا عهد لهم بالمرة، وبالفعل جهّزوا الجيوش وحاصروا مدينة دمشق، فاستعان معين الدين أنر بكلّ من حوله ولم يستجب له أحد، فأرسل رسالة لسيف الدين غازي الأخ الأكبر لنورالدين محمود يطلب نصرته ضدّ الصليبيين، ولم يخب ظن معين الدين أنر فيه، فجهّز غازي جيشه واتجه إلى دمشق، وفي طريقه أخذ معه نورالدين محمود، وتجمعت الجيوش حول دمشق، وفي تلك الأثناء بعث معين الدين أنر رسالة للجيوش الصليبية يقول لهم فيها: إذا لم تتركوا هذه الأماكن سأسلم المدينة لسيف الدين غازي ولنورالدين محمود، وهكذا خافت الجيوش الصليبية من حرب الجيوش الإسلامية مجتمعة، فرغم أنّ أعدادهم كبيرة إلا أنّ الله عز وجل ألقى في قلوبهم الرهبة فانسحبوا من حول دمشق دون قتال، بل وعادوا إلى بلادهم، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية فشلاً ذريعاً.

أكمل نورالدين محمود الطريق وحارب الصليبيين وانتصر عليهم عدة انتصارات منذ سنة 545هـ، بل وقتل ريموند أمير أنطاكية في أحد هذه المعارك، وعندما هُزم هزيمة مفاجئة من قِبَل أحد الصليبيين والذي كان اسمه غوسلين و كان أميراً لإمارة الرها قبل أن يُسقطها أبوه، صمَّمَ نورالدين محمود أن يردّ الثأر للمسلمين، واستطاع بعد عدة شهور أن ينتصر عليهم انتصاراً كبيراً، بل وأُسر غوسلين.

وفي سنة 548هـ حدث حادث مؤسف وهو سقوط عسقلان، وحتى ذلك الوقت كانت لم تسقط عسقلان، وكانت المدينة الوحيدة داخل فلسطين التي ظلت حرة، وإن كانت مملوكة للدولة العبيدية التي كانت تحكم مصر في ذلك الوقت، فأرسلوا رسالة استغاثة لنورالدين محمود، وحاول نورالدين أن يصل إليها ولكن للأسف الشديد كانت دمشق تقف عائقاً له عن الوصول إلى عسقلان وإلى فلسطين بصفة عامة، ومن هنا فكّر نورالدين محمود أن يضم دمشق ضمّاً أكيداً إلى دولته الإسلامية المجاهدة، وبالفعل جهَّز جيشه، وفي سنة 549 هـ حاصر دمشق ولم يجد الجيش العسكري فيها له طاقة أن يحارب نورالدين محمود، ففُتحت الأبواب، خاصةً أن الشعب داخل دمشق كان يهتف باسم نورالدين محمود، فقد عرف الشعب قيمة عمادالدين زنكي ونورالدين محمود، وبدأ يتغير الشعب بعد مرور هذه السنوات، وبدأت العقيدة الإسلامية تتسرب إلى داخل الحصون الدمشقية، وعاد الناس إلى ربهم سبحانه وتعالى، فاستقبلوا نورالدين محمود استقبالاً حافلاً، وضُمَّت بذلك قوة دمشق إلى قوة العالم الإسلامي، وجعل نورالدين محمود دمشق عاصمة له؛ ليكون قريباً من الحدود الصليبية المحتلة لطرابلس وفلسطين.



وفي فتح نورالدين محمود لدمشق حاول مجير الدين آبق حاكم دمشق الاستغاثة بالنصارى الصليبيين، ولكن لم يكن له قوة في ذلك الوقت، واستمر نورالدين محمود في معارك مستمرة مع الصليبيين، وفي سنة 558هـ مات بلدوين الثالث حاكم القدس، وتولى من بعده إموري أو عموري كما يُذكر في المراجع الإسلامية، وهذا سيكون له شأن مع المسلمين في بعض المواقف.

خلال تلك الفترة كانت عينا نورالدين محمود متجهتين نحو مصر، وكان يرى أنّ إسقاط الجيوش الصليبية في فلسطين سيكون أمراً صعباً جداً دون التعاون مع مصر، فكان يفكر في ضمّ مصر إلى مملكته، ولكنّه أمر صعب جدّاً؛ لأنّ مصر كانت محكومة من قِبَل العبيديين، وكما تعلمون أنّ الدولة العبيدية (الفاطمية) كانت وقت أن تولى نورالدين محمود الحكم قد مضى عليها 180 سنة في حكم مصر، و180سنة في أرض مصر كانت كفيلة بأن يرسّخ العبيديون أقدامهم فيها، فكان من الصعب عليه غزو مصر خاصةً أنّ فلسطين كانت متوسطة بين الدولتين، بين الشام من الشمال وبين مصر من الجنوب، ومع أنّ هذه الرغبة لم يكن له طاقة لتحقيقها، إلا أنّ الله عز وجل اطلع على الصدق في قلبه فيسَّر له الأحداث التي تمكّنه من ضمّ مصر إلى مملكته، وبالتالي التجهيز لإسقاط الجيوش الصليبية في فلسطين لتحريرها.

فيا ترى ماذا سيحصل؟

وما هو التجهيز الذي قام به نورالدين محمود لضمّ مصر؟



جهود صلاح الدين في تحقيق الوحدة

رأينا نماذج رائعة من المسلمين كنورالدين محمود الشهيد، وهو من ألمع الشخصيات في التاريخ الإسلامي، ومن أبرع القادة في التاريخ الإنساني، فرأينا فيه الشخصية المتوازنة المتكاملة التي أنشأت الدولة الإسلامية المتكاملة في المعمار والثقافة والدين والجهاد في سبيل الله، ورأينا كيف كان لديه رؤية عميقة؛ فقد كان يرى أنّ توحيد العالم الإسلامي ضرورة لا بدّ منها لتحقيق النصر على الصليبيين.

أراد تحرير القدس وكانت دائماً نصب عينيه، ولذلك أنشأ منبراً ضخماً وفخماً ليوضع في المسجد الأقصى بعد أن يُحرَّر، وذلك لتشجيع المسلمين على الجهاد في سبيل الله ليضعوا هذا المنبر في المسجد الأقصى، ورأى أنه يستحيل أن يحرر فلسطين دون أن يضمّ مصر تحت حكمه، وكما قلنا من قبل، اطلع الله عز وجل على صدق قلبه فسخَّر له الأحداث، فقد حدثت فتنة في مصر في سنة 558هـ (1163م)، وحصل صراع بين الوزراء العبيديين، أحدهم كان اسمه شاور، وآخر اسمه ضرغام، فاستعان ضرغام بالصليبيين كما هي عادة العبيديين بالاستعانة بالصليبيين، وعندما شعر شاور بالضياع لم يجد من يستعين به إلا نورالدين محمود، وبالطبع هو لم يستعن به إعجاباً بقوته وتقواه، ولكنّها كانت موازنات سياسية، فاستعان به وقال له: إذا انتصرت وأعدتني إلى كرسي الوزارة سيكون لك ثلث خَراج مصر، وأصبح أنا رجلك في داخل مصر، فوجد نورالدين محمود في هذا فرصة لوضع قدمه داخل مصر، فبدأ بالتراسل مع شاور، وقَبِلَ أن يعينه، فأرسل له الجيوش التي كان على رأسها أسدالدين شيركوه وهو عمّ صلاح الدين الأيوبي، وهذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها اسم صلاح الدين الأيوبي، حيث كان في ذلك الوقت شاباً صغيراً يبلغ من العمر 25 سنة، ورُبِّيَ في زمن نورالدين محمود الذي كان معجباً جداً به، فأرسل صلاح الدين مع عمّه أسدالدين شيركوه لضمّ مصر إلى قوة نورالدين محمود ولنصرة شاور.

بعد سلسلة كبيرة جداً من المشاكل حصلت لأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، وخيانات متتالية من شاور بعد أن انتصر جيش أسدالدين ووضع شاور بالفعل على كرسي الحكم، حصل نوع من الخيانة الكبرى من شاور، حيث بدأ يتراسل مع الصليبيين ليردوا أسدالدين شيركوه الذي جاء لنصرته إلى الشام، وبالفعل استجاب الصليبيون لشاور، فحصلت أزمة كبيرة جداً كاد أن يهلك فيها جيش أسدالدين شيركوه، وفي الوقت نفسه كان نورالدين محمود يقاتل الصليبيين في أنطاكيا حيث التقى معهم في موقعة ضخمة في منطقة حارم، فشاركت الجيوش الصليبية في هذه الموقعة من طرابلس وفرقة من الرومان البيزنطيين لمساعدة الصليبيين في حربهم ضدّ نورالدين محمود، وانتصر نورالدين محمود في موقعة حارم في رمضان سنة 559هـ (1164م)، وكان انتصاراً مبهراً، بل وأسر في هذه الموقعة أمير أنطاكيا بوهمين الثالث، كما وأسر أمير طرابلس ريموند وكذلك أسر أمير الرومان.



لم يسمع أسد الدين شيركوه في مصر بهذه الانتصارات، فوقَّع على معاهدة مع الصليبيين على أن يتركوه ليعود إلى بلاد الشام بعد أن حاصرته الجيوش الصليبية حصاراً كبيراً بعد خيانة شاور، وبالفعل عاد أسد الدين شيركوه إلى الشام وفي ذهنه ذكريات مؤلمة لخيانة شاور، ثم حصل بعد ذلك محاولة ثانية وثالثة للعودة إلى مصر، وفي محاولته الثالثة نجح أسد الدين شيركوه بالإمساك بالأوضاع في مصر، وحاكم شاور وقُتل بتهمة الخيانة، وكان الحاكم في مصر خليفة العبيديين في مصر العاضد بالله، وحين قَتَلَ شيركوه شاور، لم يجد في ذلك الوقت بُدّاً من وضع أسد الدين شيركوه في منصب رئيس الوزراء في مصر.



وبالطبع كان وضعاً غريباً، حيث كان أسد الدين شيركوه الكردي سنّياً ومن أتباع الزنكيين، بينما الخليفة عبيدي فاطمي، وكذلك كان الجيش عبيدياً، وبالطبع أتى أسد الدين شيركوه بجيشه، وبعد أن مات أسد الدين شيركوه وجد الخليفة العاضد بالله فرصة أن يضع صلاح الدين الأيوبي (ابن أخ أسد الدين شيركوه) في منصب رئيس الوزراء، ظنّاً منه أنّه شاب صغير يبلغ الـ 27 أو 28 من العمر، وأنّ باستطاعته السيطرة عليه والاستفادة من جيشه، وبالتالي أن يغيِّر في نظام الحكم، ولكن خاب ظنّه، فصلاح الدين الأيوبي من ألمع شخصيات العالم الإسلامي، فبدأ يغير الأوضاع في مصر لصالح نور الدين محمود الذي كان يحكم الشام بأكمله، بما فيه دمشق وحماة وحمص وغيرها، وكذلك مناطق بالقرب من الموصل، بالإضافة إلى مصر عبر صلاح الدين، وأثناء تلك الفترة أرسل إلى صلاح الدين الأيوبي ليرسل الجيوش ليضم الحجاز واليمن.

بدأت الجيوش تتجهز لحرب الصليبيين بوجود الدولة العبيدية، وفي سنة 567هـ (1171م) قرّر صلاح الدين الأيوبي أن يُسقط الخلافة العبيدية الفاطمية بعد حوالي 208 سنة من احتلالها لمصر، وبعد محاولات كثيرة وتخطيط كبير استطاع أن يُسقط هذه الخلافة وأن يضع نفسه على مصر، وانتهى بذلك الاحتلال العبيدي على مصر، وحصلت بعد ذلك محاولات عبيدية للعودة إلى مصر بالاتفاق مع الصليبيين، إلا أنها فشلت كلّها، واستطاع صلاح الدين أن يتمكن من الأمور في مصر.

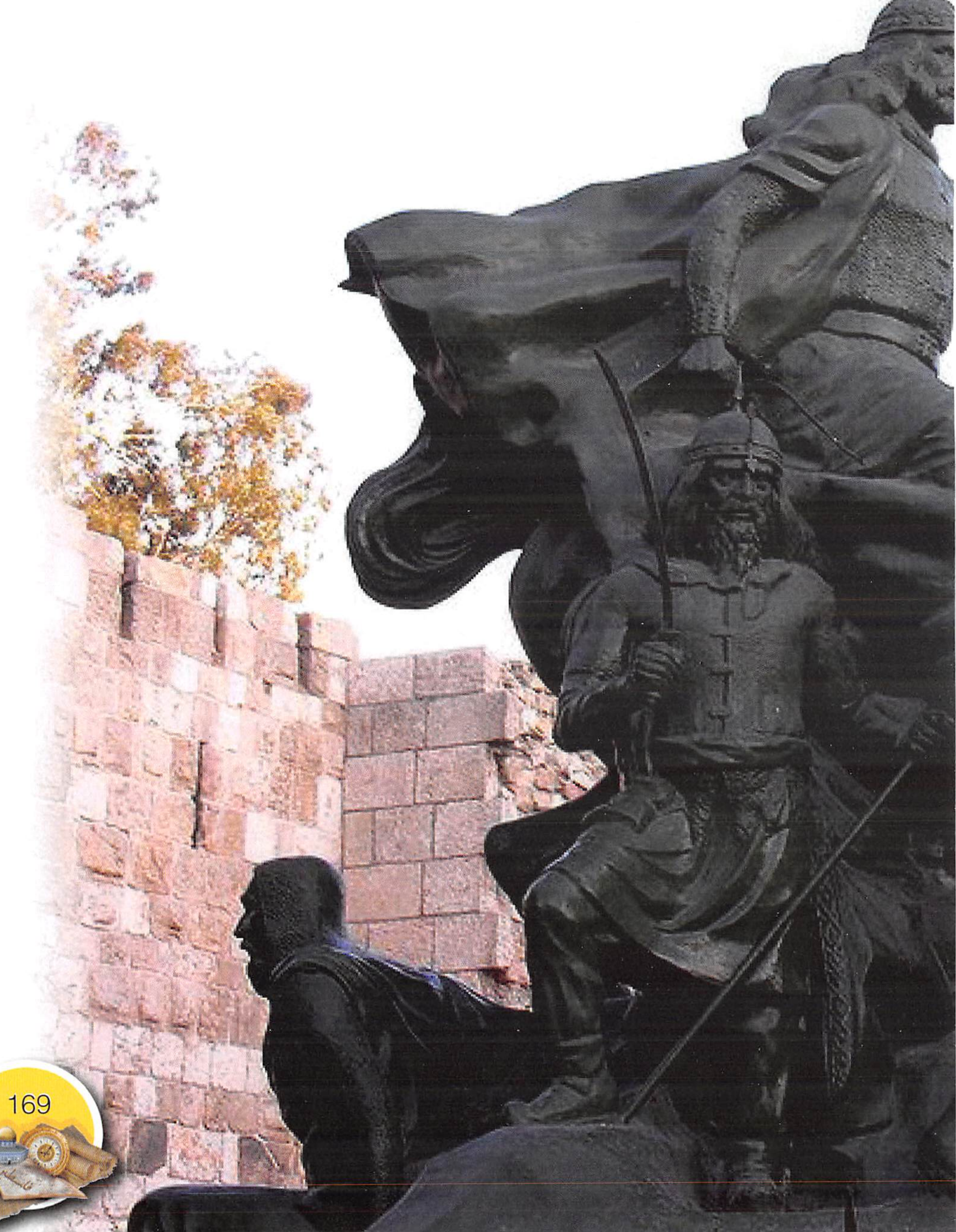
بعد سقوط الخلافة العبيدية بسنتين فقط توفي الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله في دمشق، ولم يمت شهيداً في ساحة القتال كما كان يتمنى، ولكن نسأل الله عز وجل أن يكون قد أعطاه أجر الشهادة، وفُجِعَ المسلمون بوفاته في 11 شوال سنة 569هـ (1174م)، ولكنّ الله عز وجل رحيم بالأمة، فأخلف صلاح الدين الأيوبي درَّة المجاهدين ومحرر بيت المقدس ليتسلّم الراية بعد نور الدين محمود، فلا تسقط راية الإسلام أبداً.



إنّ صلاح الدين الأيوبي من ألمع شخصيات التاريخ الإسلامي، وهو من علامات الجهاد الكبرى التي لا تُنسى أبداً، وشخصية صلاح الدين شخصية كاملة متكاملة، تماماً كشخصية نورالدين محمود، وشخصية عمادالدين زنكي، وككلّ المجددين في تاريخ الأمة الإسلامية، فتجد له دوراً في محراب الصلاة، ودوراً في ساحة الحرب، ودوراً على طاولة المفاوضات، ودوراً مع الفقراء، ودوراً مع الملوك، فكان رحمه الله كثير الذكر لله عز وجل وكثير المواظبة على صلوات الجماعة، وكثير المحافظة على السنن والنوافل وقيام الليل، وكان رحمه الله يحب سماع القرآن، وكان قلبه يخشع لسماعه، وكان كثير التعظيم لشعائر الله عز وجل، وكان حسن الظن بالله عز وجل وموقناً بنصره، ومعظِّماً لكلّ من قرَّب شيئاً لله عز وجل، فكان كلّ العلماء أصدقاؤه ومقربون إليه، كان كريماً وحَسَن العشرة وطيِّب المجلس، ولم يكن متفحّشاً أبداً طوال حياته، كان حَسَن اللّسان، ومع شدّته في الحرب كان رحيماً رؤوفاً رحمه الله، حتى أخذ الناس عليه هذه الرحمة وقالوا: **إنّ رحمته مفرطة وزائدة عن الحدّ**، وهذا أدى إلى مشاكل مرَّت بها الأمة، وكان رحمه الله ذي همة عالية جدّاً، وأنقل لكم هنا كلمة قالها في حياته، قال: **في نفسي متى ما يسَّر الله عز وجل لي فتح هذه البلاد وإسقاط الصليبيين أن أخوض غمار هذا البحر** (البحر الأبيض المتوسط) **حتى أصل إلى جزائرهم وبلادهم فأعلي كلمة الله عز وجل هناك، ولا أترك في الدنيا كافراً لا يعرف الله عز وجل.**



كان صلاح الدين يحكم مصر التي كانت في ذلك الوقت تابعة لإمارة نورالدين محمود، والذي كان جزء كبير ومهمٌّ جداً في قصة الحروب الصليبية وهو جزء الشام، وفوجئ صلاح الدين بعد وفاة نورالدين محمود بأمرين أغضباه غضباً شديداً، الأمر الأول أنهم وضعوا على كرسي الحكم في حلب وعلى جزء كبير من الشام الملك الصالح كما تسمَّى، وهو إسماعيل بن نورالدين محمود الذي كان يبلغ من العمر ١١ سنة فقط، وبالطبع كان هذا أمراً غير مقبول شرعاً أو عقلاً أو عُرفاً أن يتولى طفل يبلغ 11 سنة أمور دولة مثل دولة الشام في هذه الظروف، وهي الدولة التي تواجه الحروب الصليبية وتواجه إمارة أنطاكيا وطرابلس وبيت المقدس، حتى وإن كان هذا الطفل ابن نورالدين محمود فهذا أمر لا يرضي الشعب ولا العلماء ولا يرضي الله سبحانه وتعالى، والأمر الآخر الذي أغضبه أنه وجد أنّ الصليبيين حاصروا قلعة بانياس، وهي قلعة إسلامية موجودة في سوريا، وصاحب هذه القلعة هو شمس الدين ابن المقدم، وليتقي شرّ الصليبيين قرر دفع الجزية لهم، فوجد صلاح الدين أنّ ما فعله نورالدين محمود اقترب أن ينتهي، فقرر رحمه الله أن يأخذ جيشه ويذهب إلى الشام ليضمّ الشام ومصر تحت إمارته، خاصةً وأنّ كلّ العالم الإسلامي الذي انضم إلى مملكة نورالدين محمود هو الآن تحت إمرة صلاح الدين الأيوبي مثل منطقة الحجاز واليمن وغيرها من المناطق الواسعة.



بالفعل خرج بجيشه متجهاً للشام سنة 570هـ ودخل دمشق بمنتهى السهولة مع أنها كانت تابعة لجيش حلب في ذلك الوقت، وراسل صلاح الدين الملك الصالح الطفل الصغير، وقال له إنه يعمل أشياء غير مقبولة، وبالطبع كان يقف مع هذا الطفل الصغير حاشية تريد الملك لها، فأرسلوا رسالة شديدة اللهجة لصلاح الدين الأيوبي يقولون فيها: **ما أنت إلا غلام من غلمان نورالدين محمود، ويجب عليك أن ترعى ابنه وأن تستخدم هذا الجيش في رعاية هذا الطفل، فردَّ عليهم صلاح الدين بمنتهى الحلم ولم يقابل هذا الأمر بالإساءة، وقال: ما جئتُ إلى هذه البلاد إلا حياطةَ للجمهور الإسلامي**، وفي هذا الأمر رعاية لابن نورالدين محمود، ولكنّه لا يجوز أبداً أن يتولى أمور المسلمين هذا الطفل في هذا الوقت.

وبعد صراعات وجدال طويل قرر صلاح الدين الأيوبي أن يحاصر حلب وأن يضمها إلى الأمة الإسلامية، وللأسف الشديد استغاث ملك حلب في ذلك الوقت بالصليبيين، فتخيلوا أنّ ابن نورالدين محمود يستغيث بالصليبيين، وهو بالطبع طفل صغير لا يعي ما يقوم به، ولكنّ الحاشية من حوله هي التي دفعته إلى هذا الأمر، فبعثوا لأمير طرابلس يقول له **إنّ صلاح الدين قادم ليأخذ حلب، ولو أخذ حلب فستكون طامة كبرى على الصليبيين، فأرسل أمير طرابلس رسالة لصلاح الدين الأيوبي ينهاه فيها عن القدوم إلى حلب، فردّ عليه برسالة قصيرة جداً** وقال له: يا هذا، أنا لستُ ممن يرهب تألب الصليبيين، وها أنا سائرٌ إليهم. فجمع جيشه وخرج إلى أنطاكيا وحقق انتصارات ضخمة جداً على جيش أنطاكيا، وعاد بكمية كبيرة من الأسلاب والغنائم، فعاد أمير طرابلس لمكانه ولم يفكر بمحاربة صلاح الدين الأيوبي، وكان لهذا الأمر أثر كبير على تاريخ طرابلس مع صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

من هنا يتضح لنا أنّ لدى صلاح الدين الأيوبي الفكر نفسه الذي كان لدى نورالدين محمود ولدى عمادالدين زنكي، وهي وحدةٌ وجهاد، فعمل على توحيد العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه بدأ يناوش الصليبيين، وعرف أنه لن يستطيع تحرير أرض فلسطين والممالك الأخرى المحتلة من الصليبيين إلا بعد أن تتوحد هاتان المملكتان الكبريان: مملكة الشام ومملكة مصر، وعمل على هذا التوحيد لاثني عشرة سنة متصلة، منذ سنة 570هـ حتى سنة 582هـ، ولم يقل إنّ هذا وقت طويل، ولم يقل إنّ الإنسان قد يملّ من العمل على توحيد العالم الإسلامي، ولم يستعجل، ولكنّه كان يلتقي مع الصليبيين في مواقع ليست بالكبرى والفاصلة حتى لا يُنهك قوته، وكان همُّه الأكبر أن يوحد العالم الإسلامي، ومع ذلك انتصر على الصليبيين في أكثر من موقعة، ففي سنة 573هـ انتصر في عسقلان، وفي 574هـ انتصر عند حماة، وفي 575هـ انتصر عند بانياس.

إلى أن جاءت سنة 582هـ وبعد 12 سنة من توحيد قوى الإسلام أصبحت الدولة الإسلامية في عهد صلاح الدين الأيوبي تضمّ مصر والسودان والحجاز واليمن والشام بكاملها، وأجزاء من لبنان وأجزاء من جنوب تركيا، وتضم الموصل بكلّ ما فيها من إمكانيات وجيوش، وأصبحت بذلك دولة كبيرة جدّاً تحيط بالصليبيين، في هذا الوقت بدأ صلاح الدين الأيوبي يفكر بمعركة فاصلة مع الصليبيين، وبالطبع كلّ ذلك كان مقدمات للموقعة المشهورة وهي موقعة حطين التي كانت علامة من العلامات البارزة في تاريخ الإسلام.

استغل صلاح الدين الأيوبي بعض الاضطرابات والصراعات على الملك التي حدثت في القدس، ووصل الملك في النهاية إلى شخص اسمه جاي لوزينان والذي لم يكن الجميع يوافق على ولايته، وبالذات ريموند أمير طرابلس، فطلب ريموند من صلاح الدين الأيوبي أن يساعده في إسقاط جاي لوزينان على أن يبقيه في إمارة طرابلس فترة من الزمن تُحدَّد في المعاهدة،

ووجد صلاح الدين في هذا الأمر فرصة كبيرة، وبالفعل اتفق مع ريموند أمير طرابلس والذي كان له أثره السلبي الكبير جداً على الجيوش الصليبية عندما وجدوا أنّ أحدهم اتفق مع صلاح الدين الأيوبي عليهم.

وكما قلنا حصل الاتحاد بين مصر والشام، ولكن حدث أمر كبير وهو غدر رونالد دي شاتيون المشهور بالتاريخ الإسلامي باسم (أرناط) وهو الذي كان يحكم منطقة الأردن في قلعتين كبيرتين وهما قلعة الكرك وحصن الشوبك، وهاتان القلعتان كانتا تسيطران على الطريق بين مصر والشام، وتقطعان الطريق على الحجاج الذين يذهبون إلى الحجاز، وبعد مداولات كثيرة وقتال كبير بينه وبين صلاح الدين الأيوبي اتفق معه على هدنة لمدة ثلاث سنوات على ألا يتعرض للجيوش الإسلامية أو لقوافل الحجاج المسلمين المارة من هناك، ولكن أرناط غدر كعادة الصليبيين، وقام بأسر قافلة كبيرة متجهة من مصر إلى الحجاز للحج، وكان في هذه القافلة عدد كبير من الشيوخ والنساء والأطفال، فأخذهم جميعاً وأسرهم في قلعة الشوبك، وعندما استغاث هؤلاء بأرناط وقالوا له إنك أجريت معاهدة مع صلاح الدين الأيوبي على ألا تتعرض للسفن وللقوافل الإسلامية، قال لهم: اذهبوا لمحمدكم ليخلصكم، فانظروا إلى الروح الصليبية القاسية في قلبه، ووصلت هذه الكلمة إلى صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فأقسم إن وقع أرناط هذا في يده أن يقتله بيده، وسنرى بعد ذلك كيف أنّ الأيام وفّرت لصلاح الدين الأيوبي هذه الفرصة ليحقق بما وعد به رحمه الله.

بعد هذه الأحداث عادت الأمور للاشتعال مرة أخرى بين المسلمين والصليبيين، وقُطعت هذه الهدنة بيد الصليبيين، فأصبح لدى صلاح الدين فرصة لمحاربتهم، وبالفعل خرج بجيشه لمحاصرة طبريا التي كانت تابعة لمملكة بيت المقدس، وانتصر على طبريا وبدأ يستعرض جيشه هناك والذي كان قوامه ٢٠ ألف مقاتل، منهم ١٢ ألف معه في طبريا و8 آلاف موزعين في الأماكن البعيدة، فلم يكن بالجيش الضخم قياساً بالجيوش الصليبية، أما الجيش الصليبي في منطقة بيت المقدس فكان قوامه 60 ألف، وما حول بيت المقدس كانوا حوالي 63 ألف مقاتل، ولكنه لم يكن يريد مقاتلتهم في بيت المقدس لئلا يزرع جيشه في داخل المملكة الصليبية، فبدأ يستعرض جيشه ليثير الصليبيين، فاجتمع الصليبيون وقالوا ليس من المعقول أن تسقط طبريا وتسقط الحصون فيها بالإضافة إلى وجود بعض الأميرات في طبريا، كلّ ذلك شكّل إهانة كبيرة للصليبيين، فقرروا أن يخرجوا لمحاربة صلاح الدين الأيوبي، وفي ذات الوقت جاء أمير طرابلس الذي كان على عهد مع صلاح الدين الأيوبي ليعلن أنّه سيخون عهده مع صلاح الدين وانضم ثانية إلى الجيوش الصليبية، وبالطبع استقبلوه مع أنّه كان على خلاف مع أرناط، فبدأت الجيوش الصليبية تستعد لمحاربة صلاح الدين الأيوبي بالقرب من بحيرة طبريا، وكان هذا ما أراده صلاح الدين الأيوبي، فقد يسّر الله سبحانه وتعالى الأمور لهذا القائد ليحقق النصر على الصليبيين، واختار صلاح الدين أرض المعركة، فوضع الصليبيين في مكان صعب جداً، وكان على علم أنّ المعركة ستتم في أرض ينعدم فيها الماء إلا من بحيرة طبريا، فوضع جيوشه كلها حول البحيرة لتسيطر سيطرة كاملة عليها، وبذلك يقطع الماء عن الجيوش الصليبية، وكانت الجيوش الصليبية قد خرجت في شهر يوليو (7) فاجتمع على الجيوش في هذه المنطقة انقطاع الماء والعطش، مع حر الجو في شهر يوليو،



وعمل صلاح الدين على زيادة هذا الأمر بأن أمر بإحراق الأعشاب الجافة في تلك المنطقة لينتقل إليهم حر الدخان وحر النار، فدُفعوا إلى القتال دفعاً، وتمت الموقعة الهائلة موقعة حطين في 24 من ربيع الآخر سنة 583هـ الموافق لـ 4 يوليو سنة 1180م، بين 12 ألف مسلم و63 ألف صليبي، وكانت نتائج المعركة أكثر بكثير مما تخيله صلاح الدين الأيوبي نفسه.

فيا ترى ما الذي حصل في هذه الموقعة؟
وما هي النتائج؟
وما هو رد فعل الصليبيين في فلسطين؟
وكيف كان ردّ فعل صلاح الدين الأيوبي للانتصار المهيب الذي تحقق في حطين؟

معركة حطين

تكلمنا فيما سبق كيف جمع صلاح الدين الأيوبي مصر والشام والحجاز واليمن وأجزاء من تركيا والموصل في دولة واحدة، وكيف جهّز جيشاً لمحاربة الصليبيين في موقعة فاصلة، فجمع جيشه عند بحيرة طبريا واختار المكان المناسب والتوقيت المناسب، واستقدم الصليبيين، وأتى الله سبحانه وتعالى بهم إلى حيث يريد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله لتتم الموقعة الكبرى الفاصلة بين المسلمين والصليبيين وهي موقعة حطين، الموقعة الأشهر في الحروب الصليبية، وهذا يوم لا يمكن أن يُنسى في تاريخ الأمة الإسلامية.

رتّب صلاح الدين الأيوبي الأوضاع بحيث يلتقي الجيش الصليبي مع الجيش المسلم وهو فاقد للماء، وكما تعلمون أنّ الماء عنصر رئيسي في نجاح هذه الجيوش الضخمة، خاصةً أنّ الجموع كبيرة، فـ 63 ألف مقاتل لا يمكن أن يحملوا معهم كمية كافية من الماء من بيت المقدس إلى طبريا في شمال فلسطين، ولا بدّ أن يعتمدوا على الآبار أو البحيرات الموجودة في هذه المنطقة، ولكنّهم حُرموا من كلّ ذلك بفضل الله عز وجل ثم بفضل الإعداد العظيم الذي أعدّه البطل المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ثم أمر صلاح الدين بإحراق الأعشاب الجافة، وكان اتجاه الريح في المكان الذي اختاره فكانت تأخذ كلّ الدخان إلى ناحية الجيش الصليبي، فاجتمع عليهم حرّ الجو في يوليو وحرّ العطش وحرّ الدخان والنار، فالتقى الصليبيون مع المسلمين في موقعة كبيرة، وارتطم الجيش الإسلامي بالجيش الصليبي ارتطاماً مروّعاً، حتى علا الغبار وارتفعت صيحات التكبير في كلّ مكان، وكان نصراً مؤزراً للمسلمين.

حاول أمير طرابلس في موقعة حطين أن يفتح ثغرة في الجيش الإسلامي، فرآه صلاح الدين الأيوبي من بعيد، وكان يعرف أنّه متردد أصلاً في أمر القتال، ففتح له الثغرة التي يريد، ومن هذه الثغرة خرج ريموند الرابع أمير طرابلس بجيشه متجهاً ناحية طرابلس ليُفقد الجيش الصليبي عنصراً مهمّاً جدّاً من فرسانه في هذا الوقت الحرج، فكانت أزمة عامة للجيش الصليبي كلّه، فأسلموا رقابهم لسيوف المسلمين، وكان الانتصار الذي حققه صلاح الدين في هذه الموقعة انتصار مهولاً؛ يقول المؤرخون: الذي يشاهد الأسرى في موقعة حطين لا يتخيل أنّ هناك قتلى، والذي يشاهد القتلى لا يتخيل أنّ هنالك أسرى، لكثرة القتلى والأسرى في هذه الموقعة، فقد نتج عن هذه الموقعة 30 ألف قتيل صليبي، و30 ألف أسير صليبي، و3 آلاف هربوا مع ريموند الرابع إلى طرابلس بعد أن فتح صلاح الدين الأيوبي الطريق لهم بإرادته، وفي هذه الموقعة أَسَرَ صلاح الدين الأيوبي جاي لوزينان ملك مملكة بيت المقدس، وأكبر شخصية صليبية في الأراضي الإسلامية في ذلك الوقت، وأسر معه رونالد دي شاتيون المعروف بأرناط الذي غدر بالمسلمين والذي أقسم صلاح الدين رحمه الله أن يقتله بيده إن ظفر به.

وأتى بهؤلاء الأسرى إلى خيمته، فكان لقاءًا من أعظم اللقاءات في تاريخ الأمة، يعرض صلاح الدين الأيوبي في موقف عجيب جدّاً على أرناط في محاورة عجيبة، قال له صلاح الدين الأيوبي: يا أرناط! ها أناذا أنتصر لمحمد ﷺ، وقبل أن يرفع السيف ليقتله عرض عليه الإسلام وقال له: إن أسلمت نجوت، انظروا كيف أنه في هذا الموقف يفكر في الدعوة، ولكن أرناط رفض الإسلام فالتفت إليه صلاح الدين بضربة واحدة من سيفه فأطاح برأسه، في تلك اللحظة دبّ الرعب في قلب جاي لوزينان ملك القدس، حتى إنه لم يستطع أن يخفي خوفه، وبدأت أقدامه تصطك ببعضها البعض، ولاحظ صلاح الدين هذا الأمر فقال له: لا تخف ولا تجزع، إنّ من عادة الملوك ألا يقتلوا الملوك، ولكنّ هذا قد تجاوز الحدّ، فعامل جاي لوزينان بمنتهى الرأفة والرحمة والتكريم لكونه ملكاً، رغم أنّه كان ملكاً للمحتلين لبيت المقدس وأراضي المسلمين.





في يوم 25 ربيع الثاني، أي في اليوم التالي مباشرة بعد موقعة حطين ذهب لقلعة طبريا الكبرى ليفتحها، حيث إنه كان قد فتح طبريا دون القلعة فأسقطها، وكان في القلعة زوجة ريموند الرابع أمير طرابلس الذي خان العهد مع المسلمين، ومع ذلك أطلق زوجة ريموند في حراسة إسلامية وقال إنه لا يأسر الأميرات الصليبيات، وبعد أيام قليلة من وصول زوجة ريموند إلى طرابلس مات ريموند أمير طرابلس كمداً وحزناً بعد أن علم أنّ الجيش الصليبي فُقد بكامله، فتخلص المسلمون بذلك من رجل من العتاة في الجيش الصليبي.

بعد موقعة حطين بخمسة أيام فقط، تقدم صلاح الدين بجيشه وحاصر عكا التي كانت من أحصن المدن الساحلية في أرض الشام، وصعُب على الكثير من المسلمين وغير المسلمين أن يفتحوها، فحاصرها في يوم 29 ربيع الثاني وأسقطها في يوم 30 ربيع الثاني، أي في اليوم التالي وفتحت المدينة أبوابها ودخل المسلمون إلى المدينة، وتصادف دخولهم في يوم الجمعة، فصلى المسلمين أول صلاة جمعة في الساحل الشامي بكامله، منذ أن قامت الحروب الصليبية، وأخذ من عكا ما لا يقدَّر بثمن من الغنائم، لأنها كانت مدينة تجارية ضخمة، وكان فيها أملاك التجار الإيطاليين.

خرج من عكا ثم حرّر مدينة الناصرة ثم حرّر قيسارية ثم حرّر حيفا، كلّ ذلك بسرايا من عكا بعد أن تمركز فيها، ثم تراسل بعد ذلك مع العادل وهو أخوه العادل بن نجم الدين الأيوبي، وكان قد تركه على مصر بعد أن خرج إلى الشام، وأبلغه بالأخبار السارة وأنّه كسر شوكة الصليبيين في موقعة حطين، وأنّه الآن تُفتح له البقاع والبلاد، فأمره أن يأتي له بجيشه، فأتى له بجيشه من مصر، وعبر صحراء سيناء ودخل فلسطين من جنوبها، والتقى مع الصليبيين في يافا في موقعة كبرى فحرّرها، ثم حرّر العادل بن نجم الدين الأيوبي مدينة نابلس بسرية أرسلها من يافا.

كلّ تلك الأحداث بعد أقلّ من شهر على موقعة حطين، وترك صلاح الدين كلّ تلك المنطقة وتوجه إلى لبنان حيث أراد تقطيع أطراف مملكة بيت المقدس من شمالها وجنوبها، وكما نعرف أن نصف لبنان كان منضماً لمملكة بيت المقدس، فسيطر صلاح الدين على مدينة صرفند ثم وصل إلى صيدا في 21 جمادى الأولى، أي بعد فترة قصيرة من موقعة حطين، فحرّر صيدا ثم انتقل إلى بيروت وحاصرها لثمانية أيام حتى أسقطها وضمّها إلى المسلمين، ثم بعد ذلك استسلمت جبيل التي كانت تابعة لإمارة طرابلس، وكان قد أُسر أميرها في موقعة حطين وأُرسل إلى دمشق، فساوم صلاح الدين على إسقاط هذه المدينة في سبيل إطلاق سراح الأمير فوافق الأمير، ثم استلم صلاح الدين مدينة جبيل في لبنان. ثم عاد بعد ذلك إلى فلسطين، وفي يوم 16 جمادى الآخرة، حاصر عسقلان لمدة أسبوعين، وبعدها سقطت عسقلان في يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ثم أطلق الجيوش لتحرير الرملة، ثم غزة ثم تبنين ثم بيت لحم ثم بيت جبرين، هل يمكن أن تتخيلوا هذا؟! هل يمكن أن تحرر فلسطين كلها في أقل من شهرين؟! هذا ما حصل بالفعل، فلم يبقَ في فلسطين أرض محتلة غير القدس، التي فيها بضعة قلاع، قلعة اسمها كوكب، وقلعة صغيرة في صفد، وبضعة قلاع أخرى صغيرة، كلّ تلك الأحداث تمت في أقل من شهرين، وقد نُذهل من كلّ ذلك ولكن يزول هذا الذهول إذا قرأنا قول الله عز وجل: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فالله عز وجل هو الذي أنزل نصره على صلاح الدين الأيوبي، ولو أنك استغربت هذا النصر قِسْه إلى قوة رب العالمين الذي يقول للشيء كن فيكون، فالمهم أن يكون هناك جيش وقائد يستحق النصر كصلاح الدين الأيوبي ومن معه من المجاهدين رحمهم الله جميعاً.

وكما ذكرنا من قبل، لم يبقَ بيد الصليبيين إلا القدس وبعض القلاع، فتوجه مباشرةً رحمه الله إلى مدينة القدس، درّة فلسطين ودرّة العالم الإسلامي، فماذا حدث في أرض القدس؟ وكيف تم الحصار؟ وما هي النتائج؟





كان في داخل القدس 60 ألف مقاتل، وهؤلاء غير الـ 63 ألف مقاتل الذين خاضوا موقعة حطين، والقدس هي العاصمة التي بقيت محتلة 92 سنة من الصليبيين وهذا يعني أنها دولة متمكنة جداً، وحصونها عالية وجيشها مدرّب، فهي أهم مدينة عند الصليبيين، ومع هذا الموقف ذهب صلاح الدين إلى أرض القدس متوكلاً على ربه ومعه فرقة من جيشه تعدادها 12 ألف، وحاصر مدينة القدس التي بداخلها 60 ألف مقاتل غير النساء والأطفال والرهبان، فقد كانت من أكبر المدن المعمورة في ذلك الوقت، وكان ذلك في 15 رجب سنة 583هـ، ضرب الحصار وطلب تسليم المدينة بالسلم، فرفض بطريرك القدس أن يسلم المدينة سلماً، وأرسل لصلاح الدين الأيوبي وقال له: **نحن نرفض أن نسلم المدينة التي مات فيها إلهنا.**

فنصب صلاح الدين المنجنيق حول المدينة وبدأ الضرب من الناحية الشمالية، واستمر القصف لمدة 12 يوم كاملة حتى أيقن الصليبيون أنّ المدينة ستسقط لا محالة بيد صلاح الدين الأيوبي، وهنا عرضوا الأمان على صلاح الدين ولكنّه رفض وقال لهم: **أعاملكم كما عاملتم المسلمين في هذه المدينة منذ أكثر من 90 سنة وذبحتم أهلها، فقال زعيم الصليبيين: إننا لن نخرج إليك إلا بعد أن نقتل أبناءنا ونساءنا وكلّ ماشيتنا ونحرق بيت المقدس ونقتل كلّ أسرى المسلمين الذين يبلغ عددهم أكثر من خمسة آلاف أسير مسلم، وبعدها نخرج لكم لنقاتلكم قتال موت**، فتردد صلاح الدين الأيوبي واستشار من معه من القوم فقالوا نأخذ منهم الجزية ويخرجوا من المدينة آمنين بعد أن يسلموا القدس بكاملها ولا يخرجون بسلاح، فوافق صلاح الدين الأيوبي على هذا الاقتراح وعرضه عليهم أن يخرج القادر على القتال.



على أن يدفع عشرة دنانير، وأن تدفع المرأة خمسة دنانير، وأن يدفع الطفل دينارين، وبالفعل وافق الصليبيون على ذلك، ووضع صلاح الدين الأيوبي حراسة على كلّ مداخل ومخارج مدينة القدس العظيمة، ورُفعت الأعلام الإسلامية على مدينة القدس، كان ذلك في 27 رجب سنة 583هـ، أي بعد شهرين ونصف من موقعة حطين.

بدأ الصليبيون بالخروج، وكان استلاماً في منتهى الرقي، فانظروا إلى ما سنقوله بالقياس لما ذُكر من قبل عندما دخل الصليبيون إلى أرض القدس، فنجد هنا حفظاً كاملاً للعهود من قِبَل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وتأمين الناس على حياتهم، وإطلاق الأميرات دون أي نوع من الجزية أو أي نوع من الإهانة، فأطلقوا زوجة جاي لوزينان ملك بيت المقدس الأسير، وزوجة أرناط الذي قُتل على يد صلاح الدين الأيوبي، وعفوا عن الكثير من الفقراء الذين لا يملكون مالاً لدفع الجزية، ولم يخربوا كنيسة واحدة من كنائس بيت المقدس، وخرج البطريرك إيراكلوس وهو محمَّل ولا يستطيع أن يسير بما يحمله من الذهب، حيث كان القساوسة والرهبان من أغنى أغنياء النصارى، وأخذ منه صلاح الدين الأيوبي عشرة دنانير، فقالوا له: إنه يحمل كنوزاً عظيمة، فقال لهم كلمة عظيمة تلخص منهجه في الحياة، قال لهم: لا أغدر به، لقد قلت أن يخرج كلّ إنسان بما يستطيع حمله دون سلاح، ويخرج هذا البطريرك بكلّ ذهبه ولا يغدر به رحمه الله، ولذلك يُنصَر مثل هذا الرجل، ثم وجَّه حامية عسكرية قوية مسلمة تحمي هؤلاء الذين خرجوا من مدينة القدس حتى يصلوا لمدينة صور ولا يتعرض لهم أحد من هنا أو هناك فينقضوا عهد صلاح الدين الأيوبي،

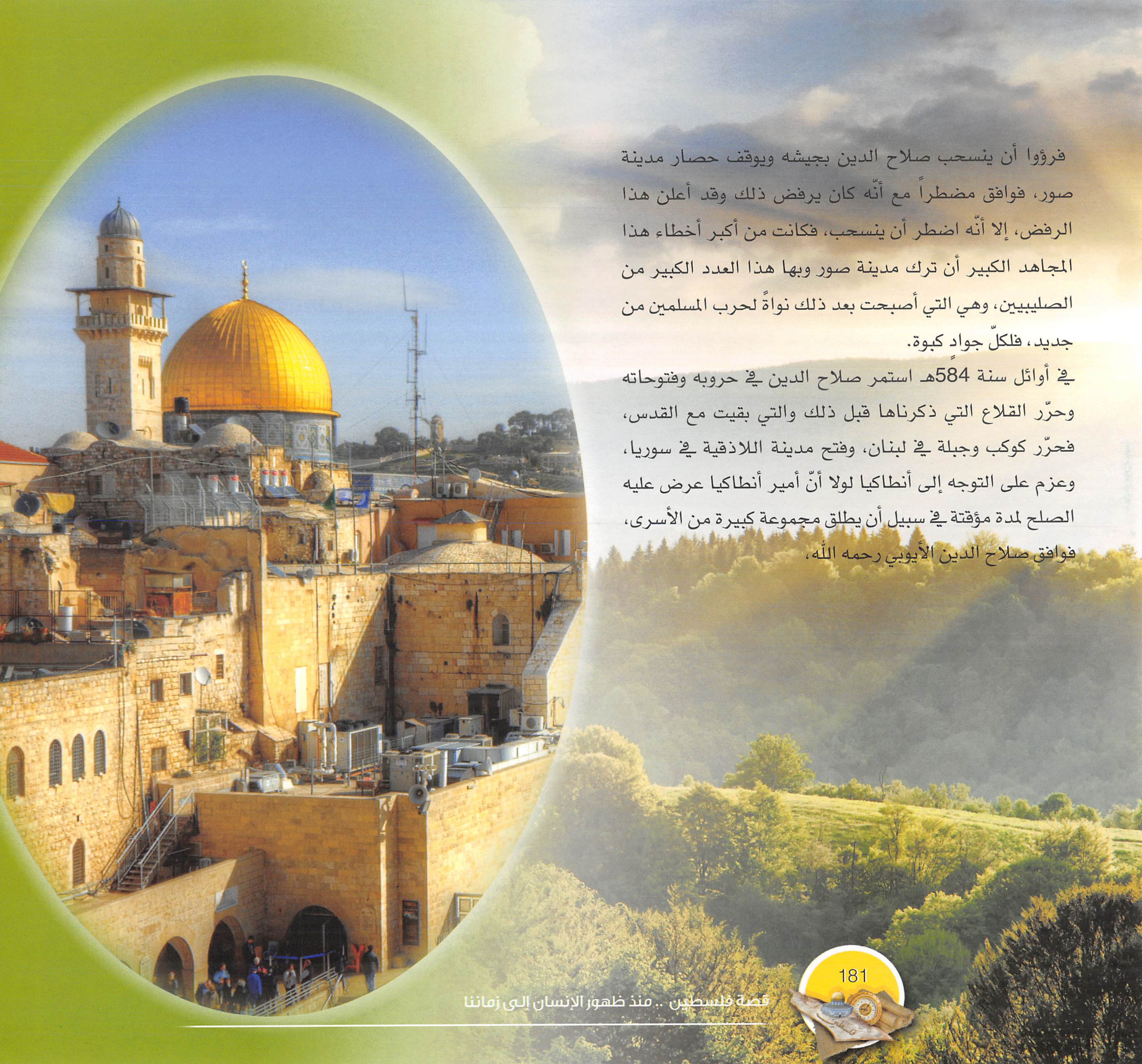
فأيّ رجلٍ هذا؟! هذا رجل ينصره الله سبحانه وتعالى.



اليوم لأنّه كان قد حُوِّل لمخزن للغلال، وأنشئت حوله المراحيض الكثيرة كنوع من الإذلال، واحتاج الأمر إلى أسبوع كامل لتنظيف المكان وإعادته إلى هيئته السابقة، ففُرشت البُسط الفاخرة، وأُتي بمنبر من الخشب ليخطب عليها الخطيب في الجمعة القادمة إلى أن يأتي صلاح الدين بمنبر نورالدين محمود الذي كان قد شيّده خصيصاً لهذا اليوم، وبدأ بعمارة مساجد القدس كلها.

وفي الجمعة التالية في 4 شعبان سنة 583 هـ قام الخطيب محيي الدين أبوالمعالي القرشي رحمه الله وخطب الجمعة الأولى في أرض القدس بعد 92 سنة متصلة من الاحتلال، وفي هذه الخطبة حمد الله سبحانه وتعالى على نصره العظيم، وكانت خطبة في منتهى الروعة لا يتسع المقام لذكرها كاملة، ولكن أذكر منها مقدمة الخطبة فقط حيث يقول: **الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرِّف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدَّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده بظله، وأظهر دينه على الدين كله**...، وكان في الخطبة كلمات كثيرة تمدح هذا الجيش وتحضّ هذا الجيش على الثناء المستمر لله عز وجل، وقال في آخر الخطبة دعاء جميل جداً لصلاح الدين الأيوبي، قال: «**اللهم وأدم سلطاننا وعبدك الخاضع لهيبتك**، فهو يذكر في هذا الموقع أهم صفات صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وهو أنه عبدٌ لله عز وجل الذي نصره، قال: **أدم سلطاننا وعبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف لموهبتك، سيفك القاطع وشهابك اللامع، المحامي عن دينك، المدافع الذاب عن حرمك المانع، السيد الأجل، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة السلطان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر بيت المقدس، أبا المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين.**

كانت الخطبة في منتهى الروعة، وأسأل الله عز وجل أن يمنَّ علينا بخطبة مثلها يوم أن نحرر بيت المقدس، وأنا هنا أذكركم بالجهود العظيمة التي بذلها عمادالدين زنكي ومن قبله مودود ومن قبله الكثير من المجاهدين، ثم بذلها نورالدين محمود رحمه الله، لم يروا نصراً بأعينهم، ولكنّ كلّ هذه الجهود بُذلت ولعلّ صلاح الدين لم يولد بعد، ففي فترة فتوحات عمادالدين زنكي وُلد صلاح الدين الأيوبي في سنة 532هـ، أي قبل تسع سنوات فقط من مقتل عمادالدين زنكي رحمه الله، فجهود كبيرة جداً بُذلت، ثم مهَّد الله سبحانه وتعالى لصلاح الدين الأيوبي أن يقطف ثمرة هذه الجهود لما رأى الإخلاص في قلبه وفي قلوب من أعدّهم لهذا النصر الكبير، ولم تكن تلك نهاية المطاف، فقد خرج صلاح الدين الأيوبي رحمه الله من القدس بعد أن جهَّز فيها العُدَّة وحمى الأسوار وجهَّز الأوضاع، ووضع حامية قوية في داخل القدس، وخرج مباشرة في شهر رمضان لمحاصرة مدينة صور التي كانت تستلم كلّ الذين فروا من هنا وهناك من الصليبيين، فتجمَّع فيها أعداد كبيرة جداً، فحاصرها في رمضان سنة 583هـ، وقد كانت مدينة صور مدينة حصينة جداً ولها حماية كبيرة من البحر، فطال الحصار على صلاح الدين الأيوبي، واجتمع القادة وقالوا له إنّ الجيش الإسلامي قد أُرهق إرهاقاً كبيراً بعد موقعة حطين، ومن بعدها في كلّ أراضي فلسطين وفي فتح بيت المقدس،



فرؤوا أن ينسحب صلاح الدين بجيشه ويوقف حصار مدينة صور، فوافق مضطراً مع أنّه كان يرفض ذلك وقد أعلن هذا الرفض، إلا أنّه اضطر أن ينسحب، فكانت من أكبر أخطاء هذا المجاهد الكبير أن ترك مدينة صور وبها هذا العدد الكبير من الصليبيين، وهي التي أصبحت بعد ذلك نواةً لحرب المسلمين من جديد، فلكلّ جوادٍ كبوة.

في أوائل سنة 584هـ استمر صلاح الدين في حروبه وفتوحاته وحرّر القلاع التي ذكرناها قبل ذلك والتي بقيت مع القدس، فحرّر كوكب وجبلة في لبنان، وفتح مدينة اللاذقية في سوريا، وعزم على التوجه إلى أنطاكيا لولا أنّ أمير أنطاكيا عرض عليه الصلح لمدة مؤقتة في سبيل أن يطلق مجموعة كبيرة من الأسرى، فوافق صلاح الدين الأيوبي رحمه الله،



وفي هذه السنة أيضاً أطلق جاي لوزينان ملك بيت المقدس على أن يعود إلى فرنسا فوافق جاي لوزينان على ذلك، وبعد أن أُطلق سراحه خان هذا الاتفاق وذهب إلى مدينة صور، وهو الذي قاد بعد ذلك حركة الصليبيين ليحارب بهم صلاح الدين الأيوبي، وليت المسلمين يستفيدون من تاريخهم.

وفي هذه السنة أمضى صلاح الدين عيد الأضحى في القدس، وكان بالطبع احتفالاً مهيباً جداً وتكبيراً عظيماً جداً، وفي هذا الاحتفال أعلن ندمه على أنّه ترك في العام الماضي مدينة صور، وشعر أنّه سيأتيه منها شرٌّ كبير لأنّ جاي لوزينان ذهب لمدينة صور، وحصل كما توقع صلاح الدين أن بدأت الجموع الصليبية تتحد لحرب المسلمين من جديد، ولم يكتفوا بذلك، بل أرسلوا إلى أوروبا ليستغيثوا بها، وبذلك أصبحت أوروبا على قدم وساق تعدّ العدّة لحرب المسلمين، وكانت هذه بدايات الحملة الصليبية الثالثة، التي سيأتي عليها كبار ملوك أوروبا لحرب المسلمين في فلسطين.

فيا ترى ماذا سيحدث للحملة الصليبية الثالثة ؟

وما هو رد فعل صلاح الدين الأيوبـــي ؟

وكم من المدن ستسقط في يد الصليبييـــن ؟

وكم من المدن سيدافع عنها المسلمـــون ؟

تَرْكُ حصار صور وعودة شوكة الصليبيين

فيما مضى رأينا الجهد العظيم الذي قام به صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وكيف حرر فلسطين بكاملها، ورأينا كيف وقعت معركة حطين وكيف تم تحرير الساحل الفلسطيني بكامله باستثناء قلعة أو اثنتين، ومن بعدها تحرير مدينة القدس المباركة، واستطاع أن يحقق إنجازات سُطِّرت في التاريخ بدماء المسلمين وجهودهم، وهي من أعظم الانتصارات بتاريخ الأمة الإسلامية، وقلنا إنّه وضع في اعتباره أن يسقط مملكة بيت المقدس بكاملها، فإنّ حدود مملكة بيت المقدس لم تقف عند حدود فلسطين، بل أخذت نصف مساحة لبنان، فاتجه بجيوشه إلى لبنان فحرّر بيروت وصيدا ومناطق أخرى من لبنان، وكذلك حرّر الكرك والشوبك الموجودة الآن في الأردن، وكان مترصداً لكلّ بقايا مملكة بيت المقدس.

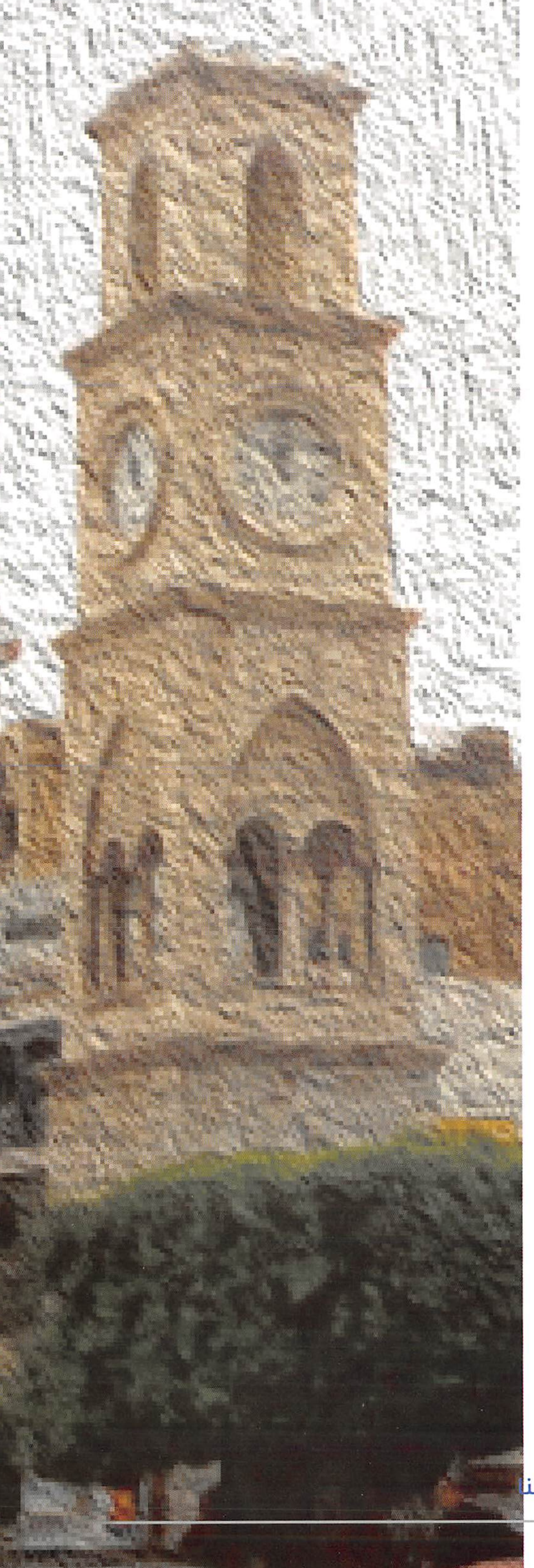
سنمر هنا على أزمات كثيرة تعرضت لها الأمة الإسلامية في زمان صلاح الدين الأيوبي وبعد زمانه رحمه الله.

إنّ صلاح الدين الأيوبي في كلّ تلك الفتوحات حقّق انتصارات عظيمة جداً، ولكنّه كعامة البشر يقع في أخطاء، ونحن لا نقول إننا نُخَطِّئُهُ أو أننا نستطيع أن نرتقي لمستوى صلاح الدين الأيوبي حتى نعترض على أفعاله أو أقواله، ولكنّ التاريخ فعل ذلك، فهناك آراء أُخذت على بعض المواقف، وبعض الانتقادات للمؤرخين بشكل عام، ورأينا بعض الآثار السلبية لمثل هذه القرارات، ونحن نذكر لصلاح الدين الأيوبي مع عظم قدره وجلالة مكانته هذه الأخطاء البسيطة التي كان لها آثار سلبية كبيرة، ومنها على سبيل المثال أنّه ترك مدينة صور دون فتح، وقلنا قبل ذلك أنّ مدينة صور هي إحدى المدن اللبنانية التابعة لمملكة بيت المقدس، وهرب إليها الكثير من الصليبيين.

وعندما سُحق الصليبيون في حطين أسرعوا إليها من كلّ المدن الساحلية في فلسطين وغيرها، وقد حاصر صلاح الدين الأيوبي مدينة صور فعلاً، ولكن الجيش الذي معه لم يصبر على هذا الحصار، فطلب هذا الجيش أن يستريح، وأن يرفع الحصار عن مدينة صور، خاصةً أنّ هذا الحصار كان في فصل الشتاء، فقَبِلَ صلاح الدين الأيوبي ذلك على مَضَض وما كان له أن يقبل، لأنّ معظم القوة الصليبية كانت موجودة في مدينة صور، فكان على الجيش أن يتعب ويجاهد أكثر، ليتم التخلص تماماً من مملكة بيت المقدس، لكنّ ما حصل أنهم تركوها، فكانت موطناً لنشأة جديدة للصليبيين في أرض فلسطين وأرض الشام، ومن يقرأ التاريخ سيجد الموقف نفسه حصل في الأندلس قبل ذلك، حيث ترك المسلمون مكاناً صغيراً جداً في الأندلس دون فتح كان اسمه الصخرة، ومن هذه الصخرة سقطت الأندلس بعد ذلك.

أعلن صلاح الدين بعد ذلك عن ندمه لعدم استمراره في حصار صور، فقد واصل الصليبيون تجمعهم حتى وصل تعدادهم إلى الآلاف، ونذكّر هنا أنّ الفرسان الذين خرجوا من القدس دون قتل أو إصابة كانوا 60 ألفاً، فتخيلوا عندما يجتمع كلّ المقاتلين الصليبيين من يافا وحيفا وعكا وغيرها من مدن فلسطين، فهم حتماً سيشكلون أزمة كبيرة، والخطأ الثاني الذي وقع فيه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله هو إطلاق سراح جاي لوزينان ملك بيت المقدس بعد ثمانية أشهر تقريباً من أسره في بيت المقدس، حيث اتفق معه صلاح الدين أن يطلق سراحه نظير أن يذهب إلى فرنسا، وحيث أنّ لصلاح الدين خبرة كبيرة بالصليبيين، ويعرف أنهم يخونون العهود، فما كان له أن يثق بكلمات جاي لوزينان، خاصةً أنّ هناك جيوشاً ضخمة في صور، وبالفعل هذا ما حصل، فقد خان جاي لوزينان الاتفاقية وبقي في صور ولم يرجع إلى فرنسا، ومن مدينة صور أخذ يجمع الجيوش وبدأ يقاتل صلاح الدين من جديد، وخرج في منتصف رجب سنة 585هـ، أي بعد سنتين من فتح بيت المقدس، خرج بجيوشه الصليبية إلى مدينة عكا الفلسطينية وهي قريبة جداً من صور، حيث تبعُدُ أقل من 50 كيلومتراً من شمال فلسطين، وبعد هذا غضب صلاح الدين الأيوبي غضباً شديداً من خيانة جاي لوزينان، وأراد إنقاذ عكا، فخرج بالجيوش منطلقاً إليها، وأرسل جيشاً كبيراً في المقدمة لجيشه ليصل إلى مدينة عكا قبل أن يصلها الصليبيون، وبالفعل وصلها الجيش المسلم ودخل مدينة عكا وسيطر على محاور المدينة، ولكنّ جيش الصليبيين وصل قبل أن تصل القوة الرئيسية لجيش المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، فحاصر الصليبيون عكا من أطرافها الأربعة، ثلاثة أطراف على البرّ، وطرف رابع على البحر، كان فيه السفن الصليبية، فأصبح الحصار محكماً على عكا التي كان بداخلها المسلمون، وانقلبت الآية، فقبل سنتين كنّا نحاصر عكا بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ثم سقطت عكا وانتصر فيها المسلمين بفضل الله، وغنم منها المسلمون غنائم لا تُحصى، أما الآن فالصليبيون هم الذين يحاصرون مدينة عكا، وقد طال الحصار على المسلمين، وبعد ذلك جاء صلاح الدين بجيشه وحاول إنقاذ عكا وفكَّ الحصار عنها لكنّه لم يستطع لقوة الجيوش الصليبية وكثرة عددها في المنطقة، مما اضطرَّ رئيس الحامية المسلم والذي كان اسمه سيف الدين المشطوب إلى عقد اتفاقية مع الجيش الصليبي بعد سنتين كاملتين من الحصار.

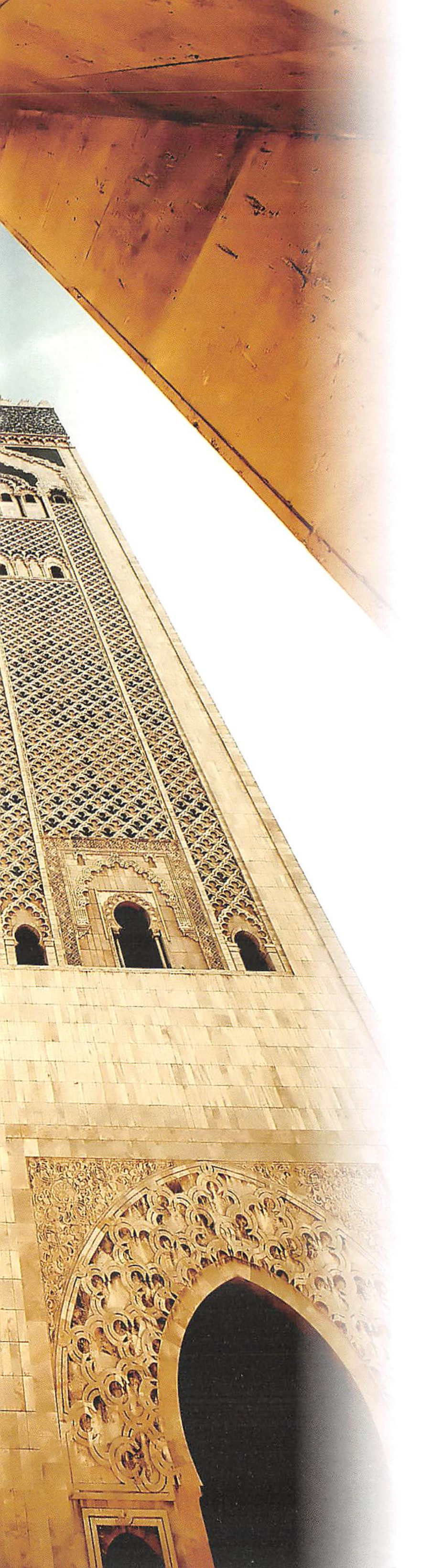
وهنا أريد أن أقول إنّ هناك أمراً آخر حصل نتيجة هذا الوضع من وجود الصليبيين في صور ووجود جاي لوزينان وعودة الحميّة لإعادة مملكة بيت المقدس، وهي استنفار أوروبا لنجدة الصليبيين في بيت المقدس، وهذا هو الاستنفار الثالث الكبير، وكان الاستنفار الأول ما نسميه الحملة الصليبية الأولى، والتي خرجت لاحتلال العالم الإسلامي، وكانت حملة ناجحة جدّاً، نتج عنها أربع ممالك صليبية في العالم الإسلامي، والاستنفار الثاني كان بعد سقوط مملكة الرُّها، وهي التي صدَّها نورالدين محمود، واستطاع أن يردّها خاسرة ولم تحقق أيّ نوع من النتائج، وهذه الأخيرة هي الحملة الصليبية الثالثة التي تجهَّزت من أوروبا لنصرة الصليبيين في منطقة عكا ومنطقة صور.



وجاء على رأس هذه الحملة جيوش ضخمة، أذكر منها جيش مملكة النمسا وألمانيا، وكان على رأسها فريدريك بارباروسا، وكان من أكبر أمراء وملوك أوروبا، وشخص آخر مشهور جدّاً في التاريخ وهو ريتشارد الملقب بقلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، فقد كانت فعلاً حملة ملوك، وكان كلّ قائد ملكٌ أو أميرٌ من الأمراء، وكانت من أقوى الحملات الصليبية على الإطلاق، فالجيش الألماني والنمساوي كان قوامه 200 ألف مقاتل، و كان جيشاً كبيراً وخطيراً، وكان يفرض سيطرة كبيرة على قطاعات ضخمة من أوروبا، ولكن سبحان الله! وما يعلم جنود ربك إلا هو، فبعد أن اخترق هذا الجيش آسيا الصغرى، غرق فريدريك بارباروسا وهو يستحم في أحد الأنهار ومات، وحصلت انتكاسة كبيرة في الجيش النمساوي، وحصل فيه نوع من الصراع بين قادته وزعمائه، واستطاع المسلمون في آسيا الصغرى وفي الشام وفي غيرها أن يترصدوا لهذا الجيش، وبسبب حميّة حطين وانتصاراتها، استطاع المسلمون أن يحققوا انتصاراً كبيراً على هذا الجيش الألماني النمساوي، ووصل إلى مدينة عكا من هذا الجيش حسب الرواية النمساوية حوالي 5 آلاف جندي فقط من 200 ألف، أي أنّ حوالي 195 ألف جندي ألماني ونمساوي فنوا في الطريق ولم يبقَ منهم إلا 5 آلاف فقط، ولكنّ المشكلة الكبرى كانت في الجيش الإنجليزي والجيش الفرنسي، وقد كانا من أكبر الجيوش الأوروبية بصفة عامة، وصلت هذه الجيوش إلى ساحل عكا وحاصرتها من جهة البحر والبرّ، وكما قلنا إنّ سيف الدين مشطوب لم يجد أمامه حلاًّ إلا أن يعقد اتفاقية مع الصليبيين رغم أنف صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، فصلاح الدين لم يكن يريد هذه الاتفاقية، إلا أنّها تَمَّت دون علمه بسبب صعوبة الاتصال بين الفريقين، وبسبب حصار الجيوش الصليبية لعكا من كلّ الجهات، وبناءً على هذه الاتفاقية سلَّم سيف الدين مشطوب المدينة بكاملها، كما سلَّم كلّ العدَّة والسلاح، بل وأقرَّ أن يدفع 200 ألف دينار للصليبيين نظير إطلاق الأسرى الذين سيأخذهم الصليبيون كرهن إلى أن تُؤدَّى هذه الديّة الكبيرة، وبالطبع هذا التسليم لم يكن على رغبة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

فكيف سيكون ردّ فعل صلاح الدين؟
وماذا سيفعل لإنقاذ الأسرى الذين في يد الصليبيين؟
وما هي ردّة فعل ريتشارد قلب الأسد؟ وكيف سيكون الموقف؟





عندما علم صلاح الدين بهذا الأمر أنكره بشدّة، ولكنّه لم يستطع أن يتصرف، فبدأ يجمع المبلغ المطلوب، وبالطبع فإنّ هذا المبلغ ضخم وكبير، فبدأ يراسل عدداً من المدن في مملكته، وجمع جزءًا من هذا المبلغ الضخم، إلا أنّ صلاح الدين كان يخشى تسليم هذا المبلغ الضخم للجيوش الصليبية ولا يُطلقون الأسرى، فهو معتاد على الخيانة من الصليبيين، فطلب طلباً بسيطاً ومنطقياً، هو أن يحصل على نوع من الرهن، أن توضع هذه الأموال عند جهة ثالثة لتكون طرفاً حاكماً بينهما، وأن تسلَّم الأموال بعد تسليم الأسرى، أو أن يحلف الداوية، ما هي الداويَّة؟ هي فرقة من الفرق العسكرية الشديدة جدّاً داخل الجيش الصليبي، وكان عندها تمسك كبير بالدين، وكانت ترى أنّ حلف اليمين أمر عظيم لا تأتيه، فطلب أن تحلف هذه الداويَّة على أن يعيدوا أسرى المسلمين للمسلمين، ولكن رفضت الداوية أن تحلف لأنها لا تثق بالملوك الصليبيين، فتوقف صلاح الدين الأيوبي عن دفع الأموال حتى يجد حلاًّ لهذا الموقف، إلا أنّ ريتشارد قلب الأسد لم ينتظر هذا التوقف، فأخرج ثلاثة آلاف أسير مسلم وقتلهم بالسيف أمام أعين المسلمين، وبالطبع فإنّ هذه جريمة كبرى ووصمة عار في جبين أوروبا كلّها، هذا هو ريتشارد قلب الأسد الذي تُصَوِّرُهُ كثير من وسائل الإعلام بالشخصية الرحيمة والمتدينة، وأنّه أتى لأهداف عليا نبيلة، وهو في الحقيقة إنسان خائن للعهد، قاتل للأسرى، مخالف للاتفاقيات، ولديه مخالفات كبيرة جدّاً لا تُقبَل، حتى إنّ سيرته بعد ذلك تتمحور حول محاولة إثبات الصّيت والشهرة له، بصرف النظر عن قضايا بيت المقدس أو قضايا الصليبيين أو قضايا المسيح، وما إلى غير ذلك من أمور تشغل أهل الدين كما يقولون.

بعد هذا الحادث الأليم هَجَمَ صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، ودارت عدّة معارك معهم، إلا أنها لم تأتي بنتيجة، فجيش صلاح الدين الأيوبي كان أصغر بكثير من جيوش الصليبيين المجتمعة، فوقفت الحروب الصليبية وانتهى الأمر في النهاية إلى سقوط مدينة يافا أيضاً في يد الصليبيين، وكذلك سقوط مدينة أرسوف ومدينة عسقلان، مما أحدث أزمة كبيرة جدّاً، واضطُرَّ صلاح الدين رحمه الله في 21 شعبان سنة 588هـ، أي بعد أقلّ من سنة على سقوط عكا إلى عرض «صلح الرملة» مع الجيوش الصليبية، وبالفعل عقد هذا الصلح الذي كان من نتائجه أن تُسلَّم مدينة يافا وقيسرية وأرسوف وحيفا وعكا إلى الصليبيين، والتي كانت فعليّاً بيد الصليبيين، فأقرهم صلاح الدين رحمه الله على هذه المدن على أن تبقى مدن اللّد والرملة والناصرة في يد المسلمين، وكانت مدّة هذه الهدنة ثلاث سنوات وثلاث شهور.



نريد أن نقف هنا عند هذه الهدنة لنقول إنّ هذه الهدنة تكون شرعيّة بشروط، وهذه الشروط وفّى بها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وأوّل هذه الشروط أنّ هذه الهدنة ليس فيها إقرار دائم للصليبيين أو لغيرهم على امتلاك قطعة من أراضي المسلمين مهما صغرت هذه القطعة، وصلاح الدين لم يقرّهم أبداً على امتلاك هذه المدنبشكل دائم، لكنّه أقرّهم عليها لثلاث سنوات وثلاثة شهور فقط. والأمر الثاني أن تكون هذه المدّة المؤقتة لميعاد معين، وهذا ما فعله صلاح الدين، والأمر الثالث أن يمتلك الطرف المسلم القدرة على ردع الطرف الآخر إن هم خالفوا المعاهدة، لأنّه من المعتاد أن يخالفوا، وهذا ما كان يتمسك به صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

تمَّ صلح الرملة واستقرت مملكة صغيرة جديدة في بيت المقدس بدءًا من يافا ووصولاً إلى مدينة صور في لبنان، واستطاع صلاح الدين الأيوبي نشر جيشه في كلّ مدن فلسطين، وبعد صلح الرملة بستّة أشهر آنَ لجسد صلاح الدين الأيوبي المتعب أن يستريح، فتوفي رحمه الله في 27 صفر سنة 589هـ.



مات السيد الأجلُّ والملك الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وكانت صدمة كبيرة جداً للمسلمين، ولعلّها من أكبر الصدمات التي مرّوا بها منذ جيل الصحابة ﭫ، والكارثة الكبرى في وفاة صلاح الدين الأيوبي لم تكن فقط بفقد زعيم من أعظم زعماء الأمة في التاريخ الإسلامي، ولكن في الوضع الذي آلت إليه الأمة بعد وفاته رحمه الله، وهذا يجعلنا نتطرق إلى خطأ أعتقد أنّه من الأخطاء التي ارتكبها صلاح الدين الأيوبي، وهو عدم استخلاف شخصية قويّة مدرّبة على قيادة الأمة من بعده، فموته جاء مفاجئاً وهو لم يكمل بعدُ الستين سنة، ولكن لكلّ أَجَلٍ كتاب، فكان يجب أن يكون له خليفة قويّ مدرّب على أساليب إدارة الأمة الإسلامية، ويتّفق عليه الجميع، حتى لا تحدث الكوارث بعد وفاته، وهذا ما حصل للأسف، فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي انفرط عقد الأمة الإسلامية بشكل مبالغ فيه، فتصارع على الحكم بعد وفاته عدة قوى؛ ثلاثة منهم من أولاده، الأفضل والعزيز والظاهر، فالعزيز عثمان أخذ الديار المصرية، والظاهر غازي غياث الدين أخذ حلب، وإمارة دمشق للأفضل نورالدين علي وهو أكبر أولاد صلاح الدين، أما الكرك والشوبك فحكمها أخوه العادل، ومدينة حماة أخذها ابن أخيه محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة لحفيد عمّه أسدالدين شيركوه، واليمن كانت لظهيرالدين سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح، وبذلك تفرّق دم الأمة الإسلامية بين الإخوة والأعمام، وللأسف الشديد لم تحدث هذه الفُرقة فقط، بل وحصلت صراعات ونزاعات بين الإخوة والأعمام، وكانت هذه الصراعات في بعض الأحيان صراعات دامية يموت فيها أعداد من المسلمين، والكثير من هؤلاء الذين ماتوا في هذه الصراعات هم الذين انتصروا في موقعة فتح بيت المقدس وفي تحرير معظم مدن فلسطين، وهذا ما يجعلنا نصاب بالدهشة!!

لكن نرجع مرة أخرى إلى حديث الحبيب ﷺ عندما قال: **«فَوَاللَّه مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم»** (متفق عليه)،

وهذا ما وقع فيه المسلمون، فبالطبع كانت مملكة صلاح الدين على مساحة واسعة جداً، مصر وسوريا بكاملها ولبنان والأردن وأجزاء من تركيا وأجزاء من العراق، والحجاز بكامله واليمن، وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي تنافس أبناؤه وإخوانه على هذه الأملاك الواسعة، وحصلت صراعات مخزية بين هؤلاء، وأزمة كبيرة مرّت بها الأمة الإسلامية، ولولا لطف الله عز وجل، وأنّ الصليبيين كانوا في حالة ضعف، لانفرط العقد تماماً، واحتُلّت الكثير من بلاد المسلمين.

أفضل من كان بينهم هو العادل أخو صلاح الدين الأيوبي، وهو لم يكن على مستوى صلاح الدين إلا أنّه كان أفضل هؤلاء، فبعد تسع سنوات من الصراع بين المسلمين، استطاع العادل أن يفرض سيطرته على الأمور، وأن يوحِّد من جديد مملكة مصر والشام وغيرها من الأماكن تحت سيطرة موحدة، وكان ذلك في سنة 598 هـ، ولكن خلال هذه الفترة سقطت للأسف بيروت في يد الصليبيين، فوجود مثل هذا الصراع شجَّع أوروبا على أن تجمع من جديد قوة لمحاربة المسلمين، وبعد أن وحَّد العادل جميع البلاد تحت قيادة واحدة شعرت أوروبا بالخطر الشديد، وبالتالي بدأت تحمِّس الأوروبيين على القيام بحملة صليبية رابعة، وقامت بالفعل هذه الحملة الصليبية في سنة 599هـ (1202م)،



إلا أنّ هذه الحملة انحرفت عن هدفها في محاربة المسلمين في الشام والقدس وغيرها من بلاد المسلمين، واتجهت إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عندما رأت فيها شيئاً من الضعف، ومع أنّ هؤلاء نصارى، إلا أنّ الحملة الصليبية نزلت على القسطنطينية واجتاحتها، وقتلت الإمبراطور البيزنطي آنذاك، واستطاعت احتلال مدينة القسطنطينية، وفرضت هيمنتها على كلّ أملاك الدولة البيزنطية، ولأنّ هذه الحملة كان معظمها من فرنسا، فقد ظلّ الحكم الفرنسي في القسطنطينية على أملاك الدولة البيزنطية لـ 57 سنة متصلة، أي إلى سنة 659هـ، ولا نستطيع أن نحصي المذابح والاغتيالات والسرقات والاغتصابات التي قام بها النصارى الكاثوليك الأوروبيون مع إخوانهم النصارى الأرثوذكس في القسطنطينية، وكان هذا علامة من علامات ضياع الدّين تماماً من قضية الحروب الصليبية.

فيا ترى هل سترضى أوروبا بهذا الوضع؟

أم أنها ستقوم بحملة أخرى لمحاربة المسلمين؟

ويا ترى ما هو موقف العادل في مصر والشام بعد توحيد الدولتين؟

الحملات الصليبية لاحتلال بيت المقدس

تحدثنا في القسم المنصرم عن التداعيات الخطيرة لوفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ورأينا الصراعات التي تمّت بين الإخوة والأعمام، ورأينا وصول العادل أخو صلاح الدين الأيوبي لمنصب الحاكم لكلّ الأمة الإسلامية بعد تسع سنوات كاملة من الصراع بينه وبين أولاد أخيه وبينه وبين إخوته.

لم يكن العادل على مستوى صلاح الدين الأيوبي إلا أنّه كان شخصية جيّدة، وكان أفضل حالاً مِن كلّ مَن تصارع معهم، ووصل إلى كرسيّ الحكم، وأعاد توحيد مصر والشام، وكما رأينا حصل تهييج لأوروبا ومحاولة إنشاء حملة صليبية رابعة، إلا أنّ هذه الحملة توجهت إلى القسطنطينية، وبدأ العادل بتوطيد الأمور في مملكته، وحكم البلاد من سنة 598هـ إلى سنة 615هـ الموافق 1218م، وهي السنة التي انتهى بها حكم العادل لمصر والشام، وكانت المشكلة في عهد العادل أنّه طوال هذه الفترة لم يَقُم بحرب فاصلة مع الصليبيين، وكما قلنا قبل ذلك أنّ من تداعيات وفاة صلاح الدين رحمه الله استقرار مملكة بيت المقدس في الساحل الفلسطيني والساحل اللبناني، من مدينة يافا وحتى مدينة صور، وكان هذا استقراراً غير مفهوم، لأنّ القوة الصليبية كانت قد ضَعُفَت برحيل ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغست، وبعد أن توجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية كان على العادل أن يهاجم هذه البقايا الصليبية حتى لا تتوسع وتنتشر من جديد، وحتى لا تأتي الحملات الصليبية المتتالية عليها فتكون مدداً وتأييداً لها،



ولكن للأسف لم يحصل هذا، وكان كلّ انشغال العادل في تثبيت الملك بسبب الصراعات والقلاقل في داخل المملكة الإسلامية، وكانت نتيجة هذا كلّه أن قامت حملة صليبية خامسة على الإسلام في سنة 615هـ، وكانت هذه الحملة قويّة جدّاً، اشترك فيها مع الجيوش الصليبية قبرص التي كانت تُحكَم بالصليبيين، وكان على رأس هذه الحملة ملك قبرص شخصيّاً، ونزلت هذه الحملة في منطقة في الشام، وكان هدفها أن تصل إلى القدس، وعندما سمع العادل بهذه الأخبار ترك مصر فوراً واتجه إلى فلسطين للدفاع عنها، إلا أنّه وجد أنّ الأعداد الصليبية أكبر بكثير من قوته، فتوجه إلى دمشق ليجمع الأعداد من هناك.

علمت القوات الصليبية باختفاء العادل من مصر، وبذلك غيَّرت الحملة الصليبية وجهتها فذهبت إلى مصر الخالية من زعيمها، وكان العادل قد ترك عليها ابنه الكامل، ولكنّه للأسف كان ضعيف الشخصية، ونزلت الجيوش الصليبية على ميناء دمياط وهو الميناء الرئيسي في مصر، واستطاع الصليبيون إسقاطه بـ 700 ألف فارس و400 ألف راجل، وهذه قوة عسكرية ضخمة، استطاعت أن تسيطر على برج دمياط الذي يسيطر على المدينة كلّها، وللأسف الشديد وصلت الأنباء بوفاة العادل في دمشق، وشكَّل هذا الأمر أزمة كبيرة لأنّه حدث أثناء احتلال دمياط، فاهتزت الأمة الإسلامية اهتزازاً كبيراً جدّاً، وحصل انسياح للجيش الصليبي في مصر بالكامل، ثم أسَّس الكامل مدينة أسماها مدينة المنصورة على طريق النيل في سنة 617هـ، وهي مدينة المنصورة المعروفة الآن، حتى يعترض طريق القوات الصليبية المتجهة من دمياط إلى القاهرة عاصمة مصر، ولكن للأسف حصلت صراعات داخلية في مصر وفي داخل العالم الإسلامي على الحكم بعد وفاة العادل
وكان الصراع بين الكامل والفائز والمعظِّم، وفي نهاية الأمر حصل صدام بين القوات الإسلامية والقوات الصليبية على حدود المنصورة، وعندما رأى الكامل أنّ الأوضاع على هذه الصورة عرض عرضاً مخزياً جدّاً على القوات الصليبية ليخرج من الأزمة، حيث عرض أن يسلِّم للصليبيين عسقلان وطبريا وجبلة في لبنان، واللاذقية في سوريا، وسائر الأماكن التي فتحها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في فلسطين، بل ويسلِّم القدس، على أن يخرجوا من ميناء دمياط، كان عرضه هذا في منتهى الخزي، حتى لا يلتقي مع الجيوش الصليبية في موقعة، ولكن بلاكيوس الذي كان القائد الديني للحملة الصليبية ومبعوث البابا الأوروبي رفض هذا العرض؛ لأنّ الكامل اشترط أن يسلِّم كلّ تلك الأماكن باستثناء الكرك والشوبك، وبالطبع هما قلعتان حصينتان في الأردن، واحتفظ بهما ليس من أجل قوتهما أو من أجل أن يعيد الهجوم على القوات الصليبية، بل لأنهما إرث خاص له من صلاح الدين كما قال، ولذلك لم يرد أن يتنازل عنهما، وأصرّ بلاكيوس على أن يأخذ حصن الكرك والشوبك، وعند اعتراض الكامل على هذا الأمر دارت المعركة بين الفريقين، وسبحان الله.. حفظ الله عز وجل هذه الأمة بدعوات الفقراء والضعفاء والبسطاء، فانتصر المسلمون على الصليبيين انتصاراً كبيراً بعد هذا العرض المخزي الذي قدمه الكامل، وبالتالي هُزم الصليبيون، وطلبوا العودة إلى بلادهم حتى دون أن يأخذوا شيئاً، وحفظ الله أرض القدس وفلسطين لفترة من الزمن.

في سنة 624هـ استنفر الأوروبيون لحملة صليبية سادسة، وكان على رأس هذه الحملة فريدريك الثاني ملك ألمانيا والنمسا، وكان هذا الرجل على خلاف مع البابا، وقد كان البابا أعلن حرمان هذا الملك من الجنة، وبالطبع كان هذا الأمر مصيبة كبيرة عليه، لأنّ هذا الأمر يعوق طاعة الشعب الألماني والنمساوي لفريدريك الثاني، ولهذا أراد أن يكّفر عن هذا الحرمان الذي أوقعه عليه البابا، فقرّر أن يقود الحملة الصليبية السادسة على العالم الإسلامي، ولكنّه لم يكن متحمساً أبداً لهذه الحرب، وهو بالأصل لم يكن مقتنعاً بالنصرانية، بل ولم يكن مقتنعاً بالدّين كليّاً، ونستطيع القول إنّه كان علمانيّاً، قام بحملة صليبية بسيطة جدّاً يبلغ عددها 500 مقاتل فقط، وعندما وصل إلى العالم الإسلامي وجد المسلمين في صراع على الحكم ما بين القاهرة ودمشق، وللمرة الثانية يعرض الكامل على فريدريك الثاني ملك النمسا وألمانيا أن يسلمه القدس دون قتال على أن يعود إلى بلاده، مع أنّه جاء بـ 500 مقاتل فقط! ولكن لوجود الأزمة الداخلية لم يرد أن يدخل في صراع آخر، فأعطاه القدس على أن يعود إلى بلاده، وبالفعل تسلّم فريدريك الثاني القدس بـ 500 مقاتل في سنة 625هـ (1238م)، وفي هذا التسليم اشترط الكامل -وكأنّه يحفظ عقائد المسلمين- اشترط ألا يُعطَى الصليبيون المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهو بذلك قلّص القضية وجعلها فقط في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكأنّه لا مشكلة في أخذهم القدس، ولا مشكلة في أخذهم فلسطين بكاملها، وكان المهمّ عنده أن يتركوه ليتفرغ لحرب إخوانه وصراعهم على الحكم.



حكم الكامل المسلمين منذ سنة 615هـ إلى سنة 635هـ، أي عشرين سنة كاملة، ضيَّع فيها القدس بأن أعطاها لفريدريك الثاني ملك ألمانيا والنمسا، واستطاع بذلك فريدريك الثاني أن يأخذ القدس بـ 500 مقاتل، بينما حاول ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك أن يأخذها من صلاح الدين بـ 500 ألف مقاتل ولم يستطع، فشتان بين صلاح الدين الأيوبي البطل العظيم، وبين الكامل -ابن أخيه- الذي ضيَّع أملاك المسلمين وحرماتهم.

كان هذا السقوط بعد 43 سنة من تحرير صلاح الدين الأيوبي لمدينة القدس، مات الكامل سنة 635هـ (1237م)، وترك على حكم الدولة الإسلامية المكونة من مصر والشام واليمن والحجاز ابنه العادل، وكالعادة حصل صراع بعد وفاة الكامل على الملك، وفي سنة 637هـ (1239م) تولى الحكم على مصر رجل نحسبه من الصالحين، وهو أعظم شخصية في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وهو الملك الصالح نجم الدين الأيوبي رحمه الله.

بَدَأَ هذا الملك بتنسيق الأمور من جديد، وكان لديه حميّة للجهاد في سبيل الله، وكان صاحب رؤية واضحة لإدارة الأمور، وعنده قضية تشغله وهي تحرير العالم الإسلامي قدر ما يستطيع، فأعاد توحيد الجيوش الإسلامية من جديد، ولكن للأسف بعد وفاة الكامل تمزقت الأمة الإسلامية بين أولاده وأبناء أخيه، وعندما وصل الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل إلى حكم مصر،





وصل ابن أخيه الملك الصالح إسماعيل إلى حكم دمشق، وإسماعيل هذا شخصية منحرفة جدّاً، وشديد الولاء للصليبيين، ولم يكن لديه أيّ مانع أن يبيع أيّ شيء في مقابل وصوله للحكم، فوضع يده بيد الصليبيين حتى يغزوا مصر ويحتلوها من ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، وكان على منطقة الكرك والشوبك شخص اسمه الملك الناصر داود، وهو أيضاً شخصية لا وزن لها في التاريخ؛ ولأنّ الملك الناصر داود كان قريباً من القدس، ووجد أنّ الحامية الصليبية فيها ضعيفة، أخذ جيشه واستطاع احتلال القدس في سنة 637هـ، والاحتلال هنا ليس من منطلق تحرير البلاد الإسلامية، وإنما كان لمجرد توسيع أملاكه، وهو بذلك أنهى حكم الصليبيين للقدس بعد 11سنة من تسليم الكامل لها، ولكن بمجرد أن تولى الملك الناصر داود حكم القدس، ذهب إليه الملك الناصر إسماعيل وكان ذا قوة أكبر، وعقد اتفاقية مع الصليبيين على أن يساعدوه على غزو مصر واحتلالها وضمّها إلى أملاكه، في مقابل أن يسلّمهم القدس من جديد بعد أن يأخذها من الملك الناصر داود، وفوق ذلك أن يعطيهم المسجد الأقصى وقبّة الصخرة، وبالفعل هذا ما فعله الملك الناصر إسماعيل، وعارضه العلماء في عصره، ومن أشهرهم العزّ بن عبد السلام رحمه الله فاعترضه من على منابر دمشق، فكان جزاء هذا الاعتراض أن سُجن العِزُّ وأُقصي عن كرسي القضاء، ثم نُفي بعد ذلك إلى القدس بعيداً عن دمشق، ورغم كلّ تلك الاعتراضات من العلماء، إلا أنّه سلّم القدس ثانية للصليبيين في سنة 638هـ (1240م).

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب مطّلعاً على كلّ تلك الأحداث، وكان مستعداً لقتال الصليبيين مجتمعين مع المسلمين بقيادة الملك الصالح إسماعيل، وفعلاً تمّ بينهم صدام في غزة انتصر فيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وبعد هذا الانتصار توجه مباشرةً إلى القدس، واستطاع في سنة 642هـ (1244م) أن يحرّر القدس مرّة ثانية، ولكن هذه المرّة حرّرها تحريراً إسلاميّاً، رافعاً راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأعاد من جديد المجد الذي صنعه صلاح الدين الأيوبي بتحرير القدس، وظلّ الحكم في القدس إسلامياً لمدة 693 سنة متصلة، أي لقرابة سبعة قرون، لم تدخل الجيوش المعادية مدينة القدس مطلقاً إلا عندما دخلها الجيش الإنجليزي في سنة 10 ديسمبر 1917م (1335هـ.)، نسأل الله عز وجل أن يحرّرها كاملة وأن يحرر أرض فلسطين وكلّ بلاد المسلمين.



كان الجيش المصري بقيادة الملك الصالح الأيوبي في هذه المعارك فيه شيء من القلّة والضعف، فلم يكن لديه الإمكانيات العالية، فهذا الجيش تكوَّن في عهد الملك الكامل، ولم يكن يرغب الملك الكامل في تنمية قدرات الجيش الإسلامي، فاستعان الملك الصالح الأيوبي بالجنود الخوارزمية، وهؤلاء من دولة خوارزم الإسلامية التي كانت تسيطر على شرق العالم الإسلامي، وكانت للأسف الشديد قد قامت دولة التتار التي اجتاحت شرق العالم الإسلامي، فتفرق جنود الخوارزمية فاستقطبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجلبهم ليحاربوا معه في جيشه، ولكن كانت المشكلة مع جنود الخوارزمية أنهم جنود مرتزقة، أي أنهم يعملون لصالح من يدفع لهم، فليس لديهم حميّة إسلامية، وليس لديهم نيّة واضحة في القتال، فهم حاربوا مع الملك الصالح نجم الدين أيوب لأنّه يعطيهم ثمن هذا القتال، ولكن إذا دفع أحد من أعداء الملك الصالح لهم أكثر، فإنهم سينتقلون للقتال مع عدوّ الملك الصالح، وبذلك اختلّت الموازين في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، مما دفعه إلى أمر جديد، وهو الذي أدّى إلى نتائج كبيرة إيجابية للأمة الإسلامية، وهو تربية المماليك الصغار، فبدأ يستقطب العبيد الصغار في السنّ من أطراف العالم الإسلامي لتنشئتهم في قصره، وفي قلعة أنشأها بجوار قصره، وليربّيهم تربية إسلامية خالصة.

فكان في البداية يعلّمهم اللغة العربية ويعلّمهم القرآن والسنّة والفقه الإسلامي، بالإضافة إلى أنّه علّمهم مبادئ الإدارة والسياسة والفروسية والجهاد في سبيل الله، فأنشأ جيشاً إسلامياً ربّى جنوده من سنّ الطفولة، إلى أن أصبح الواحد منهم في سنّ الشباب، مقاتلاً قوياً، يحمل نيّة الجهاد، صاحب عقيدة وعلم، وذو قدرة على وضع الخطط العسكرية والإستراتيجية، ولديه الجاهزية لإدارة البلاد والعباد. فكان جيشاً على أعلى مستوى، وهذا الجيش أصبح فيما بعد جيش مصر لفترة طويلة.

وصل صيت الملك الصالح إلى أوروبا، فعلموا بوجود ملك قويّ، وعلموا بسقوط القدس بيد المسلمين، فقام البابا بتحريك حملة صليبية سابعة، وكان على رأس هذه الحملة ملك فرنسا لويس التاسع، وهي من أشهر حملات الصليبيين، توجهت هذه الحملة إلى دمشق، ولأنّ الملك الصالح نجم الدين أيوب وحّد مصر والشام تحت إمارته واستقر في مصر، توجهت الحملة إلى مصر وعينها على دمشق، فنزلت هذه الحملة في ميناء دمياط التي كان فيها أكبر موانئ مصر واحتلوه؛ لأنّ المجموعة التي كانت تحرس ميناء دمياط انسحبت بلا دواعي عسكرية مقبولة، وقام الملك الصالح نجم الدين أيوب بإعدام ٥٤ من قوات الجيش المصري.



بسرعة جهَّز الملك الصالح الجيوش لإنقاذ دمياط، ولكنّه فشل في إنقاذها، فاحتُلّت دمياط وقام الصليبيون بمذبحة بشعة قتلوا فيها الرجال والنساء والأطفال، وسالت الدماء في شوارع دمياط، وحوَّلوا مسجد دمياط إلى كنيسة، وبدؤوا يتحركون من دمياط ليتوجهوا إلى القاهرة، فأخذ الملك الصالح جيشه بسرعة وتوجه إلى مدينة المنصورة ليصلها قبل الجيوش الصليبية، وبالفعل التقى الجيشان هناك، وكان على رأس الجيش الإسلامي فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، والقيادة العليا كانت للملك الصالح نجم الدين أيوب، ولكن شاء الله عز وجل أن يموت الملك الصالح وهو في ميدان القتال في 14 شعبان سنة 647هـ(1249م) فأصبح المسلمون في أزمة حقيقية.

قامت من بعده زوجته المشهورة شجرة الدر لتدير الأمور، وتجتمع مع قادة الجيش فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، واستطاعت أن تدير الأمور بكفاءة عالية جداً، بل وأرسلت إلى توران شاه ابن الملك الصالح في حصن كيفا الموجودة الآن في تركيا، أرسلت له ليأتي إلى مصر ليتسلم أملاك أبيه وحكم العالم الإسلامي، وبعد أن وصلت الرسالة أسرع توران شاه بالتوجه إلى مصر، وفي هذه الأثناء حدثت موقعة المنصورة العظيمة، حقّق فيها المسلمون انتصاراً ضخماً على الجيوش الصليبية، فرجعت الجيوش الصليبية باتجاه دمياط، وأتى توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقاد معركة ثانية وهي معركة فارسكور في 2 محرم سنة 648هـ (1250م)، واستطاع أن يحقق انتصاراً ثانياً هائلاً على الجيوش الصليبية، بل وأُسر لويس التاسع، وقُتل من الصليبيين أكثر من 30 ألف مقاتل، ولكن وللأسف الشديد فبعد عدّة أشهر من هذا الانتصار قُتل توران شاه، بعد عدد من الفتن في داخل مصر، ودخل المسلمين بذلك أزمة كبيرة.

يا ترى من الذي سيتولى الحكم بعد توران شاه والذي يعتبر آخر حكام الدولة الأيوبية؟

كيف سيكون ردّ فعل شجرة الدر؟

وكيف سيكون ردّ فعل الجيش المصري المعتمد الآن على المماليك؟

وما هو ردّ فعل الصليبيين والقوى المعادية للإسلام في ذلك الوقت؟

دور المماليك في إستعادة بيت المقدس

كنا قد رأينا وضع الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ورأينا الصراعات والنزاعات بين الإخوة والأعمام، ثم بعد ذلك رأينا صعود الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله وهو أعظم شخصية في الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين رحمه الله، وهو الذي استطاع توحيد العالم الإسلامي مرة ثانية وانتصر على الصليبيين في موقعة المنصورة، مع أنّ هذا الانتصار لم يحصل في حياته، ولكنّه جهّز الجيش وأعدَّ العدّة ثم مات في ميدان القتال، واستكمل القتال من بعده قادة الجيش فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس، وزوجته شجرة الدر التي استقدمت توران شاه ابن الملك الصالح ليدير أملاكه في مصر والشام، وعندما جاء توران شاه انتصر على الصليبيين في معركة فارسكور وردَّ الحملة الصليبية التاسعة، واستطاع أن يقتل 30 ألف مقاتل صليبي أو أكثر، وأن يأسر عدداً ضخماً منهم، بل وأَسَرَ لويس التاسع ملك فرنسا، الذي فدى نفسه بكميّة ضخمة جدّاً من الأموال، ومع هذا الانتصار الكبير إلا أنّه حدثت فتنة كبيرة بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وشكَّ الناس فيمن يقود الناس، ولم يروا في توران شاه الزعامة الحقيقية للبلاد، فحصلت الفتنة وقُتل توران شاه، وجراء ذلك خلت مصر من حاكم أيوبي يستطيع أن يتولى الأمور، ومن ثمة أعلنت شجرة الدر نفسها ملكة على مصر، وكانت هذه المرة الأولى التي تُعلن امرأة نفسها ملكة على المسلمين، وخاصة في هذا الزمن شديد الصعوبة، وفي حروب مع الدولة التترية كما سنرى بعد قليل، وحروب مع إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإسبانيا، فكان صعباً على المسلمين أن يتقبّلوا أن تحكمهم امرأة في ذلك الوقت، مهما كانت هذه المرأة قويّة مثل شجرة الدر، فقامت ثورات كبيرة جدّاً في مصر وكذلك في الشام، بل ووصلت الثورات إلى بغداد، اعتراضاً على ولاية شجرة الدر، فتزوجت من رجل اسمه عزّ الدين أيبك وأعطته الحكم على أن تحكم هي من وراء الستار، وبدأ عزّ الدين أيبك في حكم مصر، وهذه هي البداية الحقيقية لحكم المماليك على مصر.

كنا قلنا من قبل أنّ الملك الصالح نجم الدين أيوب استقدم المماليك ليساعدوه في الجيش، وبالفعل وصلوا إلى درجات عالية جدّاً من المهارة والتفوق والفروسية والعلم والدّين والفقه، جعلتهم قادرين على إدارة الجيش، بل وإدارة البلد بكاملها، فلم يكن مستغرباً أن يصل عزالدين أيبك وهو من كبار المماليك إلى الحكم وقيادة مصر بكاملها، ثم حدث تمرّد على شجرة الدر حتى قُتلت شجرة الدر، وقُتل عزّالدين أيبك وانتهى الأمر بوصول سيف الدين قطز رحمه الله إلى الحكم، وهو من أعظم الشخصيات والقادة الإسلاميين، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة 657هـ، أي بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب بعشر سنوات تقريباً، وكانت تلك السنوات تموج بالاضطرابات والخلافات بين المسلمين.



استقرت الأوضاع بحكم سيف الدين قطز، وبدأ يجهِّز جيشاً لحرب التتار، وهذا سيدفعنا للحديث قليلاً عن التتار، فالتتار دولة نشأت في منغوليا في شمال الصين سنة 603هـ، أنشأها جنكيز خان وهو من أكبر الشخصيات الدموية في التاريخ، وتوسعت هذه الدولة بسرعة كبيرة جدّاً، فأخذت منغوليا والصين وفيتنام وبعض الأماكن في شرق آسيا، ووصلت في سنة 617هـ إلى أن تملك شرق آسيا كلّه، وعندما وصلت إلى هذا الحجم بدأت تفكر بالهجوم على الدول الملاصقة لها غرباً، وهذه الدول كلّها إسلامية، وبالتالي بدأ الغزو التَّتَري على العالم الإسلامي، وكانت بداية هذا الغزو لمملكة خوارزم، فاجتاحت الجيوش التترية العالم الإسلامي، وأسقطت البلاد الإسلامية بسرعة، حيث أسقطت بخارى وسمرقند ومرو ونيسابور وكابول وغزنة وغيرها من البلاد الإسلامية والمدن العظيمة في أوزبكستان وكازاخستان وأذربيجان وإيران وباكستان وأفغانستان، ووصل الأمر إلى إسقاط الخلافة العباسية في 20 محرم سنة 656هـ (1258م)، وهذا يعني أنّ نصف العالم الإسلامي بما فيه الخلافة العباسية سقطت في يد التّتار في غضون أربعين سنة فقط، تزامن هذا الوقت مع صعود قطز رحمه الله إلى الحكم في مصر، ووصلت الأنباء أنّ الجيوش التّترية تجاوزت حدود بغداد، واحتلّت دمشق وحلب وتوجهت إلى فلسطين واحتلتها بكاملها، ووصلت باحتلالها إلى ميناء غزة، أي أنهم كانوا على مقربة كبيرة من الحدود المصرية، وكان من الواضح لكلّ المراقبين والمحللين أنّ التتار سيستولون على مصر، وبذلك سينفتح لهم غرب العالم الإسلامي كلّه، لأنّه ليس هناك قوة في تلك المنطقة تستطيع إيقافهم إذا أسقطت مصر، ولم يكتف التّتار بحرب المسلمين، وإنما كان لديهم توسعات ضخمة جدّاً في أوروبا، حيث إنّ القوة التّترية وصلت إلى نصف أوروبا الشرقي، ووصلوا إلى بولندا، فكانت دولة يحكمها رجل واحد في منغوليا تصل حدودها الشرقية إلى كوريا، وحدودها الغربية تصل إلى بولندا، وحدودها الشمالية تصل إلى أقاصي روسيا، وحدودها الجنوبية تصل إلى الخليج العربي والمحيط الهندي، فكانت دولة هائلة ما شهد التاريخ مثلها حتى اليوم.

أرسل التّتار رسالة إلى قطز ينهون فيها عن أيّ محاولة للمقاومة، ويطلبون منه فتح الطريق للجيوش التترية لتجتاح مصر كما اجتاحت غيرها من البلاد العربية في العالم الإسلامي، **فكيف كان ردّ قطز؟**

كان لدى قطز طموح جهاديّ عالٍ جدّاً، ونوايا نحسبها صادقة ومخلصة، وأيّد ذلك الواقع الذي شهدناه من حياته رحمه الله، كان لديه علم وحماسة واضحة جدّاً، فقد كان شابّاً في عمر 35 سنة عندما تولى حكم مصر، والذي لم يستمر إلا 11 شهراً فقط، فانظر كيف بارك الله تعالى في عمره وجهده حتى حقق هذه الآثار في هذه الفترة الوجيزة.

وجد قطز أنّه لا حلَّ أمامه سوى مقاومة التتار والجهاد في سبيل الله، ولم يكن لديه احتمالية للمفاوضات والحوارات السياسية، أو احتمالية للهرب من مصر واللجوء إلى أماكن بعيدة كما فعل الكثيرون من أبناء الأمة قبل ذلك، وعَلِمَ علماً يقينيّاً أنّ الجيوش التي اعتدت على الإسلام لا تستطيع أن تُقنع بالعودة إلى بلادها، بل لا بدّ أن تُرغم على العودة إلى بلادها، وهذا ما بدأ يجهّز له، فالشعب في ذلك الوقت كان يمرّ بمشاكل كبيرة وفتن عديدة، فلم تكن القضية واضحة لديه تمام الوضوح، ولكن ظلّت قيمتان عاليتان عند الشعب المصري لم تختلّا في ذلك الوقت، وهي قيمة العلم والعلماء، وقيمة الجهاد في سبيل الله، وبدأ قطز يستغل هذا الأمر، فرفع من قيمة العلماء وكان من أشهر العلماء في ذلك الزمن العزّ بن عبد السلام رحمه الله، وهو الرجل العظيم الذي وقف أمام الصالح إسماعيل الأيوبي، وطرده الملك الصالح ونفاه إلى القدس، وعندما فتح الملك الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس وجد فيها العزّ بن عبدالسلام فاستقدمه إلى مصر، وكان في قدومه بركة عظيمة على الشعب المصري وعلى الأمة الإسلامية بصفة عامة، فقام العزّ بن عبد السلام بتحريك الشعب المصري للجهاد في سبيل الله، وقام معه العلماء من أبناء الأمة، بل وقام قطز على رأسهم يحثّ الناس على الجهاد في سبيل الله.

وبالفعل تحركت الحميّة في قلوب الناس، ولكن كانت هناك مشكلة في المماليك الذين كانوا قادة الجيش المصري، فالأمر لم يكن بالسهل؛ لأنّ هذا الأمر بحاجة إلى نفوس عالية جدّاً، خصوصاً أنهم سيحاربون الدولة الأولى والأقوى في العالم، في حين أنّ إمكاناتهم كانت محدودة، وسمعة الجيش التّتري سبقته، حتى أنّ الناس أصبحوا يقولون: إذا سمعت أحداً يقول إنّ التّتار هُزموا فلا تصدقه، فماذا يفعل قطز حتى يحرّك الحميّة في قلوب المماليك؟ قام بأمرين في غاية الأهمية لن تنتصر أمة إلا بهما:

الأمر الأول: القدوة، قال: أنا أَلقى التّتار بنفسي، فلن أرسل الجيوش لتحارب التّتار وأنا قابع في قصري بعيداً عن ميدان القتال، بل سأكون في مقدمة الجيوش، وبذلك كان قدوة، وفعل كما كان يفعل رسولنا ﷺ، فتحمَّس الناس لحماسة قطز رحمه الله.

الأمر الثاني: أنّه ربط الأمر بالله عز وجل، فلم يربطه بنفسه أو بالعلماء، أو بمصالح دنيوية أو بالغنائم والأسلاب، إنما علّق الأمر كلّه على مراقبة الله عز وجل لهم، قال لهم: **إنّ الله مطّلع عليكم، ولن أُرغم أحداً على الجهاد، وخطيّة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين، فالحرمات التي ستُنتهك من نساء المسلمين في رقاب هؤلاء المتأخرين، ثم قال كلمة عظيمة: من للإسلام إن لم نكن نحن؟!** فعندما قال هذه الكلمات بصدق انهمرت الدموع من عيون القادة العسكريين، وبدؤوا معه يجهزون لحرب التّتار.



بدأ قطز يختار أرض القتال، فعرض قادة الجيش المصري عليه أن ينتظرهم في مصر، فإذا جاءت الجيوش التّترية إلى مصر حاربوا، وإن لم يأتوا يكون الله عز وجل قد نجّا المسلمين من القتال، ولكنّ قطز رحمه الله كانت لديه نظرة مختلفة، فرأى أنّ عليه أن يذهب ليحاربهم في فلسطين، لماذا؟! لأنّه يرى أنّ أمن مصر القومي يبدأ من حدودها الشرقية، فلا يمكن أن يأمنوا في مصر وعلى حدودها الشرقية دولة قوية مسلحة كدولة التتار في ذلك الوقت، والأمر الآخر أنّه يجب نقل المعركة إلى أرض العدو، فلو كان هناك احتمال للخسارة في أرض القاهرة فإلى أين سيكون الرجوع؟! بينما إذا كانت المعركة في أرض فلسطين أو في غزة، يرجع إلى مصر ليبدأ يجهز الجيش من جديد، ويكرّ على العدو مرّة أخرى، وأمرٌ ثالث وهو عامل المفاجأة العسكرية، فهم يتوقعون أن يقوم بتجهيز الحصون داخل مصر، فأراد أن يفاجئهم بوجوده في فلسطين، والأمر الرابع أنّه قال لهم: إنّ على المسلمين في مصر دور تجاه المسلمين في فلسطين، فحتى وإن لم يأتوا إلى مصر، لا يجوز أن نترك المسلمين والمسلمات في فلسطين لقوى التّتار تطحنهم وتغتصبهم وتنتهك حرماتهم، فذلك يبعدنا عن الفقه الإسلامي السليم، وبعد أن شرح رؤيته للعلماء والقادة العسكريين قبلوا رأيه وبدؤوا بتجهيز الجيش المصري، وانتقل إلى أرض فلسطين رغم حرارة الصيف والظروف الصعبة، وكان ذلك في سنة 658هـ (1260م)، وانتصروا على حامية تترية في غزة، وأكملوا الطريق حتى وصلوا إلى منطقة اختارها قطز بعناية ليحارب فيها التتار وهي منطقة سهل عين جالوت.

تمّت في هذه المنطقة موقعة من أعظم المواقع ليس فقط في التاريخ الإسلامي، بل في تاريخ الإنسانية بكاملها، لأنّ دولة التتار أنهكت الحضارة الإنسانية في كلّ مكان؛ في بلاد المسلمين وغير بلاد المسلمين، فكانت موقعة عين جالوت موقعة تُسجَّل بحروف من نور في ميراث الإنسانية جمعاء، ففي هذه الموقعة استدرج قطز الجيش التتري، وبعد خطة عسكرية بارعة جدّاً وفّقه ربه سبحانه وتعالى أن استطاع أن يسحب الجيش التّتري بكامله إلى أرض سهل عين جالوت، وكان على رأس الجيش التتري كتبغا نورين وكان تترياً نصرانياً، وكان هولاكو قد عاد إلى قورة قور عاصمة الدولة التترية للتفاوض على قيادة الدولة التترية بكاملها.

وبعد صدام مهول ومروّع كاد المسلمون أن يُهزَموا نظراً لقوة الجيش التتري، نزل قطز رحمه الله بنفسه إلى أرض القتال، ووجد الجنود أنّ قطز وصل إليهم وهو يتكلم ويصيح بصيحته الخالدة: **وا إسلاماه... وا إسلاماه... وا إسلاماه...** قالها ثلاث مرات، يعبّر فيها عن منهجه رحمه الله، فالتفَّ حوله المسلمون، وكان صداماً مروِّعاً، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً، وقُتل كتبغا نورين في هذه الموقعة، وانسحب الجيش التتري إلى الشمال.



لكنّ قطز تتبَّع الجيش وتمّت موقعة أخرى كبرى عند بيسان، وكانت أشدَّ من الموقعة الأولى، واستطاع قطز رحمه الله أن يعيد الكرَّة مرة ثانية للمسلمين بعد أن كاد التتار أن يستعيدوا زمام الأمور، وكرّر كلمته العظيمة **وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه..**

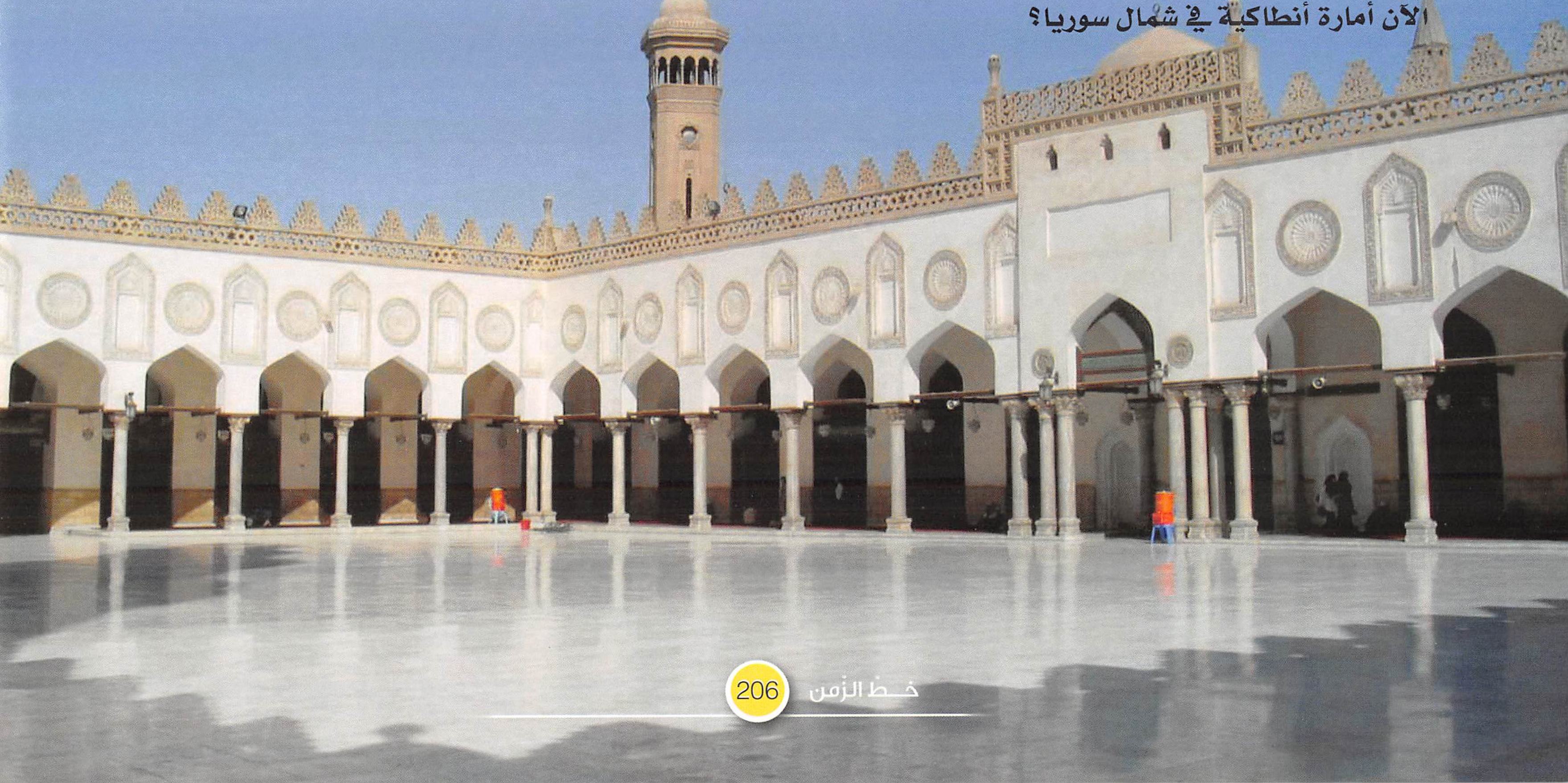
وعندما رأى أنّ الأمر قد اشتدَّ على المسلمين، رفع يده إلى السماء وقال: **«يا الله انصر عبدك قطز على التتار»**، وهذه كلمة في منتهى الروعة في هذا المقام، فهو لا يتحدث عن نفسه كملك أو كقائد أو كسلطان، إنما يتحدث عن نفسه كعبد لله عز وجل، فكانت هذه الكلمة كالجبل الذي سقط على الجيش التتري إذ أهلكه بكامله.

وقعت معركة عين جالوت في 25 رمضان سنة 658 هـ فني فيها الجيش التّتري بكامله، قُتلوا جميعاً ولم يَأسِر المسلمون أحداً من التتار، وحرّر المسلمون أرض الشام من التّتار، وبعد أربعة أو خمسة أيام دخل قطز دمشق فاتحاً، ووافق ذلك مع عيد الفطر، فكان من أعظم الأعياد في تاريخ الأمة الإسلامية، حيث حقّق المسلمون نصراً عظيماً جدّاً، وكان هذا هو الميلاد الحقيقي لدولة المماليك، والتي ظلت بعد ذلك لثلاثة قرون تحكم العالم الإسلامي. في لحظة زال القطب الأول في العالم وهو قطب التّتار، وأصبحت القوة الأولى في العالم هي قوة المماليك، وبعد أقلّ من شهرين بعد موقعة عين جالوت قُتل قطز رحمه الله، ولكنّ آثاره العظيمة لم تمت بموته، وهناك علامات استفهام كبيرة حول مقتله، وفي كثير من أقوال المؤرخين تتجه أصابع الاتهام نحو الظاهر بيبرس الذي أتى من بعده، إلا أنّني أشكّ كثيراً في هذا الأمر، وأظنّ أنّ الذي قتله هو شخص آخر.

بعد مقتل قطز رحمه الله تولى الأمر من بعده الظاهر بيبرس، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الأمة الإسلامية في عهد دولة المماليك.

فيا ترى ماذا سيفعل الظاهر بيبرس وخلفاؤه مع بقايا وفلول التّتار المبعثرين هنا وهناك في أطراف العالم الإسلامي؟

وماذا سيفعلون مع الصليبيين الذين لا يزالون يحتلون الساحل الفلسطيني وأجزاء من الساحل اللبناني، ويحتلون إلى الآن أمارة أنطاكية في شمال سوريا؟



تطهير العالم الإسلامي من الصليبيين

تولى بيبرس الحكم وهو من أعظم الشخصيات في الإسلام، حكم المسلمين من أواخر سنة 658هـ إلى سنة 676هـ الموافق (1260 إلى 1277م)، أي دام حكمه سبع عشرة سنة متصلة وعدّة شهور، ويطلق على الظاهر بيبرس بـ (أبي الفتوحات) **لماذا؟!**

لأنّه منذ بداية أيامه إلى آخرها وهو يشتغل بالفتوحات الإسلامية.

منذ بداية استلامه للحكم وجد أمامه ثلاث مشكلات كبيرة:

- **المشكلة الأولى:** هي جيوب الأيوبيين التي ما زالت موجودة في بلاد الشام، والتي كانت تريد أن تستكمل الدولة الأيوبية، وهذا بالطبع يُفرِّق الدولة الإسلامية لأنّ القوّة الرئيسية كانت بيد المماليك الذين يحكمون مصر في ذلك الوقت، فكان أوّل دور أوكل إليه هو توحيد العالم الإسلامي تحت راية واحدة، هي راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، والتي كان يحملها أقوى المسلمين وهم المماليك.
- **المشكلة الثانية:** هي وجود التتار، وكما قلنا إنّ الجيش التّتري فُني في موقعة عين جالوت، ولكنّ الجيش المقصود هنا هو الجيش الذي كان معسكراً في منطقة الشام، والجيش التّتري الموجود في منطقة فارس والعراق وآسيا الصغرى وشرق العالم الإسلامي لا يزال موجوداً، وهولاكو لا يزال موجوداً، ومما لا شكّ فيه أنّ هناك غضباً تتريّاً شديداً لهلكة الجيش الشامي بهذه الصورة المفاجئة على يد المماليك، فوجه التّتار عدّة جيوش لحرب المماليك، وتصدّى لها الظاهر بيبرس في أكثر من موقعة، وحقق انتصارات عظيمة لا مجال هنا لتفصيلها.



المشكلة الثالثة : هي وجود الصليبيين في فلسطين ولبنان وأجزاء من سوريا وأجزاء من تركيا، ففي الوقت الذي حكم فيه الظاهر بيبرس العالم الإسلامي كانت هناك ثلاث ممالك كبرى للصليبيين، هي مملكة عكا وكانت تحكم من يافا إلى شمال بيروت، ومملكة طرابلس في شمال لبنان وجنوب الساحل السوري على طول البحر الأبيض المتوسط، ومملكة أنطاكية في شمال سوريا وجنوب تركيا، أما التتار فقد كانوا في مناطق الشمال في تركيا والعراق، والقوة الرئيسية للجيش الإسلامي المصري كانت معسكرة في القاهرة ومنها إلى بقيّة البقاع.

كانت الأربع سنوات الأولى من حكم الظاهر بيبرس لترتيب الأمور وتجميع المسلمين تحت راية واحدة، واستطاع في هذه السنوات الأربع أن يوحد الشام مع مصر في دولة واحدة قوية، وأن يلتقي مع التّتار في عدّة مواقع انتصر فيها جميعاً، وفي سنة 663هـ، أي بعد أربع سنوات من حكمه بدأ يوجّه نظره نحو الصليبيين، لتبدأ صفحة جديدة من صفحات الجهاد الإسلامي، فَفَتَحَ قيسارية سنة 663هـ (1265م)، ثم فَتَحَ أرسوف، ثم في سنة 664هـ حقّق انتصاراً كبيراً على الصليبيين في صفد، وفتح أجزاء من طرابلس، وهذا يعني أنّه وجّه قوّته لأكثر من مملكة من ممالك الصليبيين وليس فقط لمملكة عكا، وفي سنة 666هـ حرّر مدينة يافا من الصليبيين، وفي سنة 667هـ (1268م) حقّق أكبر انتصاراته على الإطلاق وهو الانتصار على مملكة أنطاكية، وهي إمارة صليبية زُرعت في العالم الإسلامي منذ سنة 490هـ، أي منذ 176 سنة، وهذا يعني أنّ عدة أجيال ماتت ووُلد غيرها، ورغم ذلك لم تزل القضية حاضرة في ذهن الظاهر بيبرس رحمه الله، فحاصر أنطاكية حصاراً شديداً، واستطاع في رمضان سنة 667هـ أن يدخل أنطاكية فاتحاً، ويحررها ويغنم فيها غنائم هائلة، وكان عدد الأسرى في أنطاكيا حسب التقديرات الصليبية نحو 100 ألف أسير.

بعد سقوط أنطاكية تجمّع النصارى مرة أخرى، واستطاع هيو الثالث ملك قبرص في ذلك الوقت أن يوحّد مملكتي عكا وطرابلس في مملكة واحدة ليستطيعوا مواجهة الظاهر بيبرس، وفي هذه الفترة واجه الظاهر بيبرس عدّة مشاكل مع التّتار، فاضطر أن يعقد معاهدة مع مملكتي طرابلس وعكا ليأمن شرّهما في هذه الفترة، وقد لاقى ذلك ترحيباً منهما لأنهما كانا يخشيان قوة الظاهر بيبرس رحمه الله، وبذلك تفرغ لحرب التّتار بقيّة حياته حتى توفي سنة 676هـ (1277م).

بعد وفاته بسنتين حصلت مشاكل على الحكم كما هو معتاد في مثل هذه الظروف، ثم تولى الحكم في سنة 678هـ (1279م) شخصية مؤثرة جداً في التاريخ الإسلامي وهو سيف الدين قلاوون رحمه الله، واستمر حكمه لمدة 11سنة، ومقرّ حكمه الرئيسي كان في القاهرة، وكان يسيطر على المناطق نفسها التي كان يسيطر عليها الظاهر بيبرس، وكان في ذهنه أيضاً التّخلص من الجيوب الصليبية المتبقية، واستطاع أن يفتح حصن المرقَّب وكان من أعتى وأحصن حصون الصليبيين، وبعدها فتح مدينة اللاذقية، وختم حياته بأجلّ أعماله على الإطلاق حيث أستعاد مدينة طرابلس التي سقطت في يد الصليبيين سنة 503هـ، زكان ذلك سنة 688هـ، أي بعد 185 سنة من الاحتلال، وهكذا لم يبقَ في يد الصليبيين في كلّ البلاد الإسلامية إلا مملكة عكا فقط وبعض المدن التابعة مثل صيدا وبيروت وصور وغيرها من المدن في هذه المساحة الصغيرة من شمال فلسطين إلى وسط لبنان.

توفي قلاوون سنة 689هـ (1290م) وتولى الأمر من بعده ابنه الأشرف خليل صلاح الدين بن قلاوون، والأشرف خليل هذا يُعَدُّ من أشهر حكام المماليك على الإطلاق، ليس لأنّه الأكثر إنجازاً في تاريخ المماليك، وإنما لأنّه هو الذي أنهى بشكل نهائي الجيوب الصليبية في بلاد العالم الإسلامي، وبالطبع كانت قوة الصليبيين قد ضعُفت جدّاً بعد الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون، فاستطاع أن يُسقط عكا بعد حصار استمر شهراً ونصف، وفتحها بعد 193 سنة من الاحتلال، ومن بعد عكا بدأت تتساقط المدن الأخرى تدريجيّاً، فتسلَّم صور ثم بيروت وحيفا وطرطوس، وبهذا تكون أُغلقت صفحة من أسود الصفحات في تاريخ البشرية، وهي صفحة الحروب الصليبية على العالم الإسلامي، وبذلك طُهِّر العالم الإسلامي تماماً من الصليبيين.

هنا يجب علينا أن نقف وقفة لنحلّل الأمر لنرى أنّ المسلمين في كلّ هذه الحروب الصليبية الطويلة لم يُهزموا إلا بسبب بُعدهم عن ربِّهم سبحانه وتعالى، وإذا ارتبط المسلمون بالله سبحانه وتعالى وأخذوا الجهاد طريقاً فإنهم ينتصرون، حدث ذلك في زمان نورالدين محمود، ومن قبله في زمن عمادالدين زنكي، ثم في زمان صلاح الدين الأيوبي، ومن بعده قطز والظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون وكلّ هؤلاء من العظماء والمجددين والمجاهدين، ولم ينتصر المسلمون في كلّ معاركهم إلا وهم متّحدون، فلم يحدث أن كان المسلمون في فرقة وانتصروا، وهذا الأمر واضح في كتاب الله تعالى في أكثر من موضع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ، ولم يكن هناك أيّ نوع من الاهتمام بالعرق في نصرة المسلمين ضدّ الصليبيين في أيّ موقعة من المواقع، بل على العكس من ذلك، فقد رأينا موقف الأيوبيين والأتراك والمماليك والعرب، فالكلّ يتكاتف ويتعاون في الحرب ضدّ الصليبيين من منطلق إسلامي بحت، ولم نرى أيّ سقوط في هذه القصة إلا وأُتبع بقيام، وهذه الأمة بفضل الله عز وجل سيظلّ فيها من يحمل الراية، ولن تموت أو تقع راية الإسلام.



إنّ 200 سنة من الاحتلال لم تكن دافعاً للإحباط عند الظاهر بيبرس، أو عند سيف الدين قلاوون أو عند الأشرف خليل، والعدوّ على مدار هذه المدّة لم يكن سهلاً أبداً، وهذا العدو لم يكن دولة أو دولتين، بل كانت أوروبا كاملة، وأحياناً كانت تتّحد أوروبا الشرقية متمثلة بالدولة البيزنطية مع أوروبا الغربية متمثلة بالنصارى الكاثوليك في جيوش هائلة قادمة من ألمانيا والنمسا وفرنسا وانجلترا، فقد كانوا أعداء في منتهى القوة من ناحية العدد والعُدَّة، ومع ذلك نصر الله عز وجل المؤمنين عندما تمسكوا بكتاب الله سبحانه وتعالى.

إنّ فترة الحروب الصليبية من أشدّ الفترات شبهاً بواقعنا المعاصر، فهي تشبه إلى حدٍّ كبير الاحتلال اليهودي، ولن تُحرَّر فلسطين كاملة إلا بدراسة السنن ودراسة التاريخ.

كما أننا بحاجة إلى وقفة لدراسة دولة المماليك التي حرّرت العالم الإسلامي من الصليبيين تحريراً كاملاً، ومن قبل ذلك انتصرت انتصاراً مهيباً على دولة التتار العظمى، فدولة المماليك دولة قويّة جدّاً في تاريخ الدولة الإسلامية، حيث سيطرت على مناطق واسعة في وسط العالم الإسلامي، فقد سيطرت على مصر والشام والحجاز وأجزاء من اليمن في بعض فتراتها، وأجزاء من تركيا وأجزاء من العراق، فهي دولة ظلّت تحمل الراية الإسلامية قرابة الثلاثة قرون، في هذه الفترة رفعت راية الإسلام محاربة عدّة قوى حاربت المسلمين، وكما قلنا حاربت التتار والصليبيين، وبعد ذلك حاربت البرتغاليين الذين بدأ نجمهم يظهر في العالم الغربي بعد سقوط الأندلس، وتولّت دولة المماليك الدفاع عن المسلمين ضدّ هذه الدولة.



في كلّ تاريخ المماليك لم يظهر لليهود أيّ توجه للتوطن في فلسطين، فقد كانت القوة الغالبة للمسلمين، وكان هناك تسامح كبير حيث يُسمح لليهود بزيارة بيت المقدس وزيارة فلسطين، وفي بعض الأحداث النادرة جدّاً في التاريخ الإسلامي عندما كان يختلف اليهود مع المسلمين في بعض القضايا، كان الأمر يُعرض على القضاء المملوكي الإسلامي الذي كان يحكم لليهود إذا كان الحقّ مع اليهود، ومن أشهر هذه الحكايات ما حُكي عن السلطان قايتباي أحد أشهر سلاطين المماليك عندما حكم بقطعة أرض بين كنيس يهودي ومسجد، حكم بها لليهود عندما ثبت له أنّ الأرض ترجع أصولها لليهود، وتزامن هذا التسامح الإسلامي لليهود مع اضطهاد شديد لهم في أوروبا من النصارى الأوروبيين، لدرجة أنّه في سنة 690هـ (1290م) أصدر الملك إدوارد الأول ملك إنجلترا قرار بطرد كلّ الكفار من إنجلترا، من هم الكفار في تعريفه؟ هم اليهود، وبعد عدّة سنوات قليلة في سنة 706هـ (1306م) أصدر فيليب الأول ملك فرنسا قراراً بطرد كلّ اليهود من فرنسا إلا إذا تنصَّروا، وهذا إكراه واضح على الدّين، ومن هنا بدأ تغلغل اليهود في الكنيسة النصرانية، فبدأ يظهر ما عُرف بعنصر الصهاينة المسيحيين، فهؤلاء هم بالأصل يهود ودخلوا في الديانة النصرانية بُعداً عن التعذيب والطرد، ولكن بعد ذلك، ما سيأتي لاحقاً، غيروا كثيراً من حركة التاريخ في أوروبا، ومن بعد ذلك كان لهم أثر على الدولة الإسلامية.

على مدار الحكم المملوكي ورغم كثرة الفتن والصراعات، ظلّت فلسطين إمارة مملوكية، وسادها قدرٌ كبير جدّاً من الهدوء، لم يشبه الصراع والأذى إلا في أواخر أيام المماليك مع ظهور الدولة العثمانية.





تزامناً مع وجود الدولة المملوكية بدأ ظهور دولة قوية جدّاً ولكنّها بعيدة عن دولة المماليك وهي الدولة العثمانية التي ظهرت في قطع صغيرة جدّاً من الشمال الغربي من آسيا الصغرى، ومنذ بداية ظهور الدولة العثمانية كانت بداية جهادية، وعثمان بن طغرل الذي تُنسب إليه الدولة العثمانية كان رجلاً من أعظم المجاهدين في تاريخ الأمة الإسلامية، مع أنّ المساحة التي كان يحكمها كانت صغيرة جدّاً، ولكنّ روحه عالية، وهذا كان له أثر كبير ظهر على حياته وحياة أحفاده لمدة تزيد عن 400 سنة متصلة، منذ أن ظهر عثمان بن طغرل إلى نهاية عهد قوة الدولة العثمانية.

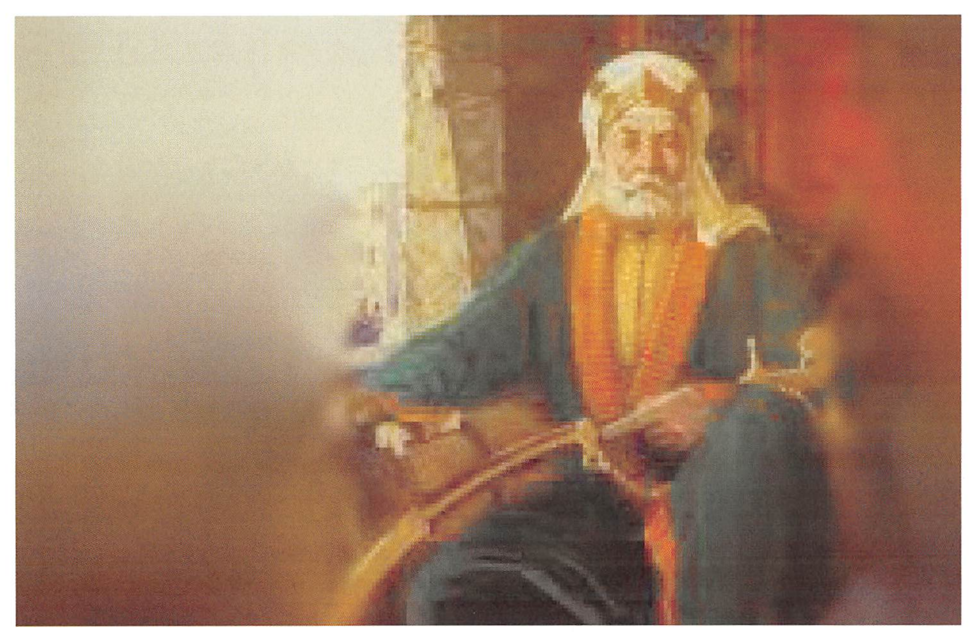
كان لعثمان بن طغرل شعار في حياته، وكان هذا الشعار هو شعار السلاطين طيلة حياتهم وهو: إما غازٍ وإما شهيد، فليس هناك احتمالية الفرار أو الهروب، وكان يسمي نفسه السلطان الغازي، وهكذا تَسمَّى سلاطين الدولة العثمانية من بعده، وكان له راية وهي علم تركيا إلى الآن، ومن بعده جاءت شخصية مؤثرة جدّاً وهو ابنه مراد الأول الذي حكم لمدة ثلاثين سنة، استطاع فيها أن يعبر إلى أوروبا لأول مرة في تاريخ المسلمين، بدأ بأخذ مدينة أدرنة في الجزء الأوروبي من تركيا الآن، وجعلها عاصمة الدولة العثمانية، وبدأ يلتف حول القسطنطينية دون أن يستطيع دخولها لحصانتها، ثم فتح جنوب بلغاريا وجنوب يوغوسلافيا، وفتح صوفيا، وفتح سالونيك في اليونان، وفتح كوسوفو، وهنا أريد أن أنقل لكم دعاء مراد الأول الذي قاله في ليلة فتح كوسوفو، قال: يا إلهي إني أقسم بعزتك وجلالك أنّني لا أبتغي بهذه الدنيا الفانية، ولكنّي أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك، يا إلهي قد شرَّفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك، فشرِّفني وزدني تشريفاً بالموت في سبيلك. فانتصر المسلمون في اليوم التالي انتصاراً كبيراً على الصرب في موقعة كوسوفو، واستطاعوا ضمّها إلى الدولة العثمانية الإسلامية، واستُشهد مراد الأول كما طلب من ربه سبحانه وتعالى في هذه الموقعة، ثم تولى من بعده ابنه بايزيد الأول لتدخل الدولة العثمانية في طور جديد من القوة.

الدولة العثمانية وضمُّ فلسطين

وصلنا إلى الحديث عن السلطان بايزيد الأول الذي يسمى في التاريخ بـ «الصاعقة» لسرعة انقضاضه على أعدائه رحمه الله، وفي آخر حياته تعرّض لكارثة وهي ظهور جديد للتّتار على يد تيمورلنك، وجاء من بعده مراد الثاني ليعيد من جديد السطوة للدولة العثمانيــة.

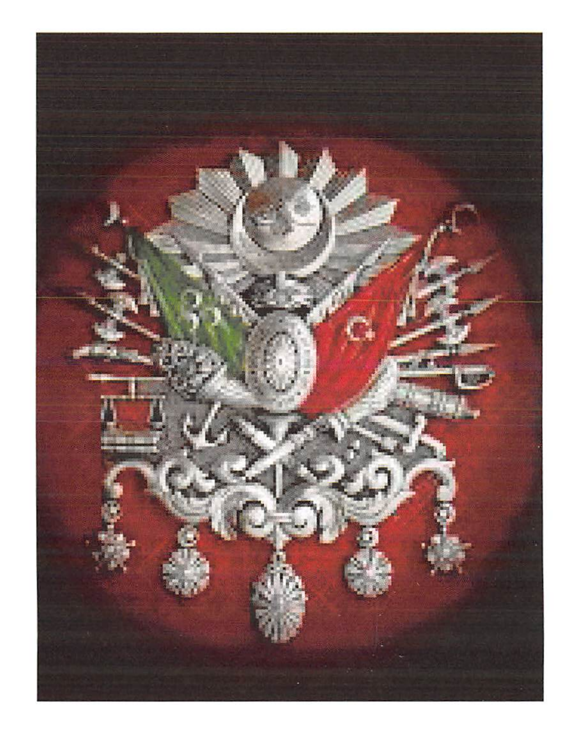
تولى مراد الثاني الحكم وعمره 18سنة فقط وذلك سنة 824هـ، إلا أنّه كان من كبار المجاهدين، واستمر حكمه إلى سنة 855هـ، أي أنّ حكمه استمر لـ 31 سنة، وفي أيام حكمه فتح ألبانيا بكاملها والمجر، وأعاد توحيد الأناضول بعد أن مزّقه التّتار، وعند وفاته ترك لنا أعظم هدية للمسلمين، وهي ابنه محمد الفاتح ابن مراد الثاني رحمهم الله جميعاً، ومحمد الفاتح من أشهر سلاطين الدولة العثمانية، تولى الحكم سنة 855 هـ إلى سنة 886 هـ هجرية الموافق (1451-1481م)، أي 31 سنة متصلة، ورغم توليه الحكم وعمره 22 سنة، إلا أنّه كان لديه خبرة الشيوخ والأكابر، وبعد أقلّ من ثلاث سنوات من ولايته استطاع أن يحقق حلم المسلمين، وأن يحقق صدق نبوءة الحبيب ﷺ، وأن يفتح القسطنطينية في سنة 857هـ (1453م)، ليحقق بذلك الحديث النبوي الشريف: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ» (رواه أحمد)






ذلك هو جيش الدولة العثمانية الذي تعرض للكثير من التشويهات في تاريخنا، ولم يكتفِ هذا البطل العظيم الشاب بهذا النصر المهيب على الدولة البيزنطية وإسقاط القسطنطينية وتحويلها إلى مدينة إسلامية سمَّاها «إسلامبول»، ثم بعد ذلك تحولت إلى «اسطنبول»،بل إنّه أكمل الطريق وفتح كلّ بلاد الصرب باستثناء مدينة بلغراد فقط، واستطاع أن يفتح أيضاً رومانيا وبلاد البوسنة، ودخل في زمانه أهل البوسنة في دين الله أفواجاً، وفي زمان محمد الفاتح انضم إلى الجيش العثماني 30 ألف شاب بوسني يجاهدون في سبيل الله بعد أن كانت أصولهم نصرانية، وفتح اليونان وكرواتيا والجبل الأسود وأجزاء من إيطاليا في مدينة اسمها أوترانت، وبدأ يجهِّز العدّة لفتح روما ليحقق الحديث النبوي العظيم الذي بشَّر فيه بفتح القسطنطينية وفتح روما، ولكن وافاه الأجل ومات رحمه الله ليترك للأجيال التي تأتي من بعده تحقيق هذا الحلم العظيم.

تولى الحكم من بعده ابنه بايزيد الثاني الذي حكم لـ 32 سنة، وكان يميل إلى السّلم، وحصل في عهده خلاف شديد مع دولة المماليك في عهد السلطان قايتباي المملوكي، وللأسف رغم كلّ محاولات الإصلاح بين الدولتين بدأ قايتباي تجهيز جيش لغزو الدولة العثمانية، وبدأ باستنفار الجنود من هنا وهناك، وهنا يبدأ ظهور اسم فلسطين من جديد، حيث يجنِّد أهل فلسطين التي كانت ولاية مملوكية، وفرض على أهلها ضرائب كثيرة مرهقة لتساعده في الحرب وتجهيز الجيش.



كان أهل فلسطين يرون أنهم سيحاربون الدولة العثمانية التي فتحت القسطنطينية ونصف أوروبا، وجيشها يرفع راية الإسلام، وهم ملتزمون بالشريعة الإسلامية، مما جعلهم غير راغبين بنصرة المماليك في هذه الموقعة، أضف إلى ذلك أنّه في عهد بايزيد الثاني والسلطان قايتباي سقطت الأندلس، فكانت كارثة كبيرة جدّاً على العالم الإسلامي في سنة 897هـ (1492م).

في سنة 918هـ (1512م) حصل تغيّر محوريّ في قيادة السلطنة العثمانية، فعندما تولى سليم الأول ابن بايزيد الثاني الحكم، وسليم الأول شخصية عسكرية، وكان لديه طموح كبير، واجه في بداية استلامه للحكم العديد من المشاكل، حيث تزامن مع بداية حكمه ظهور عدّة تطورات في العالم، وكان من أهم هذه التطورات ظهور الصفويين في إيران، وهي دولة شيعيّة اثنا عشرية، وكان لديها توجه للمدّ الشيعي نحو العالم الإسلامي السنّي، وبالفعل بدأت بتوجيه الجيوش إلى العراق، ثم بدأت بتشييع العراق بالقوة، فاستنجد أهل العراق بأقوى سلطان لدى السنّة وهو السلطان سليم الأول في اسطنبول، فَبَدَأ يحدُثُ نوعٌ من الاحتكاك بينه وبين الدولة الصفوية في إيران، وفي الوقت نفسه نشط جدّاً البرتغاليون، وكانوا أقوى الأساطيل الصليبية في ذلك الوقت، واكتشف فاسكو داجاما «رأس الرجاء الصالح»، وبدأ يهاجم الخليج العربي من الجنوب ويهاجم اليمن، وللأسف الشديد حصل تعاون مباشر وصريح بين البرتغاليين والصفويين في إيران، واتّحد الطرفان على حرب السنّة في الدولة العثمانية، وللأسف وقف المماليك على الحياد، فقد بعث لهم سليم الأول رسالة يقول فيها إنّه الآن يحارب البرتغاليين والصفويين الذين يشيّعون العالم الإسلامي، فلا بدّ من وضع دولة المماليك يدها في يد الدولة العثمانية لمواجهة الخطر، ولكن قانصوه الغورى الذي كان زعيم دولة المماليك في ذلك الوقت رفض التعاون مع الدولة العثمانية، واعتبرت الدولة العثمانية ذلك تعدّياً على حقوق المسلمين، فبدأت تحدث احتكاكات أكبر وأشدّ بين الدولتين.

تجاهل السلطان الأول كلّ تلك التحرشات من دولة المماليك، وتوجه بجيشه لحرب الدولة الصفوية في العراق بعد أن احتلها الجيش الصفوي، وهو في طريقه إلى بغداد مرَّ بإمارة إسلامية في منطقة الأناضول وكان اسمها ذي القادر أو دلغادر، وهذه المملكة كانت تابعة للمماليك، وأمير هذه الإمارة كان اسمه علي دولت قام بحرب الجيش العثماني، فاعتبر السلطان سليم الأول هذا الأمر حرباً مباشرة من دولة المماليك ضدّ الدولة العثمانية، ومع ذلك أَجَّلَ هذا الملف إلى أن وصل إلى العراق، واستطاع أن يتجاوز العراق إلى فارس ليلتقي بالجيش الصفوي في موقعة فاصلة في جالديران، وهي من أكبر المواقع في تاريخ الأمة الإسلامية سنة 920هـ (1514م)، وانتصر انتصاراً ساحقاً على الصفويين، بل ودخل إلى عاصمتهم تبريز في إيران، واستطاع أن يرسخ أقدام الدولة العثمانية في العراق بكامله، وفي شرق إيران أيضاً، ثم عاد بعد ذلك إلى اسطنبول وبدأ يدرس الملف المملوكي من جديد.



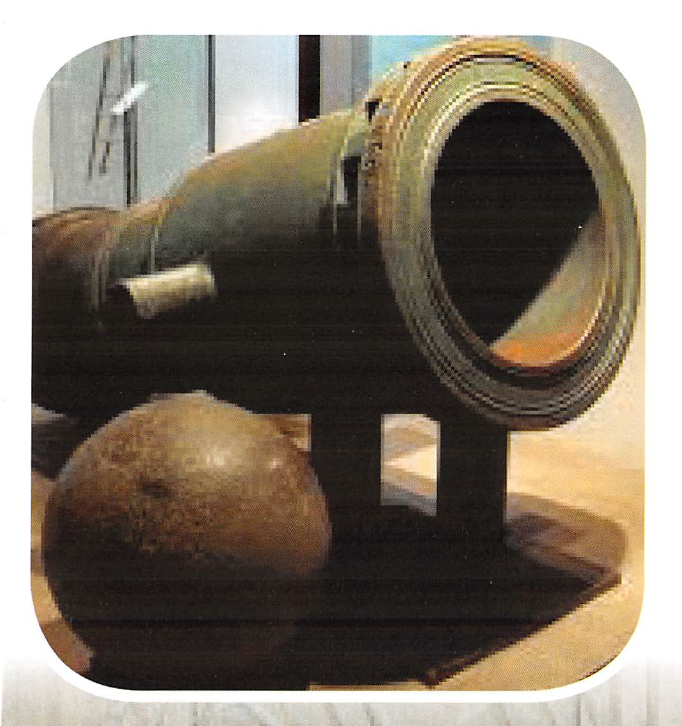


هنا أحسّ قنصوه الغوري أنّ هناك تدبيراً واضحاً لحرب دولة المماليك، فجهَّز جيشه وانطلق إلى شمال غرب حلب ليلتقي مع الجيش العثماني في موقعة مرج دابق الشهيرة في سنة 922هـ (1516م) والتي انتصر فيها سليم الأول وسُحق الجيش المملوكي، وقُتل قنصوه الغوري في هذه الموقعة، وبالتالي بَسَطَ سليم الأول يده على بلاد الشام كلّها، وضمَّ في شهور معدودة كلاًّ من سوريا وفلسطين ولبنان إلى الدولة العثمانية،

ثم توجه بعد ذلك إلى مصر المعقل الأخير لدولة المماليك، والتقى في موقعة الريدانية خارج أسوار القاهرة مع الأول أن ينتصر عليه انتصاراً كبيراً، وقُتل (طومان باي) وعُلِّق على باب زويلة كما هو معروف، وبذلك بدأ عهد جديد للمسلمين في هذه المنطقة وهو عهد الدولة العثمانية، أو قل عهد الخلافة العثمانية، حيث كانت المرة الأولى التي تُعلن فيها الدولة العثمانية عن خلافة المسلمين؛ لأنها وصلت إلى مساحات شاسعة شملت نصف أوروبا، والشام ومصر والعراق بكاملها، وبذلك نستطيع أن نقسم فترة الخلافة العثمانية إلى فترتين، الفترة الأولى هي فترة الدولة العثمانية التي كانت موجودة في زمن المماليك، وامتدت لـ 224 سنة، والفترة الثانية وهي فترة الخلافة العثمانية التي امتدت لـ 419 سنة، أي منذ سقوط المماليك سنة 923هـ إلى 1342هـ (1924م)، ولو جمعنا فترة الخلافة العثمانية مع فترة الدولة العثمانية فسيكون المجموع 643 سنة، وهو عمر الدولة العثمانية، وهذا أطول عمر دولة إسلامية في تاريخ المسلمين، ومع ذلك هي أكثر الدول التي تعرضت للتشويه، وكيف لا وهي التي حاربت أوروبا، فأوروبا وللأسف الشديد هي التي كتبت تاريخ المسلمين في عصرنا الحاضر.



بهذا الموقف تحولت فلسطين من إمارة مملوكية إلى إمارة عثمانية إلى آخر عهدها حتى دخول الاحتلال الإنجليزي، وكانت الأمور مستقرة إلى حدٍّ كبير في أوائل فترة الخلافة العثمانية، فبعد سليم الأول تولى الحكم ابنه سليمان الأول المعروف بالتاريخ بسليمان القانوني، الذي استطاع أن ينشر الإسلام أكثر وأكثر، وكانت هذه هي فترة القوة المفرطة للخلافة العثمانية، واستمرت لـ 48 سنة تقريباً، وأصبحت الدولة العثمانية أقوى دولة في العالم بلا منازع، وكانت تحكم في وقت واحد أكثر من عشرين مليون كيلومتر مربع، تضمّ بين طيّاتها أكثر من 30 دولة، وفي عهد سليمان القانوني ضمّ إليه الجزائر وليبيا، وضمّ تونس التي عادت من جديد للفرنسيين ثم أعاد ضمّها، وضمّ الأجزاء المتبقية من رومانيا، وفتح بلغراد والمجر بكاملها، واحتلّ شرق النمسا بكامله، ووصل إلى أسوار فيينا، كما أنّه ضمّ الجزيرة العربية واليمن، ووصل إلى سواحل الهند لنجدة المسلمين الذين استنجدوا به من سطوة البرتغاليين.



واهتم سليمان القانوني بقضية فلسطين وبنى أسوار القدس، ورمَّم الصخرة، واستمر فيما بدأ به سليم الأول من قانون، وهذا القانون يبيّن عمق النظرة عند سليم الأول وسليمان القانوني وهو منع اليهود منعاً باتّاً من السكن في فلسطين كلّها، فمنذ تلك الأيام والدولة العثمانية تدرك الأطماع اليهودية في أرض فلسطين، **ولماذا أصدر هذا القانون؟**

لأنّه بسقوط الأندلس أخرج الأسبان الصليبيون المسلمين واليهود من أرض الأندلس، وبالتالي ساح اليهود في الأرض يريدون مكاناً يأويهم، فلم يجدوا إلا الخلافة العثمانية، واستقبلهم السلطان بايزيد الثاني والسلطان سليم الأول في داخل الدولة العثمانية، ولكنّهم أصدروا قراراً بأن يعيش اليهود في أيّ مكان في الدولة العثمانية إلا فلسطين؛ لأنهم يعلمون أطماع اليهود فيها.

مع هذا التفوق الظاهر في حياة سليمان الأول، إلا أنّه كانت لديه بعض الأخطاء التي لم تؤثر في حياته، وإنما أثرت للأسف الشديد بعد وفاته، حيث أثرت على الدولة العثمانية وعلى حال المسلمين بصفة عامة، ومن هذه الأخطاء أنّه تزوج من روكسلان، وهي امرأة روسية يهودية، وليست المشكلة أنّه تزوج من يهودية ولكنّ المشكلة أنّه بدأ يسمع لها في أمور كثيرة،

ومن أخطر هذه الأمور أنها حجبت ولاية العهد عن ابنه مصطفى الذي كان من المجاهدين الكبار، وأعطت ولاية العهد لابنها منه وهو سليم الثاني الذي كان بعيداً كلّ البعد عن آليات الحكم وأدبيات القيادة التي كانت عند مصطفى ابن سليمان الأول، وبذلك اتخذت الدولة العثمانية منحىً جديداً في عهد سليم الثاني.

ومن الأخطاء الأخرى التي ارتكبها سليمان الأول في آخر عمره أنّه أعطى امتيازات كثيرة لفرنسا في داخل الدولة العثمانية، وهذه الامتيازات لم يكن لها الأثر الكبير في حياته لأنّ دولته كانت قوية جدّاً، ولكن كان لها أثر من بعده، ولماذا أعطى امتيازات لفرنسا؟ لأنّ فرنسا في بعض فترات حياتها كانت تشترك معه في حرب دولة النمسا، فالنمسا كانت عدوّة للطرفين، ونظير ذلك أعطاهم امتيازات داخل الدولة العثمانية، وكانت هذه الامتيازات هي بداية تدخل الأوروبيين في الدولة العثمانية، وهذا الأمر لم يظهر إلا بعد وفاة سليمان الأول.

فيا ترى ماذا سيحدث بعد وفاة سليمان القانوني في سنة 974 هـ ؟

وكيف سيكون وضع أولاده من بعده؟

وكيف سيكون وضع اليهود بعد ذلك في الدولة العثمانية؟

وكيف ستتصرف أوروبا مع الدولة العثمانية التي قهرت نصف أوروبا؟





فلسطين في عهد ضعف الدولة العثمانية

رأينا فيما سبق أنّ الدولة العثمانية وصلت إلى بداية الضعف، ولم يكن ضعفاً كاملاً إنما كان ضعفاً من قوة التوسع، ولكنّها ظلّت تمتلك كلّ البقاع التي كانت بحوزتها، ونستطيع القول إنّ زمن القوة في الدولة العثمانية كانت لمدة 200 سنة متصلة والـ 170سنة الأخرى هي مرحلة التوقف؛ أي من سنة 974هـ بعد وفاة سليمان القانوني (1567م) إلى سنة 1171هـ (1757م) كانت فترة توقف عن التوسع، ولكنّها ظلّت فترة قوة وسيطرة على كلّ البقاع التي تملكها الدولة العثمانية، وكانت في ذلك الوقت تقاتل في خمس جبهات، كانت تقاتل في الجبهة الغربية ملوك المجر والنمسا وصربيا وبلغاريا، ومن ورائهم أحياناً فرنسا والكنيسة الكاثوليكية في روما، وكانت تقاتل في الجبهة الشمالية الدولة الروسية النصرانية الأرثوذكسية التي كانت تحاول أن تُغِير على التّتر المسلمين، حيث إنّ دولة التّتر تحولت بعد ذلك إلى دولة إسلامية، فكانت الدولة العثمانية تدافع عن المسلمين ضدّ الدولة الروسية الكبرى في ذلك الوقت، وكانت في الجبهة الجنوبية تحارب البرتغاليين أصحاب أقوى أسطول بحري في ذلك الوقت، وكانت تقاتل الإسبان في جبهة البحر الأبيض المتوسط، الذين أخرجوا المسلمين من الأندلس، فكانوا يهاجمون أحياناً سواحل المغرب غير التابعة للدولة العثمانية، ومع ذلك كانت ترسل الأساطيل الإسلامية لنجدة المسلمين في المغرب، وكانت تقاتل في الجبهة الشرقية دولة الصفويين الشيعية المتعاونة صراحةً مع البرتغاليين الصليبيين.

في هذه الفترة، بدأت فترة التوقف عن التوسع وبداية الضعف، أخطر العلامات التي ظهرت فيها ولها علاقة بقصة فلسطين هو ظهور يهود الدونمة، فكما قلنا إنّ اليهود طُردوا من أوروبا كلّها، وتوجهوا إلى الدولة العثمانية وعاشوا فيها، وتمركزوا في مدينة سالونيك العثمانية الموجودة حالياً في اليونان، عاشوا فيها لفترة من الزمن إلى أن وُلد في سنة 1035هـ (1630م) رجل اسمه سباتاي زيفي وهو يهودي، وعندما بلغ 22 من العمر ادّعى أنّه المسيح المنتظر، وبدأ يجتمع حوله بعض اليهود وبعض النصارى، رغم أنّ زيفه ظهر عند الكثير منهم إلا أنهم اتّبعوه، وبدأ يجول في العالم، وفي داخل الدولة العثمانية التي كان لديها مساحة من الحرية، فزار فلسطين وأزمير، وجال في الكثير من المناطق الإسلامية والأوروبية، وعمل في سنة 1076هـ (1666م) مؤتمراً في أزمير حضره عدد كبير من اليهود، وقسّم العالم في هذا المؤتمر إلى 38 جزء، ووزّع هذه الأجزاء على اليهود الموجودين، وقال إنّ كلّ واحد منهم سيكون ملكاً على منطقته على اعتبار أنّه المسيح المنتظر، وظهرت منه جرأة أكبر من ذلك أنّه بدأ يخرج في مظاهرات في تركيا لإعطائه نصيبه من الملك المزعوم، مع أنهم عاملوه على أنّه مجنون، إلا أنّه بدأ يتكلم بشكل حازم، فتمّ القبض عليه وحُكم عليه بالإعدام.

وقبل أن يقيموا عليه الحدّ أعلن أنّه ترك اليهودية واعتنق الإسلام، وهكذا حفظ دمه ولم يُقَم عليه الحدّ، وبقي مسلماً في الظاهر، وأوعز إلى أصحابه أن يتركوا اليهودية وأن ينضموا إلى الإسلام حتى تغلغلوا في قيادات الدولة العثمانية في مختلف الأماكن على أنهم مسلمين، وفعلوا نفس الذي فعلوه في أوروبا عندما أجبرهم فيليب الأول ملك فرنسا على التنصّر أو ترك البلاد، فتنصّروا ودخلوا الكنيسة الكاثوليكية، وهذا ما أعادوا فعله في الدولة العثمانية حيث أعلنوا الإسلام وأبطنوا اليهودية في قلوبهم، وكوّنوا ما يسمى بـ «حركة الدونمة»، وكلمة الدونمة تعني الرِّدّة، أي الردّة عن اليهودية إلى الإسلام، فبدؤوا يتغلغلون في قيادات الجيش وفي أماكن أخرى مختلفة، بل ودخلوا إلى حزب الاتحاد والترقي الذي سنورد عنه بعض التفصيلات لاحقاً.



مع كلّ هذه المشاكل التي حدثت في عهد الدولة العثمانية في زمن التوقف عن التوسع وبداية الضعف، إلا أنّه كان لها بعض الفتوحات، ففتحت قبرص وضمّتها للدولة الإسلامية، وفتحت جورجيا في روسيا، وفتحت داغستان بجانب الشيشان، وجزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط.

وبعد ذلك دخلت الدولة العثمانية في زمن التراجع، من سنة 1171هـ إلى سنة 1327هـ، عندما سقطت الدولة (1757 إلى 1924م)، وهذه كانت فترة الضعف، وهنا أودّ أن أورد بعض الملاحظات على هذه الفترة، فترة الضعف الحقيقي للدولة العثمانية، وهي آخر 156 سنة في عمر الدولة العثمانية الذي تجاوز ستة قرون متصلة، في هذه الفترة وصلت أوروبا إلى درجة عالية جدّاً من التقدم العلمي، وهذا يتزامن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وهي فترة الثورة الصناعية في أوروبا، بينما لم تأخذ الدولة العثمانية بأسباب العلم وهذا ما أدى إلى سقوطها، وفي الوقت نفسه أَفَلَ نجم البرتغال وإسبانيا، وبدأ نجم فرنسا وإنجلترا يعلو، وأصبحت إنجلترا دولة كبرى تغزو العالم هنا وهناك، فاحتلّت الهند وأماكن أخرى من العالم، وبدأت تفكر في أملاك الدولة العثمانية، وكذلك الأمر مع فرنسا، بالإضافة إلى علوّ نجم روسيا الأرثوذكسية القيصرية.



كما ظهر في تلك الفترة، فترة الضعف العثمانية، ظهر المذهب البروتستانتي، وهو مذهب ظهر بزعامة مارتن لوثر سنة 1203هـ (1789م) بتأييد ضخم جداً من اليهود، بعد أن تظاهروا أنهم من النصارى وبدؤوا بتكوين المذهب البروتستانتي، وقال إنّ هذا المذهب يعتمد على العهد القديم أي التوراة، واهتموا بالتوراة أكثر من العهد الجديد وهو الإنجيل، وقالوا إنّ العهد الجديد فيه تحريفات كثيرة، ولذلك سنعتمد على العهد القديم، وذكروا أنّ من أصول البروتستانتية أن يُنشأ لليهود وطن خاص في فلسطين، وإذا تمّ لهم ذلك فإنّه سيؤدّي إلى نزول المسيح عليه السلام، وهذه التركيبة لم تكن في الدين النصراني، بل قام اليهود بإدخالها في المذهب البروتستانتي.



اضطُهد البروتستانت بعد ذلك من الكاثوليك فتركزوا في إنجلترا، واضطُهدوا اضطهاداً أكبر فرحلوا إلى البلاد التي اكتشفها الإسبان وهي أمريكا، ولذلك معظم الأمريكان على المذهب البروتستانتي الذي يرى رؤيا واضحة أنّه لا بدّ لنزول المسيح المنتظر أن تُقام لليهود دولة في فلسطين، ومن هنا نفهم لماذا تقف أمريكا مع اليهود، ولماذا تقف إنجلترا مع اليهود، ولماذا ساهمت إنجلترا مساهمة كبيرة في إنشاء دولة لليهود في داخل فلسطين، كلّ ذلك بسبب التحريفات الكبيرة التي وضعها اليهود في المذهب البروتستانتي من جراء دخول اليهود إلى الديانة النصرانية متخفّين بعد الاضطهاد الكبير الذي تعرضوا له في أوروبا.

تزامن مع ظهور المذهب البروتستانتي في أوروبا الثورة الفرنسية سنة 1203هـ (1789م)، وظهور الثورة الفرنسية صاحبه سحق لأعداد كبيرة من المعترضين في أوروبا، ولكن في الوقت نفسه صاحبه ظهور أوروبا الحديثة وظهور العلمانية وفصل الدين عن الدولة وظهور فكرة القومية، ورسّخت فرنسا فكرة القومية ليس في أوروبا فقط ولكن في العالم أجمع، وكان لفكرة القومية هذه أثر كبير جدّاً في إسقاط الدولة العثمانية.

بعد الثورة الفرنسية ظهرت فرنسا كدولة قوية، وظهر ملك من أعظم ملوك فرنسا بل هو أشهرهم وهو نابليون بونابرت، وحاول التوسع وإنشاء إمبراطورية فرنسية كبيرة، وأولى الأماكن التي فكر فيها هي الدولة العثمانية، فجهّز جيشه وبدأ يهاجم الدولة العثمانية في عقر دارها في مصر؛ ومصر كانت في ذلك الوقت ولاية عثمانية مثل فلسطين، وقد دخلها نابليون بسهولة فاجأته وبقي فيها لثلاث سنوات، إلا أنّ طموحاته كانت كبيرة جدّاً، فخرج من مصر واتجه إلى فلسطين وحاصر عكا، إلا أنّه فوجئ بحصانة عكا الشّديدة حيث حاصرها لثلاثة أشهر دون أن يستطيع فتحها، بل وسقط منه في هذا الحصار أكثر من ألفي قتيل فرنسي، ولكن ما يهمنا هنا أنّه أثناء حصاره لأسوار عكا قام بدعوة كلّ يهود العالم أن يأتوا لينشؤوا وطناً قومياً لهم؛ لأنّ الثورة الفرنسية تبنّت المذهب البروتستانتي الذي كان مضطهداً من أوروبا الكاثوليكية، وبالتأكيد هذا الأمر أزعج إنجلترا وروسيا وبالطبع الدولة العثمانية، أما سبب انزعاج إنجلترا وروسيا أنهما كانا يتنازعان مع فرنسا على زعامة العالم، فعرضت إنجلترا وروسيا على الدولة العثمانية المساعدة ضدّ الفرنسيين، وبالفعل تمّت هذه المساعدة، فدخلت الجيوش العثمانية الإنجليزية الروسية واستطاعت أن تُخرج نابليون بونابرت، وكان نابليون قد أَسَرَ ثلاثة آلاف أسير عثماني قتلهم جميعاً قبل عودته إلى فرنسا، هذه هي فرنسا التي يقولون إنها أتت بالنور والعدل إلى العالم في ذلك الزمن.

ومن المؤكد أنّ إنجلترا وروسيا لم تُخلّص مصر وفلسطين من الفرنسيين حبّاً بالمسلمين أو حبّاً بالدولة العثمانية، بل إنّ السبب الحقيقي هو الأطماع الخاصة بها، فبمجرد خروج الفرنسيين من مصر وفلسطين فكر الإنجليز باحتلال العالم الإسلامي، فقامت الدولة العثمانية بإرسال أحد جيوشها لإنقاذ مصر من الاحتلال الإنجليزي، والزعيم الذي أرسلته لإنقاذ مصر للأسف الشديد هو الذي أصبح أكبر الشوكات في حلق الدولة العثمانية وهو محمد علي.

كان محمد علي أحد رعايا الدولة العثمانية، حيث أُرسل على رأس قوة من الجيش العثماني لإنقاذ مصر من الإنجليز، ووصل إلى مصر سنة 1805م، وبعد تحايلات كثيرة، وبعد أن قتل بقايا المماليك الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة العثمانية، وبعد أن قتل عدداً من العلماء، سيطر على الأمور في مصر، بل واستقل بمصر عن الدولة العثمانية ليعزل بذلك مصر، وبدأ يتوجه توجهاً واضحاً لفرنسا وإنجلترا.

كان محمد علي شخصية نفعية لا يبحث إلا عن مصلحته وعن وضعه الاجتماعي والسلطاني، وكان من أصول ألبانية ملتحقاً بالجيش العثماني، أراد أن يُنشأ له ولعائلته دولة خاصة به ويستقل بذلك عن الدولة العثمانية، وبالطبع وجدت فيه الدولة الإنجليزية والفرنسية حلماً كبيراً فساعدوه ونصروه، ولهذا هم يقولون إنّه صنع مصر الحديثة، والذي صنع مصر الحديثة توجهاته نحو الإنجليز والفرنسيين، وكان لديه حلم بالتوسع، فساعدته إنجلترا في ذلك فبعثت له جيشاً وتوجه به إلى فلسطين واحتلها، وبهذا خرجت فلسطين من سيطرة الخلافة العثمانية وأنضمت إلى سيطرة محمد علي المنشق عن الدولة العثمانية، وكلّ المشاكل التي ستحدث بعد ذلك في أيام الخديوي إسماعيل وغيره من أولاد محمد علي لم يكن له علاقة بالخلافة العثمانية، ففي الظاهر أنّه تابع للخلافة العثمانية ولكن في الواقع هو منفصل كلّ الانفصال عنها.

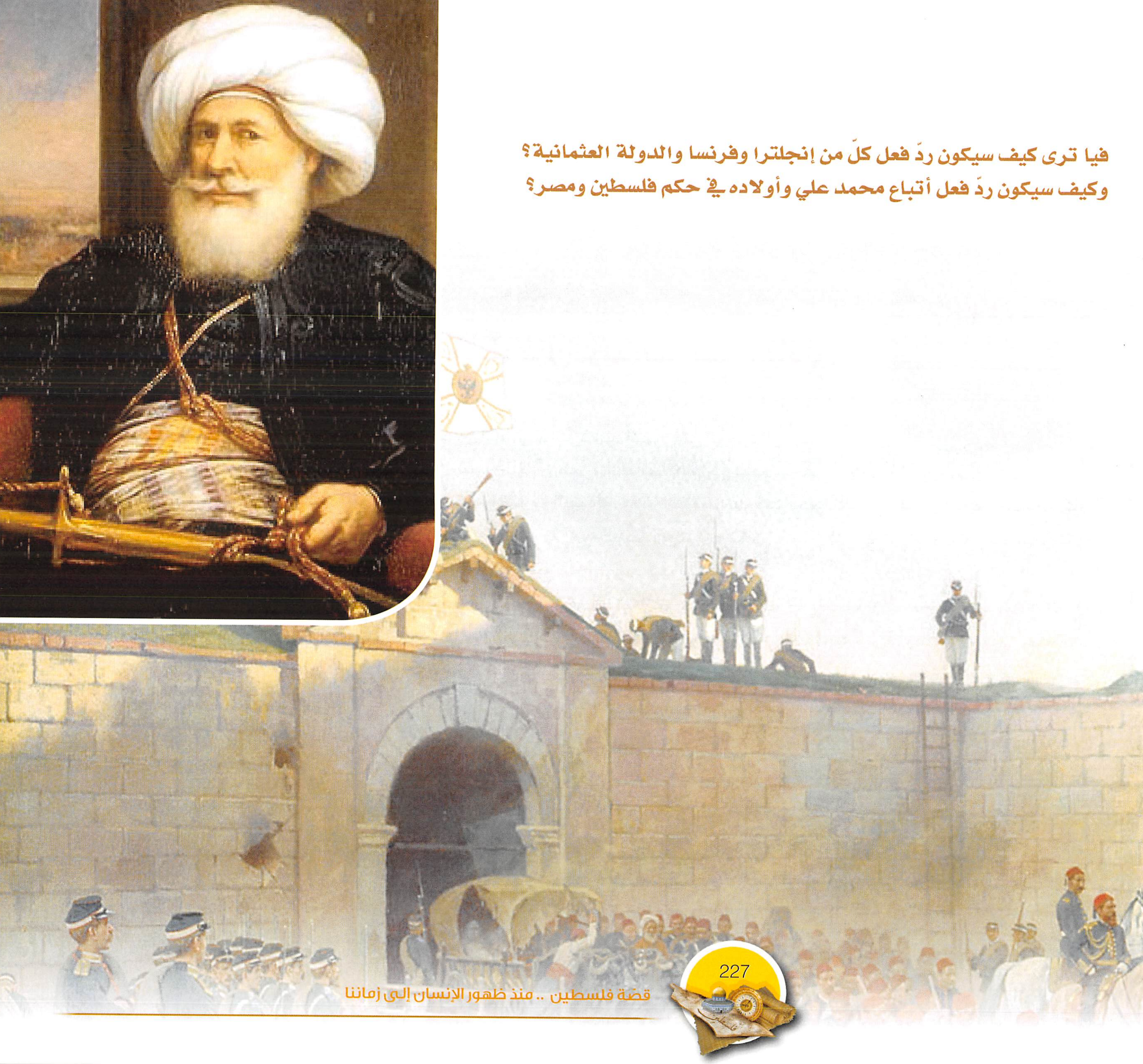
أما روسيا فدعمت الخلافة العثمانية في حربها ضدّ محمد علي، وبدأ محمد علي يحارب الدولة العثمانية صراحةً، بل وانتصر عليها في أكثر من موقعة في سوريا والأناضول، وأصبح الطريق له مفتوحاً إلى اسطنبول، إلا أنّ هذا الأمر أزعج الذين ينصرونه، أي أزعج فرنسا وإنجلترا لأنهم نصروه ليس ليصبح قوياً بل ليهدم الدولة العثمانية، فعندما بدأ يتوسع وتكبر قوته بدؤوا ينصرون الدولة العثمانية ضدّ محمد علي، وللأسف عميت أبصار المسلمين عن الوضع الصحيح في ذلك الوقت وعن الوحدة في وجه الأطماع الصليبية، فبدأ المسلمون يتعاونون مع الإنجليز تارة ومع الفرنسيين تارة أخرى، ومع الألمان فيما بعد تارة أخرى، ليحاربوا بعضهم البعض.



وفي سنة 1248هـ (1832م) وقّعوا معاهدة اسمها كوتاهيه اتفقوا فيها على أن يرجع محمد علي عن احتلال اسطنبول، وأُقِر فيها أيضاً أن يحكم محمد علي مصر طوال فترة حياته وألا يرتبط بالدولة العثمانية، وعلى أن يكون له رأي في اختيار وُلاة الشام، وعندما وجد محمد علي اصطفاف إنجلترا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية ضدّه اضطر إلى الموافقة على هذه المعاهدة مع رغبته في عدم إتمامها، فرجع إلى مصر وفي نفسه أشياء من هذا الأمر، ومع مرور الوقت عاد يوسِّط من جديد الدولة الإنجليزية لصالحه للضغط على الدولة العثمانية لتعطي له الحكم في مصر ليس في فترة حياته فقط ولكن لأولاده من بعده، على أن يُعطَى الشام في مدّة حياته، فوافقت إنجلترا على هذا الأمر وضغطت على الدولة العثمانية، فأخذ محمد علي حكم الشام مدّة حياته وحكم مصر له ولأولاده من بعده، وبذلك دخلت مصر وفلسطين في حكم محمد علي.

ومما يُذكر في هذا الأمر أنّ الفلسطينيين عانوا معاناة كبيرة جدّاً في فترة حكم محمد علي، وقاموا بعدة ثورات من أشهرها ثورة القدس التي قام بها عشرة آلاف فلسطيني مجتمعين سنة 1250هـ (1834م) لكثرة الضرائب التي فرضها على الفلسطينيين، وقمع محمد علي هذه الثورة بمنتهى القوة على يد ابنه إبراهيم باشا، وكان أول طلب طلبته إنجلترا من محمد علي عندما استلم حكم فلسطين أن تعيِّن لها قنصلاً في داخل القدس، ووافق محمد علي على ذلك، فأرسلت الحكومة الإنجليزية قنصلاً لها إلى القدس، وكانت أول رسالة قُدِّمت لهذا القنصل أن يقدم الحماية الكافية لليهود في أرض فلسطين، وهذا ما سيكون له آثار كبيرة بعد ذلك.





فيا ترى كيف سيكون ردّ فعل كلّ من إنجلترا وفرنسا والدولة العثمانية؟
وكيف سيكون ردّ فعل أتباع محمد علي وأولاده في حكم فلسطين ومصر؟



فلسطين في عهد السلطان عبدالحميد الثاني

بعد أن حرصت إنجلترا على وضع قنصل لها في داخل القدس بدأت تساعد اليهود على الهجرة إلى أرض فلسطين قدر المستطاع، وبدأت مشاريعهم تلاقي شيئاً من النجاح لولا أن ظهر في العالم الإسلامي شخصية غيَّرت كثيراً من تخطيطات الإنجليز واليهود، وعطلت إلى حدٍّ كبير المشاريع اليهودية، وهذا الشخص هو عبدالحميد الثاني سلطان الدولة العثمانية، كان هذا الرجل من أعظم خلفاء الدولة العثمانية، ولولا أنّه ظهر في زمن الضعف والتراجع لكان له شأنٌ آخر في تاريخ الدولة العثمانية، ولكنّه وللأسف ظهر في زمن انتشر فيه الأقزام، وعمل ما كان يستطيع عمله بجهود كبيرة جدّاً.

تولى الحكم سنة 1293هـ إلى 1328هـ (1874 إلى 1909م)، وحكم 35 سنة تقريباً، وحاول قدر ما يستطيع أن يجمّع من جديد شتات الدولة العثمانية، وأن يقاوم الأطماع الإنجليزية والفرنسية والروسية في الدولة العثمانية، وعمل جهوداً إصلاحية كبرى، وعندما استلم الحكم كان عدد اليهود في فلسطين حوالي 14 ألفاً، وأنشؤوا مستعمرة صغيرة في شمال فلسطين بمعاونة الإنجليز، إلا أنّ هذه المستعمرة كانت صغيرة للغاية، ولم يكن لهم وجود مطلقاً في القدس، تزامن استلام عبدالحميد الثاني للحكم مع استمرار الاضطهاد لليهود في روسيا، حيث كانت روسيا تضمّ أعداداً كبيرة جدّاً من اليهود، يُقدَّر عددهم بمليون يهودي، وقامت فيها دعوة اللاسامية أو معاداة السامية، وبدأت إنجلترا وفرنسا بالضغط على الدولة العثمانية لاستقبال المهاجرين من روسيا، ونتيجةً للصلاحيات الكبرى التي أُعطيت لفرنسا وإنجلترا في داخل الدولة العثمانية، فقد قَبِلَ السلطان عبدالحميد الثاني بوجود اليهود داخل الدولة العثمانية على ألا يسكنوا في فلسطين؛ لأنّه كان يدرك أنّ اليهود يأتون من جميع أنحاء العالم من أجل فلسطين، وتدخّل السفير الأمريكي للمرّة الأولى للضغط من أجل إنشاء وطن قومي لليهود في داخل فلسطين، ولا ننسى هنا أنّ السفير الأمريكي وأمريكا كلّها على المذهب البروتستانتي الذي فيه عقيدة إلزام وجود وطن قومي لليهود في فلسطين حتى ينزل المسيح المنتظر، وعندما تدخّل السفير الأمريكي لدى الدولة العثمانية قال السلطان عبدالحميد كلمة جميلة جدّاً: لن أسمح لليهود بالاستقرار في فلسطين ما دامت الخلافة العثمانية قائمة.



في سنة 1299هـ (1882م) وقعت كارثة مروِّعة في العالم الإسلامي، حيث احتُلَّت مصر من قِبَل الإنجليز، وأعقب هذا الاحتلال فصل مصر عن فلسطين، وكان هذا الاحتلال خطوة تمهيدية لإنشاء وطن قومي لليهود في داخل فلسطين، وهكذا أصبحت فلسطين محاصرة من جنوبها بالإنجليز الذين لديهم رغبة في ترسيخ أقدام اليهود في فلسطين.

والكارثة الثانية التي ظهرت قبل عهد السلطان عبدالحميد إلا أنها نَمَت في عهده وهي مسألة القوميات، ونشأت جمعية عُرفت باسم تركيا الفتاة، أُنشئت في باريس وكان لها فروع أخرى كثيرة في أنحاء العالم، وكان أشهر تلك الفروع فرع في سالونيك في اليونان، المكان الذي يتواجد فيه الكثير من اليهود، بالإضافة إلى فرع في برلين وفرع في اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية.

دعت جمعية تركيا الفتاة إلى ما دعت إليه الثورة الفرنسية، فالثورة الفرنسية كانت تدعو إلى القومية، فالفرنسيون فرنسيون والإنجليز إنجليز وهكذا، وأن تُقسم البلاد حسب العِرق والجنس والعنصر، وهذا ما دعت إليه جمعية تركيا الفتاة أن يُقسَّم العالم الإسلامي حسب العرق والجنسية، وبدأت تُعلي من شأن العرقية التركية على حساب العرقية العربية، وكبُرت هذه الجمعية بشكل كبير تحت رعاية فرنسا وإنجلترا، وأنشأت لها جناحاً عسكرياً سُمِّي بـ «جبهة الاتحاد والترقي»، ومعظم المنتمين لها لديهم أفكار قومية، ومعظمهم علمانيون لا يعترفون بالدين، ويؤيدون المنهج الذي سارت عليه الثورة الفرنسية، وهو فصل الدين تماماً عن الدولة، وضمَّت هذه الجمعية عدداً كبيراً من جنود الجيش العثماني الذين كان لديهم نزعة علمانية، وغير ملتزمين بالإسلام، ولاقت هذه الجمعية التأييد القوي من يهود الدونمة، وتغلغل هؤلاء اليهود الذين يدّعون الإسلام في الظاهر في جمعية تركيا الفتاة، وبدأت تنتشر أفكار القومية في العالم الإسلامي أجمع بما فيه العالم العربي، حيث ظهرت في العالم العربي جمعيات تدعو إلى القومية العربية لمواجهة القومية التركية، وكانت هذه بداية مأساة الدولة العثمانية.

لم يكن هذا الأمر سحراً أو دَجَلاً، إنما هي حسابات تم حسابها بناءً على الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، وهي جهود بُذلت وخطط خُطِّطت تزامناً مع ضعف الدولة العثمانية، وغياب كاملٍ للفكر الإسلامي الصحيح عند عموم الشعوب الإسلامية، بل عند معظم العلماء المسلمين في ذلك الوقت، ما أدّى إلى الكارثة التي نحن الآن بصددها.

بالإضافة إلى ذلك سعى هرتزل إلى الاعتراف الدولي بهذا الكيان الجديد، فبدأ يتجه إلى الدول القوية في ذلك الوقت، فاتجه إلى ألمانيا ولم يجد عندها صدىً كبيراً، ثم اتجه إلى روسيا وقابل وزير المالية الروسي، وطلب مساعدته في إقامة وطني يهودي في فلسطين، فتساءل الوزير: ولماذا أساعدكم؟ فقال له هرتزل: لأنّكم تضطّهدون اليهود ولديكم مشكلة في معاداة السامية، ونحن بذلك سنريحكم من اليهود جميعاً. فقال له الوزير: نحن نفضِّل أن نتخلص من اليهود لا عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ولكن عن طريق إغراقهم في البحر الأسود، ومع ذلك لم ييأس هرتزل فذهب إلى إنجلترا، وأجرى مباحثات مع الإنجليز فوجد ضالّته في إنجلترا، حيث إنّ إنجلترا منذ البداية ترغب في إقامة وطن قومي لليهود في داخل فلسطين، كما أنّها وجدت في اليهود حليفاً محلياً قوياً داخل الأراضي الإسلامية، فالفرنسيون كانوا متحالفين مع الموارنة، والروس حلفاء للأرثوذكس، والإنجليز حلفاء للدروز إلا أنّ الدروز لم يكونوا بالقوة الكافية التي تُرضي طموح الإنجليز في المنطقة، فسعوا لإيجاد حليف محلي في داخل البلاد الإسلامية وهم اليهود، كما أنّ الأموال اليهودية كانت إغراءًا كبيراً للإنجليز، فعندما حاول الإنجليز شراء حقوق قناة السويس، لم يجدوا المال الكافي، فاقترضت حكومتهم من بنك روتشيلد اليهودي في إنجلترا، أضف إلى ذلك الموقع الاستراتيجي الخطير لفلسطين، فهي معبر إلى الهند حيث كانت المستعمرات البريطانية، وهي خطّ الدفاع الأول ضدّ المسلمين، وستكون حجر عثرة أمام إعادة إنشاء الخلافة العثمانية.



المقدمة للحضارة ضدّ البربرية. ولم يكتفِ هرتزل بكلّ ذلك بل ذهب إلى رأس العالم الإسلامي، فقد ذهب إلى السلطان عبدالحميد الثاني وحاول إغرائه بإغراءات كثيرة، وعندما قابله السلطان عبدالحميد الثاني كان خارجاً من هزيمة كبيرة، حيث مُزِّق الجيش العثماني، وأفلست الخزانة العثمانية نتيجة الحرب.

عرض هرتزل على السلطان عبد الحميد الثاني 150 مليون ليرة ذهبية لجيب السلطان الخاص، بالإضافة إلى سدّ جميع ديون الدولة العثمانية، وبناء أسطول للدولة العثمانية بتكلفة ١٢٠ مليون فرنك ذهبي فرنسي، بالإضافة إلى إعطائه قرضاً بدون فوائد بقيمة ٣٥ مليون ليرة لإنعاش الخزانة العثمانية، وبناء جامعة عثمانية في القدس، وتهدئة الأوضاع في الغرب بالنسبة لقضية الأرمن، كلّ تلك العروض من هرتزل للسلطان عبدالحميد الثاني في مقابل إعطائه مستعمرة خارج القدس، وأن يسمح لليهود بالهجرة إلى أرض فلسطين.

ومع كلّ تلك الإغراءات إلا أن السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله رفض هذه العروض رفضاً قاطعاً، وقال تلك الكلمات الرائعة، قال: على هرتزل ألا يتقدم خطوة واحدة في هذا الشأن، لا أستطيع بيع بوصة واحدة من البلد لأنّه ليس ملكي بل ملك شعبي، لقد أوجد هذه الإمبراطورية بدمه وسوف نغطيها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها. ثم قال: قد يأتي يوم يأخذ فيه هرتزل هذه البلاد بلا ثمن، ولكن لن يأخذها دون أن تُرشَّح أجسادنا على هذه البلاد.

هذه الكلمات قالها من قلبه بصدق رحمه الله، وخرج هرتزل من هذه المفاوضات وفي ذهنه النيّة واضحة، وقال: لا يمكن أبداً إقامة سلطان لليهود في داخل فلسطين إلا بإقصاء السلطان عبدالحميد الثاني.

فيا ترى ماذا سيفعل هرتزل واليهود لإقصاء السلطان عبدالحميد الثاني الشريف سلطان الدولة العثمانية الذي منع كلّ محاولات اليهود للسكن في فلسطين؟
وما هو أثر حزب الاتحاد والترقي العلماني الذي نما في داخل الدولة العثمانية؟
وما أثر كلّ ذلك على الحركة الإسلامية في فلسطين؟





فلسطين بعد السلطان عبدالحميد الثاني

خرج ثيودور هرتزل من هذه اللقاءات بهدفين، إسقاط الخلافة العثمانية، وقال إنّه لا سبيل أبداً لإقامة الدولة اليهودية في داخل فلسطين إلا أن تُسقط الدولة العثمانية، والأمر الآخر أنّه لا بدّ من إسقاط الحكم القيصري الأرثوذكسي في روسيا، لأنها تعدّ حجر عثرة أمام الهجرة اليهودية من روسيا إلى فلسطين، فبدأ بتشجيع يهود الدونمة الذين تغلغلوا في حزب الاتحاد والترقي، ويشجع حزب تركيا الفتاة على التركيز على قضية القومية، وبدؤوا بإبراز بعض الرموز القومية في داخل الوطن العربي، بالإضافة إلى إقامة جمعيات تدعو للقومية العربية، وكان على رأسها النصارى المبعثرين هنا وهناك في العالم الإسلامي، خاصةً في مصر ولبنان، وبدأ يحصل نوع من النزعة القومية العربية في مواجهة النزعة القومية التركية، وحدث شقاق كبير في العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه قرروا التخلص من السلطان عبدالحميد الثاني، وحاولوا في بداية الأمر اغتياله كعادة اليهود لإنهاء الأمر بسرعة إلا أنهم فشلوا، فلجأوا إلى عملية إسقاط منظم عن طريق تشويه صورته في كلّ مكان، وتلميع بعض الرموز التركية كبديل للسلطان عبدالحميد الثاني، وفي ظلّ غياب الروح الإسلامية العالية، وفي ظلّ تغلغل العلمانية وبُعد الناس عن الشرع الإسلامي، خدعوا الشعب التركي للأسف الشديد والشعوب الإسلامية، فقامت بعض الثورات ضدّ السلطان عبدالحميد الثاني في اسطنبول، وفي غيرها من المدن التركية، وانتهى الأمر في سنة 1909م بإسقاط السلطان عبدالحميد الثاني وقيام لجنة الاتحاد والترقي لتهيمن على الحكم في تركيا، مع وضع محمد الخامس أو محمد رشاد كخليفة بديل للسلطان عبدالحميد الثاني، وبالطبع لم يكن له أيّ وزن، بل كان مجرد صورة لتيسير الأمور.

كان معظم أعضاء حزب الاتحاد والترقي من يهود الدونمة، وأنشؤوا أول وزارة بعد إسقاط السلطان عبدالحميد الثاني، وكانت تضم 13 وزير، وزير واحد عربي، وتسع وزراء أتراك، وثلاث وزراء يهود، وقامت بعض المظاهرات في داخل تركيا بسبب وجود يهود في تلك الوزارة، ولكنّ حزب الاتحاد والترقي قمع هذه المظاهرات بالقوة، وبدأ يحصل ردع للمسلمين في تركيا وفي غيرها، وقال السلطان عبدالحميد الثاني تلك المقولة المشهورة: إنّ سبب خلعي هو إصراري على منع اليهود، وإصرار اليهود على تأسيس وطن قومي لهم في فلسطين.

وكان الوزير البريطاني قد علّق على الوضع في تركيا في رسالة له لوزير الخارجية البريطاني آنذاك في سنة 1910م قال فيها: إن هذه اللجنة (لجنة الاتحاد والترقي) تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً تركياً يهودياً في الأساس. وهذا يعني أنّ العالم كلّه كان يرى أنّ اليهود متعاونون مع الأتراك في إسقاط السلطان عبدالحميد الثاني رحمه الله، وكان من أوائل القرارات للجنة الاتحاد والترقي إلغاء بند منع هجرة اليهود إلى فلسطين، وسمحوا بذلك بأعداد كبيرة، وسمحوا لهم بشراء الأراضي هناك، وعزلوا الأمراء العثمانيين على فلسطين الذين كان ولاهم السلطان عبدالحميد الثاني، وكان قد اختارهم بحيث يكون لديهم حمية دينية على فلسطين، فعزلوهم واستبدلوهم بآخرين علمانيين، كلّ ذلك تزامن مع نذر الحرب العالمية الأولى.



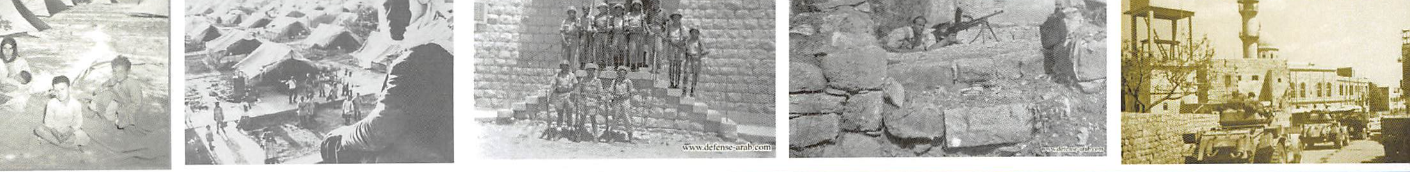
قامت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م واستمرت إلى سنة 1918م، فدفعت لجنة الاتحاد والترقي بالتنسيق مع إنجلترا الدولة العثمانية دفعاً لدخول الحرب العالمية الأولى لإنهاك قوى الدولة العثمانية تماماً، فأدخلوها في حزب ألمانيا ووقفوا هم في الحزب الآخر الذي يضم إنجلترا وفرنسا وروسيا، ثم انضمت إليهم فيما بعد أمريكا، ثم انضمت إليهم إيطاليا مقابل أن تُعطى ليبيا، وبالفعل ساعدت إنجلترا وفرنسا على إعطاء ليبيا لإيطاليا.

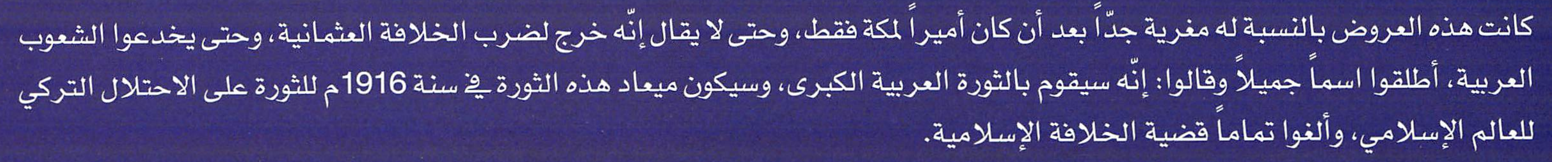
في سنوات الحرب العالمية الأولى بدأ احتضار الجيوش العثمانية المبعثرة في أوروبا، فبدأت تتلقى الهزائم، وتقوم ضدّها الثورات المؤيَّدة من الإنجليز والفرنسيين في الصرب واليونان، حتى دُمِّرت القوة العسكرية العثمانية تماماً، وكان هناك 100 ألف جندي تركي موجودين في أرض فلسطين، وهذا دلالة على اهتمام الدولة العثمانية بأرض فلسطين، إلا أنّ هؤلاء الجنود وُلِّيَ أمرهم لشخصية عابثة في التاريخ الإسلامي وهو مصطفى كمال، الذي اشتُهر فيما بعد بمصطفى كمال أتاتورك.





حاول الإنجليز تلميع شخصية أخرى داخل العرب ليعملوا مواجهة ما بين العرب والأتراك، فاختاروا الشريف حسين الذي كان أمير مكة في ذلك الوقت، وتمت مباحثات بينه وبين ماكمهون المندوب السامي البريطاني على مصر في ذلك الوقت في سنة 1915م، واتفقوا على أن يضرب الشريف حسين الدولة العثمانية في ظهرها، ويحتل ميناء العقبة الذي كان تحت السيطرة العثمانية لفتح المجال للجيوش الإنجليزية لدخول فلسطين، كلّ ذلك مقابل أن يُعطى الشريف حسين مملكة تسمى بمملكة العرب، حتى إنّه عندما سُئل عن حدود هذه المملكة، قال لهم: ليست مشكلة، ستُعرف فيما بعد!!فقالوا له: ستُعطى الأردن وسوريا باستثناء الاسكندرونة لأنها ستُهدى لتركيا، وكذلك بدون لبنان لأنّ فرنسا ستأخذها، وتأخذ الجزيرة العربية باستثناء الأطراف، أي بدون اليمن والخليج العربي وجنوب العراق، كلّ ذلك من أجل إحاطة المملكة العربية بالجيوش الإنجليزية من كلّ مكان.





كانت هذه العروض بالنسبة له مغرية جدّاً بعد أن كان أميراً لمكة فقط، وحتى لا يقال إنّه خرج لضرب الخلافة العثمانية، وحتى يخدعوا الشعوب العربية، أطلقوا اسماً جميلاً وقالوا: إنّه سيقوم بالثورة العربية الكبرى، وسيكون ميعاد هذه الثورة في سنة 1916م للثورة على الاحتلال التركي للعالم الإسلامي، وألغوا تماماً قضية الخلافة الإسلامية.

وفي 1 يونيو سنة 1916م الموافق لـ 30 رجب 1334هـ قام الشريف حسين بالثورة العربية الكبرى، وتقدمت جيوشه بقيادة ابنه فيصل ومعهم لورنس العرب وهو ضابط إنجليزي يهودي، فقامت الجيوش العربية بغزو العقبة وضرب الأتراك من حيث لا يتوقعون، وتمّت السيطرة على ميناء العقبة، وفُتح الطريق أمام الجيوش الإنجليزية لتُسرع بالدخول إلى فلسطين من سيناء.

كارثة أخرى ظهرت في هذه الآونة تزامناً مع الثورة العربية الكبرى وهي ظهور معاهدة سايكس بيكو على صفحات الجرائد، سياكس هو المندوب السامي الإنجليزي لشؤون الشرق الأدنى، أما جورج بيكو فهو وزير خارجية فرنسا وكان قنصل فرنسا السابق في بيروت، عقدا معاً اتفاقية في لوكسمبورغ في روسيا، وفي هذه الاتفاقية قاما بأمر شنيع على خلاف ما اتفقوا مع الشريف حسين.

اتفقت إنجلترا وفرنسا في هذه المعاهدة على تقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينهما، فتأخذ إنجلترا العراق والأردن، وتأخذ فرنسا سوريا ولبنان، وتبقى فلسطين تحت رعاية دولية باستشارة روسيا، وكانت هذه الاتفاقية سرية، إلا أنّ روسيا نفسها سرَّبتها إلى الصحف، فوصلت أنباؤها إلى الصحف الغربية وصحف العالم الإسلامي، وقرأها الشريف حسين، وبالطبع ثار الشريف حسين لأنّ هذه البلاد التي قُسِّمت بين فرنسا وإنجلترا هي البلاد التي وُعِدَ بأن تعطى له، فذهب يشتكي إلى إنجلترا إلا أنّهم قالوا له إنّ هذا كلام صحف لا أصل له، ولم يكن أمامه إلا أن يصدِّق بعد أن بدأ بالفعل بالثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية.

236







ثم جاء العام 1917م والذي حوى عدة كوارث على المسلمين:

- **الكارثة الأولى:** في 25 أكتوبر قامت الثورة الشيوعية في روسيا، والذي قام بالثورة الشيوعية هو مجلس مكوَّن من سبع أفراد على رأسهم لينين الشيوعي بأفكار كارل ماركس اليهودي، وهذا المجلس كان يضمّ أربع يهود، والخامس ستالين وزوجته يهودية، أما السادس فكان روسي نصراني، وأول وزارة أُقيمت كان عددها 22 وزيراً منهم 17 يهودي، أي أنها كانت تقريباً حكومة يهودية تحكم روسيا، وهذا ما كان يهدف إليه ثيودور هرتزل الذي مات من قبل في سنة 1904م، مات ولم يرَ آثار ما خطّط له، وبالفعل سقط الحكم الأرثوذكسي القيصري في روسيا، وقامت حكومة تؤيّد بكلّ قوتها التواجد اليهودي في فلسطين، ومن ثمّ سُمح لليهود بالهجرة من روسيا إلى فلسطين.

- **الكارثة الثانية:** بعد ذلك بأسبوع، وفي 2 نوفمبر 1917م أرسل بلفور وزير خارجية بريطانيا رسالة إلى اللورد البريطاني اليهودي الشهير روتشيلد أثرى أثرياء العالم في ذلك الوقت، رسالة يقول له فيها: إنّ حكومة الملك (ملك بريطانيا) تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قوميّ في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل خير مساعي من أجل بلوغ هذه الغاية. ليس لهذا الخطاب أيّ صبغة قانونيّة إلا أنّه اعتُبر وعداً من بلفور، ولاحظوا أنّ هذا الوعد كان قبل دخول الجيوش الإنجليزية إلى أرض فلسطين، وصدق فيهم الذي قال: أعطى من لا يملك، من لا يستحق.

الكارثة الثالثة: وصل الإنجليز إلى شخصية تركية في غاية الأهمية في فلسطين، وهو قائد الجيوش التركية في فلسطين مصطفى كمال، العلماني من الدرجة الأولى، والكاره للإسلام تماماً، وأحد أعضاء حزب الاتحاد والترقي، اتفق الإنجليز معه على أن يرتبوا له الأوضاع بصورة ما ليصل هو إلى حكم تركيا، في نظير أن ينسحب تماماً بجيشه من فلسطين، ويخلي الساحة بالكامل للجيوش الإنجليزية، فوافق مصطفى كمال (الملقَّب بأتاتورك) على الانسحاب، معرِّضاً حياة 100 ألف جندي تركي للخطر، في نظير أن تقام له دولة بعد أن يُصنع منه زعيم في تركيا، وبذلك أخلي الطريق لجيوش إنجلترا.

الكارثة الرابعة: في أواخر سنة 1917م احتلت إنجلترا فلسطين، ودخلت القوات الإنجليزية في 16 نوفمبر 1917م، أي بعد أسبوعين من وعد بلفور، ودخل الجنرال اللنبي على رأس الجيوش الإنجليزية، وقال كلمته المشهورة: الآن انتهت الحروب الصليبية.

انسحب الجيش التركي بالكامل بخيانة مصطفى كمال، وللأسف كان الجيش العربي متعاوناً مع الجيش الإنجليزي في احتلال فلسطين لصالح الإنجليز، وهنا نسأل: **أين شعب فلسطين؟**

كان الشعب الفلسطيني في ذلك الوقت مغيَّباً تغييباً كاملاً، وكانوا يعيشون في وهم القومية العربية، ومحوا كلّ فضيلة للخلافة العثمانية، ولم يُبقوا غير الرذائل والمفاسد فقط، وهنا سأورد مثالاً صارخاً على تغييب الشعب الفلسطيني، الذي فتح الأبواب للإنجليز دون مقاومة تُذكر، أنّ هذا الشعب كان يعتقد أنّ الإنجليز سيدخلون للمساعدة في التحرر من الدولة العثمانية، ولإقامة مملكة عربية على رأسها الشريف حسين، هذا مع ظهور أخبار سايكس-بيكو في الصحف.

والمثال الصارخ على ذلك أنّه تكوَّنت في فلسطين قبل دخول القوات الإنجليزية جمعية تسمى «الجمعية الإسلامية المسيحية» وهي جمعية فكرية تهدف إلى تحرير فلسطين من الفساد والاحتلال التركي كما يزعمون، وانضم إليها بعض العلماء في ذلك الزمن، بل وانضم إليها أمين الحسيني المفتي، والذي تزَّعم فيما بعد حركة المقاومة، فانظر كيف كان التغييب منتشراً في الشعب الفلسطيني!

أوكل لهذه الجمعية فيما بعد أن تقوم بشؤون الشعب الفلسطيني، وبالطبع ليس هناك أيّ معنى لأن تقام جمعية تسمى «الجمعية الإسلامية المسيحية» لمناصرة القضية الفلسطينية، مع أنّ المسلمين في ذلك الوقت يشكلون 82% من شعب فلسطين، والمسيحيون 10%. واليهود أصبحوا 8% بعد قدوم لجنة الاتحاد والترقي والسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين،

أراد الإنجليز تهدئة الأوضاع بعد أن طالبهم الشريف حسين بما وعدوه به، فأعطت ولاية العراق لفيصل ابن الشريف حسين، وأعطت ابنه الثاني عبدالله قيادة الأردن، وأقامت له دولة بعد أن لم يكن هناك دولة اسمها الأردن، بل كانت إمارة شرق نهر الأردن، كلّ هذا حتى تهدأ الأوضاع في العالم الإسلامي، ويعتقد المسلمون أنهم أخذوا حقاً من حقوقهم، ولكنّ الجيوش الإنجليزية هي التي كانت تسيطر على الأمور في العراق والأردن، وأبقت فلسطين تحت إدارة عسكرية مدنية إنجليزية تابعة مباشرة للمكتب الإنجليزي بالقاهرة.

يا ترى كيف ستكون الأوضاع فيما بعد في فلسطين؟

وكيف ستبدأ قصة اليهود في فلسطين؟

وماذا سيكون ردّ فعل الشعوب الإسلامية والشعب الفلسطيني بصفة خاصة؟

وما هي خطة اليهود لإنشاء وطنهم؟













أتاتورك.. علمانية تركيا وتهويد فلسطين

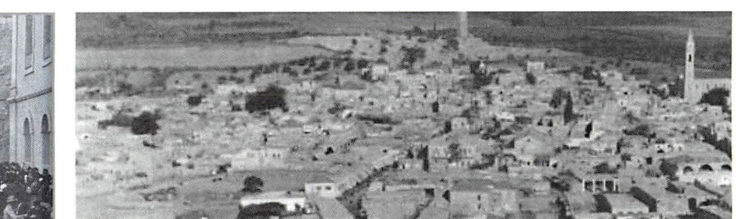
أرادت إنجلترا أن تجعل مصطفى كمال زعيماً لتركيا للتخلص من الخلافة العثمانية، فأرادت صناعة زعيم منه، إلا أنّه كان صغيراً في السن، فافتعلت إنجلترا حرباً بين الدولة العثمانية وبين اليونان وساندت إنجلترا اليونان في هذه الموقعة، وقام مصطفى كمال بقيادة الجيوش التركية وانتصر انتصار ساحقاً كما يقولون على الجيوش اليونانية المدعومة من الإنجليز، فذاع صيت مصطفى كمال أتاتورك، وبدأت الصحف والمجلات تنشر صوره، وبدأت اللقاءات مع الملوك والرؤساء، وبدأ الإنجليز بتعظيم هذه الشخصية التي سحقت القوات اليونانية المدعومة بالقوات الإنجليزية، وعندما تراجع أصول هذه المعركة ستجد أنّه لم يمت رجل واحد في هذه المعركة، فقد كادت تمثيلية مكشوفة جداً، إلا أنّها انطلت على الكثير من المسلمين، بل قُلْ كلّ المسلمين، حتى إنّ أحمد شوقي المعروف بإسلاميته الواضحة قال:

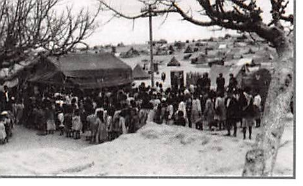
الله أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدّد خالد العرب

أي أنّه يشبه خالد الترك وهو مصطفى كمال أتاتورك بخالد بن الوليد، خالد العرب، وقال هذا البيت حين لم يكن يعرف بعد حقيقته، وعندما علم حقيقة مصطفى كمال أتاتورك كتب قصيدة طويلة ينعى فيها تركيا وينعى المسلمين بعد سقوط الخلافة الإسلامية.

وللأسف الشديد وصل مصطفى كمال أتاتورك إلى حكم تركيا مدعوماً بالشعب المغيَّب، وبدأ في عمل أشياء غريبة جداً طُبِّقت للأسف الشديد فيما بعد على العالم الإسلامي كلّه، واتُّخذت تجربة مصطفى كمال أتاتورك كمثال نموذجي لكلّ قائد يريد أن يحكم دولة على أساس قوميّ لا على أساس دينيّ؛ فقد فصل تماماً الدين عن الدولة، وألغى من الدستور البند الذي ينصّ على أنّ الإسلام هو دين الدولة، ونصّ في الدستور على أنها دولة علمانية لا دين لها، وهكذا هو الدستور التركي إلى كتابة هذه المادة، وألغى الشريعة تماماً، وطَبَّق القانون الإيطالي والسويسري، وحرّم لباس الحجاب الإسلامي للنساء، وألغى لعدّة سنوات الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى، ومنع لعدّة سنوات المسلمين في تركيا من أداء فريضة الحج،










وأغلق عدداً ضخماً جدّاً من المساجد، وحوَّل مسجد آية صوفيا إلى كنيسة ثم إلى مخزن ثم إلى متحف، ومنع تعدّد الزوجات، وأباح زواج المسلمة من غير المسلم، وألغى العطلة في يوم الجمعة وجعلها يوم الأحد، ومنع الأذان باللغة العربية وجعله بالتركية، وألغى الأحرف العربية وجعلها باللاتينية، وألغى منصب شيخ الإسلام أو المفتي في تركيا، وأعدم في بداية حكمه أكثر من ٥٠ عالم إسلامي اعترضوا على هذه القوانين، وأجبر الأئمة في المساجد على ارتداء القبعة الأوروبية بدلاً من العمامة الإسلامية، وألغى التقويم الهَجري تماماً وأقرَّ التقويم الميلادي، وأباح الردَّة عن الإسلام، وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وألغى من اسمه كلمة مصطفى واكتفى بأتاتورك، وأوصى عند موته ألا يُصلَّى عليه.
هذا هو مصطفى كمال أتاتورك الذي يعدّ القدوة لكثير من الزعماء، ولا أعرف هل يعلمون كلّ هذه التفاصيل عن حياته أم لا!! وهذا الكلام لا يقوله أعداؤه عنه، بل إنّه موجود في الدستور التركي، وهو مُقرّ للأسف الشديد في القوانين التركية، وعندما علم أحمد شوقي بهذه الأمور رثى هذا الأمر وقال:

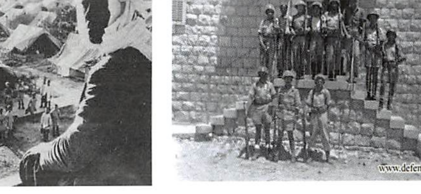
بكت الصلاةُ وتلك فتنة عابثٍ ... بالشرع عربيد القضاء وقاحِ

أفتى خزعبلةً وقال ضلالـــةً ... وأتى بكفرٍ في البلاد بـــواحِ

هذه هي تركيا في ظل مصطفى كمال أتاتورك، نُحِّيَتْ تماماً عن قضايا المسلمين وبالأخص قضية فلسطين.
بدأ اليهود بالتفكير بإنشاء وطن قومي في داخل فلسطين بعد مرحلة وضع خطة هرتزل ومرحلة التأسيس في أيام دخول الجيش الإنجليزي، وإسقاط الخليفة عبدالحميد الثاني مروراً بأخذ وعد من إنجلترا، وصولاً إلى وعد بلفور في سنة 1917م، وهنا تبدأ مرحلة خطيرة جدّاً في فلسطين من سنة 1918م إلى سنة 1948م والتي أسميها مرحلة تهويد فلسطين، بمعنى تغيير التركيبة السكانية لصالح اليهود، ففي أيام السلطان عبدالحميد الثاني كان عدد اليهود ٥ آلاف فقط، وفي أيام حزب الاتحاد والترقي من سنة 1909م إلى سنة 1917م وصل عددهم في فلسطين إلى 50 ألف، فبدأ التهويد على أكثر من محور، وهنا يجب ألا ننسى أنّ الإدارة الإنجليزية الأولى في فلسطين كان على رأسها رجل مدني إنكليزي يهودي اسمه هربرت صمويل.







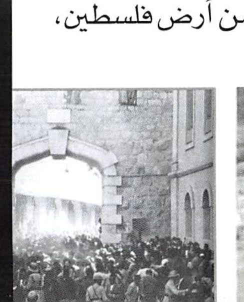




المحاور الخمسة الرئيسية لمشروع تهويد فلسطين

المحور الأول: كان عبارة عن تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلى أن زادت أعداد اليهود في فلسطين بشكل كبير جدّاً، وفي سنة 1924م أعلن مصطفى كمال أتاتورك رسمياً سقوط الخلافة العثمانية وقيام الدولة التركية، والانفصال التام عن الدولة الإسلامية، وفي السنة التالية مباشرةً أي في 1925م هاجر إلى فلسطين 34 ألف يهودي دفعة واحدة، وهذا التهجير المستمر حوَّل نسبة اليهود التي كانت في سنة 1917م من 8% إلى 32% سنة 1948م، وتكونت بذلك العصابات اليهودية المشهورة (عصابة الهجانا) التي أصبحت نواة لجيش الدفاع الإسرائيلي، وكان قوام هذه العصابة في الجيش الإسرائيلي 62 ألف مقاتل يهودي، وكان منها أيضاً عصابة أرغون وعصابة اشتيرن وغيرها من العصابات اليهودية، وإنجلترا في كلّ هذا كانت تمدّ هؤلاء اليهود المهاجرين بالسلاح وبالتدريب في معسكرات اليهود.

المحور الثاني: كان محور محاولة شراء الأرض بقدر ما يستطيعون لاكتساب أحقيّة في فلسطين؛ ففي أيام السلطان عبدالحميد الثاني كان اليهود يمتلكون صفراً من الأراضي في فلسطين، لأنّ القانون يمنع تمليك الأراضي لليهود، وفي أيام حزب الاتحاد والترقي من سنة 1909م إلى سنة 1917م امتلك اليهود 2% من أرض فلسطين عن طريق رشاوى لزعماء حزب الاتحاد والترقي، وفي أيام الاحتلال الإنجليزي من سنة 1917م إلى 1948م امتلك اليهود 5.7% من أرض فلسطين،



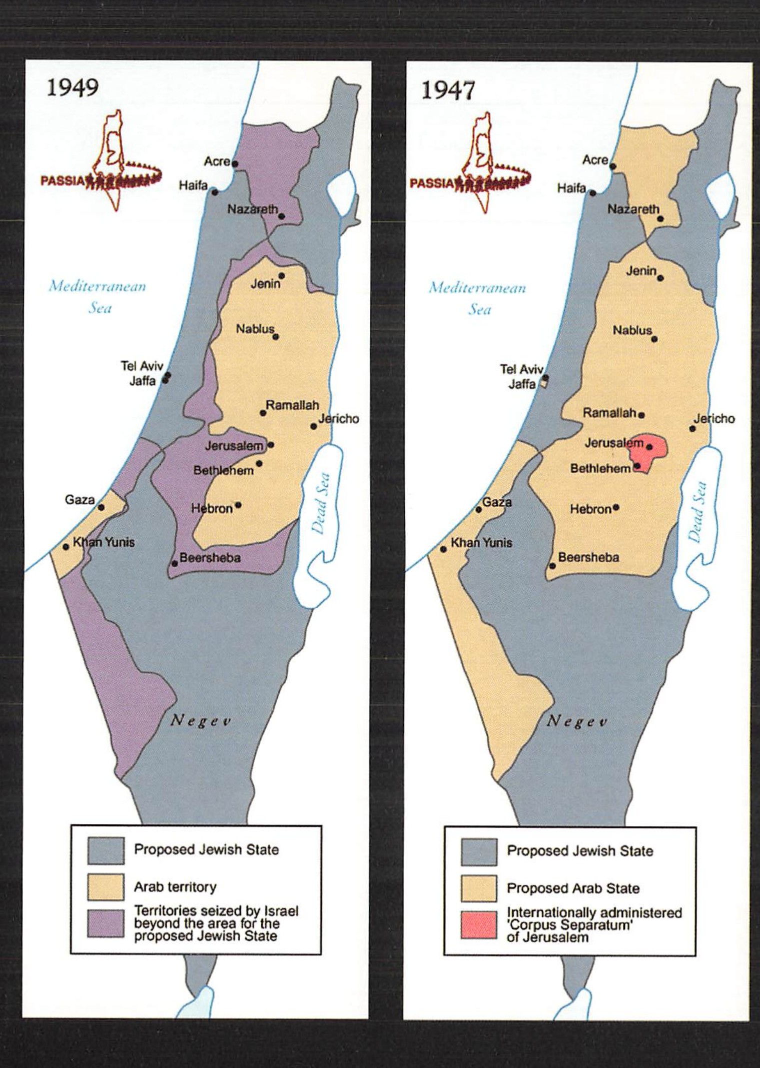








وهذا يعني أنّ زيادة السكان لم يصحبه زيادة في امتلاك الأرض، بل إنّ الأرض التي امتلكها اليهود امتلاكاً حقيقيّاً سنة 1948م، أي قبل قيام الدولة اليهودية كانت 5.7%. ولتحليل هذا الرقم نجد أن 2% منها منذ أيام حزب الاتحاد والترقي حصلوا عليها عن طريق الرشاوى، وهذا قبل الاحتلال الإنجليزي، ومنها 1.2% إهداء من حكومة الانتداب البريطاني لليهود بلا ثمن، و1.5% بيع من عائلات نصرانية لبنانية وسورية كانت تعيش في فلسطين، ولما حصل الاحتلال الإنجليزي عادت إلى بلدانها، ومن هذه العائلات: سرسق والمطران وتيان وغيرهم، و1% فقط هو الذي باعه الفلسطينيون إلى اليهود، وكانت قد صدرت أكثر من فتوى في فلسطين بتحريم هذا البيع إلى اليهود، وأنّ من باع أرضه لليهود فإنّ هذا يعتبر خيانة عظمى للمسلمين ولأرض فلسطين، فكلّ ما يعتقده الناس من أنّ الفلسطينيين باعوا أرضهم إنما هو أمر مغلوط، وقد قام اليهود بنشر هذه الشائعة ليصبح لهم الحق القانوني أمام العالم في امتلاك هذه الأرض بأموالهم وهذا باطل، بالإضافة إلى أنّ المسلمين الراغبين للأسف الشديد في أن يحذفوا فلسطين من أذهانهم، يرددون دوماً عبارة: هم باعوا أرضهم فليحرروها بأنفسهم.





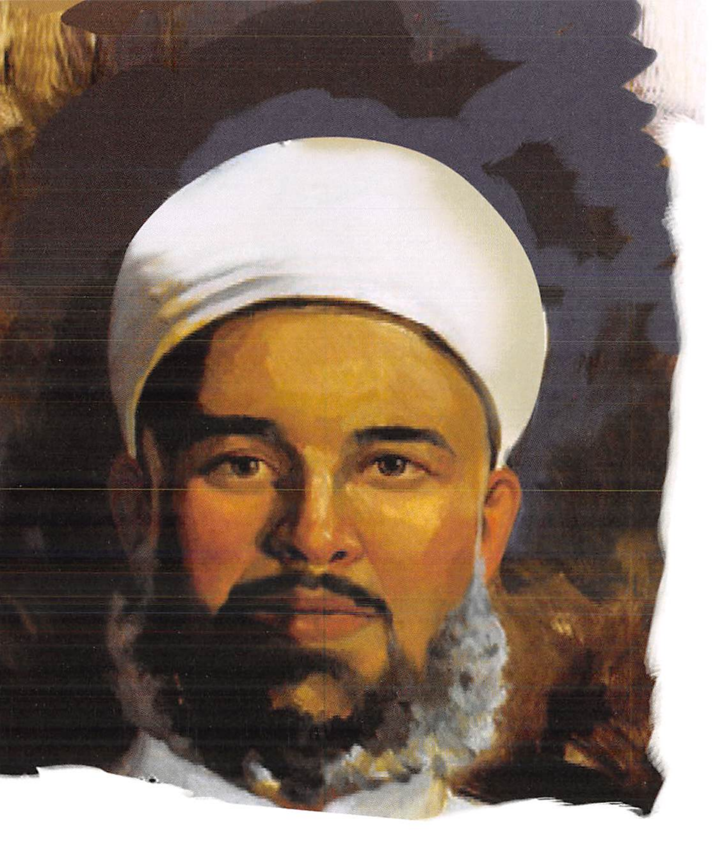



- **المحور الثالث:** هو السيطرة على الاقتصاد الفلسطيني، والمال هو عصب الحياة كما يقول زعيمهم كارل ماركس، وإنجلترا ساعدت اليهود بالقوانين المناسبة لظروف اليهود، فقد سهلوا دخول المواد الخام بدون ضرائب للصناعات التي يصنعها اليهود، ويفرضوا ضرائب كبيرة على تلك البضائع الشبيهة بها حتى يحتكر اليهود السوق الاقتصادي الفلسطيني تماماً في ظل الفقر الفلسطيني، ومن دون أيّ معاونة من الدولة العربية المحيطة بفلسطين، فكانت السيطرة المالية متفوقة لليهود إلى آخر درجة؛ ولنضرب أمثلة على ذلك:
كان في القدس 19بنك، منها 14بنك يهودي، و 42 شركة لبيع مواد البناء منها 30 شركة يهودية، 62 شركة سمسرة لشراء الأراضي منهم 60 يهودية، و6 شركة للآلات الزراعية منها 5 يهودية، و55 شركة مقاولات هندسية منهم 54 يهودية، 65 شركة طباعة جميعها يهودية، 16 شركة أدوية وأملاح ومعادن جميعها يهودية، ولم تكن القضية هي فقط قضية امتلاك، بل إنها أكبر من ذلك بكثير، فصاحب العمل ورئيس مجلس الإدارة يهودي، والعمال جميعاً فلسطينيون، وما أدراك كيف هو شعور الفلسطينيين بالتبعية لليهود في هذه الظروف القاسية.
- **المحور الرابع:** هو محور التعليم، فاليهود منذ اليوم الأول عرفوا أهمية التعليم في فلسطين، فأنشؤوا في اللحظات الأولى لهم في لفلسطين، وجاء ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك، ولم يكن قد وصل بعد إلى منصب رئيس الوزراء البريطاني، جاء من إنجلترا وافتتح بنفسه الجامعة العبرية على جبل الزيتون لإنشاء حركة تعليمية كبرى لليهود في فلسطين، وأقاموا لهم دوائر تعليم خاصة، حيث بدؤوا بتعليم الأطفال العبرية، وزرعوا في قلوبهم الكراهية تجاه الشعب الفلسطيني.
- **والمحور الخامس والأخير:** هو محور الإعلام، حيث نشروا أحقية اليهود بامتلاك أراضي فلسطين في كلّ صحف العالم والأفلام وكلّ وكالات الأنباء، حتى اقتنع العالم تمام الاقتناع أنّ هذه الأرض من حقّ اليهود، في ظلّ اختفاء الإعلام الإسلامي تماماً.

أما ردّة فعل الشعب الفلسطيني تجاه هذه المآسي من تهجير لليهود وشراء الأراضي وغيرها من المآسي، فقد كان مغيباً تماماً في السنوات الأولى، وكان في ذهنهم أنّ القومية هي الحلّ لكلّ المشاكل، ولكن فيما بعد اكتشفوا أنّ الوعود الإنجليزية كلّها كاذبة، وأنّ هذا احتلال إنجليزي يهدف إلى ترسيخ اليهود في داخل فلسطين، فبدأ الفلسطينيون بما يسمى الثورة على الوجود الإنجليزي واليهودي في فلسطين.
هذه الحقبة من سنة 1919م عندما بدأ الشعب الفلسطيني يستفيق بعد الاحتلال الإنجليزي إلى سنة 1948م قسمت إلى فترتين:

- **الفترة الأولى: هي فترة الثورات السلمية دون الدخول في مواجهات عسكرية مسلحة ضدّ الإنجليز.**
- **الفترة الثانية : هي فترة الكفاح المسلح.**

أمضى الشعب الفترة من سنة 1919م إلى سنة 1933م بالمسيرات والمؤتمرات والوفود المفاوضة في محاولة للوصول إلى نتيجة مع الإنجليز، ولكن بالطبع النتائج كلّها كانت تأتي صفراً، لأنّ الإنجليز كان عندهم هدف استراتيجيّ ونيّة واضحة جدّاً لترسيخ أقدام اليهود في أرض فلسطين، وتولى قيادة هذه الفترة السلمية المفتي أمين الحسيني، وتتابعت الثورات في سنة 1919م و1920م و1921م وكان أشهرها ثورة البراق في سنة 1929م، وكان يسقط عدد من القتلى من اليهود والإنجليز والمسلمين في فلسطين،



ولكنّها لم تكن مواجهات عسكرية بالشكل المعروف، وأقيمت عدّة مؤتمرات في القدس وفي غيرها، وعقدوا عدّة مؤتمرات في العالم الإسلامي لتشجيع المسلمين على فهم القضية الفلسطينية، وكان في سنة 1931م المؤتمر الأول الإسلامي، وأُعلن فيه عن إسلامية قضية فلسطين، وحضره عدّة رموز من العالم الإسلامي مثل محمد رشيد رضا اللبناني الذي كان يعيش في مصر، والزعيم الهندي مولانا شوكت علي، والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، والشاعر الباكستاني المعروف محمد إقبال، والزعيم السوري المعروف شكري قوّتلي.

كلّ المفاوضت التي كانت تجري مع إنجلترا لم تُسفر عن شيء، وذهبت العديد من الوفود إلى لندن للتفاوض مع الوزراء الإنجليز، مرّة مع تشرشل ومرّة مع غيره، إلا أنّ إنجلترا أصرّت على إقامة وطن لليهود في فلسطين، وفي سنة 1933م بدأت تظهر للمرّة الأولى المرحلة الجهادية المسلحة في فلسطين، بعد أن ظهرت شخصية مؤثرة جدّاً في الشعب الفلسطيني وهو الشيخ عزّ الدين القسّام، الذي حوَّل القضية من قضية كلام إلى فعل.

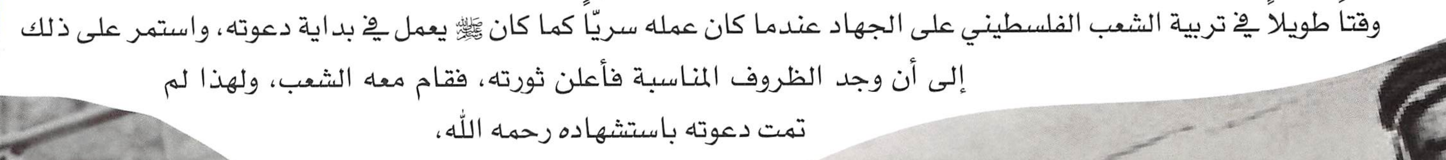
عزّ الدّين القسام هو سوري وليس فلسطينيّاً، تعلّم في سوريا العلوم الشرعية وتعلّم في مصر، ثم عاد إلى سوريا مرة أخرى عندما كانت تحت الاحتلال الفرنسي، وقام بعدة ثورات ضدّ الفرنسيين في سوريا وحُكم عليه بالإعدام، فهرب إلى فلسطين ليس للاختباء، إنما هرب ليُنشئ حركة الجهاد ضدّ الإنجليز في فلسطين، فكلّ البلاد العربية هي بلاده، فإن كان لم يستطيع أن يحرر بلده سوريا فليحرّر فلسطين من الإنجليز، وأنشأ جماعة جهادية منظمة جدّاً، وكانت في البداية سِرِّيَةً من سنة 1922م إلى سنة 1933م، وبلغ عدد المنضمين إليه ألف شخص، وأقام فيها جناحاً اقتصادياً وجناحاً اجتماعياً وجناحاً سياسياً وجناحاً عسكرياً، وبدأت هذه الجماعة ليس فقط التفكير بقيام ثورة أو طلب الإعانة من الدول العربية المحيطة، بل فكروا في إقامة حكومة وطنية في داخل فلسطين يكون على رأسها الفلسطينيون في مواجهة المدّ الإنجليزي القوي.

فيا ترى ماذا حصل مع عزّ الدين القسام؟
وما هو ردّ فعل الإنجليز؟ وما هو ردّ فعل الشعب الفلسطيني؟
وكيف ستكون الأوضاع عند قيام الدولة اليهودية؟



الجهاد المسلح في فلسطين

كما قلنا أنّ جماعة الجهاد الفلسطيني فكرت في إقامة حكومة وطنية، حيث ظلّت هذه الحكومة سرّية من سنة 1922م إلى سنة 1935م، ومن بداية سنة 1933م بدأ عزّ الدين القسام بممارسة نوع من التّحرش ونشر الدعوة هنا وهناك، ولكن لم يقم بالتّحرك العسكري المباشر ضدّ اليهود وضدّ الإنجليز إلا في أكتوبر سنة 1935م عندما أعلن ثورته المسلحة، وكان قد اختار هذا التوقيت بعناية لأنّه في هذه السنة هاجرت أعداد ضخمة جدّاً قد تصل إلى 60 ألفاً من اليهود، هاجروا إلى فلسطين، مما أعطى انطباعاً واضحاً لعزّ الدين القسام أنّه إذا قام بثورة في هذا التوقيت فسوف يقوم معه الشعب بكامله، لإحساسه بالخطورة الشديدة جرّاء الهجرة اليهودية المتكررة، وبالفعل ماجت في فلسطين الثورة واشتعلت في كلّ أنحائها، وقام الفلسطينيون بضرب اليهود والإنجليز بالسلاح، وسيطروا على بعض الأماكن، وانتفض الجيش الإنجليزي نتيجة هذه الأحداث، حيث إنّه لم يكن متوقعاً لهذه الثورة العسكرية، وكان توجه عزّ الدين القسام إسلاميّاً صرفاً، وكان يقول إنّ تحرير فلسطين وتحرير أيّ أرض مسلمة فرض عين على كلّ مسلم، وقال كلمته المشهورة: لِيَبِع أحدكم كلّ شيء ويشتري السلاح. وبعد مضي شهر واحد، وفي 20 نوفمبر سنة 1935م، وفي أحد معاركه ضدّ الإنجليز، استُشهد عزّ الدين القسام رحمه الله، فالفترة التي أعلن فيها الجهاد وقاوم فيها الإنجليز وحارب فيها اليهود لم تزد عن شهر، واعتقد الإنجليز أنّه بقتل الشيخ عزّ الدين القسام ستموت الثورة، إلا أنها ازدادت اشتعالاً، لأنّه استغرق وقتاً طويلاً في تربية الشعب الفلسطيني على الجهاد عندما كان عمله سريّاً كما كان ﷺ يعمل في بداية دعوته، واستمر على ذلك إلى أن وجد الظروف المناسبة فأعلن ثورته، فقام معه الشعب، ولهذا لم تمت دعوته باستشهاده رحمه الله،







السعدي رحمه الله، وهو من أهل فلسطين وكان يبلغ من العمر ثمانين سنة، قام بقيادة الحركة الإسلامية المجاهدة التي كوّنها عزّ الدين القسام، ثم أُعدِمَ بعد عدّة أشهر، وكان هذا الإعدام في رمضان وهو صائم، وظنّ الإنجليز أنّ بإعدامه ستنتهي الثورة، ولكنّها ازدادت اشتعالاً وقوة، وظهر نجم فلسطيني جديد رائع، وهو من أعظم أمثلة الجهاد في تاريخ فلسطين، وهو الشهيد عبد القادر الحسيني رحمه الله.

كان عبد القادر الحسيني من الشخصيات البارزة جدّاً في تاريخ الثورة الفلسطينية ضدّ الاحتلال الإنجليزي والوجود اليهودي، قام بعدّة ثورات بدأت في سنة 1936م، أي بعد شهور من استشهاد الشيخ عزّ الدين القسام والشيخ فرحان السعدي، وقد قامت حركته بعدّة عمليات فدائية، ففي سنة 1936م قامت هذه الجماعات المسلحة بـ 506 عملية فدائية، أي بمعدل عملية أو عمليتين يومياً، وفي السنة نفسها أرسلت إنجلترا لجنة تسمى «لجنة بل»، وهذه اللجنة أشارت إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين، يهودية وفلسطينية، وبالطبع أثار هذا الأمر الشعب الفلسطيني بصورة أكبر، وأدركوا أنّ اليهود يحاولون إقامة دولة رسمية بدعم من الإنجليز، وفي سنة 1938م قام الفلسطينيون بـ 5708 عملية فدائية في سنة واحدة دون أيّ نوع من المساعدات من الدول العربية المحيطة بهم.

وفي سنة 1939م قام المجاهدون في فلسطين بـ 3315 عملية فدائية، أي بمعدل 10 عمليات أو أكثر يومياً، وتقدَّر خسائر بريطانيا في الثلاث سنوات من سنة 1937م إلى سنة 1939م بعشرة آلاف قتيل، ولم يكن ذلك بلا ثمن، بل استُشهد من الفلسطينيين في سنوات الثلاث ذاتها نحو 12 ألف شهيد، واعتُقل ٥٠ ألف فلسطيني، وحُكم بالإعدام على 146، ودُمِّر خمسة آلاف منزل.

وإزاء هذا الوضع وجدت إنجلترا أنّ الأوضاع مضطربة جدّاً، فأصدرت وعداً بإلغاء وعد بلفور، ووعداً بعدم تقسيم فلسطين، ووعداً بإقامة حكومة فلسطينية ولكن بعد عشر سنوات، وللأسف الشديد نتيجة هذه الوعود هدأت الثورة في فلسطين، وبلا شكّ كان هذا خطأ المجاهدين في فلسطين، لأنّه لا يمكن أن نثق بوعود إنجليزية، وخاصة بعد تاريخهم الطويل في هذه الأحداث.

بدأ اليهود في تصعيد الأمور بتوجيه الهجرات الأوروبية إلى أرض فلسطين، حتى إنّ إنجلترا كانت في بعض الأحيان توجّه بعض السفن التي كانت تحمل اليهود من أوروبا إلى إنجلترا، فقام اليهود بتفجير سفينة لأنها لم تُوجَّه إلى أرض فلسطين. والعالم يمرّ بهذه الأحوال قامت الحرب العالمية الثانية سنة 1939م واستمرت إلى سنة 1945م، وانقسم العالم إلى معسكرين، معسكر ألماني انضمت إليه إيطاليا واليابان، ومعسكر إنجليزي انضمت إليه فرنسا وروسيا ثم أمريكا، وقد سقط في الحرب العالمية الثانية على أقلّ التقديرات خمسين مليون قتيل، حيث كانت أكبر المعارك في التاريخ بكامله، وهناك تقديرات أخرى تقول 65 مليون قتيل، أدار اليهود هذه الحرب بمنتهى الكفاءة، فقد انضموا إلى معسكر الإنجليز ضدّ الألمان، وطلبوا معسكرات تدريبية قوية في فلسطين، وطلبوا إنشاء مصانع للسلاح، وبدؤوا يتدربون على استعمال السلاح الثقيل في داخل فلسطين تحت رعاية الجيش الإنجليزي، كلّ ذلك في غياب كامل للدول العربية عن الساحة، الأمر الآخر أنهم زادوا من وتيرة الهجرة إلى فلسطين نتيجة المشاكل الحاصلة في ألمانيا وفي المناطق الأخرى التي كان هتلر مسيطراً عليها، ففي فترة الحرب العالمية الثانية هاجر إلى فلسطين أكثر من 90 ألف يهودي.

استغل اليهود قصة النازية وادَّعوا أنّ مذابح تقام ضدّ اليهود في ألمانيا على يد هتلر، وأسموها «الهولوكست»، أي: المذبحة أو التضحية المقدسة، لدغدغت مشاعر وعواطف العالم بشكل عام، وضخَّموا جدّاً الأرقام، وقالوا إنّ هتلر ذبح أكثر من 6 مليون يهودي، وبالطبع اليهود لم يصلوا إلى هذه الأعداد، إلا أنّهم كانوا يتحكمون بالإعلام الذي أوصل هذه المعلومات إلى أذهان الناس حتى أصبحت وكأنها حقيقة واقعة، بل إنّ اليهود في الحرب العالمية الثانية أنشؤوا فيلقاً خاصاً بهم في الأمم المتحدة مع أنهم ليسوا دولة،



فهيئة الأمم المتحدة تضمّ دولاً ومع ذلك أنشؤوا فيلقاً خاصّاً باسم اليهود، وهذا يدل دلالة واضحة أنّ الأمم المتحدة كانت على علم بما يجري من أعمال لتوطين اليهود في فلسطين، ومن ناحية أخرى بدأت أمريكا تظهر ظهوراً واضحاً، وخاصة بعد إلقائها للقنابل الذرية على هيروشيما وناكازاكي باليابان، وبدأ يظهر أنها ستصبح القطب الأول في العالم، وبدأ نجم إنجلترا بالأفول، فبدأ اليهود بتوجيه قوتهم إلى ناحية أمريكا، فأقاموا للمرة الأولى مؤتمرهم في أمريكا بدلاً من لندن.





أراد اليهود إخراج إنجلترا من فلسطين حتى يُعسّكروا فيها، وبعد المحاولات والمفاوضات السياسية رفضت إنجلترا الخروج إلا في موعدها في سنة 1948م، قام اليهود بعدّة اغتيالات لقادة الإنجليز، مع أنّ الإنجليز هم الذين زرعوا اليهود في فلسطين، كما نسفوا مراكز إنجليزية، ونسفوا سكّة حديد للجيش الإنجليزي، كلّ ذلك حتى يُسرِّعوا من خروج الإنجليز من فلسطين.

انضم معظم الحكام العرب في الحرب العالمية الثانية وللأسف الشديد إلى إنجلترا، أما الشعوب العربية فقد راهنت للأسف على الحصان الخاسر (ألمانيا)، بل إنّ بعضهم حاول عقد اتفاقيات دفاع مشترك مع ألمانيا، على أن تدرِّب ألمانيا الجنود المسلمين الفلسطينيين على حرب الإنجليز في فلسطين، إلا أنّ ألمانيا خسرت المعركة، وذهبت كلّ الآمال معها ومن ثمة انتهت الحرب العالمية سنة 1945م.

في سنة 1945م أوعزت إنجلترا لمصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر بإنشاء الجامعة العربية، وهذا أمر غريب جدّاً أن تقوم الجامعة العربية بإيعاز من إنجلترا التي تريد تفريق العالم الإسلامي والعربي، فلماذا توعز إلى مصطفى النحاس باشا أن يكوِّن اتحاداً بين العرب؟! والجامعة العربية ضمَّت في بدايتها سبع دول فقط، وهي مصر وسوريا والأردن ولبنان والعراق والسعودية واليمن، وكلّ تلك الدول باستثناء اليمن تحيط بفلسطين،

فقد أرادت إنجلترا بمنتهى الخبث أن تجمع العرب في بوتقة واحدة لتنفيذ مطالبها، لأنّ معظم الدول المنضمة للجامعة العربية كانت فعلياً واقعة تحت الاحتلال.

لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إنّ إنجلترا طلبت من مصطفى النحاس باشا أن يشترط أن تكون الدول المشتركة في جامعة الدول العربية دولاً مستقلة، وبالتالي لا يجوز لفلسطين أن تنضم إلى الجامعة العربية، وأرادت بهذا فسخ فلسطين عن العرب والمسلمين ومنحها لليهود، وحين نتساءل: **مَنْ مِنَ الدول العربية المشتركة كانت في ذلك الوقت غير محتلة، فمصر كانت محتلة وكذلك الأمر مع العراق والأردن وسوريا ولبنان واليمن، فما هو تعريف الاحتلال؟ وما هو تعريف الاستقلال؟**

في سنة 1946م تكوّنت لجنة اسمها «اللجنة الإنجلوأمريكية» من إنجلترا وأمريكا، وزارت هذه اللجنة معسكرات اليهود في أوروبا، بعد أن شُرِّدت أعداد كبيرة منهم من ألمانيا وفرنسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من البلاد، فتعاطفت هذه اللجنة كثيراً مع أحوال اليهود في هذه المعسكرات، فخرجت هذه اللجنة بطلبات واضحة جدّاً،

أول طلباتها: تهجير مئة ألف يهودي فوراً من أوروبا إلى فلسطين، وإلا ستحدث كارثة إنسانية.

الطلب الثاني: طرح أرض فلسطين كلّها للبيع ليستطيعوا إسكان هذه الجموع الضخمة من اليهود المعذبين. لكن من الذي عذبهم؟! الذي عذّبهم هم الجيوش النازية، إلا أنّ العرب هم من سيدفع الثمن.

الطلب الثالث: أن يكون الحكم في فلسطين حكماً دولياً، لا لليهود ولا للفلسطينيين، ومع ذلك اشتعلت الثورة اليهودية، لأنّ اليهود اعترضوا على ذلك لأنهم لا يريدون حكماً دولياً، بل يريدون حكماً يهودياً، وبالطبع الدول العربية كانت في سبات عميق، فأرسلوا بعض الخطابات الاعتراضية الشكلية لإنجلترا، ثمّ قامت بعض الثورات القوية في فلسطين وفي بعض الدول العربية من قِبَل الشعوب، فأرادت إنجلترا تهدئة الأوضاع، فحوّلت الملف بكامله إلى الأمم المتحدة لدراسته، فاجتمعت الأمم المتحدة وخرجت بمشروع قدمته أمريكا وإنجلترا، والمشروع يقضي بالآتي:



تقسيم فلسطين إلى دولتين، رغم أنّ إنجلترا وعدت الفلسطينيين من قبل أنّه لن يكون هناك تقسيم لفلسطين، والبند الآخر: أن يكون لليهود 56.5% من أرض فلسطين مع أنّ عددهم يشكّل 32% من السكان، ويكون للفلسطينيين 43%. و0.5% الباقية هي أرض القدس تصبح تحت حكم دوليّ، وعندما ننظر إلى خريطة التقسيم نجد أنّ الأقسام التي أُعطيت للفلسطينيين ما هي إلا جزر في بحر اليهود، فقسمٌ في الضفة الغربية وقسمٌ آخر في غزة، وما بينهما لليهود، أي لا يستطيع الفلسطينيون في الضفة التواصل مع من في غزة إلا بموافقة اليهود، وهناك فضائع كثيرة أخرى في مشروع التقسيم، ثم قامت أمريكا بالضغط على أكثر من عضو في الأمم المتحدة ليعطوا الموافقة، فصدر قرار التقسيم المشهور في سنة 1947م.
اجتمعت الجامعة العربية اجتماعاً عاجلاً وأصدرت بعض القرارات، قالت فيها إنها ستعمل معسكراً تدريبيّاً في قطنة جنوب دمشق لتدريب المتطوعين من فلسطين للحرب فيها ضدّ الإنجليز واليهود، وقالوا أيضاً ستُنشئ جيشاً نسمّيه «جيش الإنقاذ» مكوناً من أكثر من ٥ دول عربية يكون على رأسه شخص اسمه فوزي القاوقجي، وهو شخصية تدور حولها الكثير من الشبهات، ورصدوا مليون جنيه لأغراض الدفاع عن فلسطين، وبعد أن سمعت بريطانيا بهذه القرارات أرسلت رسالة إلى الجامعة العربية -وهي التي أوعزت بإنشائها من البداية-، نصّ الرسالة عبارة قصيرة جدّاً تقول فيها: إنّ بريطانيا تعتبر تسليح الفلسطينيين وتدريبهم في قطنة عملاً غير ودّي، ومن ثمّ أغلقت الجامعة العربية معسكر قطنة تماماً، وسرَّحت المتطوعين الفلسطينيين، وحدَّدت قوام جيش الإنقاذ من الدول الخمسة بـ 7700 مقاتل، فقط 7700 مقاتل لمحاربة جيش اليهود الذي تشكّل فيه عصابات الهاجانا وحدها نحو 62 ألف مقاتل، مسلحين بالدبابات والطائرات وغيرها من الأسلحة الثقيلة.قامت ثورات كبيرة في فلسطين بقيادة عبد القادر الحسيني، وعمَّت الدول العربية والإسلامية الثورات، وباعت بريطانيا لليهود في هذه السنة ٢٠ طائرة حربية، وعندما سمع يهود أمريكا أنّ الجامعة العربية تبرعت بمليون جنيه للمسلمين في فلسطين لنصرة القضية الفلسطينية، تبرع يهود أمريكا بـ 250 مليون دولار لليهود في فلسطين.

أما الثورات العربية التي قامت هنا وهناك، لم يكن لها حول ولا قوة لأنها واقعة تحت الاحتلال الإنجليزي، ولم يتحرك من المسلمين إلا جماعة واحدة فقط، وهي جماعة الإخوان المسلمين بتأييد الإمام حسن البنا، الذي أمرهم بالتوجه للجهاد في فلسطين، وكان هذا الأمر منظَّماً جدّاً، فكان من مصر بقيادة البطل أحمد عبد العزيز، وهو ضابط في الجيش المصري من الإخوان، ومن الأردن بقيادة عبد اللطيف أبو قورة وهو من الإخوان، ومن العراق بقيادة محمد محمود الصواف وهو عالم جليل من الإخوان، ومن سوريا بقيادة مصطفى السباعي وهو العالم الجليل صاحب المؤلفات الكثيرة والمراقب العام للإخوان في سوريا، واستطاعت الفرقة المصرية أن تصل إلى فلسطين في فبراير سنة 1948مَ، وبدأت العمليات العسكرية في صحراء النقب مباشرةً في جنوب فلسطين، وكانت قوات الإخوان المسلمين مدرَّبة على السلاح لأنها كانت تقاتل الإنجليز في القناة في مصر.

في 3 إبريل سنة 1948م حصلت أزمة كبيرة في فلسطين عندما حوصرت مدينة القسطل، وهي مدينة منيعة جدّاً، وشعر الفلسطينيون أنّ حصار هذه المدينة سوف يوقف حركة الجهاد، فتوجّه عبد القادر الحسيني رحمه الله إلى رئيس الجامعة العربية وطلب منه السلاح، وقال له: نحن أولى بالسلاح المخزَّن في المخازن العربية، وإنّ التاريخ سيتهمكم بإضاعة فلسطين، وإنني سأموت في القسطل قبل أن أرى تقصيركم وتواطؤكم.

مع ذلك لم يصل أيّ سلاح من الجامعة العربية، ودخل عبد القادر الحسيني إلى القسطل، وحوصر ثم استشهد رحمه الله، وسقطت مدينة القسطل، وكانت كارثة مروِّعة أن استُشهد القائد الفلسطيني البطل لهذه الجموع المجاهدة في فلسطين.

وحتى هذا الوقت لم تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين، لأنها واقعة تحت الانتداب الإنجليزي، وبذلك رفضت الجيوش العربية الدخول إلى فلسطين إلا بخروج الجيش الإنجليزي في 1948/5/14م، أي كان باقياً من مدة الانتداب شهر واحد، وبعد سقوط مدينة القسطل قام اليهود بمذبحة دير ياسين، وقتلوا 250 من أهل القرية، والذي قام بالمذبحة هو «مناحيم بيجن» الذي أخذ بعد ذلك جائزة نوبل للسلام، ثم فتح اليهود الطرق كاملة إلى أريحا وقالوا للفلسطينيين: من أراد التوجه إلى أريحا فليذهب، وبعد أن سمع الناس بأخبار مذبحة دير ياسين ومذبحة قرية ناصر الدين، عمَّ الرعب في كلّ القرى الفلسطينية، وقام الفلسطينيون بالهجرة من مختلف الأماكن إلى أريحا، يقول مناحيم بيجن: من أصل 800 ألف عربي كانوا يعيشون في المناطق المقسومة لإسرائيل (التقسيم الظالم الذي قامت به الأمم المتحدة) لم يعد فيها بعد المذبحة (مذبحة دير ياسين) إلا 165 ألف فقط.





وكما قلنا من قبل، الحركة الوحيدة التي كانت تقوم بالجهاد الفعلي في فلسطين هي حركة الإخوان المسلمين، ووصلوا في جهادهم إلى حصار القدس التي يقبع داخلها نحو 100 ألف يهودي، ومع أنّ الطاقات والقدرات ضعيفة جدّاً بالقياس مع قدرات الإنجليز، إلا أنّه كان من الممكن بالحميّة والإخلاص والمساعدة أن يصلوا إلى حصار مدينة القدس، وكان الإخوان المسلمون يسيطرون على المناطق الجنوبية والشرقية من فلسطين، أما اليهود كانوا يسيطرون على المناطق الشمالية والغربية من فلسطين، وفي 22 إبريل 1948م سقطت مدينة حيفا في يد اليهود، وفي 11 مايو سقطت صفد، وفي 12 مايو سقطت بيسان، وفي 13 مايو سقطت يافا، وأعقب سقوط يافا مذبحة كبيرة جدّاً راح ضحيتها 770 شهيداً من فلسطين على يد مناحيم بيجن، وكان من المقرر خروج الجيش الإنجليزي بعد يوم واحد من سقوط يافا، وبالفعل في 14/5 خرج الجيش الإنجليزي، وسبب التزام إنجلترا بالموعد المحدد لها هو أنها ستقوم بتسليم فلسطين لليهود، وفي اليوم نفسه الذي خرج فيه الجيش الإنجليزي، وبعد دقائق أعلن دافيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل في فلسطين، وبعد 11 دقيقة من هذا الإعلان اعترفت أمريكا بدولة إسرائيل في فلسطين، مع أننا نعلم أنّ القرار في أمريكا لا يُتَّخذ من الرئيس بمفرده، بل يُتَّخذ عن طريق الكونجرس، ولكن في هذا الموقف انفرد الرئيس بالقرار وأعلنت أمريكا اعترافها بدولة إسرائيل في فلسطين، وبعد 24 ساعة فقط أعلن الاتحاد السوفيتي اعترافه بدولة إسرائيل، فنالت إسرائيل بذلك اعترافاً من أكبر قطبين في العالم، بالإضافة إلى إنجلترا التي زرعت اليهود في فلسطين.

قررت الجامعة العربية أن ترسل الجيوش إلى فلسطين بعد خروج الجيش الإنجليزي وذلك من خمس دول: هي مصر وسوريا والأردن والعراق ولبنان، وكان القائد العام لهذه الجيوش هو أحد ملوك العرب، ودخلت هذه الجيوش إلى فلسطين وأخذت عدة قرارات:

- **القـــرار الأول:** حلّ جيش الإنقاذ الذي تكوَّن قبل ذلك.
- **القرار الثاني:** حلّ منظمة الجهاد المقدَّس التي كان يقودها قبل استشهاده عبد القادر الحسيني، ونزع السلاح من كلّ الفلسطينيين!! ليبقى السلاح مع جهة رسمية واحدة تقاتل في فلسطين.
- **القرار الثالث:** حرب اليهود، وبالفعل حقّقوا بعض الانتصارات، وهنا علامة استفهام، فكلّ أولئك من الموالين لإنجلترا، فكيف يحققون الانتصارات؟! إلا أننا بعد ذلك اكتشفنا أنّ كلّ تلك الانتصارات في الأماكن المقسومة فقط للعرب في قرار التقسيم، أي أنّ الجيوش العربية لم تدخل إلى فلسطين إلا لتقرّ قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة، الذي أعلنوا رفضهم له قبل ذلك في تمثيلية مكشوفة مع إنجلترا، حتى أنّ الجيش العراقي عندما دخل إلى مرج ابن عامر وهي منطقة مقسومة لليهود في قرار التقسيم، أصدرت الجامعة العربية قراراً أن يسحب الجيش العراقي قواته من مرج ابن عامر لتُضَمَّ بعد ذلك إلى اليهود، وفي 17/5 سقطت عكا في أيدي اليهود، ولم يزل الإخوان المسلمون محاصرين للقدس، ومن ثمّ اتجهت الجيوش العربية إلى القدس لتتسلم من الإخوان مفاتيح القضية، وفي 11/6/1948م أعلنت الأمم المتحدة طلب الهدنة بين اليهود والفلسطينيين، ووافقت الجامعة العربية على الهدنة رغم وجود 100 ألف يهودي محاصرين داخل القدس، وفي أثناء هذه الهدنة بردت القوة العربية وتحركت القوة اليهودية من كلّ مكان،



وجمعت أكثر من 75 مركز تدريب في أوروبا، وأرسلت إنجلترا عدداً ضخماً من الطائرات، واستقدمت طيارين مدرّبين، وكان اليهود يدفعون للطيار الواحد خمسة آلاف جنيه استرليني شهرياً، يقول قنصل أمريكا في القدس: إنّ قرار الهدنة هو وحده الذي خلَّص اليهود وحالَ دون سحقهم، وفي 9/7 استؤنفت الحرب من جديد، وجاء اليهود بقوات ضخمة، وهجموا هجوماً كاسحاً على القدس، واستطاعوا تحرير المائة ألف يهودي من الحصار، وسُلِّمت القدس إلى اليهود.

في 1948/7/15م أي بعد ستة أيام من استئناف القتال، صدر قرار هدنة جديد من الأمم المتحدة، ومن جديد وافقت عليه جامعة الدول العربية، فعاد اليهود إلى امتلاك زمام الموقف، ثم أرسلت الأمم المتحدة لجنة للتحقيق في الأمر، وكان على رأس هذه اللجنة فولك برنادوت سكرتير الأمم المتحدة في ذلك الوقت.



وصف فولك برنادوت الواقع بالوصف الصحيح، حيث قال: إنّ اليهود احتلوا بقواتهم العسكرية 78% من مساحة فلسطين، مع أنّ المقسوم لهم 56% ، والفلسطينيين في ذلك الوقت كان عددهم يصل إلى 68% من السكان في فلسطين، واليهود يمثلون 32٪ فقط، ومع ذلك لم يكتفي اليهود بهذا التقسيم بل أخذوا 78% من مساحة الأرض، كما كتب برنادوت في تقريره أنّ اليهود ارتكبوا 34 مجزرة بشرية في فلسطين،

وقاموا بهذه المجازر ضدّ النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم من غير المقاتلين، وقال أيضاً: هُدمت في فلسطين دون داع 478 قرية من أصل 585، ورفع برنادوت تقريره إلى الأمم المتحدة في 16 سبتمبر 1948م، وفي 17 سبتمبر اغتيل برنادوت على سلالم الأمم المتحدة على يد اليهود لأنّه أعلن الواقع الذي حدث في فلسطين.

حدثت عدّة اختراقات للهدنة الموهومة، ففي 22 أكتوبر 1948م أخذ اليهود بئر السبع من القوات المصرية، ولم نسمع أيّ تعليق من العرب أو الجامعة العربية، وفي 5 نوفمبر أخِذت المجدل وعسقلان وكلّ صحراء النّقب من القوات المصرية، ولم يعترض أحد من العرب، ورُحِّل الإخوان المسلمون من فلسطين إلى بلادهم، وعند وصولهم إلى بلدانهم تقوم قوات الأمن باعتقالهم وترسلهم إلى السجون المصرية والسورية والأردنية، وتمّ ترحيل 770 ألف فلسطيني إلى الدول العربية المختلفة، ثم اغتيل الإمام حسن البنا الذي حرَّك قوات الإخوان، وتمّ تمهيد الجوّ لإقامة هدنة دائمة بين العرب واليهود، في 24 فبراير 1949م عرض اليهود اتفاقية هدنة دائمة مع مصر، وفي 23 مارس عقدوا اتفاقية مع لبنان، وفي 4 إبريل عقدوا اتفاقية مع الأردن، ورفضت سوريا أن تعقد اتفاقية هدنة دائمة، فدُبِّر في سوريا انقلاب وقام بالانقلاب حسني الزعيم في 1 إبريل 1949م، وكانت أولى أعمال حسني الزعيم بعد توليه الحكم في سوريا أن عقد هدنة دائمة مع اليهود.

لم يبقَ من أرض فلسطين سوى 22%، فقُسِّمت بين مصر والأردن، سيطرت مصر على قطاع غزة، وسيطرت الأردن على الضفة الغربية، ولم نرَ في كلّ هذه المفاوضات واتفاقيات السلام فلسطينيّاً واحداً يفاوض على بيع قضية فلسطين.

وبعد عرض هذا التاريخ عرفنا من الذي باع ومن الذي فرَّط في عرضه وأرضه ووطنه ودينه، فقصة فلسطين في نهايتها قصة مؤسفة ومؤلمة، وبعد تلك الاتفاقيات قبلت هيئة الأمم بإسرائيل كعضو فيها، فتوالت الاعترافات من دول العالم بالكيان الصهيوني الجديد، ولكنّ هذا القيام لم يكن نهاية الأمر، بل قامت في فلسطين بعد ذلك عدّة حركات لتحرير فلسطين، نسأل الله عز وجل أن يتمّ لها التحرير.

وقفات حول تاريخ فلسطين

كان هذا الوضع طبيعياً بعد ما آلت إليه الأمة الإسلامية، فهذه النتيجة غير مستغربة، بل إنّ المستغرب أنّ يظلّ المسلمون في قوتهم مع بُعدهم عن أصول قوتهم. بعد أن تكلمنا عن قصة فلسطين منذ ظهور الإنسان فيها إلى زماننا هذا لا بدّ أن يكون لنا وقفة، بل وقفات:

الوقفة الأولى: لعلّنا أدركنا الآن قيمة دراسة التاريخ، ولعلّنا فهمنا أموراً كثيرة جدّاً بخصوص قضية فلسطين، وبخصوص قضايا العالم الإسلامي بشكل عام، بل وبخصوص قضايا العالم الإنساني، فقد مررنا على تاريخ الفرس والرومان والمسلمين وغير المسلمين والنصارى واليهود، ولعلّنا أدركنا الآن لماذا جعل الله عزّ وجل ثلث القرآن الكريم قصصاً؛ أي أنّ ثلث القرآن الكريم تاريخ، ولن نستطيع أبداً أن نتحرك حركة إيجابية في المستقبل إلا بدراسة التاريخ، وبدراسة التاريخ يستحيل لعاقل أن يقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها أجداده قبل ذلك، ومن المستحيل لعاقل أن يعلم أنّ هذا الطريق سيؤدي إلى كوارث وإلى ضياع للبلاد والعباد، ثم يسير في الطريق نفسه، ومن المستحيل لمن قرأ سيرة المجاهدين والمجدّدين والمصلحين من تاريخ الأمة، وعلم أسباب النصر أن يتخلى عنها، فدراسة التاريخ الإسلامي بصفة خاصة، والإنساني بصفة عامة، تُعدُّ من أهم الأمور، ولعلّ هذا الأمر من أهم الدروس التي خرجنا بها.

رأينا في ذلك التسلسل الزمني قصة اليهود في فلسطين، وعرفنا الكثير من الخبايا التي كانت خافية على الكثير منا، وعرفنا هل فلسطين إسلامية؟ أم فلسطين عربية؟ ولماذا نحن نقول إنّ فلسطين إسلامية، وعرفنا الفرق بين المسجد الأقصى وقبّة الصخرة، وعرفنا هل باع الفلسطينيون أرضهم؟ أم من الذي باع البلاد والعباد في هذه الأرض المباركة؟

أيها الإخوة! لقد فتحنا صفحات قليلة جداً جداً، واختصرنا الأمر اختصاراً، فنحن تكلمنا عن عشرة آلاف سنة أو أكثر من تاريخ فلسطين، نحتاج أن نُفرد صفحات كثيرة بكتب منفصلة لتفصيل تاريخ هذه الأرض المباركة، فعلى سبيل المثال نحن بحاجة إلى تفصيل قصة الأنبياء الذين عاشوا في أرض فلسطين، وكذلك قصة الفتح الإسلامي لأرض فلسطين لأخذ الكثير من المواعظ والعِبَر والدروس، بالإضافة إلى قصة الحروب الصليبية، فهي بحاجة إلى دراسة واعية متأنّية دقيقة عميقة، لأنّ القضية تتكرّر من جديد في أرض فلسطين، وقصة الدولة العثمانية العملاقة التي استمرت 600 سنة وهي تدافع عن قضية فلسطين، ولم تسقط فلسطين في أيدي اليهود إلا بسقوط الخلافة العثمانية، وكذلك قصة التاريخ الحديث، فنحن بحاجة إلى إفراد عدد هائل من الكتب للحديث عنه، لأنه حافل بالأحداث والدروس والعِبَر، وكذلك نحتاج لمعرفة تاريخ ما بعد سنة 1948م، فهناك الكثير من الناس الذين يتساءلون عمّا حصل بعد إنشاء «دولة إسرائيل» وردّ فعل الفلسطينيين وردّ فعل العالم العربي.

الوقفة الأولى : أهمية دراسة التاريخ.

الوقفة الثانية : بدراسة هذا التاريخ أين حقّ اليهود في فلسطين؟ فلو كان الحقّ بالأسبقية فهم ليسوا أسبق الناس، فقد كان قبلهم الفينيقيون والكنعانيون واليبوسيون، ولو كان الأمر بالأطول حكماً فليسوا أطول حكماً، فالقضية كلّها أنهم حكموا 418 سنة، منها 80 سنة إيمانية و338 سنة إفسادية، ولو كان الأمر لمجرد المكوث، فكلّ دول العالم مكثت في فلسطين،



فالفرس والرومان والإغريق والمسلمين والنصارى واليهود وغيرهم، ولو كان الأمر بطول المدّة فالمسلمون بقوا في فلسطين فترة أطول من فترة اليهود، ولو كان الأمر بوعد التوراة المحرَّفة فما الذي وعدت به التوراة المحرَّفة، وعدت أن تُعطى هذه البلاد للصالحين، وأين الصالحون من أبناء إسرائيل الآن؟ أين الصالحون من هؤلاء المفسدين الذين لم يُفسدوا في فلسطين فقط، بل أفسدوا في العالم أجمع، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وحتى في التوراة لم تُقسَم إلا للمتقين، وأين المتّقون فيهم؟! وإن قالوا: هذه عقيدتنا، فنحن كمسلمين نقول: هذه عقيدتنا، فمن عقيدتنا أنّ هذه البلاد إسلامية منذ أن دخلها الإسلام، وستظل كذلك بإذن الله إلى يوم القيامة.

الوقفة الثالثة: أنّ فلسطين أرض مباركة؛ أي أنها أرض قيّمة جداً، وضع الله فيها من المقومات ما لا يُحصى وما لم يتكرر في معظم البلاد الإسلامية، ولهذا أنا أقول إنّ فلسطين هدية للمؤمنين، فلن يأخذها أناس بعيدون عن شرع الله، راجعوا جيوش المسلمين الذين دخلوا فلسطين لتتأكّدوا، راجعوا جيش أبي عبيدة بن الجراح ومن ورائه عمر بن الخطاب T، وجيش عمرو بن العاص الذي يضمّ الصحابة والتابعين، وجيش صلاح الدين الأيوبي، وجيش نورالدين محمود، وجيش قطز والظاهر بيبرس، وسيف الدين قلاوون والأشرف خليل، راجعوا جيوش هؤلاء حتى تتعرفوا على صفات القوم الذين يحررون أرض فلسطين، وأنا أعتبر فلسطين مقياساً لإيمان الأمة، فإن كان عند الأمة حميّة لقضيّة فلسطي،ن فهي ستكون لكلّ القضايا الإسلامية في حميّة، وإن فترت حميّة المسلمين لقضية فلسطين، فستكون عزيمة المسلمين أشدّ فتوراً في كلّ القضايا الإسلامية، فهي مقياس إيماني، فإذا كانت هذه الأرض مسرى الرسول ﷺ وفيها أولى القبلتين، وفيها الأرض التي عاش عليها الأنبياء، ثم لا يتحرك لها المسلمون، فكيف سيتحركون لغيرها من البلاد؟!

الوقفة الرابعة: أنّ فلسطين قضية عقائدية؛ أي قضية كلّ مسلم بصرف النظر عن عِرقه وجنسه ولونه وغناه وفقره وبُعده وقربه من الأرض المباركة، فهي ليست قضية الفلسطينيين، وهي ليست قضية محلية، فيا ترى مَن الذي عَمِل على مدار التاريخ على تحرير فلسطين؟! فالعرب الصحابة ﷺ لم يكونوا فلسطينيين، ثم انظر بعد ذلك إلى كلّ من حمل الراية، فنورالدين محمود أصله تركي، وليس فلسطينياً بل وليس عربياً بالأساس، وصلاح الدين الأيوبي كردي، وقطز مملوكي من أصل تركي، وكذلك السلطان قلاوون والأشرف خليل من المماليك الأتراك، والسلطان عبدالحميد الثاني أشهر المتحمّسين لقضية فلسطين في العصر الحديث كان عثمانياً تركياً ولم يكن فلسطينياً، حتى في العصر الحديث فما هي ألمع الأسماء في تاريخ فلسطين؟ فقد قاد حركة الجهاد في البداية عزّ الدين القسام وهو سوريّ وليس فلسطينياً، والذي حرَّك الجيوش بعد ذلك لنجدة الفلسطينيين بعد قرار التقسيم كان حسن البنا وهو مصريّ وليس فلسطينياً، إذاً قضية فلسطين ليست قضية محليّة بل هي قضية عقائدية تخصّ كلّ المسلمين من إندونسيا إلى المغرب، بل وتخصّ المسلمين الذين يعيشون في البلاد غير الإسلامية.

الوقفة الخامسة: أنّ هذا البُعد العقائدي عند كلّ من تحرَّك إلى فلسطين، أي ليس فقط عند المسلمين، فالمسلمون تحركوا بعقيدة منذ أوائل الأيام، فمنذ أيام أبي عبيدة عامر بن الجراح والمسلمون يتحركون بعقيدة، وعندما سأل البطريرك أبا عبيدة بن الجراح: ما الذي جاء بكم إلى هذه البلاد؟

وماذا تريدون؟ هل تريدون أخذ القدس؟ ردَّ عليه: القدس بلدة شريفة ومنها عُرج بنبيِّنا إلى السماء، وقد كان قاب قوسين أو أدنى، وهي معبد الأنبياء وقبورهم فيها، ونحن أحقّ منكم بها. فهو ذهب إليها بعقيدة، ويريد أن يحررها من دنس المشركين والوثنيين والذين يشركون مع الله إلهاً آخر ليقيم فيها شرع الله عز وجل، حتى غير المسلمين ذهبوا إليها بعقيدة، ومع أنها عقيدة مزورة ومحرفة إلا أنها عقيدة، فنجد أنّ الصليبيين عندما ذهبوا إليها رفعوا شعار الصليب، وقالوا نحن ننصر المسيح وننصر الكنيسة والنصارى هناك، ذهبوا بهذه الروح الدينية، وعندما تحرك إليها اليهود ذهبوا بعقيدة، ولم يلغوا أبداً العقيدة من ملفاتهم ومن كلماتهم وخطبهم، بل إنّ ثيودور هرتزل والذي كان علمانياً ولم يكن يؤمن باليهودية إيماناً كاملاً، كان يريد فقط وطناً قوميّاً يجمع فيه اليهود ويصبح لهم قوة في العالم، فاضطرَّ اضطراراً أن يذهب إلى كنيس (معبد يهودي) ليرى الجميع أنه متديّن، لأنّه يعلم أنّ الجميع لن يتحركوا إلا إذا تحركوا بعقيدة، حتى إنّ الجنرال اللنبي قائد القوات الإنجليزية عندما دخل في سنة 1917م إلى فلسطين قال: الآن انتهت الحروب الصليبية. مع أنّ كلّ الجيوش الحديثة جيوش علمانية، وأنا أوجه هذا الكلام إلى كلّ العلمانيين وإلى كلّ من له راية غير راية العالم الإسلامي، وأقول لهم : كلّ بلاد العالم تتحرك نحو فلسطين بعقيدة، فلن تُنصر فلسطين إلا بعقيدة خالصة.

الوقفة السادسة : أنّ فلسطين أو غيرها من بلاد المسلمين لا تسقط بقوة الأعداء أبداً، إنما تسقط بضعف المسلمين، وراجعوا الفترات التي احتُلَّت فيها فلسطين، وراجعوا الفترة التي دخلت فيها الجيوش العبيدية (المسماة الفاطمية) لأرض فلسطين، وراجعوا الفترة التي دخلت فيها الجيوش الصليبية لأرض فلسطين، وراجعوا الفترة التي دخلت فيها الجيوش الإنجليزية إلى فلسطين، وراجعوا الفترة التي دخلت فيها الجيوش اليهودية إلى فلسطين، فسوف نجد بُعداً كاملاً عن الشريعة، وفي وضع لا يمكن أن يُنصر فيه المسلمون أبداً، وهذا يؤكد أنّ معادلة الإسلام في النصر واضحة، فالناصر هو ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وإذا كنا مفرّطين ومبتعدين عن دين الله فكيف ينصرنا ربنا سبحانه وتعالى؟! فوالله لتصبح فتنة في الأرض إن نُصر المسلمون وهم مبتعدون عن دينهم، لأنّ هذا سيؤدي إلى ضياع الدِّين، وضياع المعاني والقيم عند عموم الناس، ولذلك حفظ الله لهذه الأمة أنّه قسم لها أن لا ينصرها إلا إذا ارتبطت به، وإذا ابتعدت عنه استبدل هذا الجيل وأتى بجيل آخر يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. فأخطر الأمراض البُعد عن الشريعة، ومن الأمراض الكبرى التي أصابت المسلمين والتي كانت سبباً في سقوط فلسطين مرة ثانية وثالثة في تاريخها الطويل مرض الفُرقة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

والآيات في هذا المجال أكثر من أن تُحصى.

كذلك من الأمراض الخطيرة عدم الأخذ بالأسباب، مثل عدم أخذ المسلمين بأسباب العلم، وعدم وجود سلاح جيد، وعدم وجود حشد وتدريب جيد للجيوش في الفترات التي سقطت فيها، وعلى خلاف ذلك في الفترات التي انتصرت فيها رأينا إعداداً على أعلى مستوى، حتى وإن كانت الإمكانيات ضعيفة، ومن العلامات الخطيرة التي رأيناها تُسقط فلسطين في أيدي الأعداء، توسيد الأمر لغير أهله، أن تُعطى القيادة في العالم الإسلامي؛ سواء القيادة السياسية أو العسكرية أو العلمية أو الدينية لمن ليس له قدرات وكفاءات على إدارة مثل هذا المكان، أو لمن يخون الأمانة، فهذا والله تضييع كبير جدّاً للأمانة، وهو من علامات قيام الساعة كما قال رسولنا ﷺ

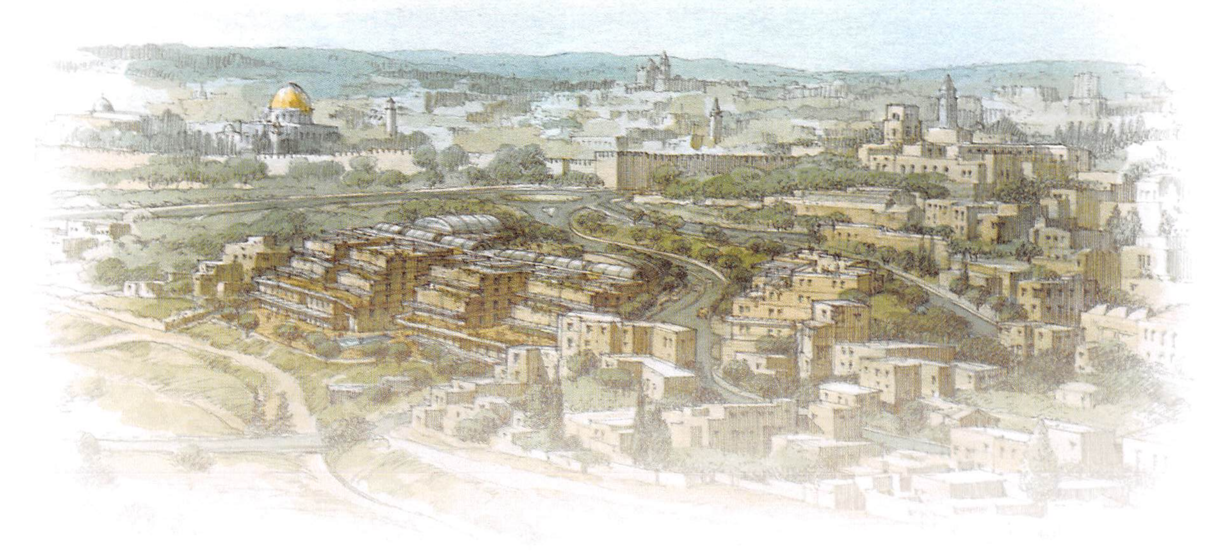
«إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِه فَانْتَظِر السَّاعَةَ» (رواه البخاري)، وراجعوا أحداث سنة 1948م لتروا الزعامات العربية في ذلك الوقت، لتعرفوا لماذا أُنشئت دولة اليهود على أرض فلسطين الحبيبة.

الوقفة السابعة: زرع اليهود في داخل فلسطين، إن كنا نقول كان بضعف المسلمين، فليس هناك أيّ معنى لإنكار جهد الأعداء لزرع إسرائيل داخل فلسطين، بمعنى أنّ زرع إسرائيل في فلسطين كانت مؤامرة عالمية كبرى، وليس معنى أننا ضعفاء أنّ الآخرين لم يخططوا، بل إنّنا نقرّ ونعترف أنّ اليهود بذلوا جهوداً ضخمة جدّاً لإنشاء وطن لهم في فلسطين، وهذا الأمر سابق لثيودور هرتزل، وتذكروا ما قلناه عن يهود الدونمة والتجهيزات الكبيرة والتحالفات مع الدول المختلفة، وتذكروا إنشاء بنك خاص، والأموال الغزيرة -رغم بخل اليهود الشديد- التي نزلت على اليهود حتى يقيموا لهم دولة على أرض فلسطين، الجامعة العربية جمعت من خمس دول مليون جنيه، في مقابل أنّ يهود أمريكا وحدهم دفعوا 250 مليون دولار، وساعد في هذا الجهد الإنجليز وفرنسا وروسيا، بالإضافة إلى العملاء الكُثر الموجودون في داخل العالم العربي والإسلامي، وكذلك الموجودون في تركيا في حزب الاتحاد والترقي، فكانت مؤامرة عالمية على أعلى مستوى، بأموال ضخمة وإعلام كبير ومعاناة كبيرة للمهاجرين، وهذه نقطة لا بدّ من تسليط الضوء عليها،

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

فاليهود الذين هاجروا من روسيا أو من أوروبا إلى فلسطين، لم يكونوا في جوّ سعيد وظروف هنيئة، وكان بإمكانهم الهجرة إلى أمريكا أو لندن أو باريس، فما الذي دفعهم للهجرة إلى هذا المكان! إنها العقيدة، عقيدة محرَّفة، فأين عقيدة المسلمين الصحيحة التي ينبغي أن تحركهم لتحرير هذا البلد الطاهر؟!

الوقفة الثامنة: لعلّنا أدركنا الآن قيمة الخلافة الإسلامية، قيمة أن يكون هناك قيادة تجمع المسلمين كلّهم مع بعضهم، قيمة السلطان عبدالحميد الثاني الذي كان يريد تجميع المسلمين من جديد، وقد كان لديه مشروع اسمه «الجامعة الإسلامية»، ولكن عُوِّق هذا المشروع بفكرة القومية هنا وهناك، ولما سقطت الخلافة العثمانية التي كانت تجمع المسلمين قامت دولة اليهود في فلسطين، وهذه هي قيمة الخلافة، وقيمة تجميع المسلمين حول قيادة واحدة، ولا أقول أنّ الخلافة العثمانية في أواخر أيامها كانت قوية أو أنها تستحق أن تستمر، إنما أقول إنها كانت رمزاً يجب أن يتجمع حوله المسلمون، وأقول إنّ القيادة الضعيفة يجب أن تُقوَّى، ولكنّ الخلافة التي ماتت من الصعب جدّاً أن تجمع المسلمين



من جديد لأمر قد يعتبره الكثيرون وهماً من الأوهام، وهذا أمر عشناه لفترات طويلة ولم يكن وهماً، بل كان تأييداً ونصرة من ربّ العالمين للمسلمين الذين توحدوا في كيان واحد، سواء أكان هذا الكيان أمويّاً لفترة أو عباسيّاً لفترة، أو أيوبيّاً أو زنكيّاً أو عثمانيّاً، ولا بدّ للمسلمين من إعادة تكوين كيان يجمعهم من جديد، وإلا ستمرّ بنا الأزمات.



الوقفة التاسعة: أنّ الأمل أبداً لا يموت في إعادة تحرير البلاد الإسلامية، فقد رأينا أنّ القدس احتُلت لـ 92 سنة متصلة من الصليبيين وفي النهاية تحرّرت، وبعض المدن الفلسطينية احتُلت لـ 200 سنة متصلة من الصليبيين وتحرّرت، وقصة الحروب الصليبية استمرت لـ 200 سنة، فما الذي حصل بعد ذلك؟ خرجت الجيوش الصليبية بجهاد من هذا وذاك، من أكثر من عِرق ومن أكثر من جنسية، لكنّ الكلّ يجمعهم عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولنتذكر دائماً حديث الحبيب ﷺ :

«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» (رواه مسلم)

، فهذه والله أمة لن تموت إلى يوم القيامة، وهذا وعد ربنا سبحانه وتعالى، هذه الأمة تحمل الرسالة الخاتمة للناس أجمعين، والدّين الخاتم والرسول الخاتم، ولذلك فناء هذه الأمة يعتبر فناء العالم وقيام الساعة، وستبقى هذه الأمة منتصرة، يقول الله تعالى:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

الوقفة العاشرة والأخيرة: وهي أهم وقفة في كلّ هذه الوقفات: **ماذا نحن فاعلون** بعد أن سمعنا كلّ هذه القصص الطويلة، وتكلمنا فيها عن بعض التفصيلات الدقيقة، والتي هي مجرد قشور وصفحات ولكنّ التفصيلات أعمق وأعمق وأعمق.

فيا ترى هل كدّسنا المعلومات وانتهى الأمر عند ذلك؟ ويا ترى هل عرفنا بعض الأمور التي لم نكن نعرفها وانتهى الأمر عند ذلك؟ أيها الإخوة! لا بدّ من التحرك بهذه المعلومات، فنحن نتكلم عن قضية فلسطين، ونتحدث عن الجهاد بالمال والدعاء، أو مقاطعة البضائع اليهودية وغيرها مما يساهم في تنشئة واستقرار الكيان الصهيوني داخل فلسطين، ولكن أنا أعتبر أنّ أهم الأدوار في هذه القضية أمران في غاية الأهمية:

- **الدور الأول:** نشر هذه المعاني التي تكلمنا عنها، وتصحيح المفاهيم عند المسلمين؛ فالكثير من المسلمين لديهم خطأ في المفاهيم، بل وأيضاً عند الملتزمين من المسلمين، وبالتالي يجب التحرك في المحافل المختلفة لتحقيق ذلك.
- **الدور الثاني:** التّحدث مع الأسرة والأولاد، مع المسلمين وغير المسلمين، والكتابة في المجلات والصحف والفضائيات، باللغة العربية واللغات الأخرى، حتى يعرف الناس الحقيقة، ويميزوا الحقّ، ويعرفوا الصواب من الكذب.

وتذكروا أنّ لكلّ مسلم دور في هذه القضية، فالقضية ليست قضية حكام أو علماء أو اقتصاديين أو مختصين فقط.

وختاماً أيها الإخوة أقول لكلّ من يعمل في قضية فلسطين: هنيئاً لكم، أنتم حزتم الشرف الأسمى، حزتم الجائزة الكبرى، حزتم قضية الدفاع والجهاد عن الأرض المباركة التي أُسري بالرسول ﷺ إليها، وعُرجَ به إلى السماء منها، وأمَّ فيها الأنبياء جميعاً، الأرض التي توجَّه المسلمون إليها بالصلاة لعدّة سنوات، ورَوت دماءُ الصحابة والتابعين والمجاهدين من أبناء هذه الأمة أرضها، فهنيئاً لكم.

أسأل الله عز وجل أن يحشرنا مع المجاهدين في سبيله، في هذه القضية وفي القضايا الأخرى، وأسأله سبحانه وتعالى أن يبصّرنا بالحقائق، وأن يهدينا إلى الصواب، وأن يجعلنا من جنده المخلَصين، وأن يرزقنا صلاةً في المسجد الأقصى قبل الممات، وتحريراً كاملاً لفلسطين ولكلّ بلاد المسلمين، إنّه على ذلك قدير... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.




صدر عن مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع



صناعة الطفل الواثق




فن التعامل مع الأطفال

ألعاب تتحدى الملل
ألعاب السيارة والرحلات

قصة فلسطين
خط الزمن

منهج التائبين

زنزانة

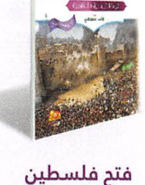


الحب الذكي




فن التعامل مع المراهقين

تنمية مهارات الطفل
تحفيز التفكير وزيادة الذكاء



فتح فلسطين



نداء الله للمؤمنين

انا واخواتها




همسات في أذن الزوجة



تغيير سلوك الطفل



التربية الناجحة
أطفال بلا مشكلات

رجال حول
بيت المقدس

أهل القرآن

لو كنت طيرا




همسات في أذن الزوج



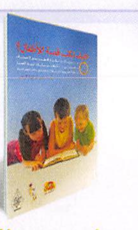
التعليم عن طريق اللعب



تمارين الذكاء
تمارين لزيادة ذكاء طفلك



كيف تعد وتقدم
برنامجاً تلفزيونيا



كيف تكتب قصة للأطفال

بناتي



قواعد تميز الطفل
٩٩ قاعدة تساعدك في تربية طفلك



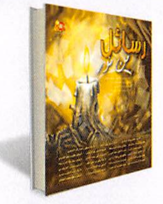
أفكار وتجارب
في تربية الأبناء (أخلى عيله)



التربية بالتدريب



ابنتي.. تفاحة قلبي



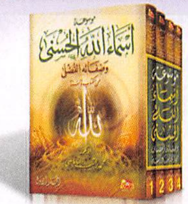
رسائل من نور



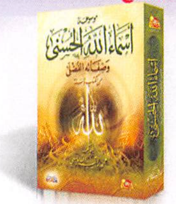
مع الله



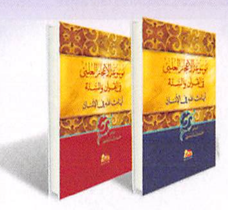
صدر عن مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع



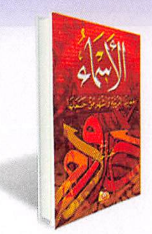
موسوعة
أسماء الله الحسنى
وصفاته الفضلى (4 مجلدات)



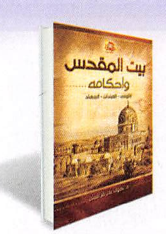
موسوعة
أسماء الله الحسنى
مجلد واحد



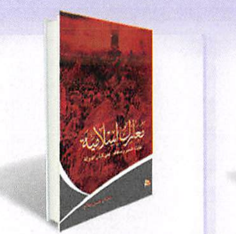
موسوعة
الاعجاز العلمي (2 مجلد)



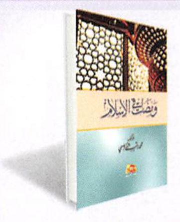
الأسماء العربية



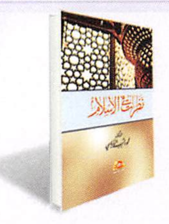
بيت المقدس وأحكامه



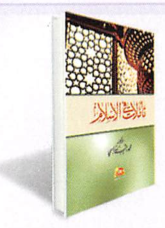
معارك إسلامية
حققت النصر
وحافظت على كيان الدولة



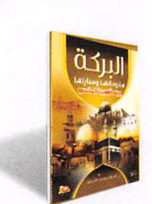
نظرات في الإسلام



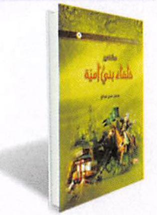
ومضات في الإسلام



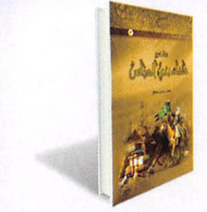
تأملات في الإسلام



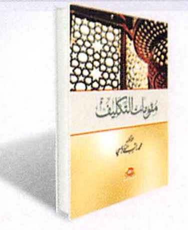
البركة



مشاهير خلفاء بني أمية



مشاهير خلفاء بني العباس



مقومات التكليف



الهجرة



الله أكبر - رحلة الحج



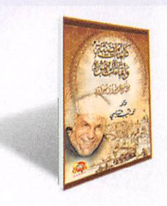
سلسلة مقتطفات 1-5 + طريقنا + زهور



الإسراء والمعراج



سماحة الإسلام



لقاءات مع الشعراوي



بطاقة أذكار الصباح والمساء
المأثورات



كتيب المأثورات
جيب 12x8
كف 17x12